فاطمة المرنيسي



حكايات طفولة في الحريم

ترجمة: ميساء سرّي

مراجعة: محمّد الميرأحمد





أحلام النساء الحريم

* فاطمة المرنيسي
* أحلام النساء الحريم
* ترجمة ميساء سرّي

* الطبعة الأولى 1997
* الناشر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 3321053
* الإشراف الفني : د. مجد حيدر
* لوحة الغلاف : د. أحمد معلّا
* التوزيع : دار ورد ☎ 3321053

فاطمة المرنيسى

أحلام النساء الحريم

حكايات طفولة في الحريم

ترجمة: ميساء سرّي

مراجعة وتقديم: محمد المير أحمد



عنوان الكتاب الأصلي:

Dreams of trespass

Tales of a harem girlhood

ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان:

Reves de femmes

Une enfance au harem

تقديم

راودني الكثير من التردّد قبل الشروع في كتابة هذه المقدّمة، وهذا ناشئٌ عن أمرين: أوّلهما خشيتي المقدّمات وتوجُّسي قَلِقاً من حيدها عن الوظيفة المنوطة بها تجاه القارئ الكريم، جرّاء تعرّضها المستمّر للانزلاق في إحدى مزلّتين أو فيهما معاً، المزلّة الأولى ضربها الحصار على القارئ ومصادرتها رأيه في النتاج الذي كُرّس التقديم لأجله؛ فيتمنّع لتمتنعَ قراءته الفاعلة النقديّة (وأقصد النقد الموضوعي هنا لا النقد بمفهومه السائد)؛ وبالتالي ينجرف بعيداً عمّا يؤازره لمباشرة القراءة الخلّاقة، فيغدو متلقّياً سلبيّاً لاحول له ولاقوّة، قبوله قبول مُستَلَب، ورفضه رفض متعصّب، يأخذ ولايعطي، أو لايأخذ ولايعطي. المزلّة الثانية هي حاصل الأولى، فالقارئ أضحى غير مكترثٍ بالمقدّمات على وجه العموم؛ إثر الصورة التي تشكّلت لديه عنها، فتعوّد على أن يمرّ بها مرور الكرام،وفي حالٍ أسوأ، يجاوزها دون أن يعيرها أدنى اهتمامٍ؛ لأنّه مقتنعٌ ـ وهذا ليس ذنبه ـ بلاجدواها ولانفعها.

الأمر الثاني الذي جعلني أتردّد هو الكتاب الذي أقدّم له، فهذا الكتاب الذي نضعه بين يديّ القارئ الكريم كتابٌ يُنقل من لغةٍ إلى أخرى أوّلاً، وعليه فالمقدّمة لها خصوصيّتها في هذا الموقع. وثانياً هو جنسٌ أدبيٌّ يندرج تحت الرواية، ولكن في مقاربةٍ تنحو إلى سرد الحكايات؛ وكما هو معروف، لم تجر العادة على التقديم لمؤلّفات مشابهة إلاّ في حالاتٍ استثنائيّةٍ تقتضي ذلك.

لكن باعتبار كلّ ما أوردته، ما الذي حملني على القيام بكتابة هذه المقدمة؟ في الواقع، وأصدقكم القول، هناك سببان يشفعان لي - أمام نفسي بالدرجة الأولى - للقيام بذلك: تورّطي فيه مما اضطرني للعمل ومترجمته على مدار أكثر من ثمانية أشهر، ومالي من مناص!. ثمّ قناعتي بأنّ هذا الكتاب «أحلام النساء الحريم» بحدّ ذاته يبرّر هذه الورطة؛ لما ينطوي عليه من حساسيّة وخصوصيّة من حيث النصّ الأصلي والنصّ المترجم على حدٍّ سواء. وعلى رغم هذين السببين، لن أطيل، وسوف أقْصر المقدّمة على بعض التوضيحات التي أراها ضروريّة.

لأنّ المترجم يتعامل مع نصٍّ ليس ملكاً له، بل ملكاً لكاتب هذا النصّ؛ فإنّه يجب عليه ألّا يفهم ذلك الكاتب والكيفيّة التي يعمل بها فكره وألاّ يكون ملمًّا باللغة التي يترجم منها واللغة التي يترجم إليها وحسب؛ إنّما أيضاً أن يستشرف مرامات الكاتب، ويتشوّف مايريد قوله، وأن يتغلغل سابراً بنية كلٍّ من اللغتين، بمعنى أن يجتاز المساحات الواسعة التي تطوف في أرجائها المضامين الذهنية لكلتا اللغتين، وأن يقيم خطّ التواصل الحواريّ الذي تجري وفقه علائق اللغتين المعنيّتين؛ وهذا مايفرض عليه الاضطلاع بمستوى عالٍ من الفهم لهما وللبُنى الخاصّة بمجتمعاتها. هذا دون أن ننسى أنّه مطالبٌ بثقافةٍ موسوعيّةٍ واختصاصيّةٍ في الآن ذاته، بمعنى أن يمتلك طريقةً شموليّةً في التفكير تنأى عن الطرائق النمطيّة، كما عن الانحباس في كونيّة الاختصاص بمعناه الساذج، وتنفلت للعمل وفق منهجيّةٍ تتأسس على رفد الاختصاص بالمعارف التي أضحى محالاً تجاهلها. وإذ يتعامل المترجم مع نصٍّ ليس ملكاً له، فهذا لايعني تجرّده عن هذا النصّ، بل إنّه يخصّه وعلى نحو مباشر؛ لذلك هو ملزمٌ بالأمانة لهذا النصّ، والأمانة ليست الحرفيّة على الإطلاق، واللاحرفيّة ليست الشططان البتّة، بل هي أوّلاً وآخراً تحقيق غاية النصّ في وصوله إلى القارئ بالصورة المثلى والشكل السليم، وهذا ما يدفع بالمترجم لأن يعلّق ويشرح ويفسّر، فالترجمة في جوهرها تترفّع عن أن تكون نقلاً وكفى. إنّها عمليّة إبداعٍ وخلقٍ وإضافةٍ.

ومجمل هذا الحديث لايطالب المترجم بأن يكون قدّيساً، إذ من الصعب على المترجم أن يبقى على الحياد التامّ، لكن ينبغي له احتياز قدْرٍ من الموضوعيّة ينجّيه من السقوط في مثالب الطغيان على ما يقوله النصّ، وذلك لصالح قراءته الخاصّة بصرف النظر عمّا يروم الكاتب إيصاله.

وفق هذه الرؤية حقّقت ميساء سرّي ترجمتها، وانطلاقاً من هذه القناعة قمنا بإضافة الشروحات والحواشي التي فرضتها طبيعة الكتاب الذي نقدّمه للقارئ الكريم.

«أحلام النساء الحريم» لفاطمة المرنيسي (التي عُرفت عبر مجموعة مؤلّفاتٍ متفوّقةٍ في مجال بحث قضية المرأة ودراستها) كتابٌ لتجربةٍ جديدةٍ مثيرةٍ ما عهدنا لها مثيلاً عند الكاتبة المرنيسي. تجربةٌ أدبيّةٌ وقّعتها صاحبتها باللغة الإنكليزية، وتُرجم الكتاب إلى لغات مختلفة، ومنها الفرنسيّة والتي صادقت الكاتبة عليها، والتي تمّت الترجمة إلى العربية عنها لوضعها بين يديّ القارئ العربي.

تعالج المرنيسي في روايتها عوالم النساء المغربيّات في حقبة الأربعينات، وذلك عبر سلسلة من المشاهد المتداخلة فيما بينها، والممزوجة بالمخزون الثقافي للكاتبة، والمُخْرَجَة في صورة حكايات تسردها طفلة في التاسعة من عمرها، يُفترض بها أن تكون فاطمة المرنيسي.

ينطوي العمل على ابتكار من نوع خاص يتمثّل في خلق جنس أدبيّ متمايز من حيث التصنيف، فلا هو رواية ولا هو سيرة ذاتية، إنّه الاثنتان معاً ممزوجتين في قالبٍ حكاياتيٍّ متخيَّلٍ ينبني في الأساس على مجموعة من القضايا والمشكلات، لطالما حملتها الكاتبة على عاتقها. فالكاتبة تمارس نوعاً من الاختزال والتكثيف لمجمل دراساتها وبحوثها في حكاية أُسِّست شخوصها على نماذج مختلفة تعني الكثير للكاتبة، نماذج متنوّعة تنصهر فيما بينها عبر دمجٍ موفّقٍ بين شخصيّاتٍ مستنبطةٍ من الواقع، وأخرى متخيَّلة لاتخْلو من بعض الاستعارات من الحياة التي عاشتها الكاتبة، وليس على المستوى اليوميّ بالضرورة، إنّما على المستوى التخييليّ

والفكري بآنٍ معاً. فقاسم أمين كما الغزالي حاضرٌ في «أحلام النساء الحريم» مثلما هو حاضرٌ في «ماوراء الحجاب»، والجدّة ياسمينة محوريّة الموقع في «أحلام النساء الحريم» مثلما هي تطلّ في لحظةٍ ما عبر «الحريم السياسي».

أنّ هذا الكتاب كنتاجٍ موجّهٍ إلى القارئ الغربي بوجه خاص والأجنبي عموماً، يشكلّ محاولةً فذّةً تقوم بها الكاتبة لإطلاق المحلّية (المغربية أوّلاً والعربية ثانياً) إلى فضاء العالمية، وهنا لابد لي من الإشارة إلى حرص الكاتبة على كتابةِ مجموعة من الألفاظ والعبارات على نحو ماتلفظ بالعربية (المَحليّة المغربيّة و / أو الفصحى)، وهذا ماشكّل أمامنا إحدى العقبات الأساسية في نقل المناخ العام الذي تخلقه الكاتبة في استخداماتها الكثيرة تلك؛ لذلك فقد حرصنا بدورنا على كتابة كلّ هذه المجموعة المذكورة آنفاً على نحو ما تُلفظ، ولاندّعي النجاح المطلق في هذا، إنما حاولنا المقاربة قدر المستطاع إلى اللهجة المغربية وفق معرفتنا بها وحسب الاحتمال الذي رأيناه الأقرب إلى الصحّة.

انطلاقاً من هذا الانتقال بالمحليّة نحو العالميّة والذي ترمي إليه الكاتبة، حاولنا جاهدين وضع القارئ في الإطار العام للتراث المغربي المحلّي، بالاعتماد على إضافة بعض الشروحات التي تخدم غرضنا، وليعذرنا القارئ الكريم إذا اعتبر أنّ جزءاً من هذه الشروحات ليس بذي مبرّرٍ تبعاً لشهرة المادّة المشروحة؛ فنحن قصدنا ذلك عن عمد بغية التعريف ببعض النقاط التي قد تغيب عمّن لايعرف المغرب وخصوصيّته.

تكمن القيمة الجوهرية لكتاب «أحلام النساء الحريم» في سعي الكاتبة لقلب الصورة السائدة لدى القارئ الغربي عن المرأة في العالم الإسلامي، وإعطاء الصورة الحقيقية عنها، بمعنى تحاول الكاتبة أن تشنّ حملتها على الأفكار النمطيّة ونظريّة الطبائع الثابتة للمجتمعات،عبر الغوص في عمق المجتمع الإسلامي (المغربي أنموذجاً) خلال حقبة الأربعينات من القرن العشرين، للكشف عن

ديناميّة هذا المجتمع بعيداً عن المباشرة والتقريرية في الأسلوب.

«أحلام النساء الحريم» تجربةٌ لا تؤثر الدفاع عن المرأة ولاتطمح إلى تحريرها،بقدر ماتسعى إلى الخلاص عبر خلق عقليّة مختلفة ومغايرة لدى الإنسان في مجتمعاتنا،عقلية قادرة على فتح أبواب الأحاريم الذهنية كلها،وعلى مصاريعها...

في الختام لابد لي من الإشارة إلى بعض الإيضاحات الضرورية للقارئ العزيز:

1 ـ الكلمات والعبارات المنضّدة بحرف مائل والموضوعة بين قوسين صغيرين.كُتبت في الأصل على نحو ماتلفظ،وقد أضفنا إليها الشكل وفق الأداء اللفظي الخاص بكلٍّ منها، إلّا في المواقع التي تحتمل اللبس في اللفظ،فقد أشرنا إليها بحاشية.

2 ـ الحواشي التي وضعتها الكاتبة أُلحقت في نهاية الكتاب حسب الأصل تماماً،وقد أُشير إليها برقم وضع بين قوسين.أما الحواشي التي قمنا بوضعها،فقد أشرنا إليها بنجمة أو أكثر بين قوسين (*).

3 ـ الأمثال والآيات رغم ندرتها فقد عدنا إلى أصولها العربية وأوردناها كما هي.أما المقاطع المأخوذة من حكايات ألف ليلة وليلة،فقد ترجمت عن الأصل وقابلناها مع مقابلاتها في نسختين من ألف ليلة وليلة (طبعة بولاق ـ دار صادر) و (طبعة دار العودة). إلّا في بعض المقاطع التي تطابقت مع كلا النسختين، فقد قمنا بنقلها حرفياً، وأشرنا إلى كل ذلك في الحواشي التي وضعناها.

أخيراً، أرجو أن تتحقق لقارئ هذه الرواية المتعة والفائدة،مؤملاً أن تتوالى النتاجات لرفد اتّجاهٍ تنويريٍّ كهذا نحن في أمسّ الحاجة إليه كمحور أساسيٍّ في ثقافتنا العربية المعاصرة.

محمد المير أحمد

1

حدودُ حَريمي

ولدتُ سنةَ 1940 في أحد أحاريم مدينة فاس(*). المدينة المغربيّة التي يعود تاريخ إنشائها إلى القرن التاسع الميلادي؛ والواقعة على بعد خمسة آلاف كيلو مترٍ إلى الغرب من مكّة، وألف كيلو مترٍ إلى الجنوب من مدريد، إحدى عواصم المسيحيين الأشراس. وعلى حدّ ما يقول أبي: تبدأ مشاكلنا مع المسيحيين على

(*) فاس Fès: واحدة من أشهر المدن التاريخيّة الأثريّة في المغرب تقع في منطقة الريف، وتشرف على وادي فاس أحد روافد نهر سِبُو، وتبعد عن الرباط الواقعة على ساحل الأطلسي حوالى 200 كم، وعن تطوان الواقعة على ساحل المتوسط حوالى 275 كم. تعتبر فاس العاصمة العلمية والثقافية والدينية وعاصمة التقاليد في المغرب، وكانت عاصمة المملكة سنة 808 في عهد إدريس الثاني، وفي عهد المرينيّين القرن الثالث عشر، وأيضاً في القرن التاسع عشر تحت حكم مولاي عبد الله. وتتألف المدينة من تزاوج بين فاس البالي وفاس الجديد. القسم الأوّل وهو فاس البالي يتكوّن من عدوتين حيث استقرّت في عام 818 على الضفة الجنوبية مئات من العائلات المسلمة النازحة عن الأندلس هروباً من بطش الجيوش المسيحية؛ وسميّت بـ «عدوة الأندلس». وبعد سبع سنوات حلّت ثلاثمئة عائلة قيراونيّة على الضفة الشمالية، وسميّت بـ «عدوة القيروانيّة».
أما فاس الجديد فقد أنشأها المرينيّون على يد زعيمهم يعقوب بن عبد الحقّ المرينيّ سنة 1276 ، خارج أسوار فاس البالي. حيث وجدوا أن مساحة فاس البالي لن تتّسع لقصورهم التي تليق بعظمتهم؛ فبدؤوا بالتوسع وتشييد الأبنية، وبنوا القصر الملكي أو دار المخزن وساحة العلويّين وغير ذلك.. وفي فاس الجديد امتد أيضاً حيّ الملاّح الخاص باليهود وذلك في الجهة الشرقية، والذي ستأتي الكاتبة على ذكره لاحقاً. يشكّل فاس البالي في الجنوب وفاس الجديد في الشمال مع بعضهما ما يسمى ←

نحو ما تبدأ مع النساء؛ فكلا الطرفين لايحترم *«الحدود»*(*): الحدود المقدّسة. لقد وُلِدتُ في خضمّ هذه البلبلة، حيث كان المسيحيون والنساء لايكفّون عن الاعتراض على هذه *«الحدود»*، ولاينكفئون عن انتهاكها.

عند عتبة حريمنا، كانت النساء يهاجِمْن «حْمِد»(**) البوّاب ويناوشْنَه باستمرار. أما الجيوش الأجنبيّة فقد كانت تتدفّق دون انقطاعٍ مجتازةً الحدود الشماليّة؛ وكانت ثلّةٌ من الجنود الأجانب تتمركزُ على ناصية شارعنا، الواقع على الخط الفاصل بين «المدينة» ـ مدينة أسلافنا ـ وبين تلك التي بناها الغزاة لتوّهم، وأطلقوا عليها اسم «المدينة الجديدة».

كان أبي يقول: عندما خلق الله الأرض، كانت لديه أسبابٌ حكيمةٌ لفصل الرجال عن النساء، ولبسط بحرٍ بأكمله بين المسيحيين والمسلمين؛ إذ إنّ النظام والتناغم لايتحقّقان إلا إذا راعى كلُّ فريقٍ حرمةَ *«الحدود»*، وكلُّ انتهاكٍ لهذه الحرمة سوف يفضي ـ وبشكلٍ حتميٍّ ـ إلى الفوضى والشقاء. بيد أن النساء لم يَكُنَّ يفكّرن سوى بخَرْق هذه الحدود، حيث كُنَّ أسيراتٍ لهواجسهنَّ بالعالم الخارجي المترامي وراء البوّابة؛ فيمضين في تصوراتهن المستوهَمَةِ طيلة النهار، ويتبختَرْن في الدروب المتخيَّلة. في هذه الأثناء، كان المسيحيون يتابعون عبور البحر زارعين الموت والشَّوَاشَ.

← المدينة العتيقة، وهو ما تسمّيّة الكاتبة اختصاراً المدينة «La Médina» وحرصاً منّا على إظهار مواقع استعمال الكلمة في النص الأصلي؛ سوف نضعها دائماً بين قوسين صغيرين «المدينة». أما المدينة الجديدة والتي تذكرها الكاتبة أيضاً فقد أنشئت بعد الحرب العالمية الأولى إبّان الاحتلالين الفرنسي والإسباني للمغرب، وهي تقع إلى الشمال الشرقي من المدينة القديمة.

(*) في الأصل Hudud . كثيرةٌ هي الكلمات والعبارات التي تستعملها الكاتبة وفق هذه الصيغة، أي كتابتها على نحو ماتلفظ في العربية أو المغربية المحلّية، ولأهمية ذلك ميّزناها بنموذج حرف مائل مع وضعها بين قوسين صغيرين، إلاّ في حالاتٍ خاصة قمنا بالإشارة إليها بحاشية.

(**) في الأصل Hmed أي «أحمد»، وقد حرصنا قدر المستطاع على إبراز الأعلام كما وردت في الأصل؛ بغية الحفاظ على أدائها اللفظيّ وفق اللهجة المغربيّة.

مثلما تأتي الرياح الباردة من الشمال، تأتي الآلام. بينما نحن نتّجه صوب الشرق كي نصلّي. إنّ مكّة بعيدةٌ، لكن صلواتكم تستطيع بلوغها إن كنتم تركّزون جيداً. أما أنا فسوف أُمَرِّنُ على التركيز حالما تحين اللحظة الموائمة. كان الجنود الإسبان يخيّمون إلى الشمال من فاس. وحتى عمّي علي وأبي ـ اللذان كانا من المتنفّذين المعروفين في المدينة واللذان يمارسان سلطةً مطلقةً في المنزل ـ كانا مجبرين على أن يطلبا تصريحاً من مدريد من أجل المشاركة في الاحتفال الديني الخاص بـ «مُوْلاي عبد السَّلام»؛ والذي يقام بالقرب من طنجة، على بعد ثلاثمئة كيلو مترٍ عن منزلنا. أما الجنود المتمركزون قبالةَ بوّابة دارنا، فينتسبون إلى قبيلةٍ أخرى. إنهم فرنسيون، وهم مسيحيون كالإسبان، يتكلّمون لغةً أخرى، ويسكنون في بلدٍ أكثر عمقاً باتجاه الشمال، واسم عاصمتهم باريس. كان سمير ابن عمي يقول: تبعد باريس مسافة ألفي كيلو مترٍ، أي ضعف المسافة التي تفصلنا عن مدريد، وسكّانها أكثر ضراوةً من الإسبان بمرّتين. إنّ المسيحيين كالمسلمين يقاتل بعضهم بعضاً على الدوام؛ فقد تذابح الإسبان والفرنسيون بشكلٍ فعليٍّ على أرضنا، وحينما لم يستطِعْ أيٌّ من الطرفين إنهاك الآخر، قرّروا قطع المغرب إلى شطرين، ونشروا جنوداً على مقربةٍ من عرباوة(*)، وأصدروا مرسوماً يوجب بالحصول على تصريح عبورٍ للذهاب نحو الشمال؛ حيث إنّكم عندئذٍ تدخلون المغرب الإسباني، أما إذا أردتم التوجّه نحو الجنوب، فلابدّ لكم من الحصول على تصريح عبورٍ آخر؛ لأنّكم ـ حسب مايقولون ـ تجتازون حدوداً لولوج المغرب الفرنسي. وفي حال رفضتم اتّباع تعليماتهم، فإنّكم ستضطرّون للبقاء في عرباوة

(*) عرباوة Arbaoua : أحد أقاليم المغرب الشرقية، ويقع جنوب مدينة القصر الكبير، على مسافة 168 كم إلى الشمال الشرقي من فاس، و 135 إلى الجنوب من طنجة. ويشتهر برياضة الصيد البرّي حالياً، حيث أقيمت حظيرة لصيد الخنازير البرّيّة تُنظّم فيها المطاردات والمسابقات لهواة الصيد.

مُحتجزين في ذلك المكان المصطنع؛ حيث أنشؤوا باباً ضخماً أطلقوا عليه اسم حدود. لكنّ المغرب ـ كما يشرح أبي لنا ـ قد وُجِدَ منذ آلاف السنين من غير اقتسام أو اقتطاعاتٍ؛ وذلك حتّى فيما سبق مجيء الإسلام، قبل ألفٍ وأربعمئة سنةٍ!.. لم يسمع أحدٌ قطّ عن حدودٍ تقسم البلاد إلى نصفين.

الحدود خطٌّ وهميٌّ في أذهان المحاربين. يقول سمير ابن عمي والذي كان يرافق عمي وأبي في أسفارهما أحياناً: من أجل خلق حدودٍ، يكفي توافر جنودٍ يرغمون الآخرين على الاقتناع بوجودها. أما المشهد بحدِّ ذاته فلا يتغيّر شيء فيه؛ إذ لاتكون الحدود إلّا في عقول أولئك الذين يحتازون السلطة. لم أتمكّن من إدراك هذا الأمر على أرض الواقع، فكلٌّ من عمي ووالدي يؤكّد على عدم السماح للفتيات بالسفر لأنه خطرٌ؛ والنساء عاجزاتٌ عن الدفاع عن نفوسهن. كانت العمّة حبيبة ـ التي طلّقها زوجها وطردها دون أيّ سببٍ بعد أن كانت تحبُّه بحنانٍ ـ تزعُم أنّ الله قد أرسل جيوش الشمال عقاباً للبشر الذين انتهكوا *«الحدود»* التي تحمي الضعفاء؛ فإيذاء امرأةٍ هو خرقٌ لحدود الله المقدّسة، وإيذاء الضعفاء هو خروجٌ على القانون... لقد بكت العمّة حبيبة لسنواتٍ طويلةٍ.

التربية هي تعلُّم تعيين *«الحدود»*، حسب ماتقول لالا طَمْ، مديرة المدرسة القرآنيّة التي أُرسلت إليها في الثالثة من عمري؛ لأنضمَّ إلى أبناء وبنات عمومتي العشرة. كانت لدى لالاطَمْ مِقْرَعَةٌ طويلةٌ مرعبةٌ، وقد كنت أوافقها الرأي في كلِّ شيءٍ: الحدود والمسيحيون والتربية. الإسلام يعني احترام *«الحدود»*، وبالنسبة إلى طفلٍ احترام الحدود يعني الطاعة. كنت أتمنّى من أعماقي أن أرضي لالاطَمْ، وما إن تمكّنتُ من الإفلات من رقابتها يوماً، حتّى طلبتُ من ابنة عمّي مليكة ـ التي تكبرني سنّاً بعامين ـ أن تريني أين تقع هذه *«الحدود»* على وجه الدقّة؛ فأجابتني: إنّ ماتعرفه تمام المعرفة هو أنّ كلَّ شيءٍ سيكون على أفضل حالٍ إذا ما أطعتُ لالاطَمْ؛ فـ *«الحدود»* هي

ماتحرّمه لالاطَمْ. لقد طمأنتني كلمات ابنة عمي مليكة، وبدأتُ أحبّ المدرسة.

مذّاك أضحى البحث عن الحدود شغلي الشاغل، وأصبح يستبدُّ القلق بي وَقتَ أفشل في ضبط عجزي عن إيجادها.

كانت طفولتي سعيدةً لأنّ الحدود كانت واضحةً. أولى هذه الحدود كانت العتبة التي تفصل قاعة والديَّ عن الفناء الرئيس، وكان من المحظور عليَّ مغادرة عتبة قاعتنا كي ألعب في الباحة صباحاً قبيل استيقاظ أمّي؛ وهذا يعني: إنّه يتوجب عليّ - من الساعة السادسة حتى الثامنة - أن ألهوَ دون إحداث أيِّ ضجَّةٍ؛ كنتُ أستطيع أن أجلس على العتبة الرخاميّة البيضاء والباردة، لكن كان لزاماً عليَّ أن أكبح جماح رغبتي في الانضمام إلى أولاد عمي - الذين يكبرونني سنّاً - وهم يمرحون ويلعبون؛ فقد كانت أمي تتوجّه إليَّ قائلةً: «ليس بمقدورك الدفاع عن نفسك بَعْدُ. إنّ اللعب بحدّ ذاته نوعٌ من أنواع الحرب»، وأنا كنتُ أخاف الحروب. إذاً، كنتُ أضع وسادتي الصغيرة على العتبة وألعب بالـ *«إي مْسَارْيَا بْلِجْلاسْ»*(*) (أي: التنزُّه جلوساً)، وهي لعبةٌ ابتكرتُها في ذلك الوقت، ومازلت أجدها مثمرةً حتّى الآن. وليتمكّن المرءُ من اللعب بها يكفي أن تتوافر لديه ثلاثة شروطٍ، الأول أن يكون محتجزاً في مكانٍ ما، والثاني أن يجد مكاناً للجلوس، أما الثالث فهو أن يكون قادراً على الخضوع بما فيه الكفاية، على اعتبار أنّ وقت هذه اللعبة يضيع هباءً. لقد كانت اللعبة تقوم على مشاهدة أرضٍ مألوفةٍ غريبة.

كنتُ أجلس على العتبة وأرنو إلى بيتنا، كأنني أراه للمرّة الأولى. أبدأ بالنظر إلى الباحة المربّعة حيث يسود تناظرٌ صارمٌ على كلِّ شيء؛ فحتى البحرة الرخامية - التي يُصدِرُ ماؤها خريراً لامتناهياً والتي تنتصب وسط الباحة - كانت شديدة الانتظام، ويحيط

(*) في الأصل I - msaria b - lglass .

بها إفريزٌ رفيعٌ من الخزف المزخرف باللونين الأزرق والأبيض، يُولِّد رسوماً موشّاةً داخل تربيعات الأرضيّة الرخاميّة. يطوّق الباحة صفٌّ من الأعمدة المقنطرة، صُنِعَت تيجانها وقواعدها من الرخام، أما الجزء الأوسط منها فقد زُيِّنَ بفسيفساء زرقاء وبيضاء تشكّل صدىً لزخارف البحرة وللتربيعات. العناصر كلّها تدخل في تناظريةٍ شديدةٍ، عبر تأثيراتٍ تعاكسيّةٍ للمشهد، وكأنّ كلَّ عنصرٍ يقابل صورته في مرآة. لم يفلت شيء من هذا النظام، فالمصادفة مستحيلةٌ، أو بالأحرى يصعب تصَوُّرها.

مثنى مثنى تقابل قاعاتٌ فسيحةٌ كلَّ جهةٍ من جهاتِ الفناء، ولكلِّ قاعةٍ بوّابةٌ ضخمةٌ، وعلى جدرانها تصطفُّ نوافذ تطلُّ على الفناء. في الصباح كما في الشتاء، تُغلَقُ هذه البوّابات بأبوابٍ ضخمةٍ منجورةٍ من خشب الأرز زُخرفَت بأزهارٍ منحوتةٍ؛ أمّا في الصيف فإنّ الأبواب تُفْتَحُ لِتُزَيِّنَ البّوابات بستائر ثقيلةٍ من البروكار المخملي المخرّم؛ تسمح بمرور الهواء وتَحُولُ دون وصول الضجيج والضوء الساطع إلى الداخل. لنوافذ القاعات شِباكٌ من الحديد المُطَرَّق والمُفضَّض(*)، وتعلوها أقواسٌ قوطيّةٌ(**) مدبّبة الشكل ومزجَّجةٌ بالزجاج الملّون.

كانت هذه الواجهات تستهويني وقتَ تلعب معها أشعّة الشمس الصباحيّة لعبة تغيير الألوان؛ فتغيُّر الزرقاء والحمراء وتموّجها،

(*) الحديد المُطَرَّق Fer forgé: تشكيلات نحتيّة زخرفيّة، تكثر فيها التعريقات والأشكال النباتيّة، وتدخل فيها الأشكال الهندسية أيضاً. تُصنع بطرق الحديد يدويّاً، وقد انتشرت في العهود القديمة، وتميّز بها الفن القوطي. ويمكن أن تتنوّع فيها التأثيرات الفنيّة فتُطلى بالفضّة فتكون «مفضّضة»، أو بالذهب فتكون «مُذهّبة».

(**) القوس القوطيّة Ogive: وهي قوس مدبّبة الشكل، وتُعتبر من أهمّ مميزات العمارة القوطيّة، نظراً لشيوع استعمالها كعنصرٍ رئيسٍ في الطراز المعماريّ القوطيّ، ومن هنا جاءت تسميتها بالقوس القوطيّة، رغم نشأتها التي تعود إلى ما قبل ظهور الفن القوطي، إذ إنّنا نجد أمثلةً كثيرةً على القوس المدبّبة في العمارة الإسلامية؛ وإلى عهد أقدم من الإسلام في الهند وشرق آسيا، حيث تظهر هناك محفورةً في الصخور الصلبة لا كعقودٍ معماريّةٍ بالمعنى الدقيق.

وتلقي عن الصفراء جِدَّتها. تمتدّ الأعمدة المقنطرة على مستويي الطابقين الأول والثاني، وإذا واصلتم رفع أبصاركم إلى الأعلى؛ فسترون السماء المربَّعة تماماً ـ كسائر العناصر ـ مؤطَّرةً بإفريزٍ خشبيٍّ مزركشٍ برسوماتٍ هندسيّةٍ مطليَّةٍ بالمُغْرَةِ(*) والذهب.

إنَّ تأمُّل السماء من باحة الدار لتجربة مثيرة، فهي تبدو شاحبةً باديَ الأمر؛ بسبب التأطير الذي حُبست فيه. غير أنَّ حركة النجوم في الصباح الباكر ـ وهي تغوص ببطءٍ في زرقة السماء ـ تتّخذ شكلاً ساحراً يسلب الألباب. وعلى وجه الخصوص في الشتاء، آنَ تبزغ أشّعة الشمس الأرجوانيّة والورديّة طاردةً آخر ماتبقّى في السماء من نجوم؛فتغلبنا بكلّ يسرٍ لنستسلم لها تنوِّمُنا بإيحاءاتها المغناطيسيَّة. الرأسُ مُلقىً إلى الخلف، والعينان تسبحان في السماء المربَّعة، عندئذ يدهمنا نعاسٌ مفاجئٌ. لكنْ!.. وفي هذه اللحظة بالذات، يبدأ الناس بالتدفّق من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، خارجين من أبواب القاعات، أو هابطين على الأدراج. يبدو أنني قد نسيت الأدراج!. إنّها متمركزةٌ في أركان الفناء الأربعة، ولها قدرٌ كبيرٌ من الأهميّة، فحتّى البالغون قد يستخدمونها كجزءٍ هامٍّ من لعبة «الغُمَّيضَة»، صاعدين نازلين على درجاتها الخزفيّة الخضراء.

في الجهة المقابلة ـ أي الجهة الأخرى من الفناء ـ تقع قاعة عمي علي التي يشغلها مع زوجته وأولاده السبعة؛ وتبدو مع قاعتنا متشابهتين كقطرتي ماءٍ؛إذ لم تكن أمي لتسمح بأيِّ تمييزٍ واضحٍ للعيان بين القاعتين، رغم أحقيّة عمي ـ نظراً لكونه الأكبر ـ بحجرٍ أوسع وأكثر رفاهيّةً. لم يكن عمي علي أكبر سنّاً وأكثر ثراءً من أبي وحسب؛ بل كانت أسرته أكثر عدداً أيضاً، فأسرتنا تتألّف من خمسة أشخاصٍ فقط: أخي وأختي ووالداي وأنا، في حين تبلغ أسرة عمي

(*) المَغْرَةُ أو الجَأْب Ocre: ترابٌ صَلصاليٌ غنيٌ باوكسيد الحديد يستعمل في التخضيب والتصبيغ، لونه أحمر باهتٌ مغبرٌ، ويمكن أن يكون ذا لون أصفر مغبرٍ أيضاً. واسم اللون منه «المَغْرُ» و«المُغْرَةُ».

من العدد تسعة أشخاصٍ، بل عشرةً عندما تأتي أخت زوجته لزيارتهم، فتقيم معهم في بعض الأحيان ستة أشهر متتالية، بعد أن اقترن زوجها بامرأة ثانية.

إلا أنّ أمي التي تمقت الحياة الجماعيّة في الحريم، وتحلم بحياةٍ تنفرد فيها مع أبي مدى العمر، لاتقبل بما تسمّيه ترتيب *«الأزمة»* إلا بشرط عدم ظهور أيِّ تمييز بين النساء؛ فهي تطالب بالامتيازات نفسها التي تحظى بها زوجة عمّي، رغم التباين في العدد والمكانة. يحترم عمّي علي هذا الترتيب احتراماً دقيقاً؛ إذ إنكم - في حريمٍ محكم الإدارة - كلما احتزتم سلطةً أكبر، وجب عليكم الظهور بمظهر الكرماء. ودون أدنى شك، كان عمّي علي وأطفاله يحظون بمساحة أرحب مما لدينا، لكّن ذلك في الطوابق العليا فقط، بعيداً عن الفناء حيث كل شيء جدّ عمومي؛ إذ يجب ألاّ تظهر السلطة جهاراً أكثر ممّا ينبغي.

تشغل جدتي لأبي - لالا ماني - القاعة الواقعة إلى يساري، والتي لانذهب إليها سوى مرّتين يوميّاً، الأولى في الصباح لتقبيل يد الجدّة، والثانية في المساء للغرض نفسه. قاعة جدتي مؤثّثةٌ - كبقيّة القاعات - بأرائك يغطّيها البروكار، وبوسائد مصفوفةٍ على امتداد الجدران الأربعة. وتعكس مرآةٌ ضخمةٌ مركزيّةٌ صورة الباب وستائره الجوخيّة، والسجّادة المزيّنة برسومات الأزهار ذات الألوان الزاهية، والتي تغطي أرض القاعة بأكملها. لقد كان وطْءُ هذه السجّادة بأقدامٍ مُنْتَعَلَةٍ، أو بما هو أسوأ من ذلك - أي بأقدامٍ مُبلَّلةٍ - يعتبر تدنيساً. وهو أمرٌ لاسبيل إلى تلافيه خلال فصلِ الصيف؛ حيث تُشطَف الباحة مرّتين يوميّاً، بالاستعانة بكميّةٍ كبيرةٍ من مياه البحرة. كانت صبايا العائلة - كابنة عمي شامة وأخواتها - يهوين غسل بَلاط الباحة، وهن يلعبن لعبة «المسبح»، وهي دَلْقُ جَرادِلَ من الماء على الأرض دون اكتراثٍ، إضافة إلى رشِّ أقرب شخصٍ بالماء «عن غير قصد»، وهذا مايشجع من هم أصغر سنّاً -

أنا وابن عمي سمير تحديداً ـ على التوجُّه نحو المطبخ والعودة منه مُدجَّجَيْن ـ على أتمّ وجهٍ ـ بِنِبْريجٍ(*) ممتازٍ... يملؤنا رشُّ الآخرين بهجةً، في حين يبدؤون بالصراخ سعياً منهم لإيقافنا. ولامَهْرَبَ من أن تسبّبَ صيحاتُنا إزعاجاً لـ «لالا ماني»، التي ـ وقد شعرت بالمهانة ـ ترفع الستائر، مُحذِّرةً إيّانا من أنّها ستشكونا في المساء إلى عمّي وأبي: «سوف أقول لهما: لم يعد هناك أحدٌ يحترم النظام في هذا البيت!»، بهذه العبارة تهدّدنا متوعِّدةً لنا بالعقاب.

تثير ألعاب الماء والأقدام المبلّلة كراهيّة لالا ماني، وحينما نجري صوبها بهدف التحدّث معها ـ بُعيد المرور بالقرب من البحرة ـ نتلقّى أوامرها دائماً بالتوّقف حيث نحن: «لا تكلمني وقدماك مبلّلتان»، توجّه تنبيهاتها للواحد منّا، «اذهب وجفّف نفسك أوّلاً». فوفقاً لمبادئها، كلُّ مَنْ يخرق قانون الأقدام النظيفة والجافّة، يُوصَمُ بالعار طوال حياته، وإذا ما تجرّأنا يوماً إلى حدّ أن ندوس سجّادتها أو أن نلوّثها، فسَنظلُّ سنيْنَ طوالاً نسمع عن تدنيسها. تحبُّ لالا ماني أن تبقى محترمةً، أي: أن تبقى جالسة وحدها، وقد تزيّنت بتاجها المرصّع بالجواهر في صورةٍ أنيقةٍ، وترقب الباحة دون أن تنبس ببنت شفةٍ. إنها تحبّ أن تكون محاطةً دوماً بهالةٍ من الصمت المهيب؛ فالصمت هو أرفع تلك الامتيازات التي تتيح لها المجال لمراقبة الأطفال عن بعد.

أخيراً، تقع أكبر القاعات حجماً وأكثرها أناقةً إلى ميمنة الفناء. وهي قاعة الرجال، حيث يتناولون الطعام، ويصغون إلى الأخبار، ويناقشون قضاياهم، ويلعبون «الورق». من حيث المبدأ، الرجال وحدهم القادرون على الوصول إلى الخزانة الضخمة التي تحتوي المذياع، وتتربّع ركن القاعة الأيمن. كانت تُقفَلُ الخزانة

(*) النِّبْريجُ: كلمة فارسيّة الأصل وتعني أنبوب النارجيلة، بيد أنّ استعمالها شاع على وجه العموم بمعنى أنبوب السقاية، والعامّة تقول: نِزبيج. وقد استخدمناها في هذا الموقع لأنّنا ارتأينا أنّها تحمل من المرونة والسلاسة أكثر من أيّة مفردةٍ أخرى.

بالمفتاح، حين لايكون المذياع مستعملاً. وقد رُكِّبت مكبِّرات صوتٍ في الخارج، تتيح الاستماع لمعظم القاطنين.

كان أبي واثقاً من أنّه وعمّي الوحيدان اللذان يملكان نسخاً عن مفتاح الخزانة، إلّا أنّ النساء - على ما في الأمر من غرابة - تمكّنَّ من الاستماع بانتظام إلى *«صوت القاهرة»* أثناء غياب الرجال؛ وغالباً ما كانت شامة وأمي ترقصان على الأنغام التي يبثُّها المذياع، وتغنّيان مع صوت الأميرة اللبنانية أسمهان(*) في أغنيتها *«أهوى»*. وأذكر تماماً المرّة الأولى التي نعتتنا النساء فيها - أنا وسمير - بـ *«خاينْ»*: (بالخائنين)؛ لأننا أجبنا والدي: إننا استمعنا إلى إذاعة «صوت القاهرة»، عندما سألنا - في أحد الأيّام - عمّا فعلناه أثناء غيابه. لقد وشى جوابنا بوجود مفتاح غير نظاميٍّ - أو بتعبيرٍ أدقّ - كان جوابنا يعني: إنّ النساء قد اختلسن المفتاح الأصليّ لصنع نسخةٍ عنه. «إذا امتلكن نسخةً عن مفتاح خزانة المذياع فقد يحصلن قريباً على نسخةٍ عن مفتاح البوّابة» زمجر أبي غاضباً؛ ونشب إثر ذلك شجارٌ عنيفٌ، واستجوبت النسوة الواحدة تلو الأخرى في قاعة الرجال، وبعد يومين من التحقيق، تبيّنَ أنَّ المفتاح لابدَّ قد هبط من السماء؛ إذ لم يعرف أحدٌ من أين أتى!. لكن جرّاء ذلك كنا نحن الطفلين من انتقمت النساء منهما، لقد اتهمننا بالخيانة، وهدَّدن بإقصائنا عن ألعابهن. كان هذا مريعاً بالنسبة إلينا، ودافعنا عن نفسينا بقولنا: لم نفعل شيئاً سوى قول الحقيقة؛ فقالت أمي ردّاً علينا: «إنّ بعض الأشياء صادقٌ فعلاً، ولكن يجب ألّا نبوح به»، وأضافت: «إنّ ما تبوحان به، وما تكتمانه سرّاً، لا علاقة له بالصدق والكذب». لقد رجوناها أن تشرح لنا كيف نستطيع أن نميِّز بين هذا وذاك، فلم تقدِّم لنا إجابةً شافيةً، بل قالت لنا: «يجب عليكما

(*) من المعروف أنّ «أسمهان» المطربة الشهيرة سوريّة المحتد، ويعود نسبها إلى عائلة «الأطرش» في جبل العرب بسوريا، وهي شقيقة المطرب والملحّن المعروف «فريد الأطرش».

أن تقدِّرا بنفسيكما عواقب كلامكما. وإذا كان ماتقولانه يسيء إلى أحدٍ ما، فمن الأفضل لكما أن تصمتا». في الواقع، إنّ هذه النصيحة لم تفدنا البتة، بل بتنا أكثر تشوُّشاً من ذي قبل، وخاصّة سمير الذي روّعته فكرة نعته بالخائن؛ فقد ثار، وهاج وماج، قائلاً: إنه حرٌّ بقوله مايريد البوح به. لقد أُعجبتُ كالعادة بجرأته، بيد أنني لم أتفوّه بكلمةٍ. كنتُ أقول لنفسي: إذا وجب عليّ ـ فضلاً عن ضرورة التمييز بين الصدق والكذب (وهو ماكان همّاً بحد ذاته) ـ أن أتبينّ هذه الطائفة الجديدة من الأسرار التي يجب عدم البوح بها؛ فسألقى صعوبة في تلمُّس ذلك. وعليه فقد تقبَّلتُ فكرة أني غالباً ما سأُهان وأُتَّهم بالخيانة.

كانت إحدى مسراتي الأسبوعيّة مراقبة سمير بإعجابٍ، وهو يشنُّ حملات تمرُّده على الكبار. كنتُ أشعر بأنني إذا لازمتُه كظلِّه فلن أصاب بمكروهٍ. لقد ولدتُ وسمير في اليوم ذاته ـ عصرَأحد أيّام رمضان... وكان عصراً طويلاً ـ بفارق ساعةٍ واحدةٍ بين ولادتينا؛ حيث وُلد سمير أوّلاً في الطابق العلويّ، وهو سابع طفلٍ لأمِّه، أما أنا فقد جئتُ إلى الدنيا بعد ساعةٍ، في قاعتنا الكائنة في الطابق الأرضيّ، وكنتُ الابنة البكر لوالديَّ. على رغم الإنهاك الذي كانت تعانيه أمّي، أصرّت على عماتي وبنات عمي أن يطلِقْن الزغاريد[1](*) عينها التي أُطلقت لولادة سميرٍ؛ وأن يقمن الاحتفال نفسه الذي أُقيم لهذا الهدف. كانت أمي ترفض التفوُّق الذكوريَّ دوماً، وتعتبره لامعقولاً؛ وكانت بذلك تناقض الإسلام كلَّ التناقض. كانت تقول: «لقد خلقنا الله متساوين». للمرّة الثانية ـ عصرَ ذلك اليوم ـ دوَّت الزغاريد في منزلنا، حتّى ظنّ الجيران أنّه وُلِد لنا صبيّان. كان والدي مبتهجاً للغاية ـ إذ كان وجهي مستديراً كالبدر ـ وأعلن على الفور أني سأغدو آيةً للجمال؛ ولكي تثير لالا ماني حنقه، قالت له:

(*) الهوامش المرقّمة كافّةً من وضع الكاتبة، وقد ارتأينا وضعها في آخر المؤلّف حسب الأصل.

إنني شاحبةٌ قليلاً، وإنّ عينيّ واسعتان كثيراً، وإنّ وجنتيّ مرتفعتان جداً، في حين إنّ لسميرٍ بشرةً ذهبيّةً، وعينين واسعتين وذابلتين لم نر لهما مثيلاً من قبل. في زمنٍ لاحقٍ، أخبرتني أمي أنّها لم تقل شيئاً حينها، لكنها ما إن استطاعت أن تنهض من سريرها حتّى أسرعت بالذهاب لرؤية هل كانت عينا سمير ذابلتين حقّاً؟، وبالفعل كانتا كذلك، وماتزالان حتّى الآن. غير أنّ عذوبتهما كلّها تختفي عندما يكون في أحد أمزجته المشاغبة؛ ولطالما تساءلتُ هل كانت نزعته للوثب والنّطّ، بقصد إظهار غضبه على الكبار، ناجمةً - بكل بساطة - عن جَلَافته ونزقه؟. أما بخصوصي، فقد كنتُ ممتلئة الجسد إلى درجة أنني - إذا أغاظني أحدهم - لايخطر ببالي أن أقفز، بل كنتُ أكتفي بالبكاء، وأجري لأختبئ في قُفطان أمّي. كانت أمّي تقول لي: إنه يجب عليّ ألا أتّكل على سميرٍ كي يثأر لي. «يجب عليك أن تتعلّمي الصراخ والاحتجاج، تماماً مثلما نتعلّم المشي والكلام. عندما تبكين جرّاء إهانتك، فكأنّك تطلبين تكرارها».

كانت فكرة أن أصبح جبانةً كلّما كبرتُ تقلقها، حتّى أنّها استشارت والدتها «جدتي ياسمينة» بهذا الخصوص، وذلك عندما كنا في زيارةٍ لها خلال العطلة الصيفيّة. كانت جدتي ياسمينة مشهورةً بمهارتها في فنِّ الشجار؛ فنصحت والدتي بالتوقّف عن مقارنتي مع سميرٍ، وبتشجيعي على اتّخاذ موقفٍ دفاعيٍّ تجاه من هم أصغر منّي سنّاً. «هناك طرقٌ شتّى لتطوير حسّ المسؤولية عند الطفل، أن يكون عدوانيّاً، وينشب بتلابيب الآخرين، فتلك إحدى هذه الطرق، لكنها بالتأكيد ليست الأكثر لباقةً. عندما تشجّعينها على الإحساس بالمسؤوليّة تجاه الصغار في محيطها، فإنّك تمنحينها الفرصة لإثبات نفسها. الاعتماد على سمير حتّى يحميها، ليست إعاقةً لها ضمن الإطار الذي تتعلّم فيه أن تحمي الآخرين. عندما تتعلّم حماية الغير، تستطيع أن تحمي نفسها».

على أنّ حادثة المذياع قد جعلتني أتروّى، ففي هذه المناسبة

حدثّتني أمّي عن ضرورة مضغ الكلمات قبل نطقها: «أديري لسانك في فمك سبع مرّاتٍ، وأنت تضغطين جيّداً على شفتيك، قبل أن تنطقي بأيٍّ جملة، فما إن تخرج الكلمات من فِيْكِ؛ فإنك تجازفين بالكثير». عندئذ تذكرت في حكايات *«ألف ليلةٍ وليلةٍ»*، كيف كانت كلمةٌ واحدةٌ ـ خارج موقعها الصحيح ـ كفيلةً بأن تجلب مصيبةً على رأس البائس الذي نطقها؛ إذا لم تَرُقْ للخليفة. وأحياناً يحدث أن يُستدعى *«السيّاف»* على الفور. لكنّ الكلمات قادرةٌ أيضاً على إنقاذكم، إذا أتقنتم فَنَّ نسجها بمهارةٍ؛ وهذا ماكانت عليه حال شهرزاد راوية ألف الحكاية والحكاية. لقد كان الخليفة على وشك الإطاحة برأسها، لكنّها تمكّنت من إيقافه في اللحظة الأخيرة، عبر سحر الكلمات لاغير.

كنتُ متلهّفةً لأن أعرف كيف استطاعت شهرزاد أن تعيد الكرَّة مرّاتٍ... ومرّاتٍ.

2

شهرزاد والخليفة وسِحرُ الكلمات

قبيل ساعة المغيب من أحد الأيّام، استفاضت أمّي في شرحها لنا سبب تسمية حكايات *«ألف ليلة وليلة»* بهذا الاسم: ففي كلّ ليلةٍ من تلك الليالي فائقة العدد، كانت شهرزاد ـ الزوجة الفتيّة ـ مجبرةً عمليّاً على ابتكار قصّةٍ جذّابةٍ جديدةٍ؛ كي تجعل زوجها الخليفة(*) ينسى مشروعه المشؤوم القاضي بإعدامها عند مطلع الفجر. لقد روّعني هذا الأمر، فسألتُ أمّي: «ماما!.. هل تعنين أنّ الملك إذا لم يُعجب بقصّتها، فسوف يستدعي السيّاف؟»... ومافتئت أقترح الحلول للفتاة المسكينة. كنت أبتغي ـ وبصورةٍ قاطعةٍ ـ أن تحظى شهرزاد بمخارج أخرى للخلاص. لماذا لاتستطيع أن تقول ما تشاء

(*) في الأصل Calife، وبالطبع القصد هنا شهريار الملك. ويبدو أنّ الكاتبة تحاول أن تشير إلى المضمون الذهني عند الناس عامّةً حول معنى كلمتيّ «خليفة» و«ملك» في الحكاية الشعبيّة، حيث تتخذ الكلمتان مضموناً واحداً، فالخليفة ملك، والملك خليفة. وكما هو معروف في الطبعات المتعددة لحكايات ألف ليلة وليلة، أنّ شهريار ملك وليس خليفة، غير أنّ الكاتبة تورد مرّةً هذا ومرّةً ذاك إيحاءً منها إلى حالة السرد السليقي للحكاية عند الأم، مثلما نجدها دائماً عند الأمّهات والجدّات يحكين للأبناء والبنات الحكاية الشعبية في سجيّةٍ لا نظير لها. وهذا إلّا إذا كانت الكاتبة تعتمد في هذه النقطة على طبعة ألف ليلة وليلة التي تذكرها في ثبت هوامشها؛ وهذه الطبعة للأسف لم تتوفّر بين أيدينا، إنّما اعتمدنا على: (طبعة بولاق سنة 1252 هـ الصادرة عن دار صادر ـ مقابلة وتصحيح الشيخ محمد قطّة العدوي ـ الطبعة الأولى ـ بيروت).

دون الاكتراث بالملك؟. ولماذا لاتُقلَب الآية في القصر، فيصبح مطلوباً من الملك أن يروي لها حكايةً جذّابةً كلّ ليلةٍ؟. سوف يدرك آنذاك، كم هو مُرَوِّع للمرء أن يُجْبَر على إرضاء شخصٍ يملك القدرة على قطع رأسه!... أجابتني أمّي: إنه ينبغي عليّ أن أصغي إلى التفاصيل أوّلاً، ومن ثمَّ أستطيع تخيُّل الحلول.

تستهلّ أمي روايتها بالقول: لم يكن زواج شهرزاد والملك زواجاً طبيعيّاً قطّ؛ فقد تمّ في ظروفٍ سيّئةٍ للغاية، إذ وجد الملك شهريار زوجته الأولى في الفراش مع عبدٍ من عبيده؛ فاستشاط غضباً ـ وقد جُرح في الصميم ـ وضرب عنقيهما. وممّا أثار دهشته بعدئذٍ، اكتشافه أنّ هذا القتل المزدوج لم يشف غليله؛ فقد تملّكته رغبةٌ مستمرّةٌ في الانتقام، وذلك بقتل نساءٍ أخرياتٍ. وطلب من وزيره الأكبر ـ وهو والد شهرزاد ـ أن يُحضر إليه فتاةً عذراء كلّ ليلةٍ؛ ليتزوج بها، ويمضي الليل معها، ثم يأمر بإعدامها عند الفجر. استمرّ الملك على هذا المنوال ثلاث سنين، قتل في غضونها أكثر من ألف شابّةٍ بريئةٍ. إلى أن أتى يومٌ حيث «... ضجّت الناس منه ومن قانونه اللعين، ودعت إلى الله أن يخلّصها منه ومن ذلك القانون الذي لايُطاق، وسخطت النسوة وبكت الأمّهات وهربت الأُسَر ببناتها، وعمّا قليلٍ لن يبقى إلا فتاةٌ واحدةٌ يمكن للملك أن يقيم معها اتّصالاً جسديّاً...»[1](*). الاتّصال الجسدي ـ كما شرحته أمّي لنا ردّاً على

(*) إنّ الحادثة التي تذكرها الكاتبة على لسان الأم جرت مع ملك سمرقند العجم شهرمان، وهو أخو شهريار، وهذا حسب الطبعة التي بين أيدينا (الجزء الأول ـ ص 4/3/2): حيث اشتاق شهريار إلى أخيه الصغير شهرمان فطلب إليه أن يزوره فأجابه بالسمع والطاعة «... وتجهّز للسفر وأخرج خيامه وجماله وبغاله وخدمه وأعوانه وأقام وزيره حاكماً في بلاده وخرج طالباً بلاد أخيه فلمّا كان في نصف الليل تذكّر حاجةً نسيها في مقره ودخل قصره فوجد زوجته راقدةً في فراشه معانقةً عبداً أسود من العبيد فلمّا رأى هذا اسوّدت الدنيا في وجهه وقال في نفسه إذا كان هذا الأمر قد وقع وأنا ما فارقت المدينة فكيف حال هذه العاهرة إذا غبت عند أخي مدّةً ثم إنه سلّ سيفه وضرب الاثنين فقتلهما في الفراش...». هذا ماكان من أمر شهرمان، وأما شهريار فعندما وصل أخوه إلى مدينته فرح بقدومه وانشرح صدره، لكن شهرمان تذكّر ما حصل من زوجته فازداد غمّه واصفر لونه وهزل جسمه، فلمّا رأى ←

سميرٍ عندما جعل يقفز ويصيح طالباً توضيحاتٍ لمعناه ـ هو أن يستلقي كلٌ من الزوج والزوجة معاً في الفراش، ويناما حتّى الصباح.

أخيراً، وفي أحد الأيّام، لم يتبقَّ في المدينة إلا عذراوان: شهرزاد الابنة البكر للوزير، وأختها الصغرى دُنيازاد. ووقتَ عاد الوزير إلى منزله في ذلك المساء شاحباً ومهموماً، سألته شهرزاد عمّا جرى، فحدّثها عن مشكلته، وكان ردّ شهرزاد مفاجئاً تماماً؛ فبدلَ أن ترجوَ أباها السماح لها بالهرب، أبدت استعدادها التام ـ وعلى الفور ـ لقضاء الليلة مع الملك.

«... أبتاه!.. زوّجني بالملك شهريار، فإما أن أنجح في مهمّتي، وأوقف المذبحة؛ فأنقذ الناس. أو أن أفشل؛ فأُقتل كالأخريات...»(*).

← شهريار ذلك اقترح عليه أن يرافقه في رحلة صيدٍ لعله ينشرح قليلاً، لكنّ شهرمان أبى فسافر أخوه وحده، وبقي شهرمان في القصر «... وكان في قصر الملك شبابيك تطل على بستان أخيه فنظر وإذا بباب القصر قد فتح وخرج منه عشرون جاريةً وعشرون عبداً وامرأة أخيه تمشي بينهم وهي في غاية الحسن والجمال حتّى وصلوا إلى فسقيّةٍ وخلعوا ثيابهم وجلسوا مع بعضهم وإذا بامرأة الملك قالت يامسعود فجاءها عبد أسود فعانقها وعانقته وواقعها وكذلك باقي العبيد فعلوا بالجواري...». عندما رأى شهرمان ذلك هانت لديه مصيبته أمام مصيبة أخيه، فانتظر حتى عاد أخوه، ثمّ أخبره مُكرَهاً بما جرى، فأراد شهريار أن ينظر بعينه، فاقترح عليه شهرمان أن يجعل أنّه مسافر للصيد والقنص ويختفي عنده ليشاهد ذلك ويحققه عياناً. وكان ذلك، وجرت الأمور حسب ما رواه شهرمان أمام عينيّ شهريار، فطار عقله من رأسه وقال لأخيه شهرمان قم بنا نسافر إلى حال سبيلنا وليست لنا حاجة بالملك حتى ننظر هل جرى لأحدٍ مثلنا أو لا؛ فيكون موتنا خيراً من حياتنا. فأجابه لذلك وخرجا من بابٍ سرّيٍّ في القصر. وبعد أن عاشا المغامرة مع الجنّية والعفريت عند عين ماءٍ جانبَ البحر المالح، تعجبا غاية التعجب لما قالته الجنية عما تفعله مع العفريت «... وقالا لبعضهما إذا كان هذا عفريت وجرى له أعظم مما جرى لنا فهذا شيءٌ يسلينا ثم إنهما انصرفا من ساعتهما عنها ورجعا إلى مدينة الملك شهريار ودخلا قصره ثم إنّه رمى عنق زوجته وكذلك أعناق الجواري والعبيد وصار الملك شهريار كلّما يأخذ بنتاً بكراً يزيل بكارتها ويقتلها من ليلتها ولم يزل على ذلك مدّة ثلاث سنوات فضجّت الناس وهربت ببناتها ولم يبق في تلك المدينة بنت تتحمّل الوطء...».

(*) حسب الطبعة التي بين أيدينا (الجزء الأول ـ ص5): «... باللّه يا أبتي زوجني ←

لقد عارض والد شهرزاد ـ الذي كان يحبّ ابنته حبّاً جمّاً ـ هذا المشروع، وسعى إلى إقناعها بمساعدته على إيجاد حلٍّ آخر؛ فأن يزوّجها بشهريار يعني القضاء عليها بموتٍ محتَّم. ولكنّ شهرزاد ـ وعلى نقيض أبيها ـ كانت واثقةً من أنّ لديها قدراتٍ استثنائيةً تمكِّنها من إيقاف المجزرة؛ فهي ستعمل على شفاء روح الملك المضطربة، حينما تحكي له عن مصائب الآخرين. سوف تصطحبه إلى بلادٍ بعيدةٍ، ليشاهد عاداتٍ غريبةً؛ فتجعله قادراً على النفاذ إلى الغرابة الكامنة داخله. ستأخذ بيده لكي يرى أنّ حقده الاستحواذيّ على النساء كان اعتقالاً له. كانت شهرزاد على يقينٍ من أنّها ستستطيع إرغام الملك على أن يرى بصورةٍ أوضح عبرها. عند ذاك، سوف يتمكّنُ من أن يتغيَّر، ويستعيد مقدرته على الحبّ[2]. في نهاية المطاف، وافق أبوها وعلى مضض، فتزوّجت بشهريار في تلك الليلة ذاتها.

ما إن دخلت شهرزاد إلى حجرة الملك شهريار، حتّى شرعت تحكي له قصّةً بالغة الروعة، عازمةً أمرها على أن تقطع حكايتها في اللحظة الأكثر تشويقاً، بشكلٍ يجعله لايطيق فراقها عند الفجر؛ فيحفظ لها حياتها حتّى الليلة التالية؛ كي تحين الفرصة لها لتكمل قصتها. إلّا أنّ شهرزاد تبدأ في الليلة الثانية بقصّةٍ أخرى، لاتقلّ عن الأولى غرابةً وفرادةً، وأطول من أن تنتهي مع مطلع الفجر؛ فيضطر الملك من جديدٍ إلى العفو عنها. وعلى هذا المنوال، تكرّر فِعلتها في الليلة الثالثة، ثمّ في الليلة التي تليها حتّى يبلغ عدد الليالي ألفاً(*)، أي: زهاء ثلاث سنواتٍ. حينئذٍ أصبح الملك ـ بالطبع ـ غير قادرٍ على

← هذا الملك فإما أن أعيش وإما أن أكون فداءً لبنات المسلمين وسبباً لخلاصهنّ من بين يديه...». وواضحٌ من المقارنة أنّ ما تورده الكاتبة هو الأقرب إلى الصحّة، إذ إنّنا نجد هنا ـ في طبعة دار صادر ـ تناقضاً جليّاً، فشهرزاد لايمكن أن تكون سبباً لخلاص بنات المسلمين إذا ماتت.

(*) في الأصل «ألف» والقصد ألف وليلة.

الاستغناء عنها؛ فقد رُزقا بطفلين(*). وبعد مرور ألف ليلةٍ وليلةٍ، أقلع نهائياً عن عادته المدمّرة في قطع رؤوس النساء.

عندما أنهت أمّي قصّة شهرزاد، شرعتُ أبكي، وأنا أقول: «لكن كيف لنا أن نتعلّم رواية القصص لإرضاء ملكٍ ما؟»؛ فتمتمت أمّي، وكأنّها تخاطب نفسها: هذا هو قدر النساء، حيث يقضين حياتهن كي يطوّرن أنفسهن على هذا الصعيد. ولم تكن تلك الإجابة الغامضة عوناً لي على الإطلاق. وأردفَتْ قولَها: إنّه يكفيني أن أعرف في الوقت الحاضر، أنّ فُرصي في السعادة تعتمد على مهارتي في حياكة الكلمات. مدعّمين بهذه المعلومة، بدأتُ وسمير نتدرّب على أرض الواقع، خصوصاً بعد حادثة المذياع، حيث قرّرنا أن نتجنّب كلّ رُعونةٍ كلاميّةٍ مع الراشدين. كنا نجرّب على مدى ساعاتٍ، فنمضغ الكلمات بصمتٍ، وندير لساننا داخل فَمَوينا سبع مرّاتٍ، دون أن نغفُل عن مراقبة الكبار؛ لنرى إن كانوا يشكّون في أمرٍ ما. بيد أنهم لم يكونوا يلحظون شيئاً قطّ، وعلى وجه الخصوص في الفناء، حيث تبدو الحياة - في الظاهر - طبيعيّةً جدّاً ودقيقةً للغاية؛ فقد كانت الأمور تُحاكُ في الطوابق العليا فقط.

هناك، كانت بنات العمومة والخالات والعمّات المطلّقات يشغلن مع أطفالهن عدداً من الغرف منعدمة الانتظام؛ والتي تكاد تشكّل متاهةً. كان عددهنّ يتباين تبعاً للخلافات الزوجيّة، فحيناً تأتي ابنة عمٍّ مطرودةٌ، تنشدُ مأوىً لدينا لبضعة أسابيع، بعد أن تشاجرت مع زوجها. وحيناً تأتي أخرياتٌ مع أطفالهنّ لأيّامٍ معدوداتٍ فقط؛ كي

(*) حسب الطبعة التي بين أيدينا (الجزء الثاني - ص619) رزق شهريار وشهرزاد بثلاثة أولادٍ ذكور «... فلمّا فرغت من هذه الحكاية قامت على قدميها وقبّلت الأرض بين يدي الملك وقالت له يا ملك الزمان وفريد العصر والأوان إني أنا جاريتك ولي ألف ليلةٍ وليلةٌ وأنا أحدّثك بحديث السابقين ومواعظ المتقدّمين فهل لي في جنابك من طمعٍ حتّى أتمنى عليك أمنيةً فقال لها الملك تمنّي تعطي يا شهرزاد فصاحت على الدادات والطواشية وقالت لهم هاتوا أولادي فجاؤوا لها بهم مسرعين وهم ثلاثة أولاد ذكور واحدٌ منهم يمشي وواحدٌ يحبو وواحدٌ يرضع...».

يُظهرنَ لأزواجهنّ أنّ لديهنّ مكاناً آخر للإقامة، مبرهنات بذلك على أنّ بوسعهنّ تدبُّرَ شُؤُونهنّ لوحدهنّ، وعلى أنّهنّ لايعتمدن اعتماداً كلّيّاً على أزواجهنّ، وفي الغالب كانت هذه الاستراتيجيا تُؤْتي أُكُلَها؛ فيرجعن إلى بيوتهنّ، وهنّ في وضعٍ أفضل لإدارة الحوار. أما بعضهنّ الآخر فكان مقيماً لدينا بصورةٍ مستمرّةٍ بعد الطلاق، أو بعد مصيبةٍ ما - غير الطلاق - حلّت به. كان هذا النظام أحد تقاليد والدي التي كان يدافع عنها دفاعاً نابعاً من غور أعماقه؛ فآنَ يوجّه أحدهم انتقاداً لحياة الحريم، كان والدي يقول: «إلى أين ستذهب النسوة المُقتَسَرات؟».

كانت غرف الطابق الأوّل تتميّز بالبساطة التامّة، بأرضيّاتها ذات التربيعات البيضاء، وجدرانها المجصّصة، وأثاثها الفطريّ. وكان هناك بعضٌ من الأرائك الضيّقة جداً - والمُنَجَّدَة بقماشٍ قطنيٍّ خشنٍ متعدّد الألوان - موزّعاً في هذه الزاوية أو تلك، على حُصُرٍ من سعف النخيل، سهلةِ الغسل؛ فغدا وطؤها بأقدامٍ مبلّلةٍ أو مُنْعَلَةٍ، أو اندلاق كأسٍ من الشاي عليها بشكلٍ عَرَضيٍّ، أمراً لايفضي إلى العواقب المأساويّة التي قد تنجم عن عوارض كهذه في الطابق الأرضي. كانت الحياة في الطوابق العليا أكثر يسراً، وخصوصاً أنّ كلّ شيءٍ محاطٌ بـ *«الحنان»، تلك الصفة الشعورية ذات الطابع المغربي؛ والتي نَدُرَ أن صادفتُها في مكانٍ آخر.*

يصعب تعريف *«الحنان»* بدقّة، فهو من حيث الجوهر، نوعٌ من الحنوّ العفويّ الدافئ الحميميّ الممنوح دون قيدٍ أو شرطٍ. والأشخاص الذين يهبون *«الحنان»* - كالعمّة حبيبة - لايهدّدونكم بحرمانكم عطفهم، وقتَ ترتكبون حماقةً ما. لم يكن *«الحنان»* عملةً شائعةً في الطابق الأرضيّ، وخاصّةً لدى الأمّهات اللواتي كنّ منهمكاتٍ إلى أقصى حدٍّ في تعليم احترام الحدود؛ إلى درجة أنّهن ينسين تقديم قليلٍ من الحنان.

إذا كنتم تحبّون القصص، فالطوابق العليا أيضاً هي المكان

المثالي لذلك. وينبغي تسلُّق الدرجات الخزفيّة المئة، التي تفضي إلى الطابق الثالث والأخير من المنزل ـ كما إلى الشرفة التابعة له ـ حيث كلُّ ما فيه أبيضُ.. ووسيعٌ ودافئٌ. في هذا الطابق، كانت تقع غرفة العمّة حبيبة. هي غرفةٌ ضيّقةٌ وشبه خاويةٍ؛ حيث احتفظ زوجها بأثاثهما كلِّه متذرّعاً بأنّه حالما يقرّر يوماً أن يرفع سَبَّابَتَهُ إيماءً لها كي ترجع إليه ثانيةً؛ فإنّها ستعود مسرعةً، وهي مطأطَأةُ الرأس. وكانت على الدوام تكرّرُ قولَها ردّاً على ذلك: «لكنّه لن يستطيع أبداً أن يجرّدني من أعزّ ما أملك: قدرتي على الضحك، وكلُّ القصص الرائعة التي أتقن روايتها متى وُجدَ مستمعون يستحقّون هذا العناء». وقد سألتُ ابنة عمّي مليكة يوماً، عمّا تعنيه العمّة حبيبة بقولها: «مستمعون يستحقّون هذا العناء»؛ فصرّحت لي بأنّها أيضاً لاتعرف ماهو المقصود بهذه العبارة. قلتُ لها عندئذٍ: ربما كان علينا أن نسألها مباشرةً، لكنّ مليكة أجابتني: من الأفضل ألّا نقوم بذلك؛ فقد تنفجر العمّة حبيبة منتحبةً، فحسب مايقول الجميع، هي غالباً مايذرفُ دمعها دون مبرّرٍ. لكن كنّا مولعين بها، ولايكاد يغمض لنا جفنٌ مساءَ كلِّ خميسٍ؛ إذ كنا نتحرّق لهفةً إلى أمسيات الحكايا التي كانت تُعقد كلَّ يوم جمعةٍ.

في مجمل الأحيان، كانت تلك الاجتماعات تنتهي بالكثير من الفوضى والشغب؛ لأنّها كانت تُختتم في ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل، وذلك وفقاً لأمّهاتنا اللواتي كنّ يضطررن إلى الصعود ـ حتى ذلك الطابق المرتفع ـ سعياً لإحضارنا؛ وحينها كنّا نستقبلهنّ بصيحات الاحتجاج، وأولاد عمّي ـ الأكثر إفساداً لشدّة الدلال ـ كسميرٍ مثلاً، كانوا يتدحرجون على الأرض، صارخين: إنّ لارغبة لديهم في النوم إطلاقاً.. إطلاقاً. وإذا تمكّنا من البقاء فعليّاً حتى نهاية القصّة (أي: حين تنتصر البطلة على أعدائها، وفي طريق عودتها إلى موطنها تجتاز: «الأنهار السبعة، والجبال السبعة، والبحار السبعة»). فإنّنا نجد أنفسنا ـ آنذاك ـ إزاء مخاطرةٍ جديدةٍ، ألا وهي مخاطرة نزول

السلالم. ففي بادئ الأمر، لاضوءٌ هناك؛ فقواطع التيّار كلُّها - ابتداءً من بوّابة الدخول - يتحكّم بها خمِد البواب، ويطفئ الأضواء منذ الساعة التاسعة؛ ليشير إلى أولئك الذين يجلسون على الشرفة، أنّ وقتَ الإِواءِ إلى الداخل، والتوقُّف عن كلِّ ذهابٍ وإيابٍ، قد حان. أما المشكلة الثانية، فهي وجود الجانّ الذين يطوفون في أرجاء المكان، متأهّبين للانقضاض عليكم. وأُخرى تلك المشكلات، هي براعة سميرٍ الفائقةُ في تقليد الجانّ، حتّى أنني كنتُ أخالُه - في أغلب الأحيان - واحداً منهم. وقد كنتُ - غير مرّةٍ - أضطرُّ إلى التظاهر بالإغماء؛ لكي يُوقف تمثيله الهزليّ.

في بعض الأحيان، عندما تستمرّ القصّة على مدى ساعات، ولاتأتي الأمّهات لإحضارنا، ويرين على المنزل بأكمله سكونٌ مطبقٌ؛ نرجو العمّة حبيبة أن تسمح لنا بقضاء الليلة معها. آنذاك، تبسط سجّادة زفافها الرائعة - والتي تحفظها مطويّةً بعنايةٍ كبيرةٍ خلف صندوقها المصنوع من خشب الأرز - ثم تغطّيها بملاءةٍ بيضاء، تعمل على تعطيرها بماء زهر البرتقال، بشكلٍ خاصٍّ من أجل هذه المناسبة. وفي معظم الأوقات، لم يكن لديها من الوسائد مايكفي الحاضرين جميعهم، لكنّنا لم نكن نأبه بذلك الأمر. كانت تُشرِكُنا معها بَطّانيّتَها البيضاء الواسعة الثقيلة. تطفئ الضوء، وتضع شمعةً كبيرةً على العتبة عند أقدامنا، وتقول: «إذا أحسّ أحدكم بحاجةٍ ملّحةٍ للذهاب إلى المرحاض، فتذكروا أنّ هذه السجّادة هي أحد الأشياء القليلة التي تُحيي فيّ ذكرى حياتي السابقة كامرأةٍ سعيدةٍ». هكذا، وفي أثناء تلك السهرات البَنَوِيَّةِ المباركة، كنّا نغفو منصتين إلى صوت عمّتنا يفتح لنا أبواباً سحريّةً، تطلُّ على مروجٍ يغمرها ضوء القمر؛ وآنَ كنّا نصحو صباحاً، كانت المدينة برّمتها تتمطّى تحت أقدامنا. فللعمّة حبيبة غرفةٌ صغيرةٌ، لكنّ نافذتها وسيعةٌ، ممّا يجعل إطلالتها تمتد حتّى تصل جبال الشمال.

كانت العمّة حبيبة تتقن لغة الليل، وعبر الكلمات وحسب، كانت تنقلنا جميعاً إلى مركبٍ عظيمٍ يسبر غور البحار من عدن إلى المالديف(*)؛ أو تصطحبنا صوبَ جزيرةٍ، حيث العصافير تنطق مثلما البشر ينطقون تماماً. ممتطين صهوة الكلمات، كنا نقطع الأمصار من السند إلى الهند، تاركين هناك في المدى البعيد - وراءنا - بلاد المسلمين؛ مُعَايِشِيْنَ مخاطر المغامرات، لملاقاةِ النصارى واليهود الذين يعرضون علينا أن نقاسمهم قُوْتَهم العجائبي؛ وهم ينظرون نحونا نؤدّي صلواتنا، فيما نحن نرقُبهم يقيمون صلواتهم أيضاً. وأحياناً، كنا نرتحل نحو أصقاعٍ بعيدةٍ جداً، إلى الحدّ الذي لايوجد عنده إلهٌ. حتّى الوثنيّون الذين يعبدون الشمس والنار - وقتَ كانت العمّة حبيبة تصفهم لنا - كانوا يبدونَ جذّابين بالنسبة إلينا.

لقد كانت حكاياتها الخيالية تحفّز رغبتي في أن أغدوَ كبيرةً؛ لأتمكّن بدوري من خَلْق مواهب روائيّةٍ. كنتُ أبتغي أن أصبحَ مثلها متقِنةً لفنِّ الكلام في الليل.

(*) المالديف Maldives: دولة جزائريّة من دول جنوب شرق آسيا تُعرف بجزر المالديف، وعرفها العرب قديماً بـ «ذِيْبَة المَهَل»، وهي أرخبيلٌ مرجانيٌّ في المحيط الهندي يقع إلى الجنوب الغربي من الهند. مساحتها 300 كم^2، عدد سكانها 200 ألف نسمة، عاصمتها ماله، وهي من دول الكومنولث استقلّت عام 1965 .

3

الحَريم الفرنسي

كانت بوّابة الدخول إلى منزلنا *«حَدَدَا»*[1] حدّاً حقيقيّاً، وخاضعاً للرقابة على قدر ما تخضع لها بقيّة الحدود في عرباوة. كنّا بحاجةٍ إلى إذنٍ للدخول والخروج، وكان مفروضاً على كلّ انتقالٍ أن يكون مبرّراً. وفقط بغية الوصول إلى البوّابة، كان الأمر يقتضي التقيّد بمرسومٍ (بروتوكولٍ) خاصٍّ؛ فإن جئنا من الفناء، توجّب علينا ـ قبل أيِّ شيءٍ ـ أن نجتاز دهليزاً لامتناهياً في الطول؛ إثر ذلك نجد أنفسنا وجهاً لوجهٍ مع حْمِد البوّاب، الذي يجلس مرتخياً على أريكته وبلا مبالاةٍ، واضعاً صِينيّةَ شايٍ أمامه، وكأنه يتربّع عرشاً.

لمّا كان الطقس المتَّبع للمرور يتطلّب دوماً سياقاً من المفاوضات على قدرٍ لابأس به من التعقيد؛ فقد كنّا غالباً مانُدعى إلى الجلوس، إما على أحد جانبيه فوق الأريكة المدهشة، أو قبالته ـ وذلك كان أكثر راحةً وحرّيّةً ـ في «كرسي فرنسا ذي الذراعين» المذهل. وهو كرسيٌّ قديمٌ وقاسٍ ومبطّنٌ، عثر حْمِد عليه في الـ *«جوتيا»* سوق البراغيث في المدينة (أي: سوق السلع الرخيصة). كثيراً ماكان حْمِد يضع أصغر أبنائه الخمسة في حِجْره؛ لأنّه كان يعتني بهم حين تكون زوجته «لوزة» في عملها. لقد كانت طاهيةً من الطراز الأوّل، وأحياناً كانت توافق على القيام ببعض الأعمال الإضافيّة خارج المنزل؛ عندما يُقدَّم إليها عرضٌ مُغرٍ. كانت بوّابة

دارنا على شكل عقدٍ هائل الحجم، وكانت مزوّدة بأبواب أوابديةٍ من الخشب المنحوت. وهي تفصل حريم النساء عن غرباء الشارع، وكان شرف كلٍّ من أبي وعمّي متوقّفاً على هذا الفصل، تبعاً لما قيل لنا. لقد كان يُسمح للأطفال باجتياز البّوابة، أما النسوة البالغات فلا!... وبين الفينة والأخرى كانت أمّي تقول: «كنتُ سأصحو وقتَ السَّحَر، لو أنني فقط أستطيع أن أذهب لأتنزّه في الصباح الباكر، آنَ تكون الشوارع مقفرةً... لعلّ الضوء يكون أزرق، أو ربّما ورديّاً فاقعاً، مثلما يكون وقتَ أفول الشمس... تُرى ما هو لون الصباح في الشوارع الخاوية والهادئة؟...». لم يكن هناك أحدٌ يجيب على أسئلتها؛ ففي الحريم لاتُطرَحُ الأسئلة ليُرَدَّ عليها دائماً، بل على الأصحّ تُطرَحُ سعياً لفهم ما يجري. كان التَّشيار على غير هدىً وبحرّيّة مطلقةٍ في الشوارع حلم النساء جميعهنّ. وكانت حكاية «المرأة المجنّحة» الحكاية الأكثر وقعاً في نفوسنا، بين حكايات العمّة حبيبة التي كانت تحتفظ بها للمناسبات الهامّة؛ تلك المرأة المجنّحة القادرة ـ متى رغبت ـ على التحليق خارج الفناء، وكلما كانت العمّة حبيبة تروي هذه الحكاية، كانت النسوة داخل الفناء يعلّقنَ ذيول قفاطينهنّ بأحزمتهنّ، ويشرعن بالرقص، مُطلِقاتٍ أذرعهنّ للمدى، كأنّهنّ على وشكِ الطيران. لقد زرعت ابنة عمّي شامة ـ ذات السبعة عشر ربيعاً ـ ذهني بالقلق طيلة سنوات؛ فهي تمكّنت من إقناعي بأنّ للنساء أجنحةً غير مرئيّةٍ، كما لي جناحان سينموان حالما أصبح أكبر مما أنا عليه.

كانت البوّابة تحمينا من الغرباء المتمترسين ـ بعدَ بضعة أمتارٍ منها ـ على حدٍّ آخر، حدٌّ خطرٍ وعلى القدر نفسه من الأهمية، وهو الحدُّ الذي يفصل «المدينة» عن المدينة الجديدة. كنتُ وأبناء عمّي نتسلّل خارجاً ـ حينما يكون حُمِد مسترسلاً في جدالٍ ما أو مستسلماً لقيلولته ـ كي نلقي نظرةً على الجنود الفرنسيين، أولاء الذين كانوا يرتدون زيّاً أزرق موحّداً، ويتقلّدون بنادقهم. كانت عيونهم الرمادية الصغيرة تتركّز دائماً على سكّان الحيّ؛ وغالباً ماكانوا

يحاولون أن يتكلّموا معنا نحن الصغار؛ لأنّ الكبار لم يكونوا يخاطبونهم مطلقاً، بل كانوا فوق ذلك يحظّرون علينا الإجابة على أسئلتهم وبصرامة. لقد كنّا ندرك أنّ الفرنسيين جشعون، وأنّهم قاموا بقطع كلّ تلك المسافة لغزو بلادنا، في حين خصّهم الله ببلادٍ هي في غاية الجمال، وبمدائن مزدهرةٍ، وغاباتٍ كثيفةٍ، ومروجٍ خضراء غنيّةٍ، وأبقارٍ تفوق أبقارنا سمْنةً بكثير، وتعطي أربعةَ أضعاف ما تعطيه أبقارنا من الحليب؛ ولكن!.. كان جليّاً أنّ طمع الفرنسيين لاينتهي.

بما أنّنا كنّا نعيش على التخم الفاصل بين المدينتين القديمة والجديدة؛ فقد كنّا نرى بوضوحٍ تامٍّ الفروق بين مدينة الفرنسيين الجديدة وبين «مدينتنا». كانت شوارعهم عريضةً ومنتظمةً ومنارةً في الليل بشكلٍ متلالئٍ. لقد كان أبي يقول: إنّهم يبدّدون نعمة الله، فمن ذا الذي يحتاج إلى كلّ هذه الإنارة في حيٍّ آمنٍ؟. كما كانت لديهم سيّاراتٌ عالية الكفاءة. أمّا شوارع «مدينتنا»، فكانت ضيّقةً ومعتمةً ومتعرّجةً، وتضمّ عدداً كبيراً من الأزقّة الملتوية والمنعطفات التي تخفق السيارات في اجتيازها؛ وإذا تجرّأ الغرباء على خوض هذه المخاطرة، بولوجهم إلى تلك المتاهة، فلن يحظوا بمخرجٍ منها. إذاً، ذلك هو السبب الحقيقيّ الذي أرغم الفرنسيين على إنشاء مدينةٍ جديدةٍ لاستخداماتهم الخاصّة: لقد كانوا يخشون الضياع في مدينتنا.

كان معظم الناس يتنقّل في «المدينة» سيراً على الأقدام، وكان أبي وعمّي يملكان بغالاً، لكنْ لم يكن المعوزون ـ وفي أحسن أحوالهم ـ «كخمِد» يملكون سوى حميرٍ. أما النساء والأطفال فكانوا مجبرين على المشي راجلين. لقد كان الفرنسيون يخافون المجازفة في السير على الأقدام، وكانوا دائماً يركبون سيّاراتهم، وحتّى الجنود كانوا يلبثون بسيّاراتهم عندما تتعكّر الأجواء. كان ذلك الخوف مثيراً للعجب بالنسبة إلينا نحن الأطفال؛ وأدركنا آنذاك أنّ

من المحتمل أن يشعر الكبار بالخوف على قدر ما نشعر به، غير أنّ أولئك الكبار كان لديهم ـ خارجاً ـ مطلق الحرية في التحرّك على أهوائهم!... كيف يمكن لأصحاب النفوذ ـ الذين أقاموا الحدود ـ أن يشعروا أيضاً بالخوف؟. لأنّ المدينة الجديدة كانت ـ بشكلٍ من الأشكال ـ بمنزلة حريم لهم كالنساء تماماً في حريمنا؛ لم يكن لديهم حقُّ التجوُّل بحريةٍ في «المدينة». وهكذا، كان من الوارد أن يكون المرء ذا نفوذٍ، وفي الوقت نفسه أسيراً لحدودٍ. ومع ذلك فإنّ الجنود الفرنسيين الذين كانوا يظهرون في الغالب أغراراً جداً ـ وعلى رغم خوفهم وقلقهم ـ كانوا يروّعون المدينة بأسرها، وكانت لديهم القدرة على إيذائنا.

في أحد الأيّام من عام 1944 ، حدّثتني أمّي: ذهب الملك محمّد الخامس[*] ـ يسانده الوطنيون في المغرب كلّه ـ لمقابلة رئيس الإدارة الاستعمارية الفرنسية (المندوب السامي)؛ كي يقدّم له طلباً رسميّاً بالاستقلال؛ فاستشاط المندوب السامي غضباً، واحمرَّ وجهه من شدّة الاغتياظ، وصرخ قائلاً: «كيف تجسُرون أيّها المغاربة على طلب استقلالكم؟»[2]. وبهدف الاقتصاص منّا؛ أطلق جنوده في «المدينة»، ومهّدت العربات المصفّحة العقبات في الأزقّة المتعرّجة؛ فاتّجه الناس صوب مكّة لإقامة الصلاة، وشرع آلاف البشر يتلون دعاء «الجزع»، الذي يتكوّن من كلمةٍ واحدةٍ فقط، تُكرَّر على مدى ساعات، تحسُّباً لوقوع الكارثة: *«يا لطيف!.. يا لطيف!.. يالطيف!..»*. *وكلمة «لطيف»* هي أحد أسماء الله التي لاتُعدّ ولاتُحصى. وغالباً ماكانت العمّة حبيبة تقول: إنّ هذا الاسم هو الأجمل بين تلك الأسماء؛ لأنّه يُظهر الله بصورة الحنون الرؤوف الذي يغمركم بعطفه، ويمدّ إليكم يد العون. لكنّ الجنود الفرنسيين المسلّحين،

(*) محمد الخامس ابن يوسف (1909 ـ 1961): اعتلى عرش المغرب عام 1927 . نفاه الفرنسيّون إلى مدغشقر 1953 ـ 1955 . أعلن الاستقلال عام 1956 وأُعلن ملكاً عام 1957 .

والمأخوذين بشَرْكِ الأزقّةِ، والمحاطين بتلاوات الـ «*يالطيف*» المرتّلة إلى مالانهاية؛ أصابهم الفزع، وفقدوا برودة أعصابهم؛ فبدؤوا يطلقون النار على جموع المصلّين. وفي غضون بضع دقائق، تكدّست الجثث فوق مَرَاقي(*) مدخل المسجد، في حين كانت تلاوة الرُّقى(**) مستمرّةً في الداخل.

أخبرتني أمّي: إنّه لم أكن وسمير ـ في تلك الحقبة ـ يتجاوز الواحد منّا سنيّه الأربع، وما من أحدٍ لحَظَنا ونحن ننظر عبر بوّابتنا إلى الجثث المضرّجة بالدمّ، والمُلْتَحِفَةِ جلابيبَ(***) الصلاة البيضَ، والتي كانت تُنْتَشَل حينها. وعلى حدّ رواية أمّي: «لشهورٍ عدّةٍ انتابتني وسميراً الكوابيس؛ فكنّا ما إنْ نلمحِ اللون الأحمر، نهرعْ راكضين لنختبئ». وتابعت أمّي: «لقد اضطررنا إلى اصطحابكما لعدّة جُمُعَاتٍ متتاليةٍ إلى مزار «مولاي إدريس»(****)؛ كي يقوم الأشراف بتأدية الشعائر التي تكفل حمايتكما، وقد توجّب عليّ أن أضع حِجَاباً قرآنيّاً تحت وسادتك، طوال عامٍ كاملٍ، قبل أن تستعيدي النوم الطبيعي».

إثر ذلك النهار المأساويّ، بات الفرنسيون يحملون أسلحتهم جهاراً أينما ذهبوا، في حين كان أبي مجبَراً على طلب تصريحٍ من

(*) المراقي: مفردها «المَرْقى» و«المَرْقاة» وهي الدرجة، وقد استعملناها هنا بالمعنى المادّي لا المعنويّ، أي بمعنى «الدَّرَج».

(**) الرُّقَى: مفردها «الرُّقية» وهي كما هو معروف الاستعانة بقوى تفوق القوى الطبيعية زعماً أو وهماً، بغية الحصول على أمرٍ ما.

(***) في الأصل Djellaba: وهي مفردة عربيّة الأصل «جِلْبَاب» و«جِلِبّاب». وتُجمع على «جلابيب».

(****) مولاي إدريس Moulay - Driss: مدينة دينية مقدسة. تقع على بعد 67 كم إلى الشرق من فاس، و 27 كم إلى الشمال من مكناس. وهي تتوسّط مكناس والموقع الأثري (وليلي أو قصر فرعون) متوّجةً نتوءاً صخريّاً، وفيها زاوية وضريح إدريس بن عبد الله أو إدريس الأوّل مؤسس أوّل دولة عربيّة في المغرب (وهي دولة الأدارسة) والذي توفي سنة 793م. وهو إمام شيعيّ ثار على العباسيين. فرّ من الحجاز ومرّ بمصر إلى أن بلغ المغرب الأقصى فحل في مدينة وَليلي الأثرية حيث بايعته قبائل البربر. أعلن دولة الأدارسة سنة 788م.

سلطاتٍ مختلفةٍ ليحتفظ ببندقيّةٍ صيده؛ وفضلاً عن ذلك، كان عليه أن يخبّئها إلى حين وصوله إلى الغابة. لقد بثّت هذه الحوادث كلّها القلقَ في نفسي، وكثيراً ما تحدّثت بخصوصها مع جدّتي لأمّي ياسمينة التي كانت تقطن في مزرعةٍ رائعةٍ تضمّ أبقاراً وخرافاً وحقولاً شاسعةً تغصُّ بالأزهار. وهي تقع على بُعد مئة كيلو مترٍ إلى الشرق من منزلنا، بين فاس والمحيط(*). كنّا نقوم بزيارتها مرّةً كلّ سنةٍ، وكنتُ أتكلّم معها عندئذٍ عن الحدود والخوف والفصل، سائلةً إيّاها عن أسباب كلّ هذه الأشياء. كانت ياسمينة تعرف حقّ المعرفة أصناف الخوف كلّها، وكانت تقول لي: «إنّني خبيرةٌ فيما يختصُّ بالخوف يا فاطمة» مداعبةً جبهتي، فيما أنا ألهو بلآلئها وأطواقها المرجانيّة. «سوف أخبرك بأمورٍ شتّى وقتَ تغدين أكبر سنّاً، وسأعلّمك كيف الوصول إلى التغلّب على الخوف».

غالباً ماكنتُ أواجه صعوبةً في النوم، خلال الليالي الأولى في مزرعة ياسمينة؛ إذ لم تكن الحدود واضحةً تمامَ الوضوح. لم تكن تُرى عوائق من أيّة جهةٍ هناك، فما كان بمرأىً منّي هو حقولٌ ممتدّة الأرجاء ومنبسطةٌ ومفتوحةٌ وفائضةٌ بالأزهار؛ حيث ترعى الحيوانات بكامل حرّيتّها. لقد شرحت لي ياسمينة: إن المزرعة تشكّل جزءاً من أرض الله الأرْوَم التي لم تكن تعرف حدوداً، ولم تكن سوى حقولٍ فسيحةٍ لاحدَّ لها ولاتخومَ فيها. وكان ينبغي ألّا ينتابني الخوف بين أرجائها، لكنني ما انفككتُ أسألُ جدّتي: كيف للمرء أن يمشي وسطَ حقلٍ دون أن يتعرَّض لهجومٍ ما؟. إذّاك، ولكي تساعدني ياسمينة على النوم؛ ابتدعتْ لعبةً أُولِعتُ بها، وتدعى «*مشِيَا فلِخَلَا*»(**) أي: (المشي في الخلاء، نزهةٌ عبر الحقول). كانت تضمّني بذراعيها وأنا نائمةٌ، وبكلتا يديَّ أمسك بعقودها، ثمّ أغلق

(*) افتراض موقع المزرعة بين مدينة فاس والمحيط (المقصود المحيط الأطلسي طبعاً) يقتضي حتماً أن تقع المزرعة إلى الغرب من فاس لا إلى الشرق منها مطلقاً.
(**) في الأصل Mshia - f - lekhla.

عينيَّ، وأتخيّل نفسي عبر حقلٍ من الأزهار مترامي الأطراف. بينما تقول ياسمينة لي: «سيري على أصابع قدميك؛ كي تسمعي غناء الأزاهير تهمس: *سَلَام، سَلَام،...*». كنتُ أكرّر ترنيمة الأزهار بأقصى ما أستطيع من السرعة؛ فيزول الخطر، وأغرق في النوم. «*سَلَام، سَلَام،...*» تتمتم الأزهار... وتتمتم ياسمينة... وأتمتم معهما. وعندما أفتح عينيَّ، أجد الصبح قد حلّ، وأجد نفسي نائمةً في سرير ياسمينة النحاسيّ الضخم، ويداي ملآنتان بالجواهر البيضاء والوردية. كانت ترقى إلى مسامعي من الخارج نغماتٌ موسيقيّةٌ ممزوجةٌ بحفيف أوراق الشجر يتجاوب بانسجام مع أغاريد العصافير. لم يكن هناك أحدٌ، باستثناء «الملك فاروق» الطاؤوس، و«طْهُر» البطّة البيضاء السمينة.

في الواقع، «طْهُر» هو أيضاً اسمٌ لواحدةٍ من زوجات جدّي الأخريات؛ كانت ياسمينة تُكِنُّ لها كرهاً عميقاً. لم يكن بمقدوري أن أدعو تلك المرأة بذلك الاسم «طْهُر» إلاّ في ذهني؛ فإذا نطقتُ اسمها بصوتٍ عالٍ؛ كنتُ ملزمةً على نطقه «لالا طْهُر». «*لالا*» هو لقبٌ للاحترام، نستخدمه لكلِّ النساء المهمّات، مثلما هو لقب «*سِيدِي*» المستعمل للرجال. وعندما كنتُ طفلةً، كان واجباً عليَّ أن أخاطب الكبار ذوي الشأن بـ «*لالا*» و«*سِيدِي*»؛ وأن أقبّل أياديهم ـ وقتَ تُضَاء المصابيح ساعة غروب الشمس ـ وأنا على وشك أن أقول: «*مْسَاكُم*»(*) أي: «مساء الخير». كنتُ وسمير ـ كلَّ مساءٍ ـ نقبّل أيادي الجميع بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ؛ حتّى نعودَ إلى ألعابنا قبل أن نسمع ذاك التعليق الشنيع من أحدهم: «إنّ التقاليد تتلاشى!». لقد بتنا خبيرين للغاية في هذا الصدد؛ حتّى غدونا ننجح في إنجاز هذا الطقس بسرعةٍ لاتُصدّق. إلّا أنّنا أحياناً نحثُّ الخطى لتبلغ درجةً عاليةً من السرعة؛ فنتدافع ونترنّح على حِضْنِ أحدهم، أو نسقط فوق السجّادة. إذّاك، ينفجر الحضور ضاحكين، وتضحك أمّي حتّى

(*) في الأصل Msakum.

تفيض عيناها بالدموع، وتقول: «يا لعزيزيَّ المسكينين... لقد أعياهما تقبيل الأيدي، وعليهما أن يعيدا الكرّة». أمّا في المزرعة، فلم تكن لالا طْهُر تضحك قطّ ـ مثل لالا ماني بالضبط ـ فهي جدّيّة تماماً، وذات سيماءٍ لائقةٍ وسليمةٍ، ونظراً لكونها الزوجة الأولى لجدّي «تازي»؛ فقد كانت تتبوّأ مكانةً مرموقةً في العائلة. وبهذه الحجّة؛ كانت معفاةً من المهمّات المنزليّة، وكانت ثريّة جدّاً. لم تكن جدّتي ياسمينة تطيق هذين الامتيازين، وكانت تقول: «إنّني أزدري هذه المرأة الموسِرة. عليها أن تعمل كما يعمل الجميع. ألسنا جميعاً مسلمين، نعم أم لا؟. إذاً، فنحن جميعاً سواسيةٌ. هذا ما قاله اللهُ، وهذا ما أمر نبيُّه به من بعده». نصحتني ياسمينة بأن أرفض التفرقة أبداً، لأنّ اللاّمساواة لاتخضع للمنطق بتاتاً؛ وهذا هو الدافع وراء إطلاقها اسم «طْهُر» على بطتها البيضاء السمينة.

4

ضَرَّةُ ياسمينة

عندما علمت لالا طُهُر أنّ ياسمينة قد أطلقت اسمها على بطّة، جُنَّ جنونها؛ فأخطرت جدّي تازي ليعقد اجتماعاً طارئاً معها في شقّتها الخاصّة (التي كانت - في الواقع - قصراً صغيراً أُتبعَث به «رياض» أي: (حديقةٌ داخليّةٌ)، وبحرةٌ، وفيه مرآةٌ رائعةٌ تغطّي جداراً على مساحةِ عدّة أمتارٍ مربّعةٍ، جِيءَ بها من مدينة البندقية)؛ فأتى جدّي على مضضٍ، وهو يُوسع الخطى، ويحمل بيده مصحفاً قرآنيّاً، هادفاً بذلك أن يُظهر أنّه أُزعِجَ في أثناء تلاوته؛ وكان يرتدي كالعادة سروالاً عريضاً من القطن الأبيض، و«قميصاً»، و«فَرَجِيَّة»(*) وهي غِلالَةٌ من القطن بيضاءَ أيضاً، وبابوجاً(**) من الجلد الأصفر[1]. لم يكن جدّي يلبس الجِلْبابَ في البيت، إلا وقت يستقبل ضيفاً ما.

من جهة المظر الخارجي، كان لجدّي السحنة نفسها التي تميّز مغاربة الشمال من منطقة «الريف»(***)، حيث الموطن الأصلي لعائلته؛ فقد كان طويل القامةِ، ناحلاً، وذا وجهٍ بارز التقاطيع،

(*) في الأصل Farajiya.

(**) في الأصل Babouches: وكلمة «بابوج» عربيّة أصلها فارسي.

(***) الريف Rif: تطلق التسمية على منطقة الجبال الشمالية في المغرب.

وبشرةٍ بيضاء، وعينين فاتحتين تميلان إلى الصغر. وكانت له سيماء رجلٍ أنوفٍ متحفِّظٍ شديد التكبُّر؛ فأهالي «الريف» شديدو الاعتداد بأنفسهم، ولايميلون إلى التواصل والانفتاح، بل هم بالأحرى صموتون. كان يَهولُ جدّي أن يرى زوجاته يتخاصمن، أو يُثرن فيما بينهنّ النزاعات، أو يحرّضن على اندلاعها. فقد بقي عاماً كاملاً يقاطع ياسمينة؛ فلا يكلّمها، ويخرج من الغرفة آنَ تدخل إليها، ببساطة لأنّها سبَّبت مشاجرتين في غضون شهرٍ واحدٍ. إثر ذلك، لم يعد يحق لها إلا بشقاقٍ واحدٍ كلَّ سنتين أو ثلاث سنوات. أمّا هذه المرّة ـ مع قضيّة البطّة ـ فقد أضحت المزرعة بأسرها في حالة تأهُّبٍ.

قبل أن تتطرّق لالا طْهُر إلى الموضوع، بدأت بتقديم الشاي إلى جدّي. بعدئذٍ هدّدت بتركه إذا لم يُغَيِّر اسمُ البطّةَ على الفور. كان ذلك عشيّة اليوم الأول للعيد، وكانت لالا طْهُر في أبهى حُلَّتها، وقد لبست تاجها وقُفطانها التقليدي المطرّز بالجواهر وحجارة البِجّادي(*)؛ قاصدةً من وراء ذلك تذكير الجميع بمكانتها المتميّزة. كانت تبدو القصّة مسلّية لجدّي في الظاهر؛ إذ أخذ يبتسم حين طُرحت مسألة البطّة. وهو طالما اعتبر أنّ ياسمينة غريبة الأطوار إلى حدٍّ ما، بل يحتاج المرء شيئاً من الوقت حتّى يألف بعضاً من عاداتها، كتسلّقها الأشجار ـ على سبيل المثال ـ ومكوثها هناك معلّقةً لساعاتٍ. كانت تنجح أحياناً في أن تقود معها إحدى زوجات جدّي الأخريات؛ وتتناولان الشاي في الأعالي فوق الأغصان. غير أنّ ماكان يُغيثُ ياسمينة على الدوام في بعض المواقف المحرجة، هو أنّها قادرةٌ على إضحاك جدي. لم تكن العمليّة سهلةً؛ خصوصاً لأنّه كان حادّ الطبع. خلال مناقشة قضيّة البطّة ـ وفي قاعة الاستقبال الباذخة

(*) البِجّادي Grenat. نوع من الأحجار الكريمة يشبه الياقوت، له لون أحمر رمّاني مع تموّجات لوينيّة بنفسجيّة.

الخاصة بلالا طْهُر ـ اقترح جدّي عليها أن تنتقم من ياسمينة بإطلاق اسمها على كلبها الصغير البشع: «سوف تُجبَر تلك المتمرّدة على تغيير اسم بطّتها»، لكنّ لالا طْهُر لم تكن في مزاجٍ موائمٍ للمُزاح؛ فصاحت قائلةً: «إنّك خاضعٌ كلّيّاً لسيطرة ياسمينة هذه. إذا سكتَّ عن هذا الأمر؛ فإنّها ستشتري حماراً ـ في القريب العاجل ـ ثمّ تسمّيه سِيدي تازي. هذه المرأة لاتراعي أدنى احترام لتسلسل المراتب. إنها تثير القلاقل، مثل كلّ أهالي جبال الأطلس. لقد بثّت الفوضى في هذا البيت المحترم. إما أن تغيَّرَ اسم بطّتها، أو سأرحل من هنا. إنّني لا أستوعب قدرتها في التأثير عليك... ليتها كانت جميلةً على الأقلّ!، لكنّها هزيلةٌ بإفراط، وطويلةٌ بما لاحدّ له. إنّها أشبه بزرافةٍ قبيحةٍ!».

الحقُّ يُقال: إنّ ياسمينة لم تكن تحقّق معايير الجمال في ذلك العصر، في حين كانت لالا طْهُر تمثّل النموذج الأمثل للجمال وفق تلك المعايير؛ إذ كانت ذات بشرةٍ ناصعة البياض، ووجهٍ مستديرٍ كالبدر، وجسدٍ مكتنزٍ بحقّ، لاسيّما في الوركين والردفين والصدر. في المقابل، كانت ياسمينة ـ على عكس ذلك تماماً ـ ذات بشرةٍ باهتةٍ كبشرة سائر الجبليين، ووجهٍ متطاولٍ، ووجنتين ناتئتين، ونهدين ضامرين للغاية، وقامةٍ تبلغ من الطول متراً وثمانين سنتميتراً تكاد توازي قامة جدي. لقد كانت ساقاها طويلتين بصورةٍ فائقةٍ ـ ومن هنا جاءت موهبتها في تسلّق الأشجار وفي كلّ البهلوانيّات الأخرى ـ وكانتا تبدوان بحقٍّ كالعصوين تحت قُفطانها؛ وبهدف إخفائهما عمدت إلى خياطة سروالٍ مزوّدٍ بعدة طيّاتٍ. وفوق ذلك، قصّرت قفطانها وأحدثت شقّين على جانبيه؛ للإيحاء باكتنازٍ ليس لديها. في بادئ الأمر، حاولت لالا طْهُر أن تحرّض النسوة جميعهنّ على السخرية من الطراز الجديد لزيّ ياسمينة؛ لكن سرعان ماشرعت الزوجات الأخريات يقلّدن الثائرة؛ فقد منحتهنّ القفاطين القصيرة

ذات الشقّين الجانبيّين حرّيّةً أكبر في الحركة.

لم تبدُ ياسمينة شديدة التفهُّم حين ذهب جدّي لمقابلتها بصدد مسألة البطّة؛ فقد قالت له: إذا كانت لالا طُهُر تودّ الرحيل فلتذهب!... ولن يشعر جدّي بالوحدة جرّاء ذلك. «سوف يكون لديك ثماني خليلاتٍ للاعتناء بك!، وسأكون الأكثر تفانياً بينهنّ»؛ عندئذٍ حاول جدّي إقناع ياسمينة بإهدائه سواراً فضّيّاً لها من «تيزنيت»[*]؛ مقابل أن تحكم على بطّتها بأن تؤول إلى قِدْر «الكَسْكَسِي»[**]. احتفظت ياسمينة بالسوار وطلبت بضعة أيام للتفكير، ثم جاءت في الجمعة التالية باقتراحٍ معاكسٍ؛ فهي ـ من باب اللباقة ـ لاتستطيع ذبح البطّة لكونها تدعى لالا طُهُر!؛ وذلك سيكون نذير شؤم!. بيد أنّها وافقت على ألّا تنطق باسمها أبداً على الملأ، بل ستفعلُ ذلك بينها وبين نفسها فقط. وهكذا أُجْبِرتُ على الالتزام بالأمر نفسه، وقد لاقيتُ صعوبةً كبيرةً في ألّا أتفوّه باسم البطّة علناً.

فضلاً عن هذا، كانت هناك قصّة طاؤوس المزرعة «الملك فاروق»؛ فمن ذا الذي يجرؤ على تسمية طاؤوسٍ باسم رئيس دولة مصري شهير؟ ماذا كان يفعل فرعون في مزرعةٍ؟. حسناً، يمكنكم أن تستخلصوا أنّ ياسمينة والزوجات الأخريات لم يكنَّ يحببن ملك مصر؛ لأنّه كان يهدّد بالطلاق ـ وعلى الدوام ـ زوجته الفاتنة الأميرة فريدة (التي طلّقها أخيراً في شهر كانون الثاني من عام 1948). ما

(*) تيزنيت Tiznit: واحدة من المدن المغربية التي تشتهر بالصناعات التقليدية وعلى الخصوص صناعة الفضيّات. وتقع في المنطقة الوسطى (منطقة الأطلس الصغير)، إلى الجنوب من مدينة أغادير وتبعد عنها 88 كم.

(**) الكَسْكَسِي Couscous: طبقٌ من أطباق الطعام يُحضَّر عادةً في شمالي أفريقيا من الحنطة المجروشة واللحم والخضار والتوابل، وهو يشابه إلى حدٍّ ما طبق «الهَريسة» في سوريا والذي يُعمل من القمح المدقوق واللحم. أما آنية طهايته أي «قِدْر الكسكسي»، فهو ما يسمى بـ «البُرْمَة» وهذا قدرٌ من الحجر أو الفخّار، وعادةً في كثيرٍ من القرى يتمّ الطبخ داخل الفرن الترابي المعروف بـ «التنّور». في العاميّة المغربيّة يقال لهذا الطبق «الكسكس».

الذي أوقع الزوجين في هذا المأزق؟، وأيّة جريمةٍ نكراء اقترفتها فريدة؟. كلّ ما فعلته ـ ببساطة ـ أنّها أنجبت ثلاث بناتٍ لايمكن لأيٍّ منهنّ أن تتبوّأ العرش كخلفٍ للملك.

وفقاً للشريعة الإسلامية، المرأة ليست مخوّلة لتولّي الحكم في البلاد، رغم حدوث ذلك منذ بضعة قرون خَلَتْ، كما روت لي جدّتي. فقد تسنّمت شجرة الدرّ عرش مصر، بمساعدة القوّات التركيّة، بعد موت زوجها السلطان الصالح[2]. لقد كانت أَمَةً محظيّةً من أصل تركي، ودام مُلْكُها ثلاثة شهورٍ، ولم يكن حكمها بأفضل أو بأسوأ حالاً من حكم الرجال الذين سبقوها أو خلفوها. لكن ليس لكلّ النساء المسلمات مكر وقسوة شجرة الدرّ؛ فحين قرّر زوجها[*] ـ أقوى قائدٍ عسكريٍّ في الجيش التركي آنذاك ـ أن يتّخذ زوجةً ثانيةً؛ تربّصت له حتّى دخل الحمّام كي يسترخي قليلاً، ثم «نسيتْ» فتح الباب؛ فمات القائد العسكريّ حرقاً بالماء المغليّ. أمّا الأميرة فريدة المسكينة، فلم تكن لها طينة مجرمةٍ ناجزةٍ، ولم تكن تتقن اللفّ والدوران ضمن حلقات السلطة، ولا الدفاع عن حقوقها في القصر؛ فهي ابنةٌ لأسرةٍ متواضعةٍ، ولاسند لها. لهذا كانت زوجات جدّي ـ اللواتي كنّ ينتمين إلى أوساط مماثلة ـ يحببنها، ويتألّمن لرؤيتها تُهان، فلا شيء أكثر إذلالاً بالنسبة إلى امرأةٍ ـ تقول ياسمينة ـ من أن تُطرَدَ: «وَهُبْ!... هكذا برميةٍ واحدةٍ إلى الشارع كما تُرمى قطّةٌ. هل هذه طريقةٌ لائقةٌ للتعامل مع امرأةٍ؟». تضيف ياسمينة: فضلاً عن ذلك، إنّ الملك فاروق ـ على رغم مايتمتّع به من نفوذٍ وقوّةٍ ـ لايبدو ملمّاً بالطريقة التي يُنجَبُ الأطفال بها. «فلو كان مطّلعاً فعلاً على ذلك؛ لأدرك أنّ الذنب ليس ذنب زوجته إذا لم تتمكّن من إنجاب ذكرٍ؛

(*) المقصود هنا زوجها الثاني عز الدين أيبك لا زوجها الملك الصالح الأيّوبي (أيّوب بن محمّد). حيث إنّها ـ بعد وفاة زوجها الصالح واغتيال ابنه توران شاه عام 1250 ـ تزوّجت بوزيرها عز الدين أيبك والمعروف بالمعزّ أيبك وهو مؤسس دولة المماليك البحريّين وأول سلطانٍ عليهم (1250 ـ 1257) وقد اغتيل بتدبيرٍ منها.

فإنجاب الأطفال يقع على عاتق الطرفين كليهما». لقد كانت محقّةً بهذا الشأن، فأنا كنت أعرف ذلك: من أجل إنجاب الأطفال، يجب على الزوج والزوجة أن يرتديا ملابس جميلةً، وأن يضعا الزهور في شعريهما، ثم يخلدا إلى النوم معاً في سريرٍ فارهٍ وكبير جدّاً؛ عندئذٍ - وبشكل تلقائيّ - سوف يكون لهما بعد بضعة أشهر طفلٌ صغيرٌ يحرّك ساقيه باستمرار ويدفعهما بدفعاتٍ سليقيّةٍ متقطعةٍ.

كان أهل المزرعة على درايةٍ بنزوات الملك فاروق الزوجيّة عبر إذاعة القاهرة. لقد كان حكم ياسمينة واضحاً وقاطعاً: «هل هو حاكمٌ مسلمٌ صالحٌ ذاك الذي يطلّق زوجته، فقط لأنّها لم تنجب له ابناً؟. الله وحده - كما يذكر القرآن - هو المسؤول عن تحديد جنس المواليد. لو كانت القاهرة عاصمةً إسلاميةً محكومةً بالعدل، لكان الملك فاروق هو من أُزيحَ عن العرش!. هذه الأميرة المسكينة وفائقة الحسن فريدة!، يُضحَّى بها بدافع الجهل والأنانية المطلقة!. يجب على المصريّين أن يطردوا ملكهم». ذلك هو الباعث لكون طاؤوس المزرعة يحمل اسم الملك فاروق. لكن صحيحٌ أن إطلاق الأحكام على الملوك كان سهلاً بالنسبة إلى ياسمينة؛ إلّا أنّ التغلّب على الزوجة الأولى لجدّي كان صعباً عليها؛ رغم خروجها من الورطة بنجاح بعد قصّة البطّة.

لم تكن لالا طْهُر ذات سطوةٍ ونفوذٍ فحسب، بل كانت الزوجة الوحيدة لجدّي تازي صاحبة الأصل المدينيّ والنشأة الأرستقراطيّة. وبما أنّها إحدى بنات عمومته؛ فإنّ اسم عائلتها كان أيضاً تازي. لقد حملت معها من جملة بائنتها - ماكان معها من مالٍ وجَهَازٍ عند زفافها - تاجاً من الزمرّد واللازورد والدرر السوداء؛ حُفِظ في صندوق كبير يقع في الركن الأيمن لشقق الرجال. وكانت ياسمينة - التي تنتمي إلى بيئةٍ ريفيّة متواضعةٍ كسائر الزوجات - ترفض الانبهار بهذه المظاهر؛ وتعبّر عن ذلك: «لايمكنني أن أعتبر شخصاً

ما متفوّقاً عليّ مرتبةً، فقط لأنّه يحوز تاجاً. وفوق ذلك، مهما بلغ غناها، فإنّها ليست أقلَّ منّي احتباساً؛ فهي مثلي تماماً: حبيسةٌ في حريم». وعندما سألتُ ياسمينة عن معنى عبارة: «حبيسةٌ في حريم»، قدّمت لي عدّة إجاباتٍ مختلفةٍ، وأيٌّ من تلك الإجابات لم يوضّح لي شيئاً على الإطلاق.

أحياناً كانت تقول: أن تكون امرأةٌ حبيسةً في حريم، يعني ببساطة أنّها قد فقدت حرّيّة الحركة. أو تقول: إنَّ الحريمَ شقيقٌ للشقاء؛ إذ تضطرّ المرأة لمشاركة نساءٍ عديداتٍ في زوجها. لقد كانت ياسمينة مجبرَةً على مشاركة ثماني زوجاتٍ في جدّي؛ وهذا يعني أنّها مضطرّةٌ للنوم وحدها ثماني ليالٍ، قبل أن تتمكّن من مداعبة زوجها للّيلة الوحيدة التي كانت من نصيبها؛ وعلى حدّ قولها: «إنّ مداعبة الزوج لأمرٌ في غاية الروعة، وأنا سعيدةٌ جدّاً لأنّ نساء جيلك لم يعدن مرغماتٍ على التشارك مع نساءٍ أخرياتٍ في أزواجهنّ!». لقد وعد الوطنيّون الذين يناضلون الفرنسيّين بانبثاق مغربٍ جديدٍ قائم على المساواة بين الجميع؛ ويجب أن تحظى النساء كلُّهن بحقِّ التعليم ذاته الذي يحصل عليه الرجال، وكذلك بأن تكون المرأةُ وحيدةَ زوجها[3]. في الواقع، كان العديد من الزعماء الوطنيّين في فاس مقترناً بزوجةٍ واحدةٍ، كما كان يحتقر أولئك الذين يجمعون بين أكثر من زوجةٍ. وكان كلٌّ من عمّي وأبي اللذين تبنّيا الأفكار الوطنيّة متزوّجاً بامرأةٍ واحدةٍ.

كان الوطنيّون أيضاً مناوئين للعبوديّة التي كانت تسود المغربَ في بداية القرن ـ حسب تصريحات ياسمينة ـ وذلك حتّى بعد أن أعلن الفرنسيّون أنّها ليست قانونيّةً. كثيراتٌ هنّ الزوجات في المزرعة اللواتي اشتُرِيْن من سوق النخاسة؛ وبعض زوجات جدّي الأخريات كنّ أَمَواتٍ أُحضِرن من بلادٍ أجنبيّةٍ كالسودان؛ أما بعضهنّ الآخر فقد انتُزعن من كنف أسرهنّ في المغرب نفسه، أثناء فترة الاضطرابات التي حلّت إثر مجيء الفرنسيين عام 1912 . تتابع ياسمينة حديثها:

عندما لايعبّر *«المَخزن»*(*) أي: (الدولة) عن إرادة الشعب؛ فإنّ النساء هنّ من يدفعن الثمن دوماً، إذ يسود العنف واختلال الأمن، وهذا ماحدث تماماً في تلك الحقبة؛ فقد وقّع *«المخزن»* وحكّامه البيروقراطيّون - الذين عجزوا عن التصدّي للقوّات الفرنسية - معاهدةً تمنح فرنسا حقّ حكم المغرب كمحميّةٍ فرنسيّةٍ، وذلك تحت نظام الحماية (البروتكتورا)(**). بيد أنّ الشعب رفض الخضوع، وانبثقت المقاومة في الجبال والصحاري، وبدأت الحرب الوطنيّة خفيةً. أخبرتني ياسمينة: «لقد كان هناك أبطالٌ، لكن كان هناك في المقابل، مجرمون مسلّحون من كلّ جنسٍ، يتسلّلون من وإلى كلّ مكان. لقد حارب الفريق الأوّل الفرنسيين، أما الفريق الثاني فقد نهب الناس وسلبهم. وعلى تخوم «الصحراء»(***) في الجنوب، ظهر بعض الأبطال كـ «الهِيْبَا»، ومن بعده أخوه، حيث قاوما الاحتلال حتّى عام 1934 . أما في منطقتي أي: جبال الأطلس، فقد قام الشريف مُوهَا وحَمُو زَيَّاني بإيقاف الجيش الفرنسي عند حدّه حتّى عام 1920؛ وفي الشمال حارب أمير المجاهدين عَبْدِ الكْريم(****) الفرنسيّين والإسبان، وألحق بهم شرّ هزيمةٍ أكثر من مرّةٍ، إلى أن تمكّنوا من التغلّب عليه وقهره عام 1926 . لكن في مُعْتَرَكِ هذه الضجّة، كانت الفتيات الصغيرات يُنتَزَعنَ من العائلات الفقيرة في الجبال؛ كي يُبعن إلى سكّان المدن الموسرين. كانت تلك ممارسة

(*) في الأصل Makhzen. وتجدر الإشارة إلى أنّ الاسم متداول في المغرب جداً حيث يعبّر كما ذكرت الكاتبة عن الدولة أو الحكم، فمثلاً عندما نقول «دار المخزن» فذلك يعني القصر الملكي.

(**) البروتكتورا Protectorat: نظام الحماية أو الوصاية الذي يسمح لدولة قوية بحماية أو بالوصاية على دولة ضعيفة وقد حلّ هذا النظام محلّ نظام الانتداب منذ إنشاء منظّمة الأمم المتّحدة بدلاً من عصبة الأمم.

(***) في الأصل Sahara. تطلق التسمية على المنطقة الجنوبية من المغرب وهي منطقة الصحراء المغربية التي تشكّل جزءاً من الصحراء الكبرى أوسع صحاري العالم.

(****) المقصود هنا عبد الكريم الخطابي (1882 - 1963) زعيم قبائل الريف في منطقة الشمال المغربي هزم الإسبان قرب مليلة عام 1921 ، وقبض عليه الفرنسيّون عام 1926 . توفي في القاهرة.

شائعةً، وجدّك رجلٌ طيِّبٌ، وإنْ كان يشتري العبيد؛ فقد كان هذا الأمر طبيعيّاً في ذلك الحين. إلّا أنّه تغيَّر الآن، كما هو حال معظم وجهاء المدن الكبرى؛ حيث اعتنق أفكار الوطنيّين بما فيها احترام الفرد، والزواج الأحاديّ، وإلغاء العبوديّة، وكل ما يترتّب على ذلك من نتائج... غير أنّنا نحن الزوجات ـ على ما في الأمر من غرابةٍ ـ نشعر بأنّنا أكثر تقارباً من أيِّ وقتٍ مضى؛ فأولاء اللواتي كنّ إماءً، قد بحثن عن الخيوط التي تقودهنّ إلى إيجاد عائلاتهنّ الأصليّة؛ لكنّهنّ لم يفكّرن للحظةٍ واحدةٍ بهجر جدِّك. لقد كنا نشعر بأنّنا أخواتٌ، وبأنّ عائلتنا الحقيقيّة هي العائلة التي نسجناها حول جدِّك تازي؛ لدرجة أنّني قد أُظهر بعض التسامح تجاه لالا طْهُر، لو تتوقّف فقط عن احتقارنا، بذريعة أننا لانملك تاجاً».

لقد أسهمت ياسمينة ـ عبر إطلاقها اسم لالا طْهُر على بطّتها ـ في خلق مغربٍ جديدٍ ومثاليٍّ، ستلج إليه حفيدتها. وكانت تعبّر لي عن ذلك في الغالب: «لقد تغيّر المغرب بسرعةٍ فائقةٍ يا بنيَّتي، وسوف يتابع تطوّره». لقد أسعدتني هذه النبوءة؛ فأنا سأكبر في مملكةٍ رائعةٍ، تحظى النساء فيها بكامل حقوقهنّ، بما فيها حقّ مداعبة الزوج في الليالي كلِّها.

تضيف ياسمينة، رغم تذمُّرها على انتظار زوجها ثماني ليالٍ: إنّها يجب ألا تكثر من الشكوى؛ فنساء هارون الرشيد ـ خليفة بغداد العبّاسي ـ كان يتوجَّبُ على كلٍّ واحدةٍ منهنّ أن تنتظر تسعاً وتسعين وتسعمئة ليلةٍ؛ حيث كان الخليفة يمتلك *ألف «جاريةٍ»*[4]. «فالصبر على مدى ثماني ليالٍ أمرٌ لايذكر بالمقارنة مع الانتظار طيلة تسعٍ وتسعين وتسعمئة ليلةٍ أي: قرابة ثلاث سنواتٍ!. وهذا مايبرهن على أنّ الأمور تَصْلُح شيئاً فشيئاً، وفي القريب العاجل سيكون لكلِّ امرأةٍ رجلٌ[5]... هيّا بنا نُطعم العصافير، سوف يتوفّر لدينا متّسعٌ من الوقت؛ للتحدُّث عن الأحاريم لاحقاً». عندئذٍ، انطلقنا نهرول صوب حديقتها بغية إطعام العصافير.

5

شامة والخليفة

ماهو «الحريم» بالضبط؟. إنّه سؤالٌ من النمط الذي يخلق الارتباك عند الراشدين، ويقودهم نحو التناقض باستمرار. ومع ذلك يلحّون علينا دائماً ـ نحن الأطفال ـ أن نستخدم كلماتٍ دقيقةً؛ فوفق ما يقولون: لكلِّ كلمةٍ معنىً محدَّدٌ، يجب أن تُستعمَل للدلالة عليه حصراً. غير أنّني ـ إن تُرِك الخِيار لي ـ سوف أستعمل كلمتين مختلفتين للتحدّث على كلٍّ من حريم ياسمينة وحريمنا بقدر مايتباينان؛ فحريم ياسمينة مزرعةٌ واسعةٌ طليقة الأطراف، ولا أسوارٌ تحدُّها؛ أما حريمنا في فاس فهو أشبه بمعقلٍ. ففي حين تمتطي ياسمينة وضرائرها الخيل، ويسبحن في النهر، ويصطدن الأسماك ويشوينها على نار الحطب في الهواء الطلق؛ لم يكن بمقدور أمّي أن تجتاز البوّابة دون أن تطلب أكثر من تصريحٍ يخوّل لها ذلك؛ حتّى في حال حصلت على تصريحٍ، لايُسمح لها إلّا بزيارة ضريح مولاي إدريس وَلِيِّ المدينة الشفيع، أو بالذهاب لرؤية أخيها الذي يقطن في شارعنا نفسه، وفي حالاتٍ استثنائيّةٍ، بحضور عيدٍ دينيٍّ. وعندئذٍ، يجب أن يستصحبها أحد أبناء عمّي الشبّان، ونساءٌ أخرياتٌ أكبر سنّاً منها. لذلك يبدو لي ضرباً من اللامعقول استعمال الكلمة ذاتها لوصف كلا الوضعين: وضع ياسمينة، ووضع أمّي. لكن

في كلِّ مرّةٍ كنتُ أسعى فيها لتحديد معنى كلمة «حريم»؛ كانت تنشَب مشاحناتٌ حامية الوطيس، تنتهي بجلبةٍ ليس لها ضابطٌ.

لقد تحدّثتُ إلى سمير في صدد هذه المشكلة، ووصلنا إلى استنتاجٍ مفاده: إن كانت الكلمات على وجه العموم خطيرةً، فإنّ كلمة «الحريم» تتنزّل من النسوة منزلة النار إلى البارود؛ فإذا أراد أحدهم بذر الشقاق في الفناء، ماعليه إلاّ أن يعدّ الشاي، ويدعو بعض النسوة إلى الجلوس، ثمّ يطلق كلمة «حريم»، وينتظر حوالى نصف ساعةٍ. سوف يرى عندئذٍ سيّداتٍ على مستوى عالٍ من الكياسة والأناقة، ومتبهرجاتٍ في قفاطينهنّ الحريرية وبوابيجهنّ المطرّزة بالجواهر؛ يتحوّلن إلى جِنّيّاتٍ هائجاتٍ غاضباتٍ. لذا قرّرتُ وسمير أنّ من واجبنا ـ نحن الطفلين ـ حماية الراشدين؛ بحيث لن نستعمل كلمة «حريم» إلاّ وفق أدنى حدٍّ ممكنٍ، وسنتدبّر أمرنا باستقاء المعلومات عن طريق غير مباشرةٍ وفي سرّيّةٍ مطلقةٍ.

طائفةٌ من النسوة البالغات رأت أنّ الحريم شيءٌ حسنٌ، في حين أعلنت الطائفة الأخرى النقيض تماماً. كانت جدّتي لالا ماني ووالدة شامة لالا راضية تنتميان إلى المعسكر الموالي للحريم؛ أما أمّي وشامة والعمّة حبيبة فكنّ يتمترسن على الجبهة الأخرى في المعسكر المعارض. في معظم الأحيان، تبدأ لالا ماني في الجدال قائلةً: إنّه لمن المحال على المجتمع أن يتقدّم، وأن يحقّق أيَّ نِتاجٍ، إذا لم تُفصل النساء عن الرجال. وكانت تقول: «لو أُطلق العنانُ للنساء يتجوّلن في الشوارع كما يحلو لهنّ؛ فإنّ الرجال سيعزِفُون عن أعمالهم؛ لأنّهم لن يفكّروا عندئذٍ إلّا باللهو، ولسوء الحظّ ليس باللاهين يُنتج الغذاء والمواد الاستهلاكيّة الضروريّة. وإذا كنّا نحرص على تجنّب حدوث المجاعة؛ يجب على النسوة أن يلازمن مكانهنّ الطبيعي، وهذا يعني: البيت».

حصلت وسمير لاحقاً على استشارةٍ في غاية الأهميّة، تتعلّق بمعنى كلمة «اللهو»؛ واستنتجنا منها أنّ هذه الكلمة عندما تنطبق على البالغين؛ فإنها تكون مرتبطةً بالجنس، وتصبح دلالاتها:

«المجون». مع ذلك، كنّا نريد التأكّد من معلوماتنا؛ فَوَكِلنا هذه القضية إلى ابنة العمّ مليكة، فقالت لنا: إننا محقّان. عندئذٍ سألناها مستدرِكَيْن، ومستنفِريْن كلّ ما لدينا من قدراتٍ ذهنيّةٍ: «والجنس في رأيك ماهو؟». كنّا نعرف الإجابة سلفاً، لكنّنا بالطبع أردنا التحقّق منها؛ فقامت مليكة ـ متصوّرة أننا نجهل كلّ شيءٍ عن هذا الأمر ـ وألقت ضفيرتها إلى الخلف، وبحركةٍ لاتخلو من المهابة جلست على الأريكة، ثمّ وضعت وسادةً على ركبتيها كشخصٍ بالغٍ غارقٍ في التفكير، وقالت: «ليلةَ الزفاف، حيث يتفرّق المدعوّون كلّ إلى مثواه، يبقى العروسان وحيدين في غرفتهما يلتحفهما الصمت والسكينة؛ يُجلِسُ العروسُ العروسة(*) على السرير، ثم يتشابكان الأيادي، ويسعى جاهداً لجعلها تنظر إلى عينيه، لكنَّها تصون عينيها خفيضتين. وفي هذا الأمر مكمن الأهميّة؛ فهي خجلةٌ جدّاً وفزعةٌ. يُنشِد العروسُ قصيدةً، وهي تنصت وناظراها مسدلان دوماً صوب السجّادة. في نهاية المطاف، ترسم على شفتيها ابتسامةً. وعندئذٍ يطبع قبلةً على جبهتها، وهي ماتزال خفيضة العينين، ثمّ يقدّم لها فنجاناً من الشاي، وببطءٍ شديدٍ تبدأ باحتسائه. يأخذ الفنجان من يدها، ويجلس إلى جانبها، ويقبلّها على... يقبلّها على...». تقرّر مليكة ـ التي تتلاعب بأعصابنا ـ أن تتوقّف في تلك اللحظة المنبئة بكشف المستور؛ موقنةً أنّني وسميراً نتحرّق شوقاً لمعرفة الموضع الذي يقبّل الزوج فيه زوجته بالضبط؛ فالقبلات على الجبهة والخد واليدين لم تكن مسألةً غير اعتياديةٍ؛ أما على الشفتين فهذا أمرٌ آخر!. غير أنّنا كي نلقّن مليكة درساً في الإذلال؛ شرعنا ـ بدل أن نكشف عن فضولنا ـ نتوشوش فيما بيننا متظاهرين بأنّنا نتجاهل وجودها؛ فأن يُظهر المرءُ لمحاوره عدم اهتمامه به، هو ـ كما علّمتنا العمّة حبيبة مؤخراً ـ طريقةٌ فعّالةٌ ليستوليَ الضعفاء على

(*) العروس والعريس مفردتان يطلق كلٌّ منهما للمذكّر والمؤنّث على حدٍّ سواء، ونظراً لما تفرضه طبيعة المقطع من ضرورةٍ للتفريق فقد أضفنا تاءً مربوطةً للتأنيث.

السلطة: «إنّ التحدّث إلى جمهورٍ كلُّه آذانٌ صاغيةٌ، هو التعبير الفعلي عن السلطة والنفوذ. بيد أن المستمعين الأكثر خضوعاً في الظاهر، والأكثر صمتاً؛ يلعبون دوراً استراتيجيّاً هامّاً، هو دور الجمهور. فما هو مصير خطيبٍ ـ مهما يكن ذا سطوةٍ ـ إذا فقد جمهوره بغتةً؟». لقد أحسّت مليكة بالخطر طبعاً؛ فاستأنفت عرضها لأحداث ليلة الزفاف: «يقبّل العروسُ العروسةَ على شفتيها، ثمّ ينامان في سريرٍ كبيرٍ، حيث لايمكن لأحدٍ أن يراهما». ولم نتابع طرح أسئلتنا؛ فقد كنّا نعرف التتمّة: يخلع الرجل والمرأة ثيابهما، ويغلقان عيونهما، وبعد بضعة أشهرٍ يَهُلُّ الطفل. كانت حياة الحريم تجعل كلَّ اتصالٍ بين الرجال والنساء مستحيلاً؛ وبهذا كلٌّ يستطيع أن يَقْصُرَ نفسه لمهمّاته.

في غضون التمجيد الذي تكنّه لالاماني لفضائل الحريم، كانت تثور أعصاب العمّة حبيبة، ويُلحظ هذا من تصرّفاتها؛ إذ لاتتوقّف عن إعادة ترتيب تسريحتها التي لاتبدو بحاجةٍ إلى ذلك؛ فهي نظراً لكونها مطلّقةً، لاتستطيع أن تخالف لالا ماني جهاراً، بل كانت تكتفي بأن تهمهم احتجاجاتها، وبصوتٍ خفيضٍ، تاركةً لأمّي وشامة مهمّة التعبير عن رفضهنّ؛ فاللواتي يُخوَّل لهنَّ مخالفة الأخريات علناً، والتعبير عن وجهات نظرهنّ المغايرة، هنّ فقط أولاء اللواتي يحتزن بعض السلطة. أما امرأةٌ مطلّقةٌ، أو بالمعنى الدقيق للعبارة: امرأةٌ لاتملك بيتاً، فإنّها يجب عليها أن تدفع ثمن إقامتها، بأن تجعل نفسها قادرةً على النسيان بأقصى ما لديها من طاقات؛ فهي «مُحَيُوزَة»[*] أي بالمعنى الفصيح (مُضَافة)، وكان يجب ألّا تكون هنا. لم تمتلك المهارة ولا الذكاء؛ لكي تصنع لنفسها موقعاً ذا قيمةٍ في المجتمع، فهي ـ على سبيل الذكر ـ لاترتدي بتاتاً ملابس ذات ألوانٍ صارخةٍ، رغم تعبيرها السليقيّ أحياناً عن رغبتها تلك،

(*) في الأصل Mhyuza.

بارتداء «فَرَجِيَّتِها» الحريريّةِ الحمراءِ. كانت تتزيّا في معظم الأوقات بأزياءٍ سمراء فاتحةٍ (بلون البيج) أو باهتةِ الألوان. أما التبرُّج الوحيد الذي كانت تَفْرِضُه، فهو الكحل الذي تحيط عينيها به. وكانت تقول: «على الضعفاء تجنُّب الهَوان، ويجب ألّا نفسح الفرصة للآخرين في إذلالنا. ومن الضروري ألّا يكون الفقر حائلاً بيننا وبين الأناقة».

وقتَ كانت أمّي تتّخذ وضعيّة المواجهة مع لالا ماني، كانت تجلس على الأريكة مُتَرَبِّعةً، ثمّ تسحب وسادةً بحركةٍ هادئةٍ، وتضعها فوق ركبتيها، لتسند يديها إليها؛ فمن أصول الإعداد لهجوم ما، تلافي الإكثار من الحركات، وتلافي كلّ تشتّتٍ أو تبديدٍ للطاقة. بعد ذلك تتكتّف أمّي جاعلةً الوسادة مُتَّكأً لمرفقيها، ثمّ تشدّ ظهرها، وتنظر إلى لالا ماني محدّقة في عينيها مباشرةً: «إنّ الفرنسيّين - يا حماتي العزيزة - لايفرضون على زوجاتهم أن يبقَين سجيناتٍ خلف الجدران، بل يفسحون لهنّ المجال، يجُبْن الأسواق على أهوائهنّ. كما إنّهم يلهون بأجمعهم، إلّا أنّ العمل يُنجز رغم ذلك. في الواقع، إنه يُنجز بشكلٍ ممتازٍ، إلى حدٍّ يسمح لهم أن يجهّزوا جيشاً قويّاً، وأن يسيروا إلينا لشنّ هجومٍ على «المدينة». بعدئذٍ - وقبل أن تستعيد لالا ماني أنفاسها - تبدأ شامة بعرض نظريّتها عن أصل «الحريم» الأوّل؛ وتأتي اللحظة التي تفسد الأمور فيها؛ إذ تأخذ لالا ماني - ترافقها أمّ شامة - بالصراخ، زاعمتين أنّ مؤامرةً تُحاك ضد أسلافنا، وأنّ تقاليدنا المقدّسة تتحوّل إلى مهزلةٍ.

كانت نظريّة شامة مثيرةً للاهتمام إلى حدٍّ بالغٍ، وكنتُ وسمير نعشقها؛ حيث تروي شامة القصّة في إطارٍ تمثيليٍّ، فتجعلها كأنّها حكايةٌ مصوّرةٌ عبر التناغم بين ما تنطقه وبين ماتقوم به من حركاتٍ مسرحيةٍ: كان يا ماكان، في غابر الأزمان، وسالف العصر والأوان. كان هناك زمن يتحارب الرجال فيه دون توان، وتُراقُ دماءٌ غزيرةٌ سدىً؛ فيضيع السلم وينأى الأمان. حتّى أتى يومٌ من الأيّام،

قرّروا فيه ـ لمباشرة السلطة وتنظيم الأوضاع والأحوال ـ تنصيبَ سلطان(*)، يُملي على الآخرين مايجب عليهم أن يفعلوه، ويمارس *«السُّلطة»*، وكان لزاماً على الرجال أجمعين أن يطيعوا السلطان. لكن كيف نقرّر من منّا سيكون السلطان؟. تساءل الرجال في أثناء اجتماعهم. لقد فكّروا مليّاً، إلى أن خطرت لأحدهم فكرةٌ: «يجب أن يكون لدى السلطان ما ليس لدى الآخرين». وتابعوا تأمُّلَهم، فجاءت إلى واحدٍ آخر منهم فكرةٌ ثانية: «نقوم بتنظيم رحلةٍ لصيد النساء، ومن يوقع أكبر عددٍ منهنّ في الفخ سوف ينصّب سلطاناً»؛ فوافقه الآخرون على فكرته، وقالوا: إنّها حقّاً لفكرةٌ رائعةٌ. لكن أيُّ برهانٍ يثبت لنا من هو الفائز؟؛ إذ إنّ كلاً منّا سوف يذهب في اتّجاهٍ وقتَ نشرع في الجري عبر الغابة. عندها، استدرك صاحب الفكرة قائلاً: «إذاً، علينا أن نجد طريقةً نشلُّ بوساطتها حركة النسوة اللائي نقبض عليهنّ؛ كي نتمكّن من إحصائهنّ، فنحدّد بالتالي الفائز بيننا». ومن هنا جاءت فكرة بناء المنازل: منازل مزوّدةٌ بأبوابٍ وأقفالٍ لسَجْن النسوة.

لفت سمير الأنظار إلى أنّ لدى النساء ضفائر طويلةً، وعليه كان من الأبسط تقييدهنّ إلى الأشجار بضفائرهنّ نفسها. فأجابته شامة: كانت النساء في ذلك الزمان قويّاتٍ على الدرجة نفسها التي كانت للرجال؛ فإذا قيّد هؤلاء الرجال امرأتين أو ثلاثاً إلى شجرةٍ بعينها؛ فسوف يكون في مقدورهنّ اجتثاثها من جذورها. وفوق هذا، إنّ تقييد نساء ـ على هذا القدر من القوّة ـ سيستغرق وقتاً طويلاً، كما سيتطلّب جهداً كبيراً، هذا دون الأخذ في الحسبان أنهنّ قد يخدشنكم بأظفارهنّ، أو يركِلنكم في مواضع يمنعني الحياء من تسميتها. لقد كان جليّاً أنّ الأيسر بكثير هو بناء جدرانٍ صمّاءَ عاليةٍ، تتوسّطها أبوابٌ نادرةُ الوجود ومرتجةُ الأقفال تَغُرُّ النساء ليدنون منها؛ فيستطيع الرجال ـ إثر ذلك ـ احتجازهنَّ داخل تلك

(*) في الأصل Sultan، والكلمة عربية الأصل.

الأسوار المنيعة. إذاً... أولئك هم الرجال الأوائل الذين ابتدعوا فكرة «الحريم».

نُظِّمت مسابقة الصيد هذه على المستوى العالمي، وما جرى هو أنّ البيزنطيين ربحوا الجولة الأولى. لقد كانوا الشعب الأكثر شرّاً بين شعوب الأمبراطوريّة الرومانيّة قاطبةً. ولسوء الحظّ، كانوا يعيشون على مقربةٍ من العرب، ولم يكونوا يفوّتون فرصةً تسنح لهم، لإلحاق الإهانة بجيرانهم. لقد غزا أمبراطورهم العالم، وقنص عدداً هائلاً من النسوة، ثمّ زربهنّ في حريم؛ كي يبرهن على أنّه رأسُ الجميع. بين يديه تذلّل الشرق والغرب، واستبدّ الخوف بكلٍّ منهما. غير أنّ العرب وبعد عدّة قرونٍ تعلّموا غزو الممالك وصيد النساء؛ وحقّقوا تقدماً سريعاً ونجاحاً باهراً، ووضعوا على ذروة أولوياتهم غزو الأمبراطوريّة البيزنطيّة. وأخيراً... ها هو الخليفة هارون الرشيد ـ الذي حظي بمزيّة أوّل من وطئ تلك الأرض ـ يتهدّد الأمبراطور الروماني بجيشه، سنة 181 هجرية (798 ميلاديّة)؛ فذُعر هذا الأخير وأصيب بالهلع، حتّى أنّه وافق ـ مرتجفاً كورقةٍ في مهبّ الريح ـ على الإقرار بأنّه مستعدٌّ لدفع مبالغ بغير حساب، شريطة أن يقبل الجيش الإسلامي بالتراجع قليلاً عن حدود الأمبراطوريّة. أصبح هارون الرشيد ثريّاً، وتابع فتوحاته في العالم أجمع[1]، وبعد أن حشد ألف *«جاريةٍ»* في حريمه، أنشأ قصراً ضخماً في بغداد؛ ليحبسهنّ فيه. وبهذا الشكل، لم يكن لأحدٍ أن يشكّ في أنّ هارون الرشيد: هو السلطان؛ وبات العرب سلاطين العالم، وهمّوا يجمعون أعداداً متزايدةً من النساء؛ حيث امتلك الخليفة المتوكّل أربعة آلاف جاريةٍ، وكان للمقتدر أحد عشر ألفاً من العبيد بين رجلٍ وامرأةٍ. لقد دان العالم لهم ـ من أقصاه إلى أدناه ـ بالاحترام، وأصبح العرب يصدرون الأوامر، والروم يطيعون. بيد أنّ المسيحيّين ماكرون، ويجب ألّا يُثَق بهم أبداً، وخاصّةً عندما يلعبون دور المطيع: ففي ظلّ انهماك العرب في حَبْسِ نسائهم خلف الأبواب، كان الروم وسائر المسيحيّين مجتمعين بهدف التباحث في مسألة تغيير قواعد اللعبة

في البلدان المتوسطية؛ وقرّروا مايلي: لم يعد الأمر مرتبطاً بحشد جموع النساء وراء الأسوار؛ بل بات الأقوى - من الآن فصاعداً - من يَحوز الآلات والأسلحة الأكثر فعاليّة؛ بما فيها الأسلحة الناريّة والسفن الحربيّة. كما قرروا إحاطة الموضوع بسريّةٍ مطلقةٍ؛ فيجب ألّا يبوحوا بكلمةٍ واحدةٍ عن هذا التغيير المُهَيَّأ للعرب؛ وأن يحفظوا سرّهم بهدف أن يأخذوهم على حين غرّة. لقد كان العرب نائمين على آذانهم، ظنّاً منهم أنّ كلّ شيءٍ يتعلّق بقواعد لعبة السلطة معروفٌ بالنسبة إليهم تماماً.

في هذه اللحظة بالذات، تتوقّف شامة عن الكلام، وتنهض من مكانها بنَهْزَةٍ واحدةٍ؛ لتصعيد الحدث المسرحيّ في سبيلنا نحن الطفلين، دون أن تقيم اعتباراً لصيحات الاحتجاج التي تطلقها لالا ماني ولالا راضية؛ وتبدأ بإخراج كلماتها ضمن قالبٍ تمثيليٍّ. وعلى المسار الزمنيّ نفسه، كانت العمّة حبيبة تزمزم شفتيها بطريقةٍ غريبةٍ؛ لتخفي عن أبصار الحاضرين ابتسامةً قد تهرب منها دون إرادتها؛ فالضحك من قِبَلها يعبّر عن أنها توافق شامة، وتسخر من قدرة أجدادنا التحليليّة. آنذاك، ترفع شامة قميصها المصنوع من القماش المخرّم (الدانتيلّا) الأبيض؛ لكي تحرّر ساقيها، وتقفز نحو أريكةٍ شاغرةٍ. تستلقي عليها متظاهرةً بالنوم، وكالنعامة تدفن رأسها في الرمال، تدفن شامة رأسها في إحدى الوسادات الضخمة، وتغطّي وجهها بشعرها الأصهب الحَرُون، ثم تصيح بأعلى صوتها: «العربُ نِيامٌ!»، وتغلق عينيها وتشرع بالشخير. بعد ثوانٍ قليلةٍ، تقفز مرةً أخرى، وتحدّق بي وبسمير، كأنّها لم ترنا من قبلُ، وتقول: «لقد استفاق العرب من غفوتهم أخيراً!. ذلك منذ بضعة أسابيع؛ فقد أضحت عظام هارون الرشيد رميماً، والأمطار نَشَلت العظام الرميم، ثم جرفتها إلى نهر دجلة، ونهر دجلة يصبّ في البحر، وهناك يغدو كل شيءٍ متناهياً في الصغر... وضاع رُفات هارون الرشيد عبر هَيَجَان الأمواج. في الوقت الحالي، يحكم ملك فرنسا الجزء الخاص بنا من العالم أي (وطننا)، ويحمل لقب رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة،

ولديه قصرٌ ضخمٌ في باريس، يُطلق عليه اسم الإليزيه. ويا لهول المفاجأة!. إنّه ليس مقترناً إلا بزوجةٍ واحدةٍ، ولا حريمٌ هناك، وزوجته الوحيدة تلك تمضي وقتها بالتجوّل في الشوارع، مرتديةً تنّورةً أقصر من أن تغطّي شيئاً من ساقيها، وقميصاً مُقوّراً يكاد لايستر أيّ جزءٍ من عنقها والكتفين، ويوشك ردفاها ونهداها أن ينكشفا بمرأىً من كلّ الناس. رغم ذلك، لا أحدٌ يخامره الشكُّ في أنّ رئيس الجمهوريّة هو الرجل الأقوى في البلاد؛ فسلطة الرجال لم تعد تقوم على العدد الذي يستطيعون أن يسبوه من النساء. غير أنّ ذلك يُعَدُّ ضرباً من الحداثة في مدينة فاس التي تسمَّر زمانها عند عصر هارون الرشيد!». ووقتها تثب شامة من جديدٍ على الأريكة، تغلق عينيها، وتغوص بوجهها في الوسادة الحريرية المزيّنة برسوم الأزهار... ويسودُ المشهدَ الصمتُ.. تُعتِّم المنصّة، ثم تُسدل الستارة.

كنتُ وسمير مولعَيْن بقصّة شامة، فقد كانت ممثّلة قديرةً!، وكنتُ دوماً أرقُبها بانتباهٍ شديدٍ؛ حتّى أتعلّم سَرْد الحكايات بالإيماء. وذلك يتطلّب إيجاد الكلمات المناسبة - وفي الآن ذاته - القيام بالحركات المتوافقة معها. لكنّ قصّة شامة لم تثر حماسة الحاضرين جميعهم، وعلى وجه الخصوص، أمّها لالا راضية التي أذهلتها القصّة للوهلة الأولى، ثم أثارت حنقها، وخاصّةً لدى سماعها اسم الخليفة هارون الرشيد؛ فقد كانت لالا راضية امرأةً مثقّفةً قرأت كتب التاريخ؛ تبعاً لموهبةٍ لديها ورثتها عن أبيها الذي كان شيخاً فقيهاً ومُفْتِياً في قضاء الرباط. كانت تمقُت أن يُستهزَأ بالخلفاء بشكل عام، وبهارون الرشيد تحديداً. فتصيح قائلة لدى سماعها كلام ابنتها: «سبحانك ربّي.. يا الله! سامح ابنتي واغفر لها أنّها ما تنفكّ تهاجم الخلفاء، وتزرع ذهنيّ هذين الطفلين البريئين بالتشوّش!. إنّهما لإثمان لايُغتفران. يا للصغيرين المسكينين، سوف تتكوّن في عقليهما صورةٌ مشوّهةٌ جداً عن أسلافهما إذا تابعت شامة على هذا النحو». ثمّ تطلب لالا راضية منّي ومن سمير أن نجلس بمحاذاتها، كي تروي لنا النسخة الصحيحة من القصّة، فتجعلنا نحبّ

الخليفة هارون: «لقد كان أمير الخلفاء أجمعين، فهو من غزا بيزنطة، ورفع راية المسلمين لترفرف خفّاقةً في سماءات الكثير من العواصم النصرانية». ثم تضيف بإصرار على أنّ ابنتها مخطئةٌ كلَّ الخطأ فيما يتعلّق بالأحاريم: فالأحاريم ابتكارٌ رائعٌ؛ فبوجودها يحقّق الرجال المحترمون العيش لكلِّ النساء اللواتي لا أهل لديهن، ويؤمّنون السِّتْر لهنّ، ويحمونهن من التعرّض للخطر وانعدام الأمن اللذين يعمّان الشوارع. إنّهم يقدّمون إليهنّ أماكن رائعةً مرصوفةً بالرخام وتملؤها البحرات؛ كما يوفّرون لهنّ الغذاء الحسن والملابس الجميلة والجواهر والحلى. فهل تحتاج المرأة شيئاً آخر حتّى تكون سعيدةً؟. النسوة الفقيرات ـ كلوزة زوجة حِمِد البوّاب ـ هنّ فقط المجبرات على الخروج للسعي وراء أرزاقهنّ؛ أمّا النسوة المترفات المدلّلات، فمَعْفوٌّ لهنّ ذلك العناء.

كنتُ أشعر وسمير غالباً بأننا عاجزين عن إزالة الغشاوة التي تحيط إدراكنا، والناشئة عن تلك الآراء المتناقضة، وكنّا نسعى آنذاك إلى تنظيم معلوماتنا. لقد كان الراشدون يفتقرون إلى المنهجيّة!. إنّ الحريم ذو صلةٍ بالرجال والنساء ـ هذا أمرٌ مؤكّدٌ ـ وذو صلةٍ بالبيت والجدران والشوارع، وهذا أيضاً أمرٌ لاريب فيه. كانت هذه الأمور برمّتها أموراً بسيطةً وسهلة الفهم: ضعوا أربعة جدران وسط الشارع؛ تحصلوا على منزل. ثم ضعوا النسوة داخل المنزل، ودعوا الرجال يخرجون؛ تحصلوا على حريم. حينئذٍ تساءلت متوجهةً إلى سميرٍ: لكن إذا وضعنا الرجال في المنزل، وجعلنا النساء يخرجن؛ فما الذي يحدث؟، فأجابني سمير بمعنى: إنني أعقّد الأمور لحظة بدأت تنجلي أمام عيوننا؛ فوافقت عندئذ على إعادة النساء إلى الداخل، وإطلاق الرجال إلى الحرّيّة. وتابعنا استقصاءنا، ولكنّ المشكلة التي واجهتنا تكمن في أنّ الجدران وبقيّة العناصر تتطابق تماماً مع تعريف حريم فاس، لكنّها لاتتوافق مع حريم المزرعة على الإطلاق.

6

جَوادُ طامو

أُقيم حريمُ المزرعة في بناءٍ بالغ الحجم مؤلَّفٍ من طابقٍ واحدٍ، له شكل الحرف T، محاطٍ بالحدائق والبرك المائية. الجناح الأيمن من المنزل يخصّ النساء، أما الجناح الأيسر فللرجال. ويعيّن *«الحدود»* بين الجناحين جدارٌ رقيقٌ من الخيزران، يبلغ ارتفاعه مترين، ويفصل الطرفين عن بعضهما. والجناحان ـ في الواقع ـ بناءان متماثلان، أُنشئا ظهراً لظهرٍ، مع واجهاتٍ متناظرةٍ، وأروقةٍ وسيعةٍ جدّاً ذات صفوفٍ من الأعمدة، تتيحُ للرطوبة بشكلٍ دائمٍ أن تبقى مُختزَنَةً في القاعات والغرف الصغيرة من المنزل. وهي تشكّل أماكن مثاليّةً للعبة «الغُمّيضة»، ولأطفال المزرعة الأشقياء، الذين يفوقون قرنائهم في فاس غايةَ الفَوَاقِ من حيث الجرأة. إنّهم برابرةٌ صغارٌ، يتسلّقون الأعمدة حفاةَ الأقدام، ويتواثبون كالبهالين، وكذلك لايخافون الضفادع والعَظَايات(*) الصغيرة جدّاً، ولا الحيوانات الدقيقة المجنّحة التي قد تحطّ عليكم في أيّة لحظةٍ، بينما أنتم في الأروقة. لقد رُصفَت الأرضيّة ببلاطٍ أسود وأبيض، ورُصّعت الأعمدة بفسيفساء ذات ألوانٍ خارجةٍ على المألوف، عبر الحوار التناغميّ

(*) العَظَايات مفردها العَظَاءة والعَظَاية: دويبّة ملساء أصغر من الجرذون تمشي مشياً سريعاً ثم تقف، وتُعرف عند العامة بـ «السقّاية»، ولها أنواع كثيرة.

بين الأصفر الباهت والأحمر الصَّلصاليّ. تلك الفسيفساء التي كان يوَدُّها جدّي، والتي لم أرَ قطّ مثيلاً لها من قبلُ. أُحيطت الحدائق بِشبَاكٍ أنيقةٍ من الحديد المُطرَّق، تتخلّلها بوّاباتٌ قوسيّة الشكل، تبدو مغلقةً باستمرار، غير أنّ دفعةً واحدةً كفيلة بفتحها على مصاريعها؛ للانطلاق صوب الحقول الفسيحة. تحتضن حديقة الرجال بعضاً من الأزهار وعدداً من الأُجُم النضِرة المُشَذَّبة؛ أمّا حديقة النساء فهي حكايةٌ أخرى تماماً: دِغَالٌ غرائبيّةٌ، ونباتاتٌ عجائبيّةٌ، وحيواناتٌ من كلِّ الأجناس. فكلُّ زوجةٍ اقتطعت قطعة أرضٍ صغيرةً اعتُبرت رسمياً بمنزلة حديقتها الشخصيّة؛ حيث تقوم فيها بزراعة الخضار، وتربية الدجاج والبطّ والغِرْغِرَة(*) والطواويس. ويمكن القول: إنّ التنزُّه في حديقة النساء محالٌ دون التطاول على أرض إحداهنّ، ودون أن تتابع الحيوانات خَطْوكم أينما توجّهتم، حتّى تحت قناطر الرواق المرصوف. كلُّ هذا في ظلِّ صخبٍ جهنَّميٍّ يتضادُّ كلَّ التضادّ مع هدوء حديقة الرجال الأشبه بهدوء الأديرة.

أُضيفت إلى البناء الرئيس في المزرعة أجنحةٌ أخرى مجاورةٌ له، تشغل ياسمينة الأيمن منها، وقد أصرّت على الإقامة فيه، شارحةً لجدّي أنّ مسوّغ إصرارها حاجتُها لأن تكون بعيدةً قدر الإمكان عن لالا طُهُر التي تقيم في البناء الرئيس داخل قُصَيْرها: حيث عُلِّقَت شمعداناتٌ على سطوح جدرانه المكسوّة بالمرايا؛ وأُسْدِلت ثريّاتٌ من مراكز سقوفه المشغولة بالخشب المنحوت الملوّن؛ ونُظِّمت في أرجائه تحفٌ من الأحجار البلّوريّة المُشظّاة. وفي المقابل، يتكوّن جناح ياسمينة من غرفةٍ واسعةٍ وجدّ بسيطةٍ، مجرّدةٍ من كافّة مظاهر البذخ الزخرفيّ؛ فثريّات البندقية ومراياها لاتثير اهتمامها البتّة. إنّها تؤْثر أن تبقى على الحِياد، وأن تجد المتّسع اللازم لزراعاتها التجريبيّة على الأشجار والأزهار، ولاختباراتها التدجينيّة على البطّ

(*) الغِرْغِرَة مفردها الغِرْغِر: وتسمّى أيضاً بـ «الدجاج الفرعوني». وهي نوع من الدجاج البرّيّ مهده الأصلي أفريقيا.

والطواويس بمجمل الأصناف. يضمّ جناح ياسمينة طابقاً، بُني خصّيصاً لـ «طامو» اللاجئة إلى المزرعة هرباً من حرب الريف التي جاشت في جبال الشمال؛ وعندما أُصيب طامو بالمرض، سهرت ياسمينة على مداواتها، ومنذئذٍ أضحت الاثنتان صديقتين.

وصلت طامو إلى المزرعة سنة 1926 ، بعد أن مُنِي عَبْدِ الكْرِيم بالهزيمة أمام تحالف القوّات الفرنسيّة والإسبانيّة؛ ففي صبيحة أحد الأيّام من تلك السنة ـ وقبيل بزوغ الفجر في أفق سهل «الغرب»(*) ـ لاحت طامو ممتطيةً فَرَساً رَكُوباً إسبانيّاً، ومرتديةً مَشْلَحاً رجاليّاً أبيضَ، في تسريحةٍ نسائيّةٍ سعت إلى الحفاظ عليها؛ كي لايطلق الجنود النار عليها. كانت الزوجات جميعهنّ يعشقن سرْد حكاية وصولها إلى المزرعة؛ فقد كانت بروعة حكايات *«ألف ليلة وليلة»*، بل أروع منها، فطامو ـ والحال هذه ـ من لحمٍ ودمٍ، ويمكنهنّ التّصْت إليها ـ وقد ارتسمت البسمة على شفاههنّ ـ تروي مآثرها. كانت طامو ـ يوم وصولها ـ تطوّق معصميها بأساور بربريّةٍ فضّيّةٍ ثقيلةٍ ذات نتوءاتٍ حادّةٍ؛ بحيث يمكن استعمالها كسلاحٍ دفاعيٍّ. وكانت تحمل *«خنجراً»* على جَنْبها الأيمن، وبندقيّةً إسبانيّةً حقيقيّةً معلّقةً على صهوة فرسها، ومخفيّةً تحت مشلحها. كان لطامو وجهٌ مثلّث الشكل، وذقنٌ مدبّبةٌ موشومةٌ بوشمٍ أخضر، وعينان سوداوان لهما نظرةٌ ثاقبةٌ وواثقةٌ، وضفيرةٌ طويلةٌ نحاسيّة اللونِ تنسدل بتلقائيّةٍ فوق كتفها اليسرى. لقد توقّفت على مسافة بضعة أمتارٍ من المزرعة، وسألت صاحبَ البيت أن يُضِيفَها. لم يكن أحدٌ ليدرك ـ ذاك الصباح ـ أنّ الحياة في المزرعة ستنقلب رأساً على عقبٍ عمّا كانتْهُ سابقاً؛ فقد كانت طامو بطلةً من أبطال حرب الريف، وكان المغرب بأسره يكنّ جُلَّ الاحترام للـ *«ريافة»* (أهالي الريف)؛ فهم الوحيدون الذين تابعوا مسيرة القتال ضدّ الأجانب، وظلّوا كذلك لزمنٍ طويلٍ بعد أن خضعت سائر البلاد. وها هي هذه المرأة تطلُّ بزيِّ المحاربين،

(*) سهل الغرب Gharb: اسم منطقة السهول الواقعة غرب المغرب.

بعد أن اجتازت وحدها حدود عرباوة كلّها؛ لتمضي صوب منطقة الحكم الفرنسي، وتطلب المساعدة. وبما أنّها بطلةٌ من بطلات الحرب؛ فإنّها لم تكن تأخذ في اعتبارها القواعد النافذة في المزرعة، بل كانت تتصرّف كأنّها تجهل التقاليد جهلاً تامّاً.

على الأرجح، وقع جدّي في حبّ طامو، منذ اللحظة الأولى التي رآها خلالها، بيد أنّه لم يدرك ذلك إلّا بعد مضيّ عدّة أشهر؛ تبعاً لظروف التقائهما التي كانت شديدة التعقيد. لقد جاءت طامو إلى المزرعة بمهمّةٍ محدّدةٍ؛ إذ كان ملقىً على عاتقها تأمين المساعدة لأفراد عائلتها الذين كانوا مشتّتيّ الشمل بين الكمائن المختلفة في منطقة الحكم الإسباني؛ فأمدّها جدّي بعونه، بدءاً بتوقيعه - وعلى عجلٍ - عقد قرانٍ بينهما؛ لتبرير وجودها في المزرعة، إن حضرت الشرطة الفرنسية لتفتّش عنها. وصولاً إلى مساعدتها على إيصال الغذاء والدواء إلى أهلها، بعد أن طلبت إليه ذلك؛ حيث جُرح الكثير منهم، وتوجّب على كلّ قريةٍ - بعد هزيمة عبد الكْريم - أن تصمد وتحافظ على بقائها عبر وسائلها الخاصّة. لم تكن طامو تكفّ عن شتم أهالي فاس، ناعتةً إيّاهم بالـ «*دْجاج لْبيض*»(*) أي: (الدجاج الأبيض): «لو اندفع أهالي المدن إلى المعركة، لما خسر عبد الكْريم». وكان جدّي يتجنّب معارضتها، والحقّ يُقال: إنّها كانت تميّزه عن أهالي فاس التي يعود إليها محتده؛ وبذلك منحته الفرصة ليلعب دور البطل، فأمّن لها كلّ مايلزمها. وفي إحدى الأماسي ذهبت بصحبة شاحنتين تسيران ببطءٍ على الطرف المنخفض من الطريق، مطفأتيّ المصابيح، ويتقدّمهما فلّاحان متنكّران في هيئة تاجرين، يركبان حمارين، ويستطلعان الطريق، فيشيران إلى الشاحنتين إن كانت سالكةً أم لا، بوساطة مشعلين يحملانهما.

بعد مرور بضعة أيام، عادت طامو إلى المزرعة، وكانت إحدى

(*) في الأصل Djaj l'bied.

الشاحنتين محمّلةً بجثثٍ أُخفيت تحت حمولةٍ من الخضار. لقد كانت هذه الجثث لأبيها وزوجها وولديها: الصبيّ والبنت. وأثناء تفريغ الشاحنة من الأجساد الميتة، تسمّرت طامو أمامها غارقةً في صمتٍ عميقٍ، إلى أن جاءتها بقيّة الزوجات بمقعدٍ صغيرٍ واطئٍ؛ فجلست وهي ماتزال تتابع المشهد بناظريها حتّى آخره، دون أن تتفوّه بكلمةٍ، ودون أن تذرف دمعةً من عينيها، بينما هيّأ الرجال حفراً في الأرض، وأنزلوا الجثث إليها، وهالوا التراب على الأجساد الهامدة، ثمّ زرعوا الأزاهير فوق القبور؛ بهدف تمويهها. حين تمّ الأمر، لم تستطع طامو النهوض ولم تكن قدماها قادرتين على حملها؛ فاستدعى جدّي ياسمينة التي أمسكت ذراع طامو لإتكائها حتّى جناحها، ثم ساعدتها لتستلقي على سريرها. خلال عدّة أشهر لم تنطق طامو بحرفٍ واحدٍ، حتّى ظنَّ الجميع أنّها فقدت القدرة على الكلام. على أنّها كانت تصرخ في أثناء نومها على الدوام، وتجابه خصوماً متوهَّمين، وما إن تغلقْ عينيها، تنشبِ الحرب من جديدٍ؛ فتقفز أو تخرّ ساجدةً ومتوسّلةً إلى جلّاديها العفوَ، بلغةٍ لم تكن ياسمينة تفهمها. وحين أخبرتها ياسمينة أنّها تتكلّم خلال كوابيسها بلغةٍ غير مفهومةٍ؛ أجابتها: إنها تتكلّم باللغة الإسبانيّة. كانت طامو بحاجةٍ إلى من يعينها على تجاوز محنتها وأحزانها، دون أن يطرح عليها أسئلةً تفشي الكثير من الأسرار، ودون أن يكشف أيّ شيءٍ للجنود الفرنسيين والإسبان الذين كانوا يقومون ـ على مايبدو ـ بجولاتٍ تفتيشيّةٍ على ضفّة النهر المقابلة؛ ولقد اعتنت ياسمينة بها طيلة أشهر، إلى أن تماثلت للشفاء. وفي إحدى الأصابيح الجميلة، شوهدت طامو تداعب قطّةً، وتزيّن شعرها بزهرةٍ؛ فأقامت ياسمينة حفلاً على شرفها في مساء ذلك اليوم، واجتمعت الزوجات في الجناح، وغنّين لأجلها بطريقةٍ تُظهرها كواحدةٍ منهنّ؛ فارتسمت الابتسامة على شفتيها مرّاتٍ عديدةً، وسألت إن كان في مستطاعها الحصول على جوادٍ؛ حتّى تخرج في صباح اليوم التالي.

لقد غيّرت طامو ـ بوجودها وحسب ـ كثيراً من الأشياء في

المزرعة، وكانت تتملّكها مراراً رغبةٌ شديدةٌ ـ لاسبيل إلى كبحها ـ في الانطلاق على جوادها، ببعض النزهات الطائشة، أو الحركات البهلوانيّة. تلك كانت طريقتها الخاصة في مكافحة الحزن، وفي إيجاد مبرّرٍ تعيش من أجله. وبدلَ أن تشتعل الغيرة في أنفس ياسمينة وضرائرها، فإنّهنّ على عكس ذلك أُعجبن بها إعجاباً كبيراً، وعلى وجه الخصوص بسبب مواهبها التي كانت تظهرها، والتي تُعتبر مواهب مذهلةً إن وُجدت في امرأةٍ؛ فحين أصبحت طامو معافاةً تماماً، واستعادت قدرتها على الكلام، اكتشفت الضرائر أنّها تتقن استعمال البندقيّة، وتتكلّم الإسبانيّة بطلاقةٍ، وتستطيع أن تقفز إلى ارتفاعٍ عالٍ جداً؛ فتثب وثْباتٍ متعدّدةً وخطرةً دون أن تُصاب بالدوار؛ وكذلك فهي ماهرةٌ في إطلاق الشتائم بأكثر من لغةٍ. ونظراً لكونها ابنة منطقةٍ جبليّةٍ تعبرها الجيوش الأجنبيّة باستمرار؛ فقد تمكّنت من الجمع بين الحياة والنضال، بين السلم والحرب، بين الراحة والتنافس. وقتَ كانت النسوة الأخريات يَرين طامو في المزرعة ـ بوشمها الذي يزيّن محيّاها، وبخنجرها الذي تتقلّده أيّامَ الأعياد، وبأساورها القتاليّة التي تطوّق معصميها، وبميلها اللانهائيّ إلى التنزّه على صهوة فرسها ـ كنّ يدركن أنّ جمال المرأة لايقتصر على جمال صورتها وحسب، بل يمكن أن يتجلّى بهيئاتٍ متعدّدةٍ؛ فمن الوارد جداً أن تكون امرأةٌ ما آسرةً ومثيرةً؛ لأنّها تتقن فنون القتال، وترفض الضعف، وتسبُّ بعنفٍ، وتندفع بصورةٍ مذهلةٍ ممتطيةً جوادها في فضاءات نزهاتها. لقد كانت طامو تجهل التقاليد كليّاً، وفي الآن ذاته كانت محطّ أنظار الجميع واهتمامهم.

منذ اليوم الأوّل الذي حلّت فيه طامو على المزرعة، تحوّلت إلى أسطورةٍ؛ فقد جعلت الأخريات يشعرن بالقوّة الكامنة في دواخلهنّ، وبقدرتهنّ على الوقوف في وجه القدر مهما عظُم شأنه. كان جدّي

ـ خلال فترة مرض طامو ـ يأتي كلَّ نهارٍ إلى جناحِ ياسمينة؛ ليطمئن على صحّتها. وآنَ بدأت تتعافى، وطلبت حصاناً؛ استبدّ القلق به، جَزِعاً من أن يراها تهرب يوماً؛ فقد كان يجدها فائقة الحسن بضفيرتها النحاسيّة وعينيها السوداوين البرّاقتين وذقنها الموشومة بالأخضر؛ ولأنّها كانت عصيّةً على الترويض، متذبذبة المزاج. بيد أنه لم يكن واثقاً على الإطلاق من حقيقة مشاعره تجاهها؛ فهي لم تكن زوجته حقّاً، ولم يكن زواجهما سوى إجراءٍ قانونيٍّ، كما إنّ طامو مقاتلةٌ، ويمكن أن تختفي يوماً على صهوة جوادها في الأفق البعيد، متّجهةً صوب الشمال حيث أتت. فما كان منه إلّا أن طلب من ياسمينة أن ترافقه في نزهةٍ عبر الحقول، وأسرّ لها عندئذٍ بمخاوفه. ولأنّ ياسمينة تحمل إعجاباً كبيراً لطامو في دواخلها، ولاتحتمل فكرة رحيلها؛ فإنّها بدورها أُصيبت بالخوف، واقترحت على جدّي أن يطلب من طامو قضاء الليلة معه، وقالت له: «إنْ قبلت، فهذا يعني: إنها لاتفكّر في الرحيل، وإن رفضت، فهذا يعني: إنّها تفكّر فيه». بعدئذٍ عاد جدّي إلى جناح ياسمينة، وتبادل الحديث مع طامو منفردين، بينما كانت ياسمينة تترقّب النتيجة في الخارج. حين خرج جدّي كانت معالم البهجة ترتسم على محيّاه؛ فأدركت ياسمينة للتوّ أنّ طامو وافقت على أن تصير واحدةً من زوجاته. وبعد بضعة أشهر قام جدّي ببناء جناحٍ جديدٍ لطامو فوق جناح ياسمينة، ومنذ ذلك الحين أضحى منزلهما الصغيرُ هذا المقرَّ العامّ للتضامن النسائي.

من أوائل الأشياء التي قامت بها ياسمينة ترافقها طامو، بعد أن بُني الجناح كاملاً، هو زراعة شجرة موزٍ تخصّ «يايا» الضرّة السوداء، وكانتا تهدفان من ذلك التخفيف عن يايا في غربتها؛ لتشعر كأنّها في موطنها الأصلي. لقد كانت يايا أكثر الضرائر رزانةً، وهي طويلة القدّ وناحلة الجسم، وتبدو غضّة العود في قفطانها الأصفر، ولها وجهٌ رقيق البنية. كانت تبدّل عَمْرَتَها تبعاً

لتقلّب أمزجتها، رغم ميلها إلى اللون الأصفر، اللون المفضّل لديها، حيث كانت تقول: «اللون الأصفر يشعّ بالنور كالشمس». كانت ضعيفة المناعة تجاه الزكام، وكانت تصاب به مراراً. وهي تتكلّم العربية بلكنةٍ خاصّةٍ، ولم تكن تتدخّل قطّ في شؤون الزوجات الأخريات، بل تنزع دائماً إلى الانفراد بذاتها في جناحها الخاصّ. بُعيد وصولها إلى المزرعة بوقتٍ قليلٍ، قرّرت الزوجات أن يرفعن عن كاهلها عبء المهمّات المنزليّة؛ لأنّها كانت ذات بنيةٍ هشّةٍ ورقيقةٍ. في المقابل وعدتْهنّ بأن تروي لهنّ قصّةً كلَّ أسبوعٍ، تصف لهنَّ فيها حياتها في قريتها الأمّ المترامية جنوباً، أي: في السودان، بلد السود حيث لاتنمو هناك أيّة شجرة برتقالٍ أو ليمونٍ، بل تنتشر على امتداد النظر أشجار الموز وجوز الهند. لم تعد يايا تذكر اسم قريتها؛ غير أنّ ذلك لم يَحُلْ دونها لتصبح - كالعمّة حبيبة في حريمنا - الحكواتيّة الرسميّة للحريم. كان جدّي يساعدها على ترميم مخزون ذاكرتها، فيقرأ لها بصوت مرتفعٍ كتباً تاريخيّةً عن السودان، وممالك سُنغاي(*)، وغانا والأبواب الذهبيّة في تُمبوكتو(**)، وعجائب غابات الجنوب التي تحجب الشمس. كانت يايا تقول: إنّ البيض ينتشرون في كلّ مكان؛ إذ نجدهم في أقاصي الأرض قاطبةً، أما السود فهم عِرقٌ خاصٌّ؛ لأنّ وجودهم يقتصر على السودان والبلدان المجاورة، والواقعة جنوب «الصحراء».

في أثناء أماسي الحكايات، كانت الزوجات يجتمعن في حجرة يايا، ويحضرن معهنّ صواني الشاي، وتحدثهنّ عن موطنها الأصلي الرائع. ولم تمض بضع سنواتٍ، حتّى غدت النسوة يعرفن تفاصيل

(*) سُنغاي Songhai: إحدى قبائل مالي. أقامت على ضفّتي النيجر في القرن الثالث عشر. احتلّت تُمبوكتو بعد ذلك بقرنين من الزمن وأنشأت مملكةً دامت حتى 1591 .

(**) تُمبوكتو Tombouctou: واحدة من مدن مالي، وتقع قرب منعطف النيجر. عاصمة أمبراطورية سُنغاي خلال القرنين الخامس والسادس عشر. وتشتهر بآثارها ومساجدها.

«طفولتها» بشكلٍ ممتازٍ، إلى حدّ أنهنّ غدون قادراتٍ على إكمال عباراتها، وقتَ تتردّد وتخونها الكلمات، أو ترتاب في صحّة ذاكرتها؛ إلى أن أعلنت طامو في أحد الأيام، وبعد أن سمعتها تصف قريتها: «إنّ الشيء الوحيد الذي تحتاجين إليه؛ كي تشعري بأنّك في وطنك، هو شجرة موزٍ. وسوف نغرس لك واحدة على الفور». وبالطبع، لم يتصوّر أحدٌ للوهلة الأولى أنّ من الممكن زراعة شجرة موزٍ في سهل «الغرب»، حيث تعصف به رياح الشمال التي تهّب من إسبانيا، وتندفع نحوه السحب القادمة من المحيط الأطلسي. لكنّ الصعوبة الكبرى كامنةٌ في الحصول على الشجرة[1]. لقد بقيت طامو وياسمينة تكرّران أوصاف شجرة الموز مراراً، أمام الباعة الجوّالين الذين كانوا يمرّون بالمزرعة وهم على ظهور حميرهم. إلى أن حمل أحدهم ـ آخر الأمر ـ واحدةً إليهما، جاء بها من منطقة مَرّاكش[*]. وما إنْ رأت يايا الشجرة، حتّى سُرّت كثيراً، وانكبّت تعتني بها كما تعتني أمٌّ بطفلها الرضيع. وحرصت على حمايتها كلّما هبّت رياح الشمال بمُلاءةٍ كبيرةٍ. بعد مرور عدّة أعوام، وعندما حملت شجرة الموز وأعطت غِلّالها للمرّة الأولى؛ أقامت الضرائر حفلاً خاصّاً لهذه المناسبة، وتزيّت يايا بقفطانها، تنسدل فوقه «فَرَجِيّة» من (الشيفون) القماش المطرّز بزخارف جميلة والشفّاف، في تراكبٍ متناسقٍ وبهيٍّ، وشكلت زهرةً بِعَمْرَتها، ثمّ اتّجهت صوب النهر، تتراقص سكرى بفرحتها.

لم يكن هناك حدٌّ لما يمكن أن تقوم به نساء المزرعة؛ فقد كانت

(*) مَرّاكش Marrakech: واحدة من أشهر المدن العتيقة في المغرب، وهي قاعدة إقليم وأحياناً يُعرف المغرب باسمها. تقع في منطقة الأطلس الكبير وتبعد 483 كم إلى الجنوب الغربي من فاس. أسّسها يوسف بن تاشفين أوّل الملوك المرابطين وأشهرهم 1062 . ازدهرت في عصر الموحّدين لكنّ المرينيّين أهملوها حتّى أعاد السعديّون لها مكانتها واتّخذوها عاصمةً لهم في القرن السادس عشر. غنيّة بآثارها (برج الكُتُبيّة، مسجد ابن يوسف والمدرسة القرآنية، قصور ومقابر السعديّين، قصر الباهية، دار السي سعيد، وغيرها)، وغنيّة بطبيعتها أيضاً (حدائق المارجويل، شلّالات أوزود). وتشتهر بالزراعة والمصنوعات الحرفية التقليديّة.

لديهن القدرة على القيام بزراعة نباتاتٍ غريبةٍ، وبالتنزّه على صهوات جيادهنّ، وبالتنقّل على أهوائهنّ، ظاهريّاً على الأقلّ. أما حريمنا في فاس، على سبيل المقارنة، فقد كان سِجناً حقيقيّاً. حتّى أنّ ياسمينة كانت تذكر على الدوام أنّ أسوأ الأمور - بالنسبة إلى امرأةٍ - هو عزلُها عن الطبيعة: «الطبيعة أفضل وأوفى صديقٍ للمرأة، فإذا واجهتنّ مِحَناً ما، ليس عليكنّ سوى أن تسبحن في النهر، أو تستلقين بين أزاهير الحقول، أو ترقُبن النجوم بارتخاءٍ... هكذا تبرأ المرأة من مخاوفها».

7

الحَريمُ الخَفيُّ

يُحاط حريمنا في مدينة فاس بجدرانٍ عاليةٍ، وداخل هذا الطوق لاوجود للطبيعة، سوى رقعة السماء الصغيرة التي تُرى من الفناء. وبالطبع، إذا تسلّقنا السلالم بسرعة البرق، قاصدين السطح لنتأمّل السماء؛ فسنرى عندئذٍ أنّها أوسع من المنزل، وأعظم من أعظم الناس نفوذاً، وأكبر من الأشياء قاطبةً، ولكن من الفناء تبدو الطبيعة عديمة الأهمية، وتكاد تغيب عن المكان. إنها موجودةٌ، لكنّها مشغولةٌ بأيدي حرفيّين، وقد استُعيض عنها برسوم هندسيّةٍ ذات خطوطٍ مستقيمةٍ وزوايا حادّةٍ لم يخلُ شيءٌ من تأثيراتها، حتّى الأزهار التي نُقشت على البلاط والخشب المنجور، ورُسمت في الزخرفة الجصّيّة. لقد اختُزلت أزهار الحريم إلى خطوطٍ صغيرةٍ هشّةٍ تمحقها المثلّثات والدوائر وتشابكاتهما المعقّدة. وفي الحقيقة لم يدرك النجاة ـ من كلّ ما في المنزل ـ سوى الأزهار التي تزيّن الديباج الملوّن الذي يغطي الأرائك، وتزخرف الستائرَ الحريريّة المطرّزة التي تُجلّل الأبواب والنوافذ.

إذا تملّكتْكم رغبةٌ في رؤية أزهارٍ أخرى غير تلك الأزهار التي حُبست في الأنسجة الفاخرة؛ فإنّ من غير المفيد لكم بتاتاً فتحَ مغاليق النوافذ بغية النظر تجاه الخارج؛ فالنوافذ كلُّها تطلُّ على الفناء، ولايشرف أيٌ منها على الشارع. وكانت ياسمينة تقول لي:

«عليك يا بُنيَّتي أن تتعلّمي التشكيك في معاني الكلمات، إذا كنت لاتبتغين أن تعيشي غبيَّةً. فأنا أتردّد في أن أُطلق على نافذةٍ لاتنفتح على الخارج اسمَ (نافذةٍ)؛ وأتردّد في أن أطلق تسمية (بابٍ) على بابٍ ينفتح على باحةٍ داخليةٍ، أو على حديقةٍ تحيطها جدرانٌ وتحاصرها بوّاباتٌ مراقبَةٌ. إنّه ليس باباً بالتأكيد، كما إنّها ليست نافذةً بالتأكيد أيضاً. يجب أن تكوني واعيةً تماماً بأنّهما شيئان آخران تماماً».

كنّا نقوم مرّةً في العام خلال فصل الربيع بـ *«نَزَهَة»* إلى مزرعة عمّي في *«واد فاس»*[*]؛ على بعد عشرة كيلومتراتٍ من «المدينة». كان الرجال ذوو الشأن يذهبون بالسيارة، أما الأطفال والنسوة المطلّقات وبنات العمومة الأخريات، فكانوا يتكدّسون في شاحنةٍ تُستأجر خصّيصاً لهذا الغرض. وكانت العمّة حبيبة وشامة تجلبان طَبْلاتهما دائماً، وتُحدِثان صخباً هائلاً وجلبةً كبيرةً في أثناء الرحلةِ إلى المزرعة؛ إلى درجةٍ تُفقِدُ سائق الشاحنة رشده؛ فيصيح قائلاً: «إذا لم تتوقّفن عن إصدار هذه الضجة ـ أيتها السيدات ـ فسوف أفقد سيطرتي على السيارة؛ فتنحرف عن مسارها، وينتهي بنا المطافُ إلى الوادي». لكنّ تهديداته هذه لم يكن لها تأثيرٌ البتّة؛ فقد كانت أصوات القَرْعِ على الطبلات والتصفيق بقوّةٍ تطغى على صياحه. في صباح يوم النزهة، كان أفراد العائلة يستيقظون عند الفجر أجمعهم، وينشطون في أرجاء الباحة ـ كما هو الحال في الصبيحة الأولى للعيد ـ منهمكين في تجهيز لوازم الرحلة؛ فمنهم من يحضّر الزاد، ومنهم من يُعِدُّ الأشربة، وآخرون يحزمون البُسُط والملاءات. كانت أمي وشامة تهتّمان بالأراجيح، وتردّان على أبي: «هل يمكن تصوّر نزهةٍ دون أراجيح»؛ وذلك كلّما اقترح عليهما أن تنسياها ولو لمرّة واحدةٍ، متذرّعاً بأنّ تعليقها على الأشجار

(*) في الأصل Oued Fes : وهو اسم منطقة ريفية تابعة لمدينة فاس، سمّيت كذلك نسبةً إلى «وادي فاس» أحد روافد نهر سِبو، وتكتظ منطقتا الرّيف والأطلس المتوسّط بالأودية ومجاري الأنهار مثل: واد سِبُو، واد ملوية، واد ورغه... وغير ذلك الكثير. وكلمة «واد» هي اللفظة العامية المغربية لكلمة «وادي».

يستغرق وقتاً طويلاً، ولكي يغيظ أمّي يُضيف: «إنّ الأراجيح ممتازةٌ للأطفال، أما عندما يتأرجح الراشدون بها؛ فإنّ الشجرات المسكينات يتألّمن». وبينما كان أبي يسعى إلى إقناع أمي باقتراحه، أو إلى مناكدتها، كانت تتابع حزم الأراجيح والحبال اللازمة لتعليقها، دون أن ترمقه بنظرةٍ واحدةٍ. أما شامة فكانت تغنّي: «والرّجالاتُ.. إنْ تَمَنَّعَ عنْ.. مَقْدراتِهِمُ... رَبْطُ هذي الأراجيحِ/ فستربطها النسوةُ.. بالرِّباط الوثيقِ/ لا ـ لا ـ لا ـ لير...» على النغم المرتفع لنشيدنا الوطني *«مغربنا وطننا»*[1]. وفي هذه الأثناء، كنت وسمير نبحث بعصبيّةٍ عن حذاءينا الرياضيّين؛ إذ كان من غير المجدي أن ننتظر مساعدة أمّينا المشغولتين إلى حدٍّ بعيد. أما لالا ماني فقد كانت تُحصي عدد الأطباق والكؤوس التي سنأخذها معنا «فقط لتقدير حجم الخسائر عند عودتنا آخر النهار، فهي ستعدُّها مرّةً ثانيةً؛ لتعرف كم كُسِرَ منها». لقد كانت تذكر ـ في الغالب ـ أنّ بإمكانها أن تمتنع عن الذهاب إلى النزهة، وبوجهٍ خاصٍّ لأنَّ أصول هذه الاحتفالات، لم يُبثّ بأمرها وفق الشريعة الإسلامية «إذ لم يأت ذكرها في *«الحديث»*[2] (أي: سُنَّة النبي محمّد)، وقد تُعتبر من السيئات في يوم القيامة».

آنَ تحتلُّ الشمس كبد السماء، نصل إلى المزرعة مزوّدين برُزَم من البُسُطِ، وبمفارشَ خفيفةٍ وبالـ *«خَوَانِيْن»*[3](*). متى تُمدُّ البُسُطُ تُطرحُ فوقها الصُفَّاتُ(**)، ثمّ تُوقد النار بفحم الخشب، ويُشوى على جمرها اللحم مصفوفاً في السفافيد. كان أزيز المِغلايات يمتزج بتغريد العصافير؛ وبعد الغداء كانت النسوة يتفرّقن، فمنهنّ من يتوجّهن إلى الغابات والأنحية المجاورة بحثاً عن الزهور والأعشاب

(*) في الأصل Khanouns، وهي خانون وحرف الـ «s» للجمع، وقد جمعناه على «خوانين». وفي العربية الفصحى هو الكانون والكانونة وجمعهما كوانين، ويعني الموقد والمصْطلى.

(**) الصُفّات في الأصل Sofas وحرف الـ «s» الأخير للجمع. مفردها الصُفّة وهي كلمة عربيّة الأصل، وتعني المقعد والمصطبة والمفرش وكلّ ماهُيِّء للجلوس.

والنباتات التي يستخدمنها في صنع مواد تجميلهنّ، ومنهنّ من يستلقين على الأرجوحة كلٌ بدورها. لم نكن نسلك درب العودة إلى البيت، إلّا وقتَ تتراجع الشمس وراء الأفق.

ومن جديد تنغلق الأبواب علينا؛ وخلال الأيام القليلة التالية تغدو أمّي بائسةً، وتقول: «إن الاستيقاظ بصحبة جدران هي الأفق الوحيد، بعد قضاء يومٍ في أحضان الغابة بين الأشجار؛ لأمرٌ لايطاق».

لم تكن هناك وسيلةٌ للدخول إلى منزلنا، سوى المرور عبر البوّابة الرئيسة التي تخضع لرقابة حَمِد البوّاب؛ لكنّ الخروج منه ممكنٌ بطريقةٍ أخرى، وذلك عبر السطوح، إذ يمكن القفز من سطحنا إلى سطح أحد الجيران، ثم الوصول إلى الشارع عبر باب منزله. ورسميّاً، حيازة مفتاح شرفة سطحنا قاصرةٌ على لالا ماني، وعند مغيب الشمس يطفئ حَمِد الأضواء، إشارةً منه لوقف كل رواحٍ وإيابٍ. لكن بما أنّ شرفة السطح تُستخدم دوماً خلال النهار للأعمال المنزليّة بمجمل أنواعها، كإحضار الزيتون المخزّن في الجرار الكبيرة، أو غسل الثياب ونشرها؛ فقد عُهِدَ بالمفتاح إلى العمّة حبيبة التي تُقيم في الغرفة المطلّة على الشرفة مباشرةً. ونادراً ما تخضع الأنشطة التي تجري على السطح كافّةً للمراقبة؛ ببساطةٍ لأنّ بلوغ الشارع عبر هذه الدرب صعبٌ جداً؛ فلتحقيق ذلك يجب توافر ثلاث صفاتٍ فيزيائيةٍ أساسيةٍ في حركة الجسد هي: القدرة على التسلّق، والقدرة على القفز، والقدرة على الرسوّ، ولاسيما الرسوّ على الأرض بخفّةٍ. كانت النسوة معظمهن يتقنَّ التسلق والقفز جيّداً، أما البارعات منهن في الرسوِّ بمرونةٍ فكنَّ قليلاتٍ؛ حتى أنّه من حين لآخر كانت تظهر إحداهن بعرقوبٍ مضمّدٍ؛ وبالطبع لم يكن أحدٌ ليجهل ماحدث.

أول مرةٍ هبطت فيها من السطح ـ وقد أدميتُ رِكبتيَّ ـ شرحت لي أميّ أن مشكلة المرأة الأساسية في الحياة، هي إتقان الرسوّ: «في كلّ مرة تنوين خوض غمار مغامرة ما، عليك أنْ تفكّري بالرسوّ، فلا

أهمية للإقلاع، وعندما ترغبين بالطيران عليك أن تفكّري أوّلاً كيف وأين يجب أن ترسي. لقد رأيت كيف تقضي طامو في المزرعة أيّاماً كاملةً، وهي تُفكّر في مسار رحلتها، قبل الانطلاق في أيّ سباق خيل. في حين تنهمك بقيّةُ الزوجات بالغسيل، وينسين أنفسهن بين وصفات الأطعمة. لقد كانت طامو الرابحة دوماً يومَ السباق، ولم تُرَ يوماً تطهو، وهي قليلة الكلام وتمضي وقتها في التفكير بصمتٍ. إنّ حياة المرأة سلسلةٌ من الشِّراكِ. لا أريد لابنتي أن تفكّر بالطيران، دون أن تُدرِجَ مخطَّط رسوٍّ جيّدٍ ضمن رغبتها في تغيير العالم».

إذاً لم يكن القفز عن جدار شرفة السطح يُعتبر عملاً بطولياً، ولكن بالإضافة إلى العراقيب المضمدّة، كانت هناك أسبابٌ أكثر جدّيةً، تدفع بعض النسوة ـ كأميّ وشامة ـ إلى عدم اعتبار الشرفة منفذاً ممكناً؛ فقد كان لمسلكِ الهروب هذا بعدٌ غير شرعيٍّ، تنفر منه أولاء اللواتي كنَّ يردنَ النضال؛ من أجل نيل النساء حقّ التنقّل بحرّيّةٍ، وكانت مجابهة خمِد عند بوّابة الدخول ـ في الواقع ـ العمل البطوليّ الوحيد والفريد. إنّ الفِرار عبر الشرفة لايسهم في هذا العمل بالروح المدمِّرة نفسها، وبالتعطّش للتحرّر عينه.

بالطبع لم يكن هناك مبررٌ لمثل هذه المناورات في مزرعة ياسمينة. ووقت زرناها في صيف ذلك العام، رويتُ لها ماحكته شامة عن أصل الأحاريم، وعندما لحظتُ أنّها تصغي إليّ، قرّرت أن أتفاخر بمعارفي التاريخية، وشرعت أحكي لها عن الروم وأحاريمهم، وكيف أصبح العرب سلاطين الأرض بفضل نساء الخليفة هارون الرشيد الألف؛ وكيف خدع المسيحيون الماكرون العرب، وغيّروا قواعد اللعبة مستغِلّين غفوتهم. لقد ضحكت ياسمينة كثيراً وهي تصغي إلى القصّة، وقالت: إنها لم تكن على القدر الكافي من الثقافة؛ كي تحكم على المصداقية التاريخية للأحداث، لكنّ هذه الرواية تبدو مسلّيةً جداً ومنطقيّةً للغاية. فسألتها عندئذٍ: إن كان ماروته شامة صواباً أم لا؛ فأجابتني ياسمينة بألّا أُعلّق أهميةً كبيرةً

على مفهومَيْ الخطأ والصواب هذين؛ وأخبرتني أنّه يمكن لبعض الأشياء أن تجمع بين الاثنين معاً، بينما يكون بعضها الآخر لا هذا ولا ذاك: «الكلمات كالبصل كلّما نزعتِ قشرةً برزت معانٍ جديدةٌ، وعندما تبدئين باكتشاف عدّة معانٍ، يصبح كلٌّ من الصواب والخطأ عديم المعنى. كلّ هذه الأسئلة التي تطرحينها وسمير عن الحريم مثيرةٌ للاهتمام؛ لكن يجدر بي أن أقول لكما: إنَّ أسئلةً جديدة ستتولّد لديكما على الدوام»، ثم أردفت قولها: «سوف أنزعُ قشرةً أخرى كُرمى لكِ، لكن تذكّري أنّها ليست سوى واحدةٍ بين كثيراتٍ غيرها».

تابعت: «إنّ كلمة حريم ليست سوى اشتقاقٍ لكلمة «*حرام*» التي تعني ممنوعاً ومحرّماً، وهي نقيض كلمة «*حلال*» أي: ماهو مسموحٌ ومباحٌ. والحريم هو المكان الذي يضع الرجل عائلته فيه بمأمنٍ من الآخرين، وعائلته تعني: زوجته أو زوجاته، وأطفاله وقريباته. ويمكن أن يكون بيتاً أو خيمةً، لكن لا أهميّة لذلك. وكلمة «الحريم» تُعبّر عن المكان كما تُعبّر عن قاطنيه؛ فحين نتحدّث عن حريم «سيدي عَنْتِيلْ»، فإنّنا نقصد أفراد عائلته والبناء الذي يسكنون فيه على حدٍّ سواء». وبدا لي أنّ الأمور قد بدأت تنجلي أمام ناظريَّ، عندما شرحت ياسمينة لي أنَّ مكّة ـ المدينة المقدّسة ـ يُطلق عليها أيضاً «حرام»، ويخضع كلّ سلوكٍ فيها إلى قوانين صارمةٍ؛ فما إن ندخلها، حتّى يتوجّب علينا الخضوع إلى مجموعةٍ من القواعد والضوابط. وعلى الأشخاص الذين يصلون إلى مكّة أن يكونوا طاهرين؛ فهم مُجبرَون على ممارسة شعائر الطهارة، ويُحظّر عليهم الكذب والغشّ والقيام بأفعالٍ يُحاسب الله عليها. فمكّة هي مدينة الله، وعندما نكون فوق أرضه، علينا إطاعة «*شريعته*» أي: (قانونه المقدّس). وتطبّقُ القاعدة نفسها على بيت الرجل فعلى أرضه يُحظّر ارتكاب أيِّ عملٍ عنيفٍ. ويقوم الحريم العائليّ على المنطق نفسه؛ فهو مكانٌ محميٌّ ومنظّمٌ وفيه ضوابطُ عُرفيّةٌ محدّدةٌ، ولايُخوّل لأيِّ رجلٍ دخُوله إلّا بإذن صاحبه، وحال أُذن له، عليه التقيّد بقانون

صاحب البيت. ويُحدَّد الحريم من خلال فكرة المُلكيّة الخاصّة والقوانين التي تنظمها. وفي إطار هذا المعنى - على حدّ قول ياسمينة - تصبح الجدران عديمة الجدوى.

إذا كان المرء يعرف المحظورات؛ فهذا يعني: إنّه يحمل حريماً في باطن ذاته. إنّه الحريم الخفيّ، وهو «قائمٌ» داخل الرأس. «مكتوبٌ على الجبين، وجارٍ في الدم». إنّ فِكرَة حريمٍ خفيٍّ، وقانونٍ مدونٍ على جبهتي دون علمي، ومستقرٌّ في دماغي؛ قد شوّشتني بصورةٍ مريعةٍ. لم أُحب هذه الفكرة البتّة، وطلبت من ياسمينة أن تخبرني بالمزيد عنها؛ فاستأنفت ياسمينة قولها: «إنّ المزرعة حريمٌ رغم كونها غير محاطةٍ بالجدران؛ فالجدران ليست ضروريةً إلّا في شوارع المدن. لكن إذا قرّر أحدهم - كما فعل جدّك - أن يسكن في الريف؛ فلا حاجة به إلى الأسوار، إذ إنّه يُقيم في هذه الحال وسط الحقول حيث لايمرّ أحدٌ، وبمقدور النساء التنقّل بين الحقول بحريّة؛ فليس هناك أيُّ غريبٍ يتسكّع في الجوار، محاولاً التلصّص عليهن. كما يستطعن أن يركبن الجياد طوال ساعاتٍ، دون أن يلتقين أيّاً كان، ولكن في حال التقين بفلّاحٍ ما في دربهنّ - وهنَّ منكشفات الرؤوس - فإنّ هذا الأخير يبادر إلى تغطية رأسه بكَبُّوشَةِ(*) جلبابه؛ ليُظهِر أنّه يغضّ الطّرف عنهنّ». وتردف ياسمينة قولها: «في هذه الحال، الحريم مكتوبٌ في عقل الفلّاح وعلى جبينه، إنّه يحمل حريماً خفيّاً، ومستتراً في عقله البسيط، وهو يعلم أنّ نساء المزرعة يخصصن جدّك تازي، وأنّه لايملك الحقّ في النظر إليهن».

لقد شوّشتني فكرة التجوّلِ بصحبة حدودٍ وحريم خفيٍّ في الرأس؛ وبتُّ أضع يديَّ على جبهتي خفيةً؛ كي أتحقق من أنها ملساء أم لا، ولأرى إن كنتُ - ولو على سبيل المصادفة - متحرّرةً منها أم

(*) الكبُّوشة Capuche : وهي غطاء الرأس المتصل بالجلباب، وتسمى أيضاً القَلَنْسُوَة والقُلَنْسِيَة. حافظنا على التسمية كما تستعمل في اللهجة المغربية على ما نعتقد.

لا. بيد أنّ شروح ياسمينة آنذاك، قد غدت ـ شيئاً فشيئاً ـ مثيرةً للقلق. وقالت لي: إنَّ كلّ الأماكن التي نذهب إليها تحوي قوانينَ خفيّةً. وتابعت كلامها: «حين أتحدّث عن المكان؛ فإنني أعني كلَّ مكانٍ، سواءٌ كان فناءً أو سطحاً أو شرفةً أو غرفةً، حتّى شارعاً. في كلِّ مكانٍ يؤمُّه البشر، توجد *«قاعدة»* أو عُرفٌ أو تقليدٌ أو قانونٌ خفيٌ. إن اتَّبعْتِ *«القاعدة»*؛ فلن يصيبك مكروهٌ». في اللغة العربية، تأخذ كلمة *«قاعدة»* عدّة معانٍ، يرتكز جميعها على أساسٍ مشتركٍ، كالقاعدة الرياضية أو القاعدة الشرعية، وكذلك قواعد البناء. و*«القاعدة»* هي أيضاً العُرف أو قانون الأخلاق. إنّ *«القاعدة»* في كلِّ مكانٍ. من بعدُ أردفت قولها بشيءٍ آخر ـ وأصدقكم القول: لقد روّعني ـ إذ قالت لي: «لمن المؤسف أنَّ *«القاعدة»* في معظم الأحيان تكون ضدّ النساء».

ـ «لماذا؟ هذا ليس عدلاً!». سألتُها، ثم اقتربت منها كيلا يفوتني أيُّ جزءٍ من إجابتها؛ فأجابتني: «إنّ الناس لايعيرون أدنى اهتمام لأن يكونوا عادلين فيما يتعلّق بالنساء، والقوانين تُسَنُّ بطريقةٍ تسلبهن حقوقهن بشكلٍ أو بآخر؛ فعلى سبيل المثال، يعمل كلٌّ من الرجال والنساء منذ الصباح حتى المساء، لكنّ الرجال يكسبون المال، أما النساء فلا. هذا أحد القوانين الخفيّة، وحين تعمل امرأةٌ بشكلٍ مضنٍ دون أن تكسب المال؛ فهي حبيسةٌ في حريم، وإن كانت لاتبصر جدراناً لهذا الحريم. إنّ القوانين جائرةٌ؛ لأنّ النساء لسن مَنْ وضعنها». وبذلك أنهت ياسمينة كلامها.

ـ لماذا لاتسنُّ النساء القوانين؟. سألتُها.

ـ حين تصبح النساء على قدرٍ من الذكاء يمكّنهن من طرح هذا السؤال بالتحديد؛ بدل أن يتابعن بمهانةٍ أعمال الطبخ والنفخ والغسل والمسح من مطلع النهار حتى زواله؛ فإنّهن سيكنَّ قادراتٍ على إيجاد طريقةٍ لتغيير القواعد، طريقةٍ ستقلب صورة الحياة على وجه هذه الأرض.

ـ وكم سيستغرق ذلك من الوقت؟. سألتُها؛ فأجابتني ياسمينة: «أمداً طويلاً جدّاً».

عندئذٍ سألتها إن كانت تستطيع إخباري ماذا يجب أن أفعل، للتعرّف على القانون الخفيّ ـ أي: *«القاعدة»* ـ عندما أذهب إلى مكانٍ جديدٍ؛ وهل هناك علاماتٌ أو دلائل محسوسةٌ تنبئني بوجودها؟. أجابتني ياسمينة: «للأسف لا، فما من مؤشّرٍ خاصٍّ لذلك، باستثناء العواقب العنيفة التي تنجم عن خرقك لقاعدةٍ خفيّةٍ؛ إذ إنّك ـ والحال هذه ـ تتسبّبين بإيذاء نفسك».

لقد لاحظتُ ـ ومع الأسف الشديد ـ أنّ الكثير من النشاطات المفضّلة لدى الناس؛ كالتنزّه وسبر أغوار العالمِ والغناء والرقص والتعبير عن الرأي؛ ينتمي إلى فئة المحرّمات المُطلقة على النساء؛ فسعادة امرأةٍ هي خرقٌ لـ *«القاعدة»*. وفي الواقع، غالباً ما تتبدّى *«القاعدة»* أكثر صلابةً من الجدران والحواجز. إثر استماعي لهذه الكلمات، رُحتُ آملُ أن تتجسّد كلّ القواعد أمام عينيّ على الفور، في صورة حدودٍ وجدرانٍ حقيقيةٍ. وفي تلك اللحظة دهمتني فكرةٌ متعبةٌ أكثر من سابقتها: إذا كانت مزرعة ياسمينة حريماً رغم عدم وجود جدرانٍ تحطيها؛ فعندئذٍ ما هو معنى كلمة *«حرّيّة»*؟. لقد أشركت ياسمينة بهذه الفكرة التي كانت تساورني؛ فبدت عليها أمارات القلق، وقالت لي: إنّها كانت تودّ لو أنني ألعب كسائر الأطفال أبناء جيلي، بدل أن أشغل بالي بالجدران والقوانين والضغوطات، وبمعنى كلمة *«حرّيّة»*.

«إذا فكّرتِ ـ يا صغيرتي العزيزة ـ أكثر مما ينبغي في الجدران والقوانين؛ فسوف تجعلين السعادة تفلت من يديك، والسعادة يجب أن تكون هدف المرأة الأول والأخير في الحياة. إذاً لاتهدري وقتك في البحث عن جدرانٍ لتضربي رأسك بها». وبقصد إضحاكي؛ نهضت ياسمينة، واتجهت صوب أقرب جدارٍ إلينا وتظاهرت بأنها تدقّ رأسها به، وهي تصيح: «آي! آي! لقد آلمني الجدار! الجدار عدوّي!»؛

وانفجرتُ ضاحكةً على رغم قلقي، وكان عزائي أنّ السعادة ماتزال في متناول اليد رغم كلّ شيءٍ. فنظرت ياسمينة إليَّ مشيرةً بسَبَّابتها تجاه صدغها: «هل تفهمين ما أقول؟». بالطبع أفهم ـ ياسمينة! ـ إنّ السعادة تبدو ممكنةً عمليّاً رغم الأحاريم الجليّة والخفيّة؛ ثم جريت صوبها لأقبّلَها وأهمس في أذنها. بينما كانت تضمني إلى صدرها تاركةً إيّاي ألعب بلآلئها الوردية:

«إنّني أحبّك ياسمينة؛ حقّاً!. هل تعتقدين أنني سأكون سعيدةً عندما أكبر؟».

ـ «بالطبع ستكونين سعيدةً!». صاحت متعجّبةً وتابعت: «سوف تصبحين سيّدة عصريّةً ومتعلّمةً، وستحقّقين حلم الوطنيّين، وتتعلّمين اللغات الأجنبيّة، وتحملين جواز سفرٍ، وتقرئين آلاف الكتب، وتكتسبين خبرةً كخبرة شيخٍ فقيهٍ. على أيّ حالٍ سوف تكونين بوضعٍ أفضلَ ممّا كانت عليه أمّك، وتذكّري أنني على رغم نقص التعليم وعبء التقاليد؛ قد تمكّنت من اختلاس بعض السعادة من هذه الحياة اللعينة؛ لهذا لا أريدك أن تكثري التفكير في الحدود والحواجز، بل أريدك أن تفكّري ـ بشكلٍ خاصٍّ ـ في البهجة والضحك والسعادة: وهذا مشروعٌ جيّدٌ لصبيّةٍ طموحةٍ!».

8

غَسْلُ الأواني النهْرِيُّ

بهدف الوصول إلى حريم ياسمينة، كان كافياً بضع ساعاتٍ من السفر لا أكثر؛ بيد أنّ هذا الحريم كان يبدو كواحدةٍ من الجزر النائية في بحر الصين، والتي كانت العمّة حبيبة ـ عبر حكاياتها ـ تجعلنا نرسو على شواطئها؛ فقد كانت نساء المزرعة يقمن بأشياء لانملك أدنى فكرةٍ عنها في المدينة، كصيد أسماكٍ تختلج إثر نشوب الصنانير في حلوقها، أو تسلّق أشجارٍ سامقةٍ، أو الاستحمام في نهرٍ تصبّ مياهه الهائجة في نهر «سِبُو»(*)، قبل انفلاته صوب المحيط الأطلسي. بُعيد مجيء طامو، اعتادت النسوة على تنظيم مسابقاتٍ في الفروسية. لقد ركبن الخيل قبل مجيئها، ولكن كنَّ يمتطينها سراً، ولم يكنَّ يبتعدن في نزهاتهن قطّ. أما طامو فقد جعلت للفروسية طقساً احتفالياً وقواعد صارمةً وتدريباتٍ قاسيةً، ومراسم رسميةً لتوزيع الجوائز وتسليمها.

تُمنح الفائزة بالسباق جائزةً، تُعِدّها المتسابقة التي تأتي أخيرةً في اجتياز خط النهاية، وهذه الجائزة هي: قرصٌ ضخمٌ من

(*) سِبُو Sebou: من أضخم الأنهار في المغرب. ينبع من جبال الأطلس المتوسط ويصب في المحيط الأطلسي عند شاطئ المهديّة، على طول 458 كم، راوياً بذلك سهل فاس ومدينة القنيطرة.

«البَسْطِيلة»(*)، الطبق الألذّ بين طيّبات الله جمعاء. إنّه طبقٌ من الحلوى، وطبقُ مقاومةٍ رئيسٌ(**) ولعلّكم تتساءلون: مقاومة ماذا؟. مقاومة متعة المذاقات أم مقاومة حلاوة المفاجآت؟... مقاومة الاثنين معاً، وقد امتزجا في طعام إلهيٍّ حلوٍ ومالحٍ بآنٍ، وفي جَمْعٍ جَسُورٍ بينَ لحم الحمام والسكّر والقِرْفَةِ وأنواعٍ شتّى من الجوز. آه! البَسْطِيلة تُقضم تحت الأسنان، ويجب تناولها بحذرٍ وإلّا رشمتم وجوهكم بالتوابل والمنكّهات. يستغرق إعداد البَسْطِيلة أياماً إثر أيام؛ إذ تُحضَّر من رقاقاتٍ عجينيّةٍ خفيفة الوزن، ومحشوةٍ باللوز المفروم والمحمّص، بالإضافة إلى الكثير من المفاجآت التي تتنوّع وفق نَفَسِ الطاهية التي تُبدعها. غالباً ماكانت ياسمينة تقول: لو مَلَكتْ النسوة الدهاء والمكر الكافيين؛ لتمكّن من المتاجرة بهذه الأَكْلة، ولكسبنَ المال منها، بدل أن يقمن بإعدادها كأيِّ عملٍ من الأعمال البيتيّةِ المفروضة[1].

باستثناء لالا طُهُر ذات البشرة البيضاء الناصعة والسيماء الخاصّة بسكان المدن؛ كانت للضرائر معظمهن الملامح المميّزة لفلّاحات الجبل المغربيّ. وبما أنّ لالا طُهُر لا تمارس أيَّ عملٍ منزليٍّ البتّة؛ فإنّها ترتدي أثوابها الثلاثة - التي تنسدل حتى عرقوبيها - مُطابَقَةً واحدها فوق الآخر؛ أما بقيّة النسوة فيعلّقن ذيول أثوابهنَّ بأحزمتهن، ويرفعن أكمامها، ويربطنها بأربطةٍ مطّاطيّةٍ ملوّنةٍ، مُحاكياتٍ بذلك ثياب «التُّخْمَال»[2] التقليديّة. هذه

(*) البَسْطِيلة Pastilla: صنف من الطعام تشتهر بصنعه مدينة فاس. وكما تذكر الكاتبة تُحضّر البسطيلة من طبقات متعددة من الرقائق العجينية تشكّل قرصاً دائرياً ضخماً، وتحشى بلحم الحمام أو الدجاج وبالسكر واللوز والتوابل.

(**) لابدّ من التنويه في هذا الموقع إلى أنّ الكاتبة استعملت كلمة Résistance أي مقاومة، وحمّلتها أكثر من معنىً؛ فقد أوردت Plat de résistance وهذا التركيب يعني في اللغة الفرنسية «طبق رئيس»، لكنّ الكاتبة قصدت به أيضاً «طبق مقاومة». وقد حاولنا قدر المستطاع أن نوصل إلى القارئ مرام الكاتبة؛ فعسانا نجحنا وفق ما أوردناه في السياق.

الطريقة في المَلبس تتيح لهن إمكانيّة التنقّل بيُسرٍ؛ بغية التفرّغ لأعمالهن، وللعناية بحيوانات المزرعة. وكان أحد همومهن المستمرّة، أن يجعلن الأعباء المنزلية مسلّيةً. وذات يوم اقترحت مبروكة ـ التي كانت تعشق السباحة ـ أن يقمن بغسل الأواني في النهر.

أثارت هذه الفكرة استنكار لالا طْهُر التي زعمت أنّها تتنافى كلّياً مع العُرف الإسلامي، وصاحت متوعّدةً متهدّدةً: «تلك الفلاّحات سوف يقضين قضاءً مبرماً على سمعة هذا البيت؛ كما تنبّأ المؤرّخ الجليل ابن خلدون منذ ستّة قرون، إذ ذَكَر في *«مُقَدِّمَتِه»* أنّ الإسلام حضارةٌ مدينيّةٌ في جوهرها، ويشكّل الفلاّحون المتوحّشون والأمّيّون تهديداً لها. لاشكّ في أنّنا ـ مع هذا العدد الهائل من الزوجات ذوات الأصل الجبليّ ـ نمضي باتّجاه كارثةٍ محقّقةٍ»[3]. فردّت ياسمينة: إنّ لالا طْهُر ستكون أكثر نفعاً للمسلمين، إن توقّفت عن قراءة كتبها العتيقة، وشاركت في أعمال المنزل كسائر الزوجات. بيد أنّ لالا طْهُر أحاطت جدّي علماً بالموضوع، إذ كانت تخضرُ غيظاً وغيرةً لرؤية بقيّة ضرائرها يعزمن على اللهو والتسلية.

استدعى جدّي مبروكة وياسمينة وطلب منهما عرض جوانب خلافهما مع لالا طْهُر؛ فشرحتا له الأمر، ثم صرّحتا ـ بلسان النسوة الأخريات ـ أنّهما على رغم كونهن فلاّحاتٍ أمّيّاتٍ؛ فإنّهنّ لسن غبيّاتٍ، ولايمكن أن يعتبرن كلام ابن خلدون مُنَزَّلاً؛ إذ إنّه في آخر المطاف ليس سوى مؤرّخ. «إنّه يهذرُ.. كالجميع يهذرُ». بهذه الجملة سجعت ياسمينة التي لم تألُ جهداً في أن تستعلم عن ابن خلدون لدى معلّم المدرسة القرآنيّة في المزرعة؛ قبل أن تذهب إلى *«المحكمة»* وقتَ علمت أنَّ جدّي سوف يستدعي مثيرات الشغب. لقد أبدت النسوة استعدادهن للتخلّي عن مشروعهن بطيب خاطر، إذا استطاعت لالا

طهُر استصدار «فتوى» عن الشيوخ الفقهاء في جامع القرويين(*) تُحرّم على النساء غسل الأواني في النهر. لكن حتى ذلك الأجل، سوف يقمن بذلك كلّما طاب لهن. فوق ذلك، إنّ النهر من خلق الله، وهو تعبيرٌ عن قدرته. وإن كانت السباحة ـ على أيّة حالٍ ـ سيئةً من السيّئات؛ فهن مستعدّاتٌ للمثول بين يديّ الله يوم القيامة. ولدى سماع جدّي كلامهن؛ أُعجِب بمنطقهن ورفع الجلسة، معرباً عن سعادته، لأنّ المسؤوليّة في الدين الإسلامي شأنٌ محضٌ فرديٌّ. «كُلّ كَبْش كَيْتَعَلَّق مِنْ رَجْلُو»(**) أي: (كلُّ شاةٍ تُناطُ برجليها). بعد انتهاء المحاكمة، أخذت ياسمينة تنشد محتفلةً بنصرها، أما جدّي فقد انسلّ هارباً على جناح السرعة، محاولاً ألّا يبتسم بأيّ ثمنٍ.

تُنجَز الأعمال المنزليّة في المزرعة ـ كما هو الحال في كلّ الأحاريم ـ تبعاً لنظامٍ دوريٍّ دقيقٍ. وتنتظم النسوةُ في فرقٍ صغيرةٍ وفقاً لميولهن واهتماماتهن، ويتقاسمن المهمّات. فالفريق الذي يقوم بأعمال المطبخ خلال أسبوعٍ، ينظّف الأرضيّات في الأسبوع الذي يليه، ويعدّ الأشربة في الأسبوع الثالث، ويغسل الثياب في الأسبوع الرابع، ثم يرتاح في الأسبوع الخامس. ونادراً ما تجتمع النسوة كلّهن لإنجاز عملٍ ما، باستثناء غسل الأواني وقت يتحوّل إلى تقليدٍ مائيٍّ. فقد انقلبت هذه المهمّة الشاقّة، إثر اقتراح مبروكة (وعلى الأقل عند وجودي في المزرعة خلال فصول الصيف التي قضيتها هناك) إلى عرضٍ مائيٍّ رائعٍ، مع المشاركين به والمشاهدين والمشجعين له.

تصطف النساء في النهر على نسقين. نساء النسق الأوّل

(*) جامع القرويّين: شُيّد سنة 857 على يد الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي عامل عبد الرحمن الناصر على فاس، ووُسّع سنة 1317 . فيه زخارف ومنمنمات وقناطر ومقرنصات، ويميّزه سقف قرميديّ زمرّدي اللون. يعتبر من أقدم جامعات العالم، ويحتوي مكتبةً فيها ثلاثون ألف مجلّدٍ.

(**) في الأصل Kul kebch kayt' allaq men rajlu.

واقفاتٌ على أقدامهن، ومرتدياتٌ ثيابهن كلّها تقريباً، ويبلغ مستوى المياه رُكَبَهنَّ. أما نساء النسق الثاني، فهنَّ أولاء القادرات على السباحة، واللواتي يكنَّ متأهّباتٍ كفرقة إنقاذ؛ لأنّ التيّار، ربما يكون غادراً، وتغمرهن المياه حتى مستوى قاماتهن، ولايلبسن سوى *«قمصانهن»* المعلّقة بأحزمتهن، وقد كشفن أيضاً عن رؤوسهن، لأنّهن قد لايستطعن مقاومة التيّار، إن انشغلن بحادث ضياعٍ عَرَضيٍّ لأوشحتهن، أو عَمَراتهن الأخرى الثمينة والمخيطة منَ الحرير المطرّز. كان يُوكَلُ إلى نسوة النسق الأول مهمّة التنظيف الأوّلي؛ فيفركن الأواني والقدور والطواجن (الآنية الفخّاريّة) بالـ *«تَدِقّة»*(•)، وهي عجينةٌ خاصةٌ لجَلْي الأواني تُجبل من الرمل والطين حيث يُحصَل عليهما من قاع النهر. بعد انتهائهن من فرك الأواني، ينقلنها بمجملها عبر سطح الماء إلى النسق الثاني؛ لتخضع إلى عمليّة غسلٍ ثانيةٍ، وفي هذه الأثناء تتمايل وهي تدور في قلب التيّار ومع حركته، من يدٍ إلى أخرى، وفق سلسلةٍ من العمليات المنظَّمة؛ لشطفها من الـ *«تَدِقّة»*. وفي نهاية هذه السلسلة تتموقع مبروكة التي تظهر كسبّاحةٍ ماهرةٍ؛ فهي اختُطفِت من قريةٍ ساحليّةٍ قرب أغادير(••) خلال فترة *«السيبا»* (الفوضى والحرب الأهلية وغياب الحكومة المركزيّة) التي عمّت البلاد بُعيد الاحتلال الفرنسي؛ ونظراً لذلك فقد أمضت طفولتها بالسباحة والغطس في مياه المحيط بدءاً من جروف الساحل الصخرية. على أيّة حالٍ تلك هي الأسطورة التي حيكت عنها. وفي مزرعة ياسمينة كان بمقدوركم أن تتدبّروا أموركم للحفاظ على ضَرْبٍ من محاكاة الحقيقة؛ فلكم الحقّ في أن تكون لكم أسطورتكم الخاصّة. لم تكن مبروكة قادرةً على السباحة كسمكةٍ وعلى البقاء مدةً طويلةً تحت الماء فحسب؛ بل إنّها قد أنقذت من

(•) في الأصل Tadekka.

(••) أغادير Agadir : واحدة من المدن الساحلية في المغرب على ساحل المحيط الأطلسي، وتقع على بعد 791 كم إلى الجنوب الشرقي من فاس. وهي قاعدة صيد كبيرة. ضربها زلزال مدمّر سنة 1960 .

الغرق عدداً كبيراً من الضرائر اللواتي لولا عونها، لحملهن التيّار حتى «*القنيطرة*»(*)، حيث يصبّ نهر سِبُو في البحر. وخلال حملة غسل الأواني كانت مهمّتها تقوم على التقاط الأواني والقدور التي تفلت من أيادي الأخريات؛ ولذلك فقد كان لزاماً عليها مقاومة التيّار بهدف إعادتها إلى الضفّة؛ وفي كلِّ مرةٍ كانت تخرج فيها من الماء حاملةً على رأسها إناءً أو قدراً، كانت النسوة يقابلنها بالتصفيق، وكانت يتوجّب على «المجرمة» ـ أي الخرقاء التي جعلت الوعاء يفلت من يديها ـ أن تلبّي إحدى رغبات مبروكة في مساء اليوم ذاته، وكانت الرغبات تتنوّع تبعاً لكفاءات المذنبات. وكلما كانت ياسمينة المخطئة، كانت مبروكة تطلب منها إعداد الـ «*سْفِنْج*»(**) أي (الفطائر)، التي كانت جدتي تجيد تحضيرها بشكلٍ متقنٍ. وحين كان يتمّ غسل الأواني، كان يُؤتى بها إلى ياسمينة التي تُسلّمها إلى كريشة، الرجل الذي كان بمنزلة مفتاح العمليّة برمّتها. وكلمة كريشة التي تعني في العربية الفصحى «المعدة الصغيرة»(***)، هي اللقب الذي تطلقه تلك السيّدات على محمد الغرباوي سائقهن الوحيد والمفضّل الذي كان محطّ اهتمامهن جميعاً.

كان كريشة غرباويّاً، أي يرجع محتده إلى سهل «الغرب» الذي يقع قرب البحر بين فاس وطنجة. وكان يعيش مع زوجته زينة على بعد بضع مئاتٍ من الأمتار عن المزرعة، وهو لم يغادر قريته يوماً، وكان على قناعةٍ تامّةٍ بأنّ لاشيء في العالم أجمل من سهله: «إنّ لمن المستحيل وجود بقعةٍ في العالم أجمل من الغرب» كان يردّد هذه العبارة في أغلب الأحيان، وحين كانت زينة تخزه بمرفقها في

(*) القنيطرة Kenitra: مدينة ساحلية ومرفأ مغربي على المحيط الأطلسي، وتقع على بعد 166 إلى الغرب من فاس، على مجرى نهر سِبُو، وهي قاعدة إقليم ومركز تجاري وصناعي.

(**) في الأصل Sfinges، وحرف الـ «s» الأخير للجمع.

(***) في الأصل Krisha، و«كريشة» عند العامّة اسم التصغير لـ «الكِرْش» ويقابلها في اللغة الفصيحة «كُرَيْش»، والكِرْش والكَرِش تتنزّل لذي الخُفّ والظِّلْف وكلّ مجترٍّ منزلة المعدة للإنسان.

خاصرته خفيةً، كان يضيف: «ماعدا مكّة». كان كريشة طويل القامة، جميل المحيّا كغالبيّة أهالي السهل، وكان يرتدي دوماً عمامةً بيضاء مثيرةً للعجب، وبُرْنُساً داكناً وثقيلاً ينسدل بأناقةٍ على كتفيه، وفي الحقيقة كان يتمتع بسيماء طبيعيةٍ، تُعبّر عن سلطةٍ لم يكن يمتلك منها شيئاً البتّة في الواقع، فممارسة السلطة أو حماية النظام لم تكونا تعنيان له شيئاً، بل كان تطبيق القوانين ومراقبة الآخرين يزعجانه بشكلٍ يفوق الوصف، وكان يكتفي بأن يكون مسالماً؛ إذ كان مقتنعاً بأنّ مخلوقات الله معظمها تتمتّع بقدرٍ كافٍ من الذكاء يخوّلها لأن تتصرّف وتسلك كأفرادٍ قادرين على تحمّل المسؤولية، ابتداءً بزوجته التي كانت تؤدّي الحدّ الأدنى من المهمّات المنزليّة دون أن يوجّه لها أيّ توبيخ، بل كان يقول: «إن كانت لاتحب القيام بالأعمال المنزلية فلا يهمّ، أنا لن أطلّقها لأمرٍ سخيفٍ كهذا، وسوف نتدبّر أمورنا». والحقيقة إنّ كريشة لم يكن رجلاً ذا مشاغل كثيرةٍ، فحين لايقود عربة الخيل التي يجرّها جوادان، فإنّه يغرق في النوم، أو يتناول الطعام، لكنّه كان دوماً يشارك النساء نشاطاتهن، وخاصةً إن كنَّ بحاجةٍ إلى الذهاب أو نقل بعض المواد إلى مكانٍ ما. لم يكن غسل الأواني في النهر ممكناً دون كريشة؛ فقد كان معظم الأوعية آنيةً نحاسيةً ثقيلة، وقدوراً حديديّةً وطواجن فخّاريّةً، يتراوح وزن كلٍّ منها بين خمسةٍ وستةٍ من الكيلوغرامات (إذ كان الطبخ في مزرعةٍ بحجم مزرعة ياسمينة يتطلّب استخدام أوعيةٍ ضخمةٍ). وكان يستحيل نقل تلك الأواني الضخمة إلى النهر دون مساعدة كريشة وعربته ذات الجوادين. ولأنّ كريشة لايقدر على مقاومة طبق طعامٍ شهيٍّ؛ كان بإمكان النسوة أن يجعلنه ينقل جبالاً بأسرها، بأن يحضّرن له طبق الكَسْكَسِي المفضّل لديه، مع بعض الزبيب والحمام المحشي وعددٍ من البصلات المحمّرة بالعسل.

كانت إحدى المهمّات الرسميّة المنوطة بكريشة اصطحاب النسوة إلى الحمّام كلَّ خمسة عشر يوماً، ويقع الحمّام في قرية سيدي شليمان المجاورة، على بعد عشرة كيلو متراتٍ عن المزرعة،

وكانت الرحلة إليه في عربة كريشة واحدةً من مباهج النسوة اللواتي لم يكُنّ يتوقفن عن القفز في العربة أو النزول منها، وكُنّ يطلبن منه التوقف كلّ عشر دقائق «كي يذهبن للتبوّل». وكان يجيبهن الإجابة نفسها على الدوام، تلك الإجابة التي كانت تجعلهن ينفجرن ضاحكاتٍ: «يُنصح يا سيداتي، بل يُوصي بأن تتبّولن في سراويلكن؛ فليس التبوّل أهمّ ما في الأمر، بل أن تبقين في هذه العربة المأفونة حتى نصل إلى سيدي شلِيْمان هو الأهم».

ووقت الوصول كان كريشةِ ينزل عن كرسي القيادة بتأنٍّ، ثمّ يقف على الرصيف، ويشرع يحصي عدد النسوة على أصابعه حين يدخلن إلى الحمّام، ويقول لهن: «أرجو يا سيدّاتي ألّا تختفين بين الأبخرة، فأنا أعوّل عليكن في أن تجيبني كلُّ واحدةٍ منكن بـ «حاضرة» عندما نقفل راجعين في المساء».

آهٍ، لايمكن أن نشعر بالملل أبداً في مزرعة ياسمينة!. تماماً مثلما كانت تقول لي وقتَ أبدأ بالبكاء، حالما تخطر ببالي فكرة العودة إلى فاس. فالملل ينأى عن ذلك المكان: «حيث التماس المباشر مع النهر المتموّج، والحقول المرتعشة تحت دغدغة النسيمات العليلة، والسماءات التي تحتضن الآفاق المديدة، وتمحو الحدود مقصيةً إيّاها نحو العدم، وتشتّت تدرّجات المراتب الهرمية إلى التِّيْهِ. يجب الحفاظ على التواصل مع الطبيعة وإكثاره، ومَنْ لم يحظَ بهذا التواصل يوماً، لأنّه كائنٌ مسكينٌ. وأولئك هم الصانعون هلاكهم في خضمّ الخضوع، أما أنتِ فلا خوف عليك من ذلك».

9

ضَحِكٌ من الأعماق تحت ضوء القمر

في مزرعة ياسمينة، لم يكن ميقات تناول وجبة العشاء مُحدَّداً قطُّ. وفي بعض الأحايين، كان يغرب عن بال ياسمينة أنَّ عليها تقديم الطعام لي، حتّى تحين اللحظة الأخيرة من الليل، حيث تتذكّر حاملةً إيّاي عندئذٍ على الاكتفاء ببعض حبّات الزيتون مع قطعةٍ من الخبز الشهيّ الذي كانت تخبزه وقت طلوع الفجر. أمّا ماكان في حريمنا بفاس، فهو حكايةٌ أخرى تماماً؛ إذ كنّا نتناول الطعام في مواقيت محدّدةٍ، ولم يكن ذلك وارداً على الإطلاق خلال الفترات الفاصلة بين الوجبات. كان مفروضاً علينا أن نتحلّق حول المائدة كلٌّ في مكانه المزمَع، إلى إحدى الطاولات الأربع المشتركة. الأولى تضمّ إليها الرجال، والثانية كانت وَقْفاً للنساء صاحبات المقام الرفيع، والثالثة للأطفال والنسوة الأقلّ شأناً، وهذاك من دواعي ابتهاجنا؛ فقد كان يعني أن العمّة حبيبة تستطيع أن تشاركنا طعامنا. أما الطاولة الرابعة فكانت محجوزةً للخدم، ولأولئك الذي يحلُّون متأخّرين، دون اعتبارٍ لما هم عليه سنّاً وجنساً ومكانةً. كانت تلك الطاولة ـ في الغالب ـ مكتملة النصاب؛ لأنّها تشكّل الفرصة الأخيرة لمن اقترفوا الذنب بعدم الحضور وفق الساعات المعيّنة للوجبات.

أبغض الأمور إلى أمّي في المعيش ضمن إطار الجماعة، كان ـ على وجه التحديد ـ تناول الطعام في أوقاتٍ ثابتةٍ. لقد كانت تثقل

كاهل أبي بكثرة مطالبتها منه ـ على الرواح والإياب ـ أن يتخلّى عن ذلك التقليد؛ بصورةٍ تتيح متّسعاً لأسرتنا في أن تحظى بخلوةٍ، بعيداً عن أفراد العائلة كافّةً. وكان الوطنيّون يناضلون؛ من أجل إلغاء الحصار المضروب حول المرأة، ومن أجل نبذ حجابها. لكنّهم لم ينبسوا بكلمةٍ واحدةٍ حول حقّ الزوجين في الانفصال عن العائلة. وفي الواقع، كان الزعماء معظمهم يعيشون مع آبائهم وأمهاتهم. وكانت الحركات الوطنيّة الذكوريّة تدافع عن تحرّر المرأة، بيد أنّها ـ في المقابل ـ لم تكن تتقبّل بَعْدُ فكرة ترك كبار السنّ يعيشون وحيدين، فيما يسكن الأزواج في شققٍ منفصلةٍ؛ فذانك الإجراءان لايبدوان لائقين ولا لَبِقَين.

كانت أمّي دائماً آخر المستيقظين من النوم، وكانت تحبّ تناول فطورها في وقتٍ متأخّرٍ، حيث تعدّه بمفردها مسكونةً بتحدٍّ واثقٍ تحت نظرة الاستهجان التي تبديها جدّتي لالا ماني. وكان فطورها يتكوّن من البيض المخفوق المقليّ ومن «البَغْرِيْرْ» (والبغرير فطائر رقيقةٌ مشبَعةٌ بالعسل والزبدة الطازجة)؛ وتحتسي معها ـ بالطبع ـ بعضاً من الشاي. كانت تفطر حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً، وهو تماماً الوقت الذي تستعدّ فيه لالا ماني للشروع بالوضوء؛ كي تؤدّي صلاة الظهر. بعد مضيّ ساعتين تكون أمي عاجزةً عن ابتلاع أيّة لقمةٍ من وجبة الغداء المُعدّة فوق طاولة الطعام المشتركة؛ وأحياناً لم تكن تتوانى البتّة عن إظهار هذا الأمر، وخاصةً عندما تريد معارضة أبي؛ إذ كان يُعَدُّ الامتناع عن تناول وجبةٍ ما تصرّفاً يفتقر إلى التهذيب ويكشف ـ بصورةٍ واضحةٍ للعيان ـ عن نزعةٍ جدّ فرديّةٍ. كانت أمّي تحلم بقضاء حياتها وحدها بصحبة أبي وبصحبتنا نحن الأطفال؛ وكانت تردّد على الدوام: «من سَمِع يوماً عن عشرة عصافير تحيا في العشّ عينه؟. ليس من الطبيعي العيش مع جماعةٍ بهذا العدد، إلا إذا كان الهدف منه خلق مَتْعَسَةِ الناس». وكان أبي يجيبها عبثاً: إنّه لايعرف شيئاً عن عادات العصافير. لكنّه كان يوافقها الرأي ضمنيّاً، مشتّتاً بين شعوره بالواجب تجاه عائلته

التقليديّة، وبين رغبته في إسعاد أمّي. لقد كان يشعر بالذنب جرّاء زعزعة التماسك العائلي وتفتيته، واثقاً غاية الثقة من أنّ الحياة العائليّة الجماعيّة عموماً وحياة الحريم خصوصاً على وشك أن تُقَوَّضا وتتحوّلا سريعاً إلى ذخائر مُتْحَفِيَّةٍ عفّ عنها الزمان وغدا.

حتّى إنّه كان يتنبّأ بأنّنا ـ خلال السنوات العشرين أو الثلاثين القادمة ـ لن نكون أفضل حالاً من المسيحيّين الذين لايكرّسون وقتاً كثيراً للاعتناء بآبائهم المسنّين وأمهاتهم العجائز. في الواقع، إنّ عمومتي الذين انفصلوا منذ وقتٍ قصيرٍ عن الصومعة العائليّة المهيبة، مايزالون ـ بقسمهم الأعظم ـ يجدون الوقت الكافي تماماً، للقيام بزيارة أمّهم لالا ماني يوم الجمعة بعد الصلاة. «وأطفالهم لايقبّلون الأيادي!» الأمر الذي كان يثير شكوانا. وماكان أكثر أهميّة أن عمومتي أجمعين ـ وحتّى يوم قريبٍ ـ كانوا يسكنون في دار العائلة؛ ولم يغادروا البيت إلّا بعدً أن أصبحت معارضة زوجاتهم للحياة الجماعيّة مسألةً لاتطاق. وهذاك ماكان يبثّ الأمل في نفس أمّي.

كان العمّ كريم أوّل من انفصل عن العائلة، وهو والد مليكة. لقد كانت زوجته تعشق الموسيقا وتهوى الغناء وقتَ يرافقها في العزف على العود؛ إذ كان يعزف على تلك الآلة بإتقانٍ، غير أنّه لم يكن يستسلم ـ إلّا فيما ندر ـ لإلحاحات زوجته في أن يقضي الأمسيّة معها يعزف وهي تغنّي في قاعتهما منفردين؛ فقد كان أخوه الأكبر ـ عمّي عليّ ـ يعتبر أنّ الغناء أو العزف على آلةٍ موسيقيّةٍ نشاطان لايليقان برجلٍ. أخيراً وفي أحد الأيّام، حزمت زوجة عمّي كريم أغراضها، وعادت إلى بيت أبيها مصطحبةً معها أطفالها، بعد أن أعلنت عزمها على ألّا تضع قدمها ثانيةً داخل بيت العائلة المشترك. عندئذ وجد عمّي كريم ـ الذي كان مرح الطبع ينفر من نظام المعيش في الحريم ـ الفرصة سانحةً للمغادرة؛ وقد برّر رحيله مصرّحاً بأنّه يفضّل الخضوع إلى رغبات زوجته على تهديم زواجهما. وبعد ذلك بزمنٍ ليس طويلاً، أخذ عمومتي الآخرون كلّهم يشقّون الدرب نفسها

ـ التي خطاها عمي كريم ـ واحداً تلو الآخر، ولم يبق في المنزل سوى عمّي عليٍّ وأبي، وإنْ يغادرْ أبي، يكنْ ذلك بمنزله الضربة القاصمة للعائلة. وكان غالباً يقول: «لن أرتكب إثماً في حقّ التقاليد مادامت أمّي على قيد الحياة».

بيد أنّ أبي كان يحب زوجته حبّاً جمّاً، إلى درجة أنّ عدم تلبية مَرَامَاتها كان مَتْعَسَةً له، ولم يكن يكفّ عن عرض التسويات والحلول التي كان أحدها أن يضع تحت تصرفها خزانةً ملآنةً عن آخرها بالمؤن؛ في حال أرادت أن تأكل دون علم أيِّ فردٍ من أفراد العائلة؛ فقد كانت إحدى مشاكل الحياة الجماعية أنّ المرء ـ وقتَ يشعر بالجوع ـ لم يكن قادراً على فتح البرّاد دون أيّة تعقيداتٍ. باديءَ الأمر، لم تكن هناك برّاداتٌ في ذلك العهد، لكن قبل أيّ شيءٍ، إنّ الفكرة الأساسيّة التي يقوم عليها الحريم هي العيش وفق إيقاع الجماعة؛ لذا كان ضرباً من المحال على أيٍّ كان أن يتناول الطعام متى رغب في ذلك. كانت لالا راضية زوجة عمّي تحوز مفتاح بيت المؤن، وحتى إن سألتكم ذات يوم بعد العشاء عمّ ترغبون في تناوله من الطعام خلال اليوم التالي؛ فسوف تضطرون إلى القبول بما تُقرّه الجماعة بعد خوض مناقشاتٍ مطوّلةٍ؛ فإن وقع اختيار الجماعة على طبق كَسْكَسِي بالحِمَّص والزبيب، وجب أن يوافقكم هذا الخيار، حتى إذا كنتم تمقتون الحِمَّص والزبيب، فأنتم لاتملكون خياراً آخر سوى أن تَقْنَعوا بوجبةٍ متواضعةٍ ومؤلّفةٍ من بعض حبّات الزيتون تتناولونها في سرّيةٍ مطلقةٍ. كانت أمّي تعبّر عن رأيها على الدوام: «يا لها من مضيعةٍ للوقت تلك الجدالات التي لاتنتهي في صدد وجبات الطعام!. يجدر بالعرب أن يتلحلحوا عن كاهل كلّ امريءٍ ليختار ماينبغي أن يرميه في حلقه. إنّ إرغام الجميع على تناول ثلاث وجباتٍ يوميّاً لايؤدّي إلّا إلى تعقيد الأمور؛ فمن أجل أيّةِ غايةٍ وُجد هذا النظام، من أجل غايةٍ مقدّسةٍ أم غير مقدّسةٍ. أستحلفكم أن تجيبوني؟... وبالطبع لاهذي ولاهاتيك». ثم تستطرد مصرّحةً: إنّ حياتها برمّتها ضربٌ من العبث؛ ولاشيء فيها يحمل في طواياه

معنىً أو قيمةً. وعلى مسارٍ موازٍ يسعى أبي جاهداً إلى أن يفسّر لها بأناةٍ أنّه لايستطيع الرحيل بتلك الصورة؛ وإلا فإنّ التقاليد ستنهار: «إنّنا نحيا أوقاتاً عصيبةً، والبلادُ ترزح تحت وطأة الاحتلال الأجنبي. وحضارتنا معرّضةٌ للخطر، ولم يتبقّ لنا شيءٌ سوى تقاليدنا». كانت هذه المحاكمة التمنطقيّة تُفقد أمّي أعصابها: «هل تعتقد أنّنا بالبقاء مرصوصين معاً بعضنا إلى بعض في هذا البيت الضخم واللامعقول، سوف نجد القوة اللازمة لطرد القوّات الأجنبية؟. وما هو الأكثر أهميّةً، التقاليد أم سعادة الناس؟».

كانت المجادلة تُنهي حوارهما بصورةٍ فظّةٍ. عندئذٍ، يحاول أبي أن يداعب يدها، لكنها تتهرّب منه، حتّى إنّه مايبرح يلقي عليها وابلاً من العروض لإرضائها، فهو لم يُفلح في أن يجيء إليها بمؤونتها الخاصّة وحسب، بل جلب لها أيضاً شتّى المواد اللازمة لتحضير الحلوى التي تهواها، كالتمر والعسل والجوز واللوز والطحين والزيت ومن كلّ الأصناف. وهكذا كانت تستطيع إعداد كلّ أطباق الحلوى التي تحبّها بعد الطعام، دون أن تكون مسؤولةً بشكلٍ أساسيٍّ عن إعداد أطباق اللّحم أو الوجبات الكاملة؛ وإلا فتلك ستكون نهاية التنظيم الجماعيّ. لقد كان العرض الاستفزازيّ لوجبات فطورها الصباحيّة على قدرٍ كافٍ من الإهانة لسائر أفراد العائلة.

بين الفينة الأخرى، قلّما كانت أمّي تتدبّر أمورها لإعداد وجبة غداءٍ أو عشاءٍ كاملتين؛ ووقتّها لم يكن عليها الحفاظ على سرّيّةٍ مطلقةٍ وحسب، بل يتوجّب عليهاأيضاً أن تجد حُجّةً استثنائيّةً إلى حدٍّ ما، وكان تمويه الوجبه ـ على أنّها نزهةٌ ليليّةٌ على شرفة السطح ـ الأكثر تكراراً بين الحِيَل التي تلجأ إليها. ومن جهة أبي، كانت تلك الأعشية العَرَضيّة والانفراديّة مخصّصةً لطمأنة أمي وتهدئة خواطرها؛ عبر إشباعه رغبتها في الجوّ الحميميّ الخاصّ. كنّا ننتقل إلى السطح كالبدو الرحّل مصطحبين مفارش وطاولاتٍ وصوانٍ ومهد أخي الصغير الذي يتوسّط السطح، وأمّي تكاد تطير فرحاً في تلك اللحظات. ولأنّ العائلة كافّةً تدرك أنّ أمّي تسعى إلى

الهرب من نمط الحياة المشاعيّ الذي تفرضه الجماعة؛ لايجرؤ أحدٌ على الصعود صوب السطح. كانت تحبّ - على وجه الخصوص - أن تجعل أبي ينبذ تحفّظه المعتاد والمصطنع؛ فتبدأ - خلال ثوانٍ معدودةٍ - بارتكاب الحماقات كصبيّةٍ مراهقةٍ، ويلحقها أبي دائراً وراءها على محيط السطح، بينما هي تتحدّاه قائلةً: «سِيْدي لم يعد بإمكانك الجري؛ فقد أصبحت مسنّاً!. لست مؤهّلاً الآن إلّا للجلوس والسهر على مهد ابنك. يجب أن يعلم أهالي «المدينة» في فاس جميعهم أنّ هادي المرنيسي عاجزٌ عن اللحاق بامرأةٍ، وعاجزٌ - بشكلٍ خاصٍّ - عن الإمساك بها!». كان والدي - بادئ الأمر - يرقبها وهو يرسم على شفتيه ابتسامةً عريضةً، وكأنّ ما قالته لتوّها لايعنيه على الإطلاق. بعد ذلك وعلى نحو مفاجئٍ تتلاشى ابتسامته، ويندفع للّحاق بها مهرولاً وراءها في أنحية السطح، وقافزاً فوق الصُفَّات والصواني. في بعض الأحايين، كان والداي ينظّمان ألعاباً نشترك فيها أجمعُنا: أختي وأنا وسميرٌ (الوحيد المخوّل له الانضمام إلى جمعاتنا تحت ضوء القمر)؛ وفي معظم الأوقات كانا ينسيان ماهو خارج عوالمهما؛ فنُمضي - نحن الأطفال - اليوم التالي وحالاتٌ من العطاس تنتابنا؛ إذ غَرُب عن بالهما أن يغطّيانا وقتَ غفونا على السطح في ذلك المساء[1].

إثر تلك الأمسيات المبارَكة، تغدو أمّي عذبة المزاج بصورةٍ غير اعتياديّةٍ، وتستمرّ في مزاجها السلس هذا طيلة أسبوع، وكانت تتنبّأ بأنّ لابدّ لي من أن أثأر لها حتماً، مهما تكن حياتي التي سأعيشها مستقبلاً، فتقول: «أريد لابنتيّ أن تعيشا حياةً نابضةً وأخّاذة تملؤها السعادة بنسبة مئةٍ إلى مئةٍ، لا أكثر ولا أقلّ». كنتُ أرفع رأسي، وأنا أنظر إليها بجدّيةٍ، ثمّ أسألها عمّ تعنيه عبارة «السعادة بنسبة مئةٍ إلى مئةٍ»؛ فقد كنت أريدها أن تدرك أنّ عليَّ بذل قصارى جهدي لبلوغ تلك السعادة. عندئذٍ كانت تفسّر لي أنّ السعادة هي ذلك الشعور العميق الذي ينتاب المرء بأنّه مرتاحٌ ورشيقٌ وخلّاقٌ ومحبوبٌ وراضٍ وعاشقٌ وحرٌّ؛ فالإنسان التعس هو من يشعر

بوجود حواجز تقف عائقاً أمام تطلّعاته ومَلَكاته الجَوّانيَّة، والمرأة السعيدة هي المرأة التي تستطيع أن تمارس حقوقها كلها، بما فيها حقّ التنقّل من مكانٍ إلى سواه وحقّ الإبداع وحقّ مقارنة نفسها بالآخرين وتحدّيهم دون أن تتعرّض بذلك للطرد أو النبذ؛ وقد ينجم جزءٌ من السعادة عن رجلٍ يحبّ القوة التي تتمتّع بها زوجته ويفخر بمواهبها؛ وتتضمَّن سعادة المرأة أيضاً حقّها في الخصوصيّة الحياتيّة، وحقّها في الفرار من صحبة الآخرين؛ كي تستغرق في تأمّلاتها الفرديّة، أو كي تنفرد بنفسها على مدار نهارٍ كاملٍ، دون أن تقوم بأيّ عملٍ، ودون أن تضطرّ إلى خلق الأعذار، أو أن تشعر بالذنب. السعادة هي أن تكوني مع أولئك الأشخاص الذين تحبّينهم، وأنت واعيةٌ تماماً بوجودك كفردٍ مستقلٍّ بذاته، وليس لإسعادهم فقط. السعادة هي ذلك التوازن بين ما تمنحينه وما تأخذينه. سألتها آنذاك عن نسبة السعادة التي تحظى بها في حياتها؛ فأجابتني إنّ هذه النسبة تتبدّل تبعاً للأيّام، ففي بعض الأيام لاتتجاوز هذه النسبة خمسةً إلى مئةٍ، وفي أيّام أخرى ـ كتلك التي نقضيها مع والدي على السطح ـ تبلغ فعليّاً مئةً إلى مئةٍ.

كان هذاك الهدف «السعادة بنسبة مئةٍ إلى مئةٍ» متعباً بعض الشيء بالنسبة إلى تلك الصبيّة التي كنتُها وقتئذٍ؛ وخاصّةً حين كنت أرى قدْر ما تعانيه أمّي للوصول إليه. وكم وقتٍ وجهدٍ تبذلهما للحصول على حقّ إقامة تلك السهرات تحت ضوء القمر؛ حيث تستطيع أن تجلس قرب أبي، وتهمس في أذنه برفقٍ، ساندةً رأسها إلى كتفه!. كان ذلك يبدو لي إنجازاً حقيقياً؛ فقد كان يتوجّب عليها أن تستهلّ أعمالها التمهيدية قبل عدّة أسابيع، فضلاً عن إدارة الإمداد والسَّوْق (اللوجِستِيك)(*) اللازمة لإعداد وجبة العشاء، ولنقل المعدات والحاجيات الضرورية. إذاً... فذانك الجهد والمثابرة

(*) اللوجِشتيك Logistique: مجموعة من التدابير والإجراءات العسكرية تندرج تحت ما يسمىّ فن الإدارة العسكري، وتتعلّق بإمداد الجيوش بالتموين اللازم وتجهيزها وسوقها في كامل عتادها إلى مكانٍ وفي وقتٍ محددين.

ـ اللازمان لقنص بضع ساعاتٍ من السعادة ـ كيف لايستحقّان التقدير والثناء!. كنت أدرك ـ على الأقلّ ـ أنّ هذه السعادة قابلةٌ للتحقيق، لكنني كنت أتساءل كيف يمكنني أن أحافظ على هذا القدْر من التركيز والتشبّث بالرأي؟. في الحقيقة، إن كانت أمّي تؤمن بأنّ ذلك ممكنٌ؛ فسأسعى جاهدةً إلى تحقيقه. «سوف يصبح الزمن أقلّ قسوةً على النساء يا ابنتي، وسوف تتلقّين وأختك تعليماً جيداً، وتتجوّلان في الشوارع والحدائق بحرّيّةٍ، وتكتشفان العالم. أريدكما أن تصبحا مستقلّتين: مستقلّتين وسعيدتين. أريدكما أن تشعّا كقمرين، وأريد أن تكون حياتكما شلّالاً يتدفّق سِحْراً صافياً يسلب الألباب. مئةٌ إلى مئةٍ من السعادة، لا أكثر ولا أقلّ».

لكن وقت طلبت منها أن تزوّدني ببعض التفاصيل، فقدت صبرها بشكلٍ مباغتٍ وقالت: «إنّ تحقيق ذلك يقع على عاتقك، فالمرء ينمّي عضلاتٍ للسعادة بالطريقة نفسها التي ينمّي بوساطتها العضلات التي تسمح له بالمشي أو التنفّس. فهل تعتقدين أنّ التنفس أمرٌ بسيطٌ؟». إذاً... كنت أجلس ـ في تلك الآونة ـ كل صباح على العتبة متشوّفةً الفناء المقفر، وحالمةً بمستقبلي الباهر، ذاك «الشلّال المتدفّق سِحْراً صافياً». ورحتُ أسارر نفسي: لاتتخلّي أبداً عن الأمسيات الرومانسيّة تحت ضوء القمر على شرفة السطح، ولا عن تحريض من تحبّين على العصيان عبر حيّزٍ من المساء، يجعله ينسى ضغوطاته الاجتماعية، لكي تسترخيا وتمرحا وترقبا النجوم متشابكيْ الأيدي... تلك واحدةٌ من وسائل تنمية عضلات السعادة. إنها ابتداع الليالي العذبة، حيث تمتزج القهقهات مع تنسّم الريح الربيعيّة؛ بيد أن هذي الليالي كانت نادرةً، أو على الأقلّ كانت تبدو هكذا.

10

قاعة الرجال

لقد كان الإخفاق في خلق مناسباتٍ للتسلية وارتكاب الحماقات أو اللهو أمراً يسيراً في منزلنا، وهذاك كان المشكلة التي نعاني منها هناك؛ فتلك المناسبات لم تكن متوقّعة الحدوث قطّ بالنسبة إلينا، إلّا إذا أخذتها شامة والعمّة حبيبة على عاتقيهما، وحتى في هذه الحال كانت تخضع لمقيّداتٍ صارمةٍ، فجلسات الحكايا التي ترويها العمة حبيبة، والمشاهد المسرحية التي تؤدّيها شامة، كان مفروضاً عليها وإجبارياً أن تتمّ في الطوابق العليا؛ لأن اللهو في باحة الفناء ـ ذلك المكان العمومي للغاية ـ لم يكن ممكناً بتاتاً في الحقيقة؛ ففي اللحظة التي نبدأ فيها بقضاء الوقت الممتع، يصل الرجال لمناقشة مشاريعهم، ويغرقون في محادثاتٍ مهنيّةٍ، أو يركنون للاستماع إلى الموسيقا والتعليق على الأخبار، ويأخذ الشبّان منهم يلعبون الورق، أما الرجال الأكبر سنّاً من أولاء فيلعبون الشطرنج. من هنا فقد كنّا مضطرين إلى الجلاء عن المكان؛ إذ إنّ كلّ عرضٍ ذي شأنٍ من عروض التسلية يتطلّب التركيز والهدوء، حتى يغدو سِحْرُ سيّد الحفل أو الراوي أو الممثّلين نافذ المفعول.

كان من المستحيل خلق هذا السحر ضمن الفناء؛ فعشرات الأشخاص يعبرون الباحة بلا توقّفٍ، متنقّلين من قاعةٍ إلى قاعةٍ،

متدفّقين هبوطاً وصعوداً على الأدراج، أو مطلقين نداءاتهم بعضاً إلى بعضٍ من الطابق الأرضي حتّى الطابق الأوّل. ومن المستحيل أيضاً خلق هذا السحر حين يتكلّم الرجال في السياسة، ويصغون إلى المذياع، أو يقرؤون الصحف المحليّة أو الدوليّة. كانت النقاشات السياسيّة مفعمةً دائماً بالانفعال الشديد، وعند إصغائنا إلى ما يتحدّثون به إصغاءً تامّاً يُخيَّل إلينا أنّ نهاية العالم على وشك الوقوع. وكانت أمّي تعلّق على ذلك: إنّه لو صدق ما يبثّه المذياع، ولو صدقت تعليقات الرجال، لوجبَ على الأرض أن تزول منذ زمنٍ بعيد.

يتحدثون عن الألمان (العرق الجديد من المسيحيّين والذين ألحقوا بالفرنسيينّ والإنكليز هزيمةً نكراء)، كما يتحدّثون عن القنبلة التي أطلقها الأمريكيّون - من الجهة المقابلة للبحر - على اليابان (إحدى الأمم الآسيويّة التي تقوم قرب الصين، وعلى بعد آلاف الكيلومترات من مكّة). لم تقتل تلك القنبلة الناس بتفتيتهم إلى أشلاءٍ ممزّقةٍ وحسب، بل محقت أيضاً غاباتٍ بأكملها عن وجه الأرض. لقد جعلت أنباء تلك القنبلة أبي وعمي وأبناء عمومتي الشبّان يغرقون في دوّامةٍ من اليأس والأسى؛ فإن قَصَفَ المسيحيون الآسيويّين الذين يبعدون عنهم كل هذا البعد؛ فلن يقضوا وقتاً طويلاً حتّى يشنّوا هجوماً على العرب.

كنت وسمير شَغِفَيْن بأحاديث الرجال السياسيّة؛ فقد كنا آنذاك مخوَّلين بدخول قاعتهم والانضمام إليهم، وكان أبي وعمي - اللذان يرتدي كلٌّ منهما جلباباً أبيض مريحاً - يتوسّطان *«الشباب»*. أي: رزمة المراهقين والشبّان العازبين الذين كانوا يعيشون في المنزل. وكان أبي - في الغالب - يمزح مع *«الشباب»* بصدد ملابسهم الغربيّة الضيّقة وغير المريحة قائلاً: إنّهم بحاجةٍ الآن إلى كراسٍ كي يتمكّنوا من الجلوس. وكان الجميع يكره الكراسي ويفضّل الأرائك التي تفوق سابقتها تلك من حيث راحة الجالس. كنت أتسلّق ركبتيّ أبي، وكان

عمّي عليٌّ - يجلس متربّعاً وسط الأريكة الكبرى، مرتدياً جلبابه ذا البياض الناصع، ومعتمراً عمامةً بيضاء. بينما يجثم ابنه سمير على ركبتيه بسرواله الإنكليزي القصير، وكنت أتكبَّبُ قبالة والدي بفستاني الأبيض الفرنسيّ الجميل الذي كان بالغ القصر ومزيّناً بأربطةٍ من الأطلس (الساتان) تطوّقه على شكل حلقاتٍ؛ فقد كانت أمي حريصةً على إلباسي وفق آخر طرازٍ (موضةٍ) غربيٍّ. فساتين قصيرةٌ من القماش المخرّم (الدانتيلّا) المزوّد بأربطةٍ ملوّنةٍ، وأحذيةٌ سوداء لمّاعةٌ. وكانت تستشيط غضباً وقتَ ألوّث هذه الفساتين، أو أفسد ترتيب الربطة، وكنتُ غالباً ما أرجوها أن تدعني ألبس سروالي الصغير المريح، أو أيَّ لباسٍ تقليديٍّ آخر لايتطلّب اتّخاذ كلّ تلك الاحتياطات؛ بيد أنّها لم تكن تسمح لي - إلّا في الأعياد وتحت إلحاح أبي عليها - بأن أرتدي قفطاناً؛ فقد كانت حريصةً كلّ الحرص على أن تجعلني أفلت من براثن التقاليد. «إنَّ مشاريع امرأةٍ ما تتجلى عبر طريقة لباسها، فإن كنت تريدين أن تكوني عصريةً، عليك أن تعبّري عن ذلك بالملابس التي ترتدينها، وإلّا فستجدين نفسك حبيسةً خلف الجدران. للقفاطين - دون أدنى شك - روعةٌ لامثيل لها، لكنَّ الفساتين الغربيّة هي رمزُ العمل المُجازى للنساء». توصّلت عندئذٍ إلى أن أعزوَ القفاطين لرفاهيّة الأعياد والعطل والشعائر الدينية، وإلى عظمة ماضينا الجليل؛ وأن أنسب الملابس الغربية إلى المشاريع العمليّة والمهمّات المهنيّة المضنية.

في قاعة الرجال، كان أبي يجلس دوماً قبالة عمّي على الصُّفَّةِ القريبة من المذياع، بحيث يكون قادراً على التحكّم بمفتاح المؤشّر لاختيار الإذاعات. كان كلٌّ منهما يرتدي جلباباً مزدوجاً، الجلباب العلويّ مَخِيطٌ من الكتّان الأبيض الشفاف، والذي تُشتَهَر بصناعته مدينة «وَزَّان»(*) (وهي مدينةٌ دينيّةٌ من مدن الشمال ذات صِيتٍ

(*) وَزَّان Ouezzane: تقع على بعد 159 إلى الشمال الشرقي من فاس، و127 إلى الجنوب من تطوان. زاوية ومزار ديني.

وعراقة في الصناعة النسيجيّة)؛ أما الجلباب السفليّ فمخيطٌ من نسيجٍ أكثر ثخانةً. كان أبي يعتمر أيضاً عمامته الصفراء الباهتة المصنوعة من القطن المطرّز شاميّ المصدر، والتي كانت الانحراف الزِّيَوِيَّ الوحيد عن الزيِّ التقليدي. في أحد الأيّام مازح أبي أبناء العمومة الشبّان الجالسين حوله، قائلاً: «ماهو إذاً مصير ثيابنا التقليدية إن لبستم ـ أنتم الشباب أيضاً ـ مثلما يلبس رودولف فالنتينو؟»؛ فهم جميعاً ودون استثناءٍ كانوا يلبسون وفق الطراز الغربي، رؤوسهم مكشوفةٌ دون أيِّ اعتمامٍ، وأشعارها حليقةٌ حتى ما فوق آذانهم، وفي تلك الهيئة كانوا يشبهون شبهاً كبيراً الجنود الفرنسيّين المتمركزين عند ناصية الشارع. ثمّ عقّب عمي على ما قاله والدي: «قد نتمكّن يوماً من طرد الفرنسيّين خارجاً؛ لنكتشف بعدئذٍ أنّنا جميعاً نشبههم».

بين الشبّان الذين يتردّدون على القاعة كان هناك أخوة سميرٍ الثلاثة: زين وجواد وشكيب، بالإضافة إلى أبناء العمّات كلهنّ وبنات العمومة الأرامل أو المطلّقات، وكانوا يعيشون جميعهم معنا. وكان أغلبهم ملتحقاً بالمدرسة الوطنية، أما الأكثر نباهةً منهم، فكانوا يذهبون إلى المَجْمَع الإسلاميّ، وهو مدرسة النخبة، يقع على بعد بضعة أمتارٍ من المنزل. كان المجمع منشأةً فرنسيّة فرعيّة تهيّء أبناء العائلات المرموقة لشغل مناصب هامّة؛ وكان مستوى تفوّق الطلاب يعتمد على معرفتهم باللغتين العربيّة والفرنسيّة وبالتاريخ؛ إذ كان لزاماً على الفتيان العرب كي يتمكّنوا من هزم الغرب أن يمْهَروا في كِلتا الثقافتين، كان زين ـ بين أبناء عمومتي أجمعهم ـ يُعتبر عموماً الأكثر حذقاً وموهبةً، وكان يجلس عادةً في القاعة محاذاة عمّي، وقد ألقى الصحف الفرنسية جهاراً على ركبتيه. لقد كان شابّاً وسيماً أسمر، وله عينان لوزيّتان ووجنتان ناتئتان وشاربان صغيران، وكان يشبه «رودولف فالنتينو» شبهاً لانظير له. ذلك النجم الشهير الذي كنّا نراه كثيراً في دار سينما «بو جلود» التي

كانت تعرض فيلمين بوقتٍ واحدٍ (متلاحقين)؛ أحدهما مصريٌّ ناطقٌ بالعربية والثاني أجنبيٌّ ناطقٌ بالفرنسيّة. منذ أن رأيت وسمير «رودولف فالنتينو» للمرّة الأولى في أحد أفلامه التي شاهدناها في السينما، تبنّيناه على الفور كفردٍ من أفراد حريمنا؛ لشدّة شبهه بابن عمنا زين. في تلك الحقبة كان زين ينظُر على طريقة «الشيخ»، وكانت ترتسم على سحنته دلائل الاستياء، ويظهر مرتدياً زيّاً داكناً، ويفرق شعر رأسه مناصفةً، ويَشْكِلُ زهرةً حمراء صغيرةً في عُرْوة ردائه. ويجدر بي أن أقول في هذا السياق: إنّ اسم زين يعني لغويّاً «حُسْناً»، وليس الاسم فحسب، بل كلّ شيءٍ. لقد كانت الغبطة تغمرني لشدّة إعجابي بوقاره وأناقته؛ فقد كان رجلاً من الطراز الذي يسحرني، والذي يكاد يكون أقرب إلى الآلهة منه إلى البشر: أي أولئك الرجال الذين يصولون ويجولون بين ثقافتين، ويتكيّفون متعايشين مع كلتا الثقافتين، إذ إنّ اللعب الرشيق والمرونة هما الميدان الذي تتجلّى فيه رصانتهم. كنتُ كالجميع مُبهَرةً بفصاحته في اللغة الفرنسيّة، تلك اللغة التي لم يكن أحدٌ بين أفرادالعائلة يتقنها بَعْدُ. كنت لا أدّخر وسعاً في الإصغاء إليه طيلة ساعاتٍ، وهو يُصدر تلك الأصوات الغريبة، حين كان عمي يُشير إليه أن يقرأ الصحف الفرنسيّة، وكان الحضور كافّة ينصتون إليه في خشوعٍ مطلقٍ.

كان يبدأ بقراءة العناوين الرئيسة قراءةً سريعة، ليعود لاحقاً إلى المقالات التي كان عمي وأبي ينتقيانها اعتماداً على الحدس إلى حدٍّ ما؛ فقد كانت معرفتهما باللغة الفرنسية جدّ هزيلةٍ إن لم نقل مشكوكاً فيها. ومن ثمّ كان يقرأ بصوتٍ عالٍ، قبل أن يقوم بعرض *«ملخّصٍ تركيبيٍّ»* باللغة العربية؛ وقداستعملت بحقٍّ هذه العبارة: «ملخص تركيبيّ»؛ لأنّه كان يُعيد تلاوة الأخبار دامجاً في أثنائها تعليقاته الخاصة، وهذاك شركٌ كان ـ في الغالب ـ يقع فيه سائر أبناء عمومتي. كان أبي وعمي يرقبان محدِّثهما، ولم يكونا قادرين على تمييز الإضافات الزائدة إلّا عبر تباين التواتر الإيقاعيّ لتسلسل

الجُمل، أو إثر بعض التردّد الذي كان يبديه زين. إنَّ إيلاء الثقة لشخص يخلط بين القراءة والتأويل لأمرٌ جنونيٌّ. بهذا الشكل استطاع زين تبوُّؤَ مكانةٍ مَلَكيّةٍ.

إنّ الطريقة التي كان يتكلّم بها زين الفرنسيّة ـ وتحديداً كيف كان يلفظ حرف الـ «r» ويديره في لسانه ـ كانت تصيبني بالقشعريرة. لقد كان لفظي لحرف الـ «r» مسطّحاً بشكلٍ مثير للرثاء، وخصوصاً لفظي لـ «الراء» عندما أتكلّم اللغة العربية الفصحى، وكم استوقفتني معلّمتي لالاطَمْ أثناء تلاوتي للقرآن، كي تذكّرني أنّ أجدادنا كانوا يلفظون «الراء» بتشديدٍ قويٍّ، وكانت تقول لي: «يجب عليك احترام أجدادك يا فاطمة المرنيسي. لماذا تشنّعين بهذه الأبجديّة التي لم تسئ إليك قيد أنملة؟». وقتّها كنت أتوقّف عن القراءة، وأصغي إليها بتهذيبٍ جمٍّ، وينتابني شعور بالاحترام مشوبٌ باقتراف الذنب تجاه أجدادي، ثمّ أستجمع قواي التنفُّسيّة كلَّها، وأصُبّها في محاولةٍ جَسورةٍ ويائسةٍ للفظ «راءٍ» حيويّةٍ ومفعمةٍ بالطاقة؛ فأختنق بصورةٍ مُزريةٍ. وأقول: إنّ زيناً موهوبٌ للغاية ووسيمٌ جدّاً، ويتقن اللغة الفرنسيّة، ويستطيع أن يدير في لسانه المئات من حروف الـ «r»، دون أن يبذل أيَّ جهدٍ واضحٍ للعيان!.

وكنت غالباً ما أركز تركيزاً مكثّفاً، مؤمِّلةً ـ وقد تملّكتني الحيرة ـ أن ينعكس عليّ بعضٌ من موهبته وجماله الأخّاذ عبر قوّة التركيز هذه؛ ومن يدري، ربما تنعكس قدرته السحريّة على تدوير حرف «الراء». كان زين يعمل جاهداً كي يصبح نموذجاً للوطنيّ العصريّ المثاليّ، أي ذاك الذي يُلِمّ إلماماً تامّاً بالتاريخ والأساطير والشعر العربي، ويتكلّم ـ فضلاً عن ذلك ـ الفرنسيّة (لغة أعدائنا) بطلاقةٍ، كي يتمكّن من اكتشاف خفايا صحافة المسيحيّين، ومن إحباط مخطّطاتهم. وقد نجح في تحقيق تلك الشروط نجاحاً مُشرِّفاً. وعلى رغم تفوّق المسيحيّين العصريّين الذي كان مؤكّداً في مجال العلوم والرياضيات، فإنَّ الزعماء الوطنيّين طالما شجّعوا الشبّان

على قراءة المؤلّفات الكلاسيكية (التراثيّة) لابن سينا والخوارزمي[1].
«وذلك فقط لكي يكوّنوا فكرةً عن الطريقة التي كان يعمل بوساطتها فكر القدماء في ذلك العصر؛ فما يزال من الأهميّة بمكانٍ أن تدركوا أنّ أسلافكم كانوا ذوي ذهنٍ حادٍّ ومحكم الدقّة». كان أبي وعمي يبديان الاحترام لزين كفردٍ من أفراد الجيل المغربي الجديد الذي يُعقد عليه الأمل بدفع البلاد نحو الخلاص؛ فقد كان يؤمّ المصلّين في مسجدالقرويّين يوم الجمعة، حيث كان يتوافد رجال فاس جميعهم شيوخاً وشباباً، وقد ارتدى كلٌّ منهم جلبابه التقليدي الأبيض، وبابوجه الجميل المصنوع من الجلد الأصفر؛ من أجل تأدية صلاة الجمعة جماعةً. بشكلٍ رسميّ، كان اجتماع ظهر الجمعة دينيّاً، لكنّ الناس جميعهم بمن فيهم الفرنسيّين كانوا يدركون أن الكثير من قرارات *«المجلس البلدي»* الهامّة كان يُتّخذ خلال ذلك الاجتماع؛ فلم يكن يشارك في تلك الصلاة أعضاء المجلس البلدي كافّةً ـ كالعمّ عليّ ـ وحسب، بل كان يؤدّيها أيضاً ممثّلو الفرق الاجتماعية في المدينة، ابتداءً من أرفعهم مقاماً، وصولاًإلى أدناهم مرتبةً.

وفقاً لرؤية عمّي، كان المسجد الذي يفتح أبوابه للجميع، يعوّض آنذاك عن البنية الأكثر نخبويّةً للمجلس الذي أسّسه الفرنسيّون كجمعيّةٍ لأصحاب المقامات. وكان يقول «على رغم قيام الفرنسيّين بخلع ملوكهم ونبلائهم عن العرش، لكنهم مايزالون يحبّذون التخاطب مع رجال المقامات العليا حصراً، وتقع على عاتقنا ـ نحن أهالي البلد ـ مسؤوليّة التواصل مع بقيّة فئات المدينة. إنّ مدينتنا مدينة حرفيّين، وهم لديهم تنظيمهم الخاصّ، كما لديهم شبكاتهم من المفوّضين والممثّلين. لاتُحكم هذه المدينة بالانغلاق ضمن جماعةٍ صغيرةٍ، وكلُّ شخصٍ يشغل وظيفةً سياسيّةً، يتوجّب عليه أن يشارك في صلاة الجمعة بانتظامٍ؛ فهذه هي الطريقة الوحيدة للحفاظ على تماسّنا المباشر بالناسِ».

إنّ الجماعات الخمس ـ التي أسهمت خلال قرونٍ في خلق

الوضع الفكريّ والاقتصادي للمغرب ـ كانت ممثَّلةً على أوسع نطاقٍ في المسجد يوم الجمعة. أولى تلك الجماعات جماعة *«العلماء»* الذين كرّسوا حياتهم للعلم، والذين نستطيع غالباً أن نجد لهم أسلافاً في الأندلس أو: إسبانيا الإسلامية. لقد كانوا يُجلُّون النصَّ المكتوب، كما أسهموا في الحفاظ على صناعة الكتاب، بدءاً من صناعة الورق وفنِّ النسخ، وانتهاءً بتجليد الكتب، مشجِّعين على القراءة والكتابة، وتجميع وحفظ المخطوطات النادرة. ثانية تلك الجماعات جماعة *«الأشراف»*، أو أولئك الذين يتحدّرون من نسل النبيّ، ويتمتّعون بهيبةٍ عظيمةٍ ويُؤخذ لهم الاعتبار كلُّه، والذين يؤدّون دوراً رمزياً شعائريّاً في مراسم الزواج والولادة والدفن؛ وهم من كان لهم دورٌ مركزيٌّ في المفاوضات والتحكيم بين المتنازعين. لقد كانت ظروف معيش الأشراف متواضعةً؛ فكسب المال وجمع الثروة لم يكونا الشاغل الأساسي لهم، لأنّ ذلك كان من اهتمامات واختصاصات *«التجار»* الذين كانوا يشكّلون الجماعة الثالثة: جماعة المتحذلقين والشطّار. لقد كانوا يخوضون المغامرات، وكانوا ـ في أثناء الفترات الفاصلة بين الصلوات ـ يصفون عن طيب خاطرٍ رحلاتهم المحفوفة بالمخاطر إلى أوروبا وآسيا أو باتجاه الجنوب وراء «الصحراء». في الترتيب الرابع تأتي عائلات *«الفلاحين»* أي: مُلّاك الأراضي؛ وينتمي إلى هذه الجماعة كلٌّ من أبي وعمّي. كانت كلمة *«فلّاح»* تحمل معنيين متناقضين: فهي من جهةٍ تعني الفلاحين الفقراء الذين لايملكون أرضاً، ومن جهةٍ أخرى تعني الملّاكين والمستثمرين الزراعيّين الأثرياء. وكان أبي وعمي يفخران بانتمائهما إلى *«الفلاحين»* بيد أنهما ينتسبان إلى الفئة الثانية منهم. لقد كانا شديديّ التعلّق بأرضيهما، وكان أكثر مايغمرهما بالغبطة قضاء أيامٍ طوالٍ في مزارعهما، رغم اختيارهما العيش في المدينة. كان *«الفلاحون»* يمارسون الزراعة على نطاقٍ واسع إلى حدٍّ ما، وكانوا يجهدون في الغالب لمواكبة التّقْنيّات الزراعيّة الحديثة التي أدخلها المستعمرون الفرنسيّون. كان الكثير من عائلات

الملاّكين كعائلتنا يرجع محتده إلى الجبال المجاورة للريف والواقعة إلى الشمال من المدينة، وكان يزهو بأصوله الريفية(*)، وخاصّةً لأنّ هذه العائلات كانت تُجابه تعجرف الأندلسيّين، أي جماعة العلماء. وفي كلّ مرّةٍ تُثار مسألة تدرُّج المراتب الخاصّ بجماعات المدينة، كان والدي يقول: «إنّ جماعة *«العلماء»* هامّةٌ دون ريب، لكن لو لم نكن هنا لتأمين لقمة الزاد لهم، لماتوا جوعاً. يمكنكم فِعل أشياءَ كثيرةٍ بالكتاب، كأن تتفرجّوا عليه أو تقرؤوه أو تتجادلوا بصدد الأفكار الواردة فيه؛ لكنّكم لاتستطيعون أن تأكلوه. هي ذي بحقٍّ مشكلة المفكّرين. إنه لمن الأفضل أن يكون المرء *«فلاحاً»* مثلنا نحن الذين نعشق الأرض ونُجلُّها، وفضلاً عن ذلك نحصّل العلم. إن كنتم تجيدون زراعة الأرض وقراءة الكتب بآن معاً؛ فلا يمكن أن تسقطوا في مَزِلَّة الخطأ».

وكان والدي قلق البال بخصوص *«الشباب»* أي فتية العائلة الذين كانوا يستمتعون إلى حدٍّ كبيرٍ بالدراسة، لكنّهم يفقدون الإحساس بالأرض؛ ولهذا كان يصرُّ عليهم بأن يقضوا إجازة الصيف معه في مزرعة عمّي الواقعة على بعد بضعة كيلومتراتٍ من فاس؛ إلّا أنّ عدد الشبّان كان يتضاءل في لمح البصر بعد مضيّ بضعة أيّامٍ على وصولهم إلى المزرعة؛ فقد كانوا يلوذون بالفرار على جناح السرعة متروّعين من هول المهمّة الموكلة إليهم. «ربّما يصبح المغرب عصريّاً، لكنّ الأمر المؤكّد هو أنّ أيدي الرجال سوف تكون ناعمةً بنعومة أيدي النساء». بتلك العبارة كان أبي يتمتم متذمّراً وقتَ لايقبل أيٌّ من *«الشباب»* دعوته إلى تذوّق الملذّات الحَقْليّة.

أما الجماعة الخامسة في المدينة ـ وهي أكثر الجماعات عدداً ـ فكانت جماعة الحِرفيّين، وعملياً هم الذين كانوا يصنّعون في

(*) نسبة إلى انتمائهم للريف بمعناه العام كأفرادٍ من جماعة الفلاحين، وليس إلى منطقة الريف الشمالية. بمعنى إنهم يزهون بأصولهم الفلاّحية.

ورشاتهم الحرفية كلّ المنتجات المغربيّة المتقَنة قبل أن يغزو الفرنسيّون السوق بسلعهم المُصنَّعة في مصانعهم؛ وقد أُطلقت على أحياء فاس أسماء حسب أصحاب الحرف الذين يعملون فيها، فحيّ *«الحدّادين»* هو الحيّ الذي تتمّ فيه أعمال الحِدادة والنّحاسة، وحيّ *«الدّبّاغين»* هو الحيّ الخاصّ بدباغة الجلود، أما الفَخّارِيُّون فيزدهرون في حيّ *«الفَخّاريِّيْن»*، وفي حيّ *«النّجّارين»* تستطيعون شراء لوازم النِّجارة الخشبيّة. أما أكثر الحرفيّين ازدهاراً منهم، فهم أولئك الذين يشتغلون بالذهب والفضّة، والذين يقرضون الطّرَازَة والقِيْطانة فينسجون الخيوط الحريريّة والمعدنيّة ذات الطرز القيطانيّة الفاخرة: الـ *«صفيفا»*(*) التي تُستخدم لزركشة القفاطين بعد أن تطرّزها النساء[2].

كان أهالي الحيّ الواحد يتجمّعون غالباً في الجامع ثم يعودون سويّةً، وهم يثرثرون ويتبادلون الآراء حول آخر المُستجدات. كان ابن العمّ زين والشبّان يذهبون دوماً راجلين إلى الجامع، بينما كان الرجال الأكبر سنّاً يتبعونهم على بُعْدِ بضعة أمتارٍ راجلين تارةً وممتطين ظهور بغالهم تارةً أخرى؛ وكنت وسمير نودّ دائماً أن يأخذ أبوانا بغليهما؛ إذ كان بإمكاننا في هذه الحال أن ننضم إليهما، فيجلس الواحد منّا في مقدّمة السرج. لقد تردّد أبي باصطحابي معه في المرّة الأولى، لكنّني شرعت أصرخ بأقصى ماأستطيع، إلى أن أكّد له عمّي أنّ لاحرج عليه باصطحاب طفلةٍ صغيرةٍ إلى المسجد. «ألم يذكر *«الحديث»* أنّ النّبيّ صلى اللّه عليه وسلّم قد أمَّ المصلين يوماً بينما كانت هناك طفلةٌ تلعبُ بالقرب منه؟». كان عمّي يردّد هذا القول في كل مرّةٍ أنشب فيها بجلباب أبي مُطلقةً صرخاتٍ حادّةً آنَ يشرع بارتداء ثيابه تأهُّباً للذهاب إلى صلاة الجمعة؛ وكانت أمّي (التي تملؤها الغيرة من حرّيتي في

(*) في الأصل Sfifa، والقِيْطان ما يُنسج من الحرير وغيره شبه الحبال، والقِيطانة اسم الحرفة.

الخروج ومرافقة أبي إلى الأماكن العامّة التي حُرِمَت هي من ارتيادها) لاتفوِّت مناسبةً للسخرية منه وقتَ تراه يرضخ إلى نزواتي: «ياعزيزي الهادي، إن استمررت في دَلَاعةِ هذي البنت، وفي تلبية رغباتها كلها؛ فسوف تلّح عليك في القريب العاجل بأن ترافقك إلى بيت الخلاء».

التنازل الوحيد لصالح التقاليد الذي كان الشبّان يقبلون القيام به يوم الجمعة هو ارتداء *«الطربوش الوطني»*، وهو عَمْرةٌ مثلّثة الشكل من اللّبّاد أطلقَ طرازها (موضتها) الوطنيون في الشرق الأوسط؛ وكان بإمكان تلك العمرات أن تتسبّب بخلق المشاكل في أثناء فترة الاضطرابات، وقتَ كانت الهستيريا تصيب الفرنسيين. لقد انتشرت هذه (الموضة) بعد أن ظهر علّال الفاسيّ وقد اعتمر طربوشاً في مسجد القرويّين؛ وعلّال الفاسيّ هو أحد أبطال المقاومة التي وقفت في وجه الاحتلال الفرنسي، وقد حُكِمَ وسُجِنَ ونُفي مرّاتٍ عدّة. ووقت تعمّم الملك محمد الخامس فيما بعد بهذاك الطربوش - الذي كان ينسدل بأناقةٍ على جبهته المهيبة، وذلك خلال اجتماعٍ رسميٍّ مع المندوب السامي الفرنسيّ في الرباط - استنتج المراقبون السياسيّون إثر ذلك: إنّ لا أمل يُرتجى من الملك بعد هذا السلوك؛ إذ لايمكن إيلاء الثقة بملكٍ يستبدل العمامة التقليديّة بلبّادةٍ هدّامةٍ!.

وعلى أيّة حالٍ، كان كلٌّ من التراث والحداثة يتماشى مع الآخر بانسجامٍ تامٍّ في الطريقة الزِّيَوِيَّة التي يتّبعها الشبّان، كما هو الحال لدينا خلال اجتماعات «الصحافة» التي يعقدها الرجال، فبعد الاستماع إلى الأخبار التي يبثُّها المذياع يقفله أبي، وتبدأ الجماعة بالإصغاء إلى الشبّان يقرؤون الصحف ويعلّقون على ما يرد فيها؛ ثم يبدأ الحضور باحتساء الشاي الذي يُقدَّم إليهم، كنتُ وسمير نلوذ بالصمت، بيد أنّني كنت - في الغالب - أسند رأسي إلى كتف أبي وأوشوشه: «من هم الألمان؟. أين تقع بلادهم؟. هل هم أقوى من

الفرنسيّين؟. وأين يختبئون إن كان الإسبان يتمركزون في الشمال والفرنسيّون في الجنوب؟». كان أبي يعدني على الدوام بأن يجيب على أسئلتي لاحقاً عندما نكون منفردين. والحقّ إنّه كان يفي بوعده، غير أنّني لم أتمكن قطّ من الحصول على الإجابة الشافية، وكذلك كان سميرٌ، رغم قصارى جهودنا التي كنا نبذلها للوصول إلى أجزاء الأحجية المفقودة.

11

الحرب مرئيَّةً من الفناء

إنّ الألمان مسيحيون، هذا أمرٌ مؤكّدٌ، وهم يقطنون ـ كسائر المسيحيين ـ في الشمال.. في البلاد التي نسمّيها «*بلاد الثّلج*»، ولم يعهد الله إليهم بنعمته؛ فطقسهم بارد وقاسٍ جدّاً ممّا يجعل مزاجهم سيّئاً، ووقت لاتشرق الشمس طيلة أشهر يصبحون أشراراً، وكي يدفّئوا أنفسهم يضطرون إلى شرب النبيذ وغيره من المشروبات القوية التي تجعلهم عدائيّين؛ فيسعون إلى مشاكسة الآخرين. وهم يشربون الشاي أحياناً كسائر الناس، لكن حتّى شايهم مرُّ المذاق وشديد السخونة، ويختلف كثيراً عن شاينا المُعَطّر دوماً بالنعناع أو الشيح الرومي أو الريحان. ويقول زين الذي ذهب إلى إنكلترا: إنَّ الشاي الذي يحتسونه هناك تبلغ مرارته حدّاً يجعلهم مضطرين لإضافة الحليب إليه. وقد حاولتُ وسمير مرّة صبّ الحليب فوق شاينا المعطَّر بالنعناع؛ كي نستكشف ذلك المذاق فحسب، وما أكرَهَه مذاقاً!. ليس من العجب إذاً أن يكون المسيحيون تعساء، كما ليس من العجب أن يبحثوا عن القتال من غير انقطاعٍ!.

مهما يكن فإنّ الألمان ـ على مايبدو ـ كانوا يجهّزون من وراء الكواليس جيشاً ضخماً، وذلك على مدار سنواتٍ عدّةٍ، ولم يكن أحدٌ مطّلعاً عمّا يجري، إلى أن جاء يومٌ غزوا فيه فرنسا، واحتلوا عاصمتها باريس، وبدؤوا يفرضون القوانين على الناس، تماماً

كما يفعل الفرنسيّون هنا في فاس. لكنّ الحظ كان إلى جانبنا، فعلى الأقلّ لم يُغرم الفرنسيون بمدينة أجدادنا، وبنوا المدينة الجديدة ليستوطنوها. وحين سألتُ سميراً عمّ سيحلُّ بنا لو وجد الفرنسيون «المدينة» موائمة لأمزجتهم؛ أجابني إنهم كانوا سيرمون بنا خارجاً؛ ليستولوا على بيوتنا. لم يكن الألمان الغامضون يحقدون على الفرنسيّين وحسب، بل إنّهم شنوا الحرب على اليهود أيضاً، لقد كان الألمان يرغمون اليهود - كلّما وطئت أقدام هؤلاء أيّ بقعةٍ خارج بيوتهم - على ارتداء بعض الأشياء الصفراء (تماماً مثلما يُكرهُ المسلمون النساء على لبس الحجاب) كي يتمكّنوا من تمييزهم فور رؤيتهم لهم.

لم يستطع أحدٌ داخل الفناء أن يعرف حقّاً لِمَ كان الألمان يكنّون الضغينة لليهود، وكنت وسمير نطرحُ الأسئلة على الدوام، ونجري من جماعةٍ إلى أخرى من الطُّرّازات في وقت ما بعد الظهيرة، تلك الفترة الهادئة؛ لكنّنا لم نكن نتلقّى كردٍّ على أسئلتنا سوى الافتراضات، وكانت أمي تقول: «قد يكون الأمر عينه بالنسبة إلى النساء هنا؛ فلا أحد يعرف حقاً لِمَ يجبرنا الرجال على ارتداء الحجاب. وهاتيك دون شكٍّ مسألة اختلاف؛ فالخوف من اختلاف الآخر يجعل الناس يتصرّفون بطريقةٍ غريبةٍ للغاية.إنّ الألمان يشعرون - على الأغلب - بأمانٍ أكبر حين يكونون مع بعضهم البعض؛ كما هو حال الرجال في «المدينة» إن تَظهرِ امرأةٌ لهم تَثُرْ أعصابهم. إذا أصرّ اليهود على البقاء مختلفين؛ فسوف يقوّض ذلك أمن الألمان المستتبّ... إنّ العالم لمجنونٌ!».

لليهود في فاس حيٌّ خاصٌّ يطلق عليه اسم «الملّاح»، وللوصول إليه من منزلنا نحتاج إلى نصف ساعة تماماً. لم يكن اليهود يختلفون - من حيث الهيئة - عن سائر الأهالي إلّا بأرديتهم الطويلة نظيرة جلابيبنا، وبقبّعاتهم التي يعتمرونها عوضاً عن العمائم. هذا وحسب وجه الاختلاف بيننا وبينهم. كانوا يولون شؤونهم الخاصة

العناية، ويلبثون بحيِّهم «الملّاح»، حيث الرجال يصيغون الحِلى الرائعة، والنساء يخلّلن الخضار الشهية؛ وقد حاولت أمي إعداد مخلّلاتٍ من الكوسا والخيار ذي الحجم الصغير والباذنجان الذي لامثيل لصغره؛ بيد أنها لم تنجح في محاولتها قطّ. «لابدّ.. لديهنّ وصفة سحريَّةٌ»، ذلك ما استنتجته إثر فشلها الذريع. ولليهود صلواتهم الخاصّة مثلنا تماماً، وهم يعبدون ربَّهم، ويعلّمون أولادهم كتابه، وقد شيّدوا له كنيساً يتنزّل لديهم منزلة الجامع لدينا، وأنبياؤنا أنبياؤهم باستثناء حبيبنا محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم.

الحقّ إنني لم أتعمّق كثيراً في ذكر قائمة الأنبياء؛ لأن الأمر يصبح عندئذٍ معقّداً وأخشى أن أقع في الخطأ. تقول معلمتي لالاطَمْ إنَّ الخطأ فيما يتعلق بالدين قد يؤدي بمرتكبه إلى جهنّم، وذلك مايُدعى *«تاشيف»* أي: تجديفاً (الكلام عن الله بالكفر والإهانة)، وبما أنّني سبق وقرّرت الذهاب إلى الجنة، فقد كنت أتلافى اقتراف الأخطاء. ممّا هو مؤكّدٌ ووثيقٌ أنّ اليهود عاشوا مع العرب منذ غابر الأزمان، وكان النبيّ محمّدٌ يحبُّهم وقتَ بدأ يدعو للإسلام، لكنهم ارتكبوا أفعالا خبيثةً؛ فقرّر وقتئذٍ أنّ على كلٍّ من أصحاب الدِّينَين أن يعيشوا في أحياء منفصلةٍ عن الأحياء التي يعيش فيها أصحاب الدين الآخر؛ وهذا إن انبغى على الدينين أن يتعايشا معاً في مدينةٍ بعينها. إنّ اليهود شديدو التنظيم، وروح الجماعة لديهم أعلى بكثيرٍ مما هي لدينا. وكانت العمّة حبيبة تذكر دائماً: «الغنّي لاينسى الفقير أبداً لديهم». وفي حي «الملّاح» يلقى الفقراء العناية والاهتمام، ويذهب الأطفال إلى الرابطة الإسرائيلية، وهي مدرسة ذات نظامٍ صارمٍ على قدر صرامة النظام عند لالاطَمْ.

غير أنّ ماكنتُ عاجزةً عن إدراكه هو: ماذا كان يفعل اليهود في ألمانيا، وكيف وصلوا إلى هناك... إلى بلاد الثلج؟. كنت أظنّ أن اليهود كالعرب يفضّلون المناخ الحارّ. ألم يسكنوا في المدينة

المنوّرة الواقعة وسط صحراء شبه الجزيرة العربية خلال عهد النبي؟. وقبل ذلك ألم يعيشوا في مصر على مقربةٍ من مكّة، وفي سوريا؟. وفي الأحوال كافةً كان اليهود دوماً ـ وإلى حدٍّ ما ـ إلى جانب العرب[1].

في أثناء فتح إسبانيا (أي وقت حوّلت الأسرة العربية الأمويّة ـ القادمة من دمشق ـ الأندلس إلى حديقةٍ ورافة الظلال، وشيدت قصور قرطبة وإشبيلية) حذا اليهود حذو العرب. لقد روت لنا لالاطَمْ كلّ هذا، مكرّرةً قولها كثيراً، حتى أنّ الأمور اختلطت عليّ إلى حدّ اعتقادي أنّ ذلك كلّه قد ورد ذكره في القرآن، وستدركون هذا؛ إذ لم تكن لالاطم ـ في معظم الأوقات ـ تُعنى كثيراً بشرح معاني آيات القرآن؛ بل كنّا نكتفي بنسخها على «لوحاتنا»(*) ـ أي: سبّوراتنا ـ ونحفظها عن ظهر قلبٍ أيّام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء.

كان كلٌّ منّا يجلس على طَرّاحته(*) الصغيرة واضعاً «اللوحة» في حجْره، ويقرأ بصوتٍ عالٍ مرتّلاً حتّى تعلق الآيات في ذهنه. وفي يوم الأربعاء كانت لالاطَمْ تستمع سابِرةً إلى ما حفظناه، وكان لزاماً علينا أن نقلب وضعية «لوحاتنا» على ركبنا؛ كي لانحاول أن نسترق النظر إليها، وكي نستظهر من الذاكرة. كانت لالاطَمْ تبتسم عندما لايرتكب المُستظهِرُ أيَّ خطأ، لكنّها كانت نادراً ما تبتسم حين يأتي دوري للاستظهار، وكانت تقول لي واضعةً ذُبالة مقرعتها المتوعّدة فوق رأسي: «أنت يا فاطمة المرنيسي.. لن تتمكني من تحقيق شيء في الحياة، إن كان كلُّ ما يدخل في أذنك يخرج من الأذن الأخرى». بعد يوم الاستظهار كان يوما الخميس والجمعة يتنزّلان منا منزلة العطلة تقريباً؛ فلم يكن مطلوباً منّا سوى تنظيف «لوحاتنا»، ونسخ آياتٍ جديدةٍ عليها. لكن طيلة الأيّام لم تكن لالاطَمْ تقدم لنا أيَّ شرحٍ لأيٍّ من الآيات؛ زاعمةً أنّ ذلك لايجدي نفعاً في شيءٍ: «اكتفوا بحفظ

(*) الطرّاحة: فراش مربّع أو مستطيل يجلس عليه. والكلمة عاميّة، ولكن آثرنا استعمالها لأنها تؤدّي المعنى المراد في هذا الموقع.

ماتكتبونه على «*لوحاتكم*» عن ظهر قلب، فلا أحد سيسألكم الرأي».
إلّا أنني لكثرة ماكانت تتحدث عن فتح إسبانيا اختلطت الأمور عليّ، وبدأتُ أعتقد أنّ ذلك الفتح قد ورد ذكره في كتاب اللّه؛ فأخذت تصيح لحظةَ علمتْ بذلك قائلةً: هذا هو التجديف بعينه، واستدعت أبي الذي قضى عند ذاك قسطاً لابأس به من الزمن ليشرح الموقف ويوضحه لها.

لقد شرح لي أنّ معرفة بعض التواريخ الهامة لأمرٌ أساسيٌّ بالنسبة إلى فتاةٍ تنوي إبهار العالم الإسلامي؛ أمّا البقيّة المتبقّية من الأمور الأخرى فسوف تنجلي أمام ناظريّ، وستتموقع في نصابها لمّا تحين اللحظة المناسبة. ثمّ بيّن لي أن تنزيل القرآن قد انتهى بوفاة النبيّ في العام الحادي عشر للهجرة (أي هجرة محمّد من مكّة) الموافق للعام اثنين وثلاثين وستمئة 632 للميلاد؛ فطلبتُ من أبي تبسيط الأمور بالاعتماد على التقويم الإسلامي فقط في الوقت الراهن؛ إذ إنّ المسيحيين شديدوّ التعقيد؛ ووقتئذٍ ردّ عليّ إنّ مايتوجّب على صبيّةٍ ذكيةٍ مولودةٍ على سواحل المتوسط هو أن تتقن التطواف بين تقويمين أو ثلاثة كحدٍّ أدنى «إنّ الانتقال من تقويم إلى آخر يصبح آليّاً إن بدأت بتعويد نفسك عليه في وقتٍ مبكّرٍ». غير أنه قَبلَ أن يتناسى آنيّاً التقويم اليهودي الذي يفوق إلى حدٍّ كبيرٍ التقاويم الأخرى في القِدم؛ وكنت كلما خُيّلَ إليّ كم يجب الرجوع زمناً لدى استخدامه؛ أُصبتُ بالدوار.

وأخيراً بالعودة إلى موضوعنا، سنلاحظ أن العرب قد فتحوا إسبانيا بعد مضيّ قرنٍ على وفاة النبيّ، وكان ذلك عام 91 للهجرة؛ وبالتالي لايمكن أن نجد ذِكراً لهذا الفتح في كتاب اللّه. «إذاً لماذا لاتكفّ لالاطَمْ عن الحديث عنه؟» بذلك سألتُ أبي؛ فأجابني إنّ مردّ ذلك ـ بلا ريب ـ هو تحدُّر عائلتها من أصلٍ أندلسيٍّ؛ فقد كان اسم شهرتها سَبَاتا ـ وهو اسم محرّف عن زاباتا، وحتى حينه كان أبوها يملك مفتاح دارهم في إشبيلية. وتابع والدي «إنها تشعر بالحنين

إلى وطنها، فقد ذبحت الملكة إيزابيل(*) معظم أفراد عائلتها». ثمّ روى لي أنّ اليهود والعرب عاشوا في الأندلس طيلة سبعمئة سنةٍ، من القرن الثاني إلى القرن الثامن للهجرة (أي من الثامن إلى الخامس عشر للميلاد)، وقد ذهب كِلا الشعبين إلى إسبانيا وقتَ هَزمت الأسرة الأمويّة المسيحيّين، وأسست امبراطوريّةً كانت عاصمتها قرطبة، ذاك إن لم تكن غرناطة أو إشبيلية؛ فلم تكن لالاطَمْ تتحدّث بتاتاً عن مدينةٍ دون أخرى، وربما كان الناس يمتلكون حقّ الاختيار بين ثلاث عواصم، غير أنّ الجمع بين أكثر من عاصمةٍ واحدةٍ لم يكن مصرّحاً لكم به. في الحقيقة، لم تكن الأمور طبيعيّةً - بالمعنى الدقيق - فيما يتعلّق بإسبانيا التي سمّاها العرب «الأندلس» ذلك الاسم الجديد.

كان الخلفاء الأمويّون رهطاً من الفرحين ذوي البال الهنيء، والذين استمتعوا ببناء قصرٍ رائعٍ هو قصر الحمراء(**)، وبرجٍ هو برج الجيرالدا(***). وبما أنّهم كانوا يريدون إظهار مدى قوّة

(*) إيزابيل Isabelle (1451 - 1504): ملكة قشتالة الشهيرة، والملقبة بالكاثوليكية. تزوجت بفرديناند ملك أراغون فوحّدا إسبانيا واحتلّا غرناطة 1492 . فكانت نهاية حكم العرب في الأندلس.

(**) قصر أو قصور الحمراء Alhambra: من أشهر التحف المعمارية في غرناطة سمّي كذلك نسبة إلى بني الأحمر أو بني نصر آخر سلالة من ملوك الأندلس في غرناطة، حيث شُيِّد في عهدهم بين عامي 1238 - 1492 . يتميّز بالغلو الزخرفي والنقوش والمنمنمات النحتية التي ميزّت الطراز المعماري الأندلسي في تلك الفترة نتيجة التطوّر الطبيعي الذي أحدث على الفنون الزخرفية منذ العصر الأموي وحتى عصر بني الأحمر مروراً بعهود ملوك الطوائف والمرابطين والموحّدين. ويُلحظ هذا التطور بالمقارنة مع الصورة الأولى للابتكارات الزخرفية في جامع قرطبة.

(***) برج الجيرالدا أو الخيرالدا Giralda: وهو في الواقع الاسم الجديد الذي أطلق على صومعة الجامع الكبير في إشبيلية، والتي شرع ببنائها أبو يعقوب يوسف الموحّديّ في القرن الثاني عشر. وبعد موته أكمل خَلَفُه أبو يوسف يعقوب المنصور بناء الجامع والصومعة بعد انتصاره على جيوش قشتالة في موقعة الأراك؛ حيث أنجز البناء في عام 1196 . وبقي على حاله إلى أن سقطت إشبيلية في يد فرديناند الثالث عام 1248 فتحوّل المسجد الجامع إلى كنيسة سانتا ماريّا والمئذنة غدت برجاً للنواقيس، غير أنّ أيّ شيءٍ من نظام البناء لم يتغيّر؛ حتّى تهاوى القسم العلوي من الصومعة إثر صاعقةٍ ضربتها سنة 1494 ؛ كما سقط جانبٌ كبيرٌ ←

أمبراطوريّتهم وعظمتها؛ فقد بنوا برجاً مماثلاً للجيرالدا في مَرّاكش هو برج الكُتُبيّة(*)، وكانوا يتصرفون كأنّ لاحدود تفصل بين أفريقيا وأوروبا، وكان أبي يقول: «الناس على وجه المعمورة قاطبةً يحلمون بتوحيد هاتين القارّتين، وإلا لما عسكر الآن الفرنسيّون أمام باب دارنا»، ثم أردف: إذاً فقد قضى العرب واليهود سويّةً أمداً طويلاً هناك... في الأندلس، ومكثوا سبعمئة سنةٍ، يلهون بإلقاء الشعر ورَصْد النجوم وهم في حدائقهم الغنّاء الملأى بالياسمين وأشجار البرتقال التي كانوا يسقونها وفق نظام للريّ جديدٍ وشديد التعقيد. لقد كانوا يعشقون التطواف بين اللغُات، سابرين غور الحضارات. وكانوا يصولون ويجولون بين الأديان برشاقةٍ يتعذّر تصديقها، كي لانقول رشاقةً غير واعيةٍ. لقد كانوا على قدرٍ كبيرٍ من التسامح، حتّى أنّ أحداً لم يكن يعرف ما دين جاره، وكان الناس يبدّلون عقائدهم كما يبدلون قفاطينهم. لقد كانت الأندلس عربيةً حقاً! ويصعب تلقين طفلٍ معلوماتٍ عنها؛ إذ إنّها تضّلل الكبار فما بالكم بالصغار.

على أية حال، كنا نسينا كليًّاً الأندلسيينّ هنا في فاس، إلى أن أتى يومٌ أفاقت المدينة فيه على مشهد توافدهم بالمئات، وهم يصرخون من شدّة الخوف، ومفاتيح منازلهم بأيديهم؛ فقد اقتفت

← منها جرّاء زلزالٍ أصاب المنطقة سنة 1504 . عندئذٍ قام مهندسٌ يدعى هرنان رويث سنة 1558 بتنفيذ مشروع بناء برج علويٍّ أنجز بعد عشر سنواتٍ من بدء البناء؛ ونصب في أعلاه تمثالا برونزيا يرمز للمسيحية قام بصنعه برتولومي موريل عام 1567 بحيث يدور مع الرياح وحسب اتجاهها ويبلغ ارتفاعه أربعة أمتارٍ؛ ولذلك أطلق عليه اسم «خيرالديو» Giraldillo ويعني «دوّارة الرياح»؛ ومن هنا جاءت تسمية المئذنة بـ «الجيرالدا» أو «الخيرالدا». لكنّ البرج مازال مؤلّفاً من الجزء السفلي الإسلامي البالغ ارتفاعه 65.69 م، ومن الجزء العلوي الذي أضيف لاحقاً.

(*) برج الكتُبيّة Koutoubia: من أشهر المعالم الأثرية في مرّاكش، وهو صومعة ترتفع حتّى 70 متراً، بناها المرابطون في القرن الثاني عشر. مربّعة الشكل وتتألّف من جزأين: السفلي أربعة طوابق لكلّ منها نوافذ ذات عقودٍ مقرنصة البواطن؛ أما العلوي فطابقٌ واحد تعلوه قبّة ذهبيّة اللون.

أثرهم ملكةٌ مسيحيّةٌ متوحّشة خرجت من الثلج مباشرةً، وتدعى إيزابيل الكاثوليكيّة، لقد ألحقت بهم هزيمةً نكراء وقالت لهم: «إما أن تُصَلُّوا كما نصلي أو نرميكم في البحر»؛ غير أنّها في الواقع لم تمنحهم الوقت للإجابة، وقذف جنودها بهم أجمعين إلى مياه البحر المتوسط، وسبح اليهود والعرب معاً حتّى سواحل طنجة وسَبْتَة (باستثناء أولئك الذين حالفهم الحظ بالعثور على قاربٍ للنجاة)؛ ثم أسرعوا صوب فاس كي يختبئوا فيها. لقد حدث كُلّ هذا منذ خمسمئة سنةٍ، وهذا هو سبب وجود جماعةٍ أندلسيّةٍ كبيرةٍ في قلب «المدينة» قرب جامع القرويين، وحيٍّ يهوديٍّ يبعد من هنا بضع مئاتٍ من الأمتار هو حيُّ الملّاح.

إلا أنّ هذا كلّه لم يفسّر لي وجود اليهود في ألمانيا، وإثر مناقشاتٍ عدّةٍ قضيت وسمير بأنّ قسماً من اليهود - حين بدأت إيزابيل الكاثولكيّة بالصراخ - ربّما ضلّ الطريق متّجهاً شمالاً؛ فوجد نفسه وسط بلاد الثلج. ثمّ لأنّ الألمان مسيحيّون كإيزابيل الكاثوليكيّة، فقد طاردوا اليهود؛ بدافع أنّ هؤلاء الأخيرين لم يكونوا يؤدون الصلاة على طريقتهم في أدائها. لكنّ العمّة حبيبة قالت لنا إنّ هذا التفسير لايبدو صحيحاً؛ فقد قاتل الألمان الفرنسيينّ أيضاً رغم كون هؤلاء مسيحيّين يعبدون الإله نفسه. الأمر الذي وضع حدّاً لنظريتّنا.

إنه لمن المحال تفسير ماكان يجري داخل الدين المسيحي باستخدام شروحاتٍ دينيّةٍ، وكنت على وشك أن أقترح على سمير التخلّي عن مسألة اليهود الغامضة حتّى العام القادم حيث سنكون أكبر سنّاً وأكثر رزانةً؛ وذلك حينما طرحت ابنة العم مليكة تفسيراً منطقياً لكنّه مريعٌ؛ فالحرب ناجمةٌ عن موضوعة الاختلاف في لون الشعر!؛ إذ تقاتل قبائل الشعر الأشقر قرائنها ذوات الشعر الأسود!. إن ذلك لضربٌ من الجنون!. وعلى سبيل المصادفة، كان الألمان طوال القامة، ذوي شعورٍ شقراء وبشراتٍ ناصعة البياض. فيما كان

الفرنسيّون قصار القامة، وشعورهم داكنةٌ وبشراتهم برونزيّةٌ. أما اليهود المساكين الذين أخطؤوا ببساطةٍ اتخاذ الدرب ـ وقت طردت إيزابيل الناس أجمعين من إسبانيا ـ فقد وقعوا في شرك الفريقين كمن يقع بين فكّي كمّاشةٍ. لقد كانوا ـ ويا لحظّهم المعثّر ـ في منطقة الحرب، وكانت شعورهم سوداء، ولم يكونوا ينتسبون إلى هذا المعسكر ولا إلى ذاك!. هكذا إذاً كان الألمان الأقوياء يحدقون بكلّ ذي شعرٍ أسود وعينين سوداوين!.

لقد أصبت وسمير بالهلع، وتحقّقنا من أقوال مليكة لدى ابن العم زين؛ فقال لنا إنها محقّةٌ كلّ الحقّ، وإنّ هاي ـ هتلر (وهو اسم الشهرة لملك الألمان) يكره الشعر الأسود والعيون السوداء، وكان يقصف بالقنابل كلّ الشعوب التي تنطبق عليها هذه الأوصاف، ولم يكن الارتماء إلى البحر سبيلاً للخلاص منه؛ فهو يستطيع أن يرسل في أثركم غوّاصاتٍ باستطاعتها إلقاء القبض عليكم. عندها ماكان من سميرٍ إلّا أن وضع يديه على شعره الأسود البرّاق كأنه يريد إخفاءه ناظراً إلى أخيه، ثمّ قال: «هل تظنّ أنّ الألمان ـ بعد أن يسحقوا الفرنسيين واليهود ـ سوف يتقدّمون صوب الجنوب، ويأتون إلى فاس؟». لقد كان ردّ زين ضبابيّاً فقد قال إنّ الصحف لا تأتي على ذكر مخططات الألمان على المدى الطويل. لقد رجا سميرٌ أمّه في تلك الليلة أن تضع له ـ في المرّة القادمة التي نذهب فيها إلى الحمّام ـ «الحنّة»(*) على شعره كي يحمرّ لونه؛ أما أنا فَرُحتُ أتنزّه عاقِدةً أحد مناديل أمي بشكلٍ موثقٍ حول رأسي، حتى رأتني أرتديه؛ فأجبرتني على نزعه وصاحت قائلةً: «لاتُغطي رأسك أبداً. هل تسمعينني؟. أبداً!.. أنا أناضل من أجل نبذ الحجاب وأنت ترتدين واحداً؟. ماهذا السخف؟»؛ فشرحت لها مشكلة اليهود والألمان

(*) في الأصل Henne. الحِنّان والحِنّاءُ معروفٌ، وهو نباتٌ يُتخَذ للتخضيب والتصبيغ مهده الأصلي الهند. ومن الآن فصاعداً سوف نستعمل المفردة الفصيحة أي «الحنّاء».

والقنابل والغوّاصات، لكن لم يبدُ عليها التأثّر لكلامي، وقالت
إن كان هاي ـ هتلر ملك الألمان القادر يلاحقك؛ فعليك أن ت
مكشوفة الرأس؛ لأنّ لافائدةً تُرتجى من تغطية الرأس والا
ليس بالاختباء تحلُّ المرأة مشاكلها، بل إنّها تتحوّل به إلى
يسهل اصطيادها.. لقد عانيتُ وجدّتك بما فيه الكفاية مر
الأقنعة والحجابات. نحن نعرف أنّ هذا ليس صحيحاً. أريد
أن تشمخا برأسيهما عالياً على أرض الله، وهما تنظر
النجوم». بناءً على هذا نزعت المنديل عن رأسي تاركةً إيّاي
دون أيّة وسيلة دفاعٍ في مواجهة جيشٍ خفّي يلاحق الأشخاص
الشعور السوداء.

12

أسمهان الأميرة المطربة

مذ كان الرجال أحياناً يغادرون البيت ساعة الأصيل، تتهافت النسوة على المذياع، فيفتحن خزانته بوساطة مفتاحهن اللاشرعي، وينطلقن في سعيٍ حثيثٍ للبحث عن موسيقا الحبّ وأغنيات الغرام. تتبوّأ شامة موقع الاختصاصيّة التقنيّة؛ لأنّها كانت الوحيدة القادرةعلى قراءة الرموز المدوّنة بحروفٍ أجنبيةٍ مذهّبةٍ على لوحة المؤشّر المدهشة؛ أو هذا ما كان يُعتقد بشأنها. فقد كان الرجال يتحكّمون بمفتاح المؤشّر عبر حركاتٍ رزينةٍ ودقيقةٍ، ويفكّكون - في الظاهر - الرموز السرّيّة دون عناءٍ. غير أنّ شامة - على رغم تعلّمها الأبجدية الفرنسية - كانت عاجزةً عن اكتشاف الشيفرة المتمثّلة بالأحرف: (LW - MW - SW)؛ وقد رجت أخويها زيناً وجواداً أن يفسّرا لها معنى هذه الاختصارات، وماهي الكلمات التي تشكّل هذه الرموز أحرفها الأولى؛ وكان ردّ فعلها إزاء رفضهما الإجابة على استفساراتها أنّها هدّدت بالتهام قاموس اللغة الفرنسية حتّى آخر حرفٍ فيه؛ فردّا عليها: إنّها لن تتوصّل إلى حلّ مشكلتها حتّى إن قامت بذلك؛ إذ إنّ تلك الأحرف اختصاراتٌ لكلماتٍ إنكليزيّةٍ. عندئذٍ تخلّت شامة عن طرائق التشغيل العلميّة كافّةً، واتّبعت تقنية تشغيلٍ استثنائيّةً. تقوم على ضغط عدّة أزرارٍ في الآن ذاته؛ مع إدارة مفتاح المؤشر بهدف البحث عن لحنٍ ما، متجاوزةً دون رحمةٍ

المحطّات «الهامّة» برمّتها، ابتداءً بالخطب التي تهدف إلى قيادة الأرواح، وانتهاءً بالأناشيد الوطنيّة أو العسكريّة.

كانت تلك الأناشيد متشابهةً إلى حدٍّ بعيدٍ، بحيث لايمكن التمييز بينها. فيما كانت العمة حبيبة تُصِرّ على أن نتعامل معها بشكل مختلف؛ فقد كانت تقول: إنّه لمن الحرام الاستهزاء بالوطنيّين، كما إنّه لمن الواجب التظاهر بالإصغاء إليهم على الأقلّ لبضع ثوانٍ قبل خنق أصواتهم. عندما تعثر شامة على اللحن كان يتوجّب عليها اللجوء إلى معالجاتٍ يدويّةٍ إضافيّةٍ لمفتاح المؤشّر؛ فعملية ضبط الجهاز الضخم للحصول على بثٍّ نقيٍّ وخالٍ من التشويش قد تدوم دهراً. لكن ما إن تتمكّن شامة من تحقيق ذلك، فينطلق في الأجواء صوتٌ رجاليٌّ دافئٌ حنونٌ، كصوت المطرب المصريّ عبد الوهاب شادياً بأغنية *«أُحِبّ عِشْةِ الحُرِّيّة»*، حتى تبدو على نساء الفناء كلّهن علائم السرور والانشراح؛ وكان سرورهن على أشدّه وقتَ تنجح أصابع شامة السحريّة بالتقاط الصوت الخلّاب للأميرة اللبنانيّة أسمهان وهو يترقرق على أنغام أغنية *«أهوى! أنا، أنا، أنا أهوى!»*؛ إذ كانت تغمر النسوة عندئذٍ نشوة الطرب التي لامثيل لها، ويحلّقن في عالم بديع الأجواء؛ فينفضن أرجلهن قاذفاتٍ بوابيجهنّ إلى الهواء، ثمّ يرقصن حافياتٍ، ويَدُرْن حول البحرة الواحدة تلو الأخرى، يدٌ ترفع طرف القفطان، واليد الأخرى تضمّ شريكاً مُتخيَّلاً.

لكن لسوء الحظ كان التقاط أغنيةٍ لأسمهان أمراً نادر الحدوث، وكنا نستمع في أغلب الأحيان إلى الأناشيد الوطنية المكرورة بصوت أمّ كلثوم المطربة المصريّة القديرة التي تستطيع أن تسجع طيلة ساعاتٍ بأغنياتٍ تصوّر ماضي العرب المجيد، وتحضّ على استعادة المجد المفقود عبر التصدّي للغزاة المستعمرين. يا له من فرقٍ هائلٍ ذاك الذي يفصل بين أمّ كلثوم الفتاة الشابة الفقيرة ذات الصوت الذهبي، والتي اكتُشفت موهبتها في أنحية قريةٍ مصريّةٍ مجهولةٍ، لكنّها استطاعت تسلّق سلّم المجد عن طريق الانضباط والعمل

المتفاني. وبين الأرستقراطية أسمهان التي لم تبذل أدنى جهدٍ لبلوغ الشهرة!. كانت أمّ كلثوم تمثّل الصورة غير الشائعة للمرأة العربيّة صاحبة العزم والتصميم والمفعمة بالثقة والإرادة؛ والتي جعلت نصب عينيها هدفاً تسعى إلى تحقيقه في الحياة، وتعرف ما تريد وإلى أين تتّجه. أما أسمهان فقد شغفت قلوبنا بها لشدة هشاشتها ورقّتها اللتين تختلج لهما الأفئدة.

كنّا نرى أمّ كلثوم بلحمها ودمها (في أفلام سينما بوجلود)، وكانت تظهر على الشاشة مرتديةً ـ على الدوام ـ فساتين طويلة فضفاضةً تخفي صدرها الضخم. لقد كان ذلك الصدر الهائل في حجمه وتلك الثقة بالنفس ـ الملازمان لها ـ سببين من الأسباب التي منعتني من تقمّص شخصيّتها؛ لا لأنّ صدري كان مسطّحاً بصورةٍ مزريةٍ وحسب، بل لأنّ ثقتي بنفسي كانت تقارب درجة الصفر أيضاً. كانت أمّ كلثوم تهتمّ بكلّ ماهو صحيحٌ ونبيلٌ، أي بكلّ ما يتعلّق بمحنة الأمّة العربيّة في حاضرها الذليل؛ وبذلك كانت أمّ كلثوم تعبّر عن أمانينا الوطنية بالاستقلال كلّها. بيد أنّ النسوة لم يكنّ يكنن لها القدر نفسه من العشق والافتتان اللذين يكننّهما لأسمهان.

كانت أسمهان على الوجه النقيض لأمّ كلثوم؛ فهي مخلوقةٌ رقيقةٌ وذات صدرٍ صغيرٍ وسيماء تائهةٍ. وكانت تحلّق بين الغيوم ـ على الدوام ـ غارقةً في أحلامها حيث تحيا فيها أكثر ممّا تحيا في واقعٍ يتجاهلها. وبأناقةٍ بالغةٍ كانت ترتدي قمصاناً غربيةً مقوّرةً للغاية، وتنّوراتٍ ذات شقوقٍ. لم تكن أسمهان تهجس بالأمّة العربيّة، وكانت تتصرّف وكأنّ الزعماء السياسيّين الذين تمجّدهم أمّ كلثوم في أغانيها دون توقّفٍ لاوجود لهم؛ فجلّ ما كانت تريده أسمهان هو أن تتزيّن زينةً بهيّةً، وأن تضع الزهور في شعرها، وأن تحلم وتغنّي وترقص بين ذراعيّ رجلٍ عاشقٍ بقدر ما تحمل من الرومانسيّة، أي: رجل دافئ وحنون يملك الجرأة على أن يخرق التقاليد، ويراقص المرأة التي يحبّها على الملأ. كانت أسمهان تُهمل

الماضي وتغوص في حاضر من الرغبات المجنونة.. حاضر منفلت من عقال التقاليد، يتخفّى عن أنظار العرب كعاشقٍ فَزِعٍ. لم تكن أسمهان سوى حالةٍ من البحث الملحاح والمأساويّ عن لحظات السعادة البسيطة لكن الآنيّة. كانت النساء العربيّات ـ اللواتي لا حول لهن إلّا الرقص وحيداتٍ في أفنيةٍ مغلقةٍ إغلاقاً مزدوجاً ـ معجباتٍ بأسمهان؛ لأنّهن كنّ يرين فيها تحقيقاً لحلم: هو الرقص بين ذراعيّ رجلٍ على الطريقة الغربية وفق إيقاع الموسيقا، مع الانشداد التصاقاً إلى صدره. كانت أسمهان تمثّل ـ بالنسبة إلى النساء ـ تلك الصورة لمتعةٍ مجّانيّةٍ متعطّشةٍ بكونهن إلى جانب رجلٍ يشاركهن هذه المتعة كليّاً.

كانت أسمهان تطوّق جِيدها أبداً بعقدٍ من اللؤلؤ، وقد رجوت شامة أن تعيرني عقدها لبضع دقائق فقط؛ كي أخلق صلةً سحريّةً بيني وبين معبودتي. وفي أحد الأيّام تجرّأت على أن أسأل شامة هل سأحظى بفرصةٍ ـ كما هو حال أسمهان ـ للزواج من أميرٍ عربيٍّ؟؛ فأجابتني إنّ العالم العربي ينحو الآن باتّجاه الديموقراطية، والأمراء القِلّة الذين يشقّون الدرب معنا صوب الحداثة قد يكونون راقصين سيّئين. «سوف يكونون مشغولين كليّاً بالمهمّات الموكلة إليهم؛ فهم يخضعون لجبروت السياسة أو المال. لن يحظى الأمراء العرب أبناء جيلك بوقتٍ للرقص. سوف تخطفهم مسؤولياتهم؛ فَحِرِيٌّ بك أن تبحثي عن أستاذٍ إن أردت الرقص كأسمهان».

كنا نعرف أدقّ التفاصيل عن حياة أسمهان؛ فقد كانت أحد المواضيع المفضّلة لشامة في العروض المسرحيّة التي تؤدّيها على شرفة السطح. كانت شامة تُمثّل حياة العديد من البطلات، غير أنّ الأميرة الرومانسية كانت الأكثر شعبيّةً على وجه العموم. لقد كانت قصّة حياتها ساحرةً سحرَ الأساطير، رغم خاتمتها المأساويّة التي استطعنا أن نستخلصها؛ فالمرأة العربيّة لايمكن لها أن تكرّس حياتها للبحث عن المتعة والمسرّات الطائشة والسعادة دون أن تدفع

ثمن بحثها هذا عاجلاً أم آجلاً. لقد كانت أسمهان أميرةً، ويرجع مولدها إلى جبال الدروز في لبنان، وقد تزوجّت في سنٍّ مبكّرةٍ جداً بابن عمّها الأمير الثريّ حَسَن، وكان مقدَّراً عليهاأن تُطلَّق في سنِّ السابعة عشرة، وأن يخطَفَها الموت في سنِّ الثانية والثلاثين (عام 1944) في حادث سيرٍ غامضٍ، حيث الموضوع موضوعُ تجسُّسٍ دوليٍّ. في غضون تلك السنين من عمرها، وفي زمن عالَم عربيٍّ ممزَّقٍ لم يكن يجرؤ على التفكير بالسعادة، كانت أسمهانُ تعيش كمغنّيةٍ وممثّلةٍ في القاهرة حيث أثّرت تأثيراً عميقاً وبشكلٍ مباشرٍ؛ وسحرت الجماهير بجعلهم غارقين في حلمٍ ما انفكّ يظهر بديعَ الغرابة حتّى الوقت الحاضر.. هو ذلك الحلم بالهناء الفرديّ وبالعيش المُستمتِع بمزيّة اللذّات والحبّ، والمُستَخِفُّ كلّيّاً بأعراف القبيلة ومقتضيات العشيرة.

لقد كانت أسمهان الهشّة والفزعة تمتلك في حياتها اليوميّة قدرةً خارقةً على تنفيذ قناعاتها الخاصة؛ فقد كانت تؤمن بقدرة المرأة على الجمع بين حياتين: حياتها المهنية وحياتها العاطفية. بالتالي عاشت حياةً زوجيّةً حافلةً، في الوقت الذي كانت تؤسّس فيه ذخيرةً لأعمالها الغنائية والتمثيلية. لم يستطع زوجها الأول الأمير حسن تقبّل هذا الأمر، وطلب الطلاق. قامت إثر ذلك بمحاولتين أخريين، وفي المرّتين كان زوجاها ـ وهما قطبان من أقطاب العمل المسرحيّ المصريّ ـ يبدآن بالخضوع إلى رغباتها، لكن سرعان ما انتهت زيجتاها بطلاقين فضائحيّين؛ فقد لَحِق بها زوجها الأخير حاملاً مسدّساً بيده، وتبعتهما شرطة القاهرة بأسرها في محاولةٍ لمنعه من ارتكاب عملٍ مؤذٍ، وقد أدّى بها ـ في نهاية المطاف ـ تعاونٌ مزعومٌ مع العملاء السرّيّين (لأجهزة التجسُّس الفرنسية والإنكليزية التي كانت تناضل التواجد الألماني في الشرق الأوسط) إلى أن تكون دريئةً سهلةَ المنال للانتقادات اللاذعة والواعظة؛ وضحيّة ـ مجرّدةً من أيّ سلاحٍ دفاعيٍّ ـ للسياسة الانفجاريّة في المنطقة. وبعد بضع سنواتٍ من الانقطاع عن العمل الفني، ومن

العودةإلى لبنان، وجدت أسمهان موقعها المناسب. لقد كانت خارقةً، تعيش مستقلّةً ومحاطةً بالناس في الوقت نفسه، وسعيدةً رغم إرادة الجميع؛ فقد رَعَتْ في مسكنها الخاص ببيروت وفي قصر الملك داود بالقدس لقاءات قمّةٍ بين الجنرال ديغول ورئيسيّ سوريا ولبنان؛ وفي أثناء تلك الأمسيات النخبويّة، كان الوطنيّون العرب يلتقون بجنرالات قوى الحلفاء الأوروبيّين، وكان ثوريّو المستقبل يختلطون بأصحاب المصارف.

كانت أسمهان تعيش حياةً سريعة الإيقاع، وتستذوق الأشياء على عجلٍ، وكانت دائماً تقول: «أعلم أن حياتي ستكون قصيرة». لقد جَنَتْ مالاً كثيراً، لكن لم يكن يبدو أنها تملك القدر الكافي من المال؛ لدفع فواتير مجوهراتها ومستحضرات زينتها وتبرّجها ورحلاتها الباذخة. كان الرحيل على نحوٍ مفاجئٍ ـ تحت حالة الذهول المتجدّدة أبداً لمن حولها ـ إحدى طرائقها المفضلة في تمضية وقتها؛ وفي إحدى نزهاتها غير المرتقبة، حيث كانت تركب سيّارةً مع صديقةٍ لها على بعد بضعة كيلومتراتٍ من القاهرة، خطفها الموت على حين غرّة، إذ عُثر على السيّارة طافيةً على سطح بحيرةٍ. لقد بكى معجبّو أسمهان لفقدانها، في حين صار أعداؤها يحوكون الحكايات عن مؤامرةٍ أبطالها من الجواسيس، وذهب أحدهم ـ على حدّ زعمه ـ إلى أنّها قُتلت على يد الجواسيس البريطانيّين؛ لأنّها بدأت تتصرّف باستقلاليّةٍ أكثر ممّا ينبغي، فيما جعل منها آخرون ضحيّة الجاسوسيّة الألمانيّة. أما التقليديّون الأصوليّون المتشدّدون فقد هنّؤوا أنفسهم بموتها المبكّر؛ إذ رأوا فيه عقاباً عادلاً لها على حياتها المُنْحَلّة.

إلّا أنّ أسطورة أسمهان ما لبثت أن تصعّدت بعد موتها؛ لأنّ أسمهان أظهرت للعرب من كلا الجنسين، أنّ حياةً تُختار بحرّيةٍ ـ وإن كانت قصيرةً وفضائحيّةً ـ لأفضل من حياةٍ مديدةٍ محترمةٍ مكرّسةٍ لتقاليد باليةٍ. لقد سحرت أسمهان قلوب الرجال كما النساء

بحياتها الحافلة بالمغامرات، والتي يتعاقب فيها كلٌّ من النجاح والفشل على حدٍّ سواء؛ فهي أكثر افتتاناً للنفوس من حياةٍ رتيبةٍ تحكمها الأعراف والقوانين، وتُقضى خلف جدرانٍ حاميةٍ. إنّ الترنّم بأغاني أسمهان لمستحيلٌ دون أن تستعيد الذاكرة حياتها الخفّاقة والمتموّجة والتي تضجّ بالأحداث.

وقتَ كانت شامة تؤدّي المشهد المسرحيّ للجزء الأوّل من حياة أسمهان، كانت تفرش أرض الشرفة ببساطٍ أخضر؛ كي تجعلنا نتخيّل غابات جبال الدروز الوعرة حيث وُلِدت أسمهان، ثمّ تسحب أريكةً إلى حلبة العرض؛ لتعبّر بها عن سرير الأميرة، وتكحّل عينيها؛ كي توحي بالنظرة الحالمة لعينيّ أسمهان الخضراوين. أمّا الشَّعر فقد كان التعبير عنه أصعب؛ حيث كان شعر البطلة أسود فاحماً، الأمر الذي يحدو بشامة مضطرّةً إلى تغطية شعرها الأصهب والمجعّد بوشاحٍ فحميّ اللون؛ وللأسف لم تكن شامة قادرةً على فعل أيِّ شيءٍ لإخفاء النمش الذي يغطّي وجهها؛ لتعطي صورةً قريبةً إلى بشرة وجه أسمهان التي كانت ملساء كالخزف الأبيض. ولذلك كانت تكتفي بتقليد خالِ الممثّلة الشهير الذي يُزيِّنُ الطرف الأيسر من ذقنها؛ إذ يستحيل لعب دور أسمهان دون إبراز ذلك التفصيل الجوهري المتمثّل بالخال. كانت شامة تستلقي بعدئذ على الأريكة مرتديةً «قميصاً» من الأطلس (الساتان) وُسِّع طرفه السفلي بسلكٍ من الحديد؛ بهدف إظهار الشكل الدائري المتّسع الذي تتميز به تنّورةٌ غربيّةٌ. باديَ الأمر كانت تثبت نظرها في السماء، وقد رسمت على وجهها سيماء البؤس والسوداوية، دون أن تتفوّه بكلمةٍ لبضع دقائق. ثمّ تنطلق أصواتٌ من وراء الستار لغناءٍ حزينٍ، يُنشد عبث انحباس المرأة وضياع وقتها، فيما الناس يلهون أجمعين في الخارج. لقد كانت تلك الأصوات العذبة أصوات أخوات شامة وبنات العمومة الأخريات.

بالقرب من سرير أسمهان كان هناك حصانٌ خشبيٌّ؛ فقد بدأت أسمهان تركب الخيل في سنٍّ مبكّرةٍ جداً، وهل يمكن لامرأةٍ عربيّةٍ

على هذا القدر من الجمال وُلِدت لعائلةٍ أميريّةٍ في أحد الجبال النائية (حيث الناس هناك مايزالون جميعهم يذكرون عهد الصليبيّين، ويخشون أيَّ غزوٍ أجنبيٍّ، ويترصّدون كلَّ تحرُّكٍ) أن تفعل شيئاً آخر سوى هذا؟. لقد كانت أسمهان تركب الخيل كما كانت طامو تفعل في منطقة «الريف»؛ فقد كان القفز خلال امتطاء صهوة حصانٍ رمزاً للحرّيّة بالنسبة إليها؛ فالحرّيّة تعني الركض والرحيل والابتعاد والاكتشاف. إنّ الجري والوثب - وإن كانا بلا هدفٍ - قد يجعلانكم تتذوّقون طعم السعادة؛ فالحركة بحدّ ذاتها بهجةٌ وفرحٌ. كانت شامة تنهض آنذاك من السرير وتركب الحصان الثابت، بينما كانت الأصوات من خلف الستار تتابع الغناء المسرحيّ لمأساة أولاء الأسيرات في حصنٍ منيعٍ. وكنتُ وسميرٌ نؤرجح أحياناً الحصان الخشبيّ؛ كي نُعطي بعضَ الحركة للمشهد، في حين كان المتفرّجون (أمي وأبناء عمومتي المراهقون والعمة حبيبة وباقي العمّات والقريبات المطلّقات أو الأرامل) ينضمّون إلى الجوقة في إنشادها، وكنت وسمير نسدل الستار؛ لإتاحة الفرصة من أجل تغيير الصورة المشهديّة والانتقال إلى مشهد الزفاف.

لم تكن شامة تحبّ أن ترى جمهورها يغرق في القنوط طويلاً، وكانت تقول: «يجب أن يكون هدف كلّ عرضٍ مسرحيّ تعزيز الأمل في دواخلكم، ومدّكم بالدعم عبر الفكرة التي تتمثّل في أنّ تغيير حياتكم قابلٌ للتحقيق أبداً». عندئذٍ يظهر زين - وقد ارتدى مشلحاً أبيض - في دور العريس: الأمير حسن؛ فأقف ذاهلةً أمام وسامته، وأبدأ بإهمال دوري كآلاتيّةٍ؛ آنذاك يأخذ الجمهور بالاحتجاج، إذ كان من مهمّات الآلاتيّين تقديم المرطبات عند وقوع حدثٍ هامٍّ كالزواج أو الولادة، وكان موكلاً إليَّ وسميرٍ توزيع الكعك المحلّي الذي يطالب الجمهور بتقديمه مع الشاي مهدّداً بالرحيل إن لم تُؤمّنه شامة. غير أنّ عدداً كبيراً من الكؤوس كان يُكسر، إلى درجة أنّ جدّتي لالا ماني تتدخّل وتمنعنا من تقديم الشاي، وكانت تقول: «إنّ المسرح بحدّ ذاته نشاطٌ مشكوكٌ بأمره؛ فلا ذكر له في القرآن، ولم

يكن معروفاً في مكّة ولا في المدينة، وإنْ كان بعض النسوةِ الطائشات يتشبَّث بميله إلى المسرح؛ فإنّ هذا الأمر لا يهمّني!. كلُّ امرئٍ سوف يُسأل عن سّيئاته أمام الله يوم القيامة. لكن أن تكسروا كؤوس ولديّ؛ للاحتفال بعرس أسمهان هذه، البليدة وصاحبة الفضائح؛ فإنّ ذلك لجنونٌ مطلقٌ!». منذئذٍ بات يُحتفل بمراسم الزواج على خشبة المسرح باقتصادٍ شديدٍ في المشروبات، وكنا نكتفي بتوزيع بعض القطع الصغيرة من الكعك، والتي غالباً ماكانت العمّة حبيبة تقوم بإعدادها في اللحظة الأخيرة قبل العرض. لابُدّ من إحاطة الجمهور بالعناية والدلال إن كنّا نريد ضمان ولائه.

كنّا على وشك أن ننهي تناول الكعك حين طرد الأمير حسن أسمهان ورمى بها خارجاً، وكانت شامة في ذلك المشهد تظهر وقد لطّخت خدّيها بمسحوقٍ (بودرة) ذي بياض يشبه بياض الأموات، حاملةً حقيبةً ضخمةً وهي في طريقها إلى القاهرة، وتُنشد الجوقة آلام الفراق وأسى المنفى، فيما كانت العمّة حبيبة توشوش أمّي: «لم يكن لأسمهانِ من العمر إلا سبعة عشر ربيعاً ساعة طلاقها. يا للعار!. لكن رغم كلِّ شيءٍ كان ذاك الطلاق يمثّل الفرصة الوحيدة لها للخروج من الجبال الدرزية التي كانت تخنقها. حين نفكر في الأمر نجد أنّ الطلاق غالباً ما يكون مُتنفَّساً للمرأة؛ فهو يُجبرها على المُضيّ صوب المجهول الذي ماكانت ستعرفه أبداً عبر طريقٍ أخرى».

ماكان مثيراً للاهتمام ـ على وجه الخصوص ـ هو أنّ الأمير حَسَنَ قد طلّق زوجته لأنّها كانت تريد أن يصحبها للرقص في النوادي الليلية!؛ فهي لم تكن تلبس فساتين مُقوّرةً وفق الطراز الغربيّ، وأحذيةً ذات كعوبٍ عاليةٍ، كما لم تكن تقصّ شعرها وحسب؛ بل كانت أيضاً تريد التردّد إلى المراقص، حيث كان الناس يجلسون على كراسٍ صلبةٍ، متحلّقين حول الطاولات، ويهذرون حتى طلوع الفجر. في أثناء هذه اللوحة التمثيليّة كانت شامة تتقدّم على خشبة

المسرح، وهي شاحبةٌ ومُرتجفةٌ، وعيناها مغمضتان نصف إغماضةٍ، وتقول: «كانت أسمهان تريد أن تذهب إلى المطاعم الفخمة، وأن ترقص كالفرنسيّات وتحضن أميرها بين ذراعيها. لقد أرادت أن تراقصه رقصة الفالس طوال الليل، بدلاً من البقاء في كواليسها ترقبه يُجري اجتماعاته وأحاديثه الخفية التي لاتنتهي والمقصورة للرجال. لقد كانت تمقت القبيلة وقوانينها الجائرة السخيفة. لم تكن أسمهان مجرمةً، ولم تكن تُضمِر الشرّ لأحدٍ». في هذه اللحظة كانت العمة حبيبة تقاطع العرض وتدندن - مقلّدة أحد الألحان التي تشدو بها أسمهان - ولكن بكلماتٍ ترتجلها للتوّ: «لم أحلم يوماً بأشياء كهذه، لكنّ زوجي طلّقني رغم ذلك... فلتتذكّرن جيّداً أيتها السيّدات، ولاتنزعجن: إنّ المرأة التي لاتطلب القمر امرأةٌ حمقاء تماماً...»

- «هدوء!». يأخذ الجمهور بالصياح؛ فتعود شامة إلى تمثيل أحلام أسمهان الشهوانيّة في البحث عن المتعة في مجتمعٍ عربيٍّ قلّما اعتاد على رؤية علانيّةٍ كتلك العلانيّة في التعبير عن الرغبة الأنثويّة. لقد قطعت عهداً على نفسي، وأنا أرقب شامة: إنّني سأمارس التمثيل المسرحيّ وقت أبلغ سنّها. سوف أسحر الجماهير العربية القادمة، وأجعلها تفتتن بي. سوف أُحدّثها عمّا تشعر به امرأةٌ تُسكِرها الرغبة في الضحك في مجتمعٍ يُقدّس الحزن. سوف أجعلها تبكي تحسّراً على كلِّ المناسباتِ الضائعة وسجون الأَسْر السخيفة والأوهام البالية. وبعد أن أُوقع بها في شباكي، سوف أغنّي لها - كأسمهان - عن عجائب المغامرة الفردية التي يضاعف حدّتها الخوف الذي يرافقها، وعن ضرورة اختبار كلتا الحالتين في الآن ذاته، سوف أكلّمها عن روعة المجهول وروعة المخاطرة، وعن اللاّمألوف. سوف أُنشد لها كلَّ ماهو غرائبيٌّ، وكلَّ ما لانستطيع السيطرة عليه، أي الحياة الوحيدة اللائقة بكائنٍ بشريٍّ: دون أيّة حدودٍ، مقدسة كانت أم غير مقدسةٍ... حياةٌ جديدةٌ مغايرةٌ بطعمها ولونها ورائحتها... حياةٌ لاتمتُّ بصلةٍ إلى كلِّ ماهو سلفيٌّ.

أي نعم، سوف أحدّثها عن المستحيل، عن عالمٍ عربيٍّ يستطيع الرجال والنساء فيه أن يرقصوا ويغنّوا ويتحاوروا دون أن يحول بينهم أيُّ حدٍّ أو خوفٍ.

أي نعم، سوف أسحر جمهوري، وعبر الكلمات السحريّة والحركات الملائمة ـ كما تفعل أسمهان وشامة نصب عينيّ ـ سأعيد خلق كوكبٍ مشرقٍ، حيث البيوتُ لا أبواب لها، ونوافذها الكبيرة المفتوحة تُطلُّ على شوارع خاليةٍ من الخطر. سوف أساعد جمهوري على السير في عالمٍ ليست به حاجةٌ إلى أيِّ حجابٍ لإظهار الاختلاف بين الجنسين.. عالَم تتحرّك فيه أجساد النساء بطبيعيّةٍ دون أن تثير رغباتهنّ أيَّ مشاعر خوفٍ.

سوف أُبدع لجمهوري ومعه قصائد طويلةً، أُمجّد فيها أرضاً مجرّدةً من الخوف. وستغدو الثقة لعبةً جديدةً يمكن لنا استكشافها. وبتواضعٍ سوف أبوح له عن جهلي بقواعد هذه اللعبة، تلك القواعد التي ينبغي علينا أن نضعها ونطوّرها سويّةً.

سوف أكسب في مسرحي ما يكفي من المال لتقديم الشاي والكعك لجميع المتفرّجين؛ كي يتسلّى الناس على مدى ساعاتٍ طويلةٍ، وذلك مع هضم هذه الفكرة الجديدة، فكرة نشوء عالمٍ عربيٍّ لايعرف الشباب الخوف فيه، وبلدٍ يمشي فيه الرجال والنساء برويّةٍ، وأنظارهم متوجّهةٌ بثباتٍ صوب أُفقٍ مُطَمْئنٍ بالكاد يمكن تخيّله؛ بلدٍ لايمكن أن يغدو فيه ما هو مجهولٌ مثارَ تهديدٍ.

سوف أقنع جمهوري العزيز المُنبهر بإمكانيّة ازدهار السعادة في كلّ مكانٍ، حتّى لدينا بين الأزقّة المظلمة في «المدينة» المحاصرة.

سوف أردُّ الاعتبار لأسمهان، وستتمكّن من التواجد دون أن تكون مجرّد ضحيّةٍ مأساويّةٍ وحسب. سوف تتفتّح ملايين الأسمهانات اللواتي لن يُجبرن على الموت مسحوقاتٍ في حادثٍ

سيرٍ سخيفٍ.. هناك في أرضٍ بعيدةٍ، وهنّ لم تتجاوز الواحدة منهنّ بعد الثانية والثلاثين من العمر.

لقد ذرفت منّي دموعٌ غزيرةٌ على أسمهان خلال العروض المسرحيّة التي كانت تجري عصراً على السطوح المعزولة. كنت أُعين شامة في مغامراتها اللبنانية الموجزة، وأنا أرقب بطرف عيني حركة النجوم فوق رؤوسنا. كان المسرح ـ أي ذلك التدوين للأحلام حيث الجسد يحاكي الخيال ـ يبدو لي أمراً أساسيّاً. وطالما تساءلت لِمَ لَمْ يُعلن عنه كمؤسّسةٍ مقدّسةٍ.



13

الحريمُ يذهبن إلى السينما

ربّما كانت ضروب التسلية والترفيه لدينا تُعتبر مبتذلةً، إلّا أنّها كانت تجتذب جمهوراً غفيراً؛ فما إن تنهي النسوة أعمالهن المنزلية المضنية، حتّى يُسرعن في السؤال عن كلٍّ من المكان الذي تروي العمة حبيبة قصصها فيه، والمكان الذي تؤدّي شامة عروضها التمثيلية فيه. كانت العروض تكثر بشكلٍ خاصٍّ في الأماكن الخفيّة والمعزولة بعض الشيء، أي في الطابق الأخير أو على السطوح. كان يُفترض بكلّ شخصٍ أن يجلب معه «*جْلِيسَتُه*»(*) (وهي مخدّةٌ صغيرةٌ تستخدم للجلوس)، وأن يعثر لنفسه على مكانٍ جيّدٍ في الأمام، ويجلس على البساط الذي يُحدِّد منطقة الجمهور. لقد كانت الديموقراطيّة سائدةً؛ فمن يصل أوّلاً يملك حقّ الجلوس في «اللوج» (أي: الأماكن المثلى) دون اعتبارٍ للسنّ أو المقام، وهذا يعني أنّنا نحن الأطفال كنّا نجلس حتماً في الأمام. لكنّ الكثيرين لم يكونوا يحترمون القواعد؛ فيُحضرون المقاعد الخفيضة، مما يجعل الحاضرين يصيحون فيهم بضراوة، ويجبرونهم على الجلوس في الخلف. كنت ـ وأنا أتربّع بارتياحٍ على طرّاحتي الصغيرة ـ أجوب

(*) في الأصل Glissa، وتقابل «الطّرّاحة» عندنا.

الأرض قافزةً من جزيرةٍ إلى جزيرةٍ، على متن قوارب تمخر عباد البحر، إلى أن تتلقّفني بأعجوبة أميرات دواهٍ. وكنت أحياناً - آو تملؤني الإثارة والتشويق - أسحب طرّاحتي من تحت ركبتيّ، وأشرع بالتأرجح أماماً خلفاً - وخلفاً أماماً، واقعةً تماماً تحت أسر السحر منغمسةً بالطيران على صهوة الكلمات الغريبة التي تُطلقها شامة أو العمة حبيبة راهبتا الخيال الكبريين.

كانت العمة حبيبة على ثقةٍ تامّةٍ بأنّ كلّ واحدة منّا تمتلك داخلها ضرباً من السحر متوارياً بين أحلامها الأكثر خصوصية. «وقد تكونَّ - دون دفاعٍ - خلف الجدران، وحبيسات في حريمٍ، فإنّكن تحلمن بالخلاص. وتكفي صياغة هذا الحلم؛ كي يتفتّح السحر في دواخلكن، وتختفي الحدود. يمكن للأحلام أن تغيّر حياتكن، وقد تُغيِّر العالم في نهاية المطاف. إنّ التحرر يبدأ آنَ تشرع الصور بالرقص في رؤوسكن الصغيرة، وتبدأن بترجمتها إلى كلماتٍ. إنّ الكلمات لاتكلّف شيئاً!». كانت لاتكفّ عن أن تكرّر لَنا أنّنا جميعاً نمتلك هذه القوّة الداخليّة، وأنّ قضيّة التحكّم بهذه القوة تعود إلينا وحدنا.

إذاً... أنا أيضاً سوف أكون قادرةً على إزالة الحدود. تلك هي الرسالة التي استخلصتها، وأنا أجلس فوق طرّاحتي هناك على السطح في الأعالي. لقد كان يبدو لي كلُّ هذا طبيعياً، وكنت أتأرجح إلى الأمام فالخلف رافعةً رأسي بين الفينة والأخرى إلى السماء؛ لأشعر بوميض النجوم يغمر وجهي. ينبغي على المسارح أن تكون دوماً في مكانٍ عالٍ على السطوح والشرفات المبيّضة بالجير. ينبغي عليها أن تكون دوماً قريبةً من السماء. خلال ليالي الصيف في فاس كانت المجرّات البعيدة تنضمّ إلى عروضنا، ولم تكن هناك حدودٌ للأمل. كنت أفكّر آنذاك كالتالي: نعم يا عمّة حبيبة سوف أكون ساحِرةً، وسوف أتمكّن من تجاوز هذه الحياة التي تخضع بصرامةٍ

إلى القوانين والأعراف، والتي تنتظرني في أزقّة «المدينة» الضيّقة، وذلك دون أن أنسى ما هو أساسيٌّ، أي الأحلام وسحرها. سوف أقضي مراهقتي بهناءٍ دون صداماتٍ، وأنا أضمّ الفِرار إلى صدري، مثلما الفتيات الأوروبيّات ـ وهنّ يرقصن ـ يضممن فرسانهن إلى صدورهن. سوف تكون الكلمات عزيزةً عليّ، فأُنمّيها كي تضيء الليالي، وتقوّض الأسوار وتلغي الحواجز. كل شيءٍ يبدو لي سهلاً ياعمّة حبيبة بفضلك وفضل شامة تظهران وتختفيان خلف ستار مسرح ضعفكما... مسرحكما الذي لايكاد يأتي حتّى يمضي. لقد كنتما هشّتين للغاية في ساعات الليل المتأخّرة، على تلك الشرفة المعزولة، ومع ذلك كنتما تفيضان بالحيويّة والروعة إلى حدٍّ يفوق التصوّر. سأغدو ساحرةً، وسأنحت الكلمات كي أشارك الآخرين في الحلم، وأجعل الحدود عديمة الجدوى.

كانت شامة والعمة حبيبة ـ طيلة النهار ـ تنتظران حلول الليل بفارغ الصبر، أي حلول الوقت الذي تستطيعان فيه إطلاق العنان لمخيلاتهما، وتتمكّنان عبره من خلق الأحلام. فيما لم يكن النعاس يغلب إلّا قليليّ الفضول منّا، وكانت الكثيرات من نسوة البيت لايحيين إلّا من أجل تلك الأمسيات فقط. لكنّ الشبان الذين كان يُطلب منهم أحياناً الاشتراك في التمثيل، لم يكونوا يظهرون حماسةً كبيرةً البتّة؛ فهم لم يكونوا يهتمّون بالحكايا والمسرحيّات اهتماماً كبيراً، إذ كانوا قادرين ـ على العكس من النساء ـ أن يذهبوا إلى سينما بوجلود التي تقع قرب الحمّام؛ كلّما طاب لهم ذلك.

متى يَرَ الواحد منّا زيناً وجواداً وهما يعقدان حول عنقيهما الربطتين الحمراوين الفراشيّتين (البيبونتين)، يكتشفْ على الفور أنّهما ذاهبان إلى السينما، وكانت شامة ـ في الغالب ـ تتبعهما وترجوهما أن يصحباها معهما، لكنّهما كانا يصدّانها بحجّة أنّها لم تحصل على الإذن من أبيها أو أبي، ورغم ذلك كانت تحاول اللحاق

بهما، فترتدي جلبابها بسرعةٍ فائقةٍ، وتتنقّب بمنديل من الموسلين (موصليّ)(*) أسود، وتجري مسرعةً وراءهما. كان خمِد البوّاب ينهض لحظةً يراها. «شامة أرجوكِ لا تجعليني أركض وراءك في الشارع هذا اليوم أيضاً. أنا لم أتلقَّ أيّة تعليماتٍ بالسماح للنساء في الخروج». لكنّ شامة لا تتوقّف متظاهرةً بأنّها لاتسمع كلمةً ممّا يقول.

أحياناً تكون بالغة السرعة إلى حدّ أنها تتمكّن من التسلّل خارجاً. عندها تتجمّع نساء الفناء بأسرهن عند بهو الدخول؛ ليَرَيْنَ ما سيحدث، وبعد بضع دقائق يظهر خمِد راجعاً وهو يدفع شامة أمامه، وأنفاسه تكاد تنقطع. وكان يكرّر بلهجةٍ حازمةٍ: «لم يخبرني أحدٌ أنّ النساء سيذهبن إلى السينما هذا المساء. أرجوك لاتسبّبي لي المشاكل، ولاتجبريني على الجري وأنا في هذا العمر». كانت أعصاب أمّي تثور، وهي ترى شامة تخفق في الهروب ويُؤْتى بها كمجرمة، وكانت تخاطب خمِد متنبّئةً بالمستقبل: «سوف ترى ياخمِد. سوف تصبح عاطلاً عن العمل عمّا قريبٍ؛ إذ ستغدو النساء حُرّاتٍ في أن يطفن حول العالم». وكانت تطوّق شامة بذراعها، وتصطحبها إلى الفناء، وتلحق بهما الأخريات، وهن يتمتمن بكلماتٍ عن التمرّد والعقاب. كانت شامة لاتنطق بكلمةٍ، وتسيل قطراتٌ كبيرةٌ من الدمع على خدّيها، وبعد لحظةٍ تسأل أمّي باضطرابٍ شديدٍ: «إنني أبلغ السابعة عشرة من عمري، ولا أستطيع مشاهدة فيلمٍ؛ لأنني امرأةٌ!. أيّة عدالةٍ هذه؟. متى ستحظى البنات بتعاملٍ يماثل التعامل المتّبع مع الصبيان؟». كان يتوجّب أن يلاقي فيلمٌ ما نجاحاً جماهيريّاً منقطع النظير، وأن يذهب أهالي فاس عامّتهم لمشاهدته؛ كي يُسمح لنساء عائلة المرنيسي بالذهاب لمشاهدته أيضاً. وذلك

(*) الموسلين Mousseline أو الموصلي، كلمة عربية الأصل، وهي نسيج شفّاف موصليّ، دُعي كذلك نسبة إلى الموصل بلد صناعته.

كان حالُ أفلام أسمهان جميعها، وكذلك فيلم *«دنانير»*، ودنانير جاريةٌ مغنيّة فَتَنَتْ الخليفة هارون الرشيد بصوتها وذكائها، حتّى أنها جعلته ينسى *«جواريه»* الألف الأخريات.

كانت أمّ كلثوم تؤدّي دور دنانير، وقد بثّت فيها الحياة بوساطة قدراتها الصوتية الاستثنائية. كان فيلم *«دنانير»* يستند إلى قصّةٍ حقيقيةٍ حسب ما أخبرتنا شامة التي راحت تتجوّل في كلّ مكانٍ على مدى أسابيع كاملةٍ قبل أن نذهب لمشاهدة الفيلم؛ وهي تحمل المجلّد الثالث من كتاب *«مروج الذهب»* للمسعودي، حيث كانت قصّة حياة هارون الرشيد ـ الخليفة المفضّل لديها ـ تحتلّ خمساً وسبعين صفحةً من الكتاب. لقد سمحت لي بتصفّح ذلك الكتاب الثمين الذي استعارته من مكتبة أبي، وكانت تقرؤه في بيت الخلاء، خشيةً من أبي الذي كان يعتبر أنّ الكتاب شيءٌ مقدّسٌ ولايجوز أن يُنقل من مكانه لأيّ سببٍ من الأسباب.

التقى الخليفة هارون جاريةً فائقة الحسن تدعى دنانير أثناء سهرة *«سمر»*. لقد عشقت *«السمر»* ما إن شرحته لي شامة، فهو سهرةٌ تهدف إلى الترويح عن الخليفة المنهك، وإلى تسليته قبل أو بعد حدثٍ هامٍّ (كمعركةٍ أو رحلةٍ خطرةٍ أو مفاوضاتٍ صعبةٍ)؛ وكانت السهرة تتضمّن إلقاء الشعر وعزف الموسيقا. كان المغنّون الأكثر موهبةً يتجمّعون لَيْلَتَيْذٍ في القصر، وبما أنّه كان متاحاً للنساء أن ينافسن الرجال في تلك المناسبة؛ لم تكن *«جواري»* بغداد يتوانين عن التفوّق على أساتذتهم الرجال، حتّى غدت ليالي *«السمر»* اختصاصاً من اختصاصات النساء[1]. لقد كان الخليفة هارون الرشيد بحاجةٍ ماسّةٍ للترويح عن نفسه؛ حيث كان يمضي جُلّ وقته في القتال، وقد امتدّت الأمبراطورية الإسلامية خلال خلافته حتّى حدود الصين؛ إلّا أنّه كان واقعاً إزاء مشكلةٍ فيما يتعلّق بدنانير، فقد كانت مملوكةً لوزيره الخاص صاحب أعلى رتبة في البلاط يحيى بن خالد البرمكي[2]؛ وكان الوزير يحبّ دنانير. قرّر الخليفة أن يكتم

مشاعره تجاه دنانير سرّاً، وجعل يزور الوزير بانتظام على أمل سماع صوتها من جديدٍ، وهو لم يكن قادراً على البوح علناً بالحبّ الذي تبثّه في قلبه، لكن خلال فترةٍ وجيزةٍ اطلعت مدينة بغداد قاطبةً على أمر هذا الحبّ. بعد مُضيّ أحد عشر قرناً يتهافت أهالي مدينة فاس أجمعين إلى دور السينما كي يشهدوا حبّه المحارَب مُصوَّراً في الاستديوهات المصرية.

لم يكن مخوّلاً لنا نحن الطفلين أساساً بالذهاب إلى السينما، لكنّنا تمكّنا تحت إدارة سمير من تنظيم سورات تمرّدنا الخاصّة، تماماً كما فعلت النسوة، وقد حصلنا مثلهن على التصريح المُرتجى. عندما أقول «نحن» فإنني أعني سميراً في الواقع، إذ كنت أواجه صعوبةً في الصراخ والتعبير عن استيائي بضرب الأرض بقدمي كما يفعل، أو بما هو أفضل من ذلك، أي بالتدحرج على الأرض مع الركل بالقدمين؛ ولطالما شكّل التعبير عن ثورتي مشكلةً لي، وذلك يرجع على الأغلب إلى موقف أمي الغريب تجاه هذا الموضوع؛ فقد كانت تشجعني دائماً على التمرّد، ولاتكفّ عن تكرار أنني يجب ألّا أتّكل على سميرٍ كي يحمي مصالحي، غير أنني حين كنت أرتمي أرضاً وأشرع بالصراخ، كانت توقفني على الفور قائلةً: «أنا لم أقل البتّة إنّ عليك أن تتمرّدي عليّ!. عليك أن تقاومي سلطة الآخرين، لكن تجب عليك مع ذلك إطاعة أمك، وإلا فستعمّ الفوضى. عليك أن تتمرّدي بذكاءٍ، وأن تتأمّلي الموقف بعناية، وأن تحلّلي كلّ شيءٍ. تمرّدي عندما تكونين واثقةً من أنّك تمتلكين فرصاً للفوز». إثر ذلك أصبحت أبذل الكثير من الطاقة لتحليل فرصي في الفوز، كلّ مرةٍ كان يتبيّن لي فيهاأنّ أحداً يسعى إلى استغلالي، ومازلت حتّى الآن - بعد مُضيّ حوالى نصف قرنٍ - أقضي ساعاتٍ في تحليل مزايا ومساوئ «العرض التمرّديّ» المتقن والمصحوب بصيحاتٍ وحركاتٍ عديدةٍ وقتَ أُهان أو أُهاجَم. كنت أجد نفسي في كلّ مرةٍ واقفةً عند

النقطة ذاتها، وهي أنني: لستُ واثقةً على الإطلاق من النتيجة. وكنت ـ كمغربيّةٍ حسنة «التنظيم» ـ أحسم الأمر بالحوار كي لا أقول بالخضوع؛ ومازلت أحلم باليوم الرائع الذي سأغدو فيه قادرة على شنّ تمرّدٍ مذهلٍ، يجعل خصمي يتسمّر في مكانه، ويكفل لي نصراً مظفّراً. مهما يكن من أمرٍ، إنني ممتنّةٌ جدّاً لسمير الذي عرف أن يفعل ما يجب فعله في ذلك الوقت؛ وإلّا لما تمكّنت قطّ من الذهاب إلى السينما، ولاشيء أكثر إمتاعاً من الذهاب إلى السينما... صدقوني.

تبدأ النسوة بالتبرّج ووضع الزينة، كأنّهن سيتمكّن من الخروج إلى الشارع سافرات الوجوه، وكانت أمّي تمضي ساعاتٍ في عمليّة تجعيد الشعر المعقّدة للغاية، وتتبرّج النسوة الأخريات بشكلٍ محمومٍ في أنحية الفناء الأربع، وتتبادل الصديقات النصح حول استخدام الكحل وحمرة الشفاه وشكل التسريحة ووضع الحلى، وكان يتوجّب على الأطفال إمساك المرايا بأيديهم بشكلٍ يسمح بالتقاط أشعة الشمس في الصورة المُثلى؛ إذ لم يكن للمرايا المثبّتة على جدران القاعة أيّ نفعٍ؛ فضوء الشمس لم يكن يبلغها البتّة، ما خلا بضع ساعاتٍ في الصيف ربّما. حين كانت النسوة يظهرن أخيراً في أحلى زينتهنّ، يُغلّفن أنفسهن من أقدامهن حتى رؤوسهن بالحجاب، إما بـ *«الحايك»* أو بالجلباب تبعاً لأعمارهن ومقاماتهن.

لقد تجادلت أمّي مع أبي قبل بضع سنواتٍ بصدد القماش الخاص بالنقاب أوّلاً، ثم بصدد *«الحايك»*، وهو المشلح التقليدي الطويل الذي كانت النسوة يلبسنه عندما يخرجن إلى الأماكن العامة. أما النقاب التقليدي فكان عبارةً عن قطعةٍ كبيرةٍ مستطيلة الشكل من القطن الأبيض الثخين إلى حدٍّ بالكاد يمكن التنفس خلاله. أرادت أمي الاستعاضة عنه بنقابٍ أسود صغير الحجم من الموسلين الأسود الشفّاف؛ فجُنّ جنون أبي: «ستبدين كأنّك لست محجّبةً». لكنّ النقاب ذا الحجم الصغير أي *«اللثام»* انتشر انتشاراً واسعاً بعد ذلك بفترةٍ؛

إذ إنّ زوجات الوطنيّين كُلّهن أخذن يلبسنه في فاس خلا
الاجتماعات الدينيّة والاحتفالات العامّة، وخاصّة وقتَ أفر
الفرنسيّون عن السجناء السياسيين. كذلك أرادت أمّي استبدا
«*الحايك*» التقليدي الذي تلبسه النساء بالرداء الرجالي: الجلبا
الذي تبنّته العديدات من نساء الوطنيّين. كان «*الحايك*» مصنوعاً م
سبعة أمتارٍ من القطن الأبيض الثقيل الذي تلتحف به النسوة. فضا
عن ذلك كان يتوجّب عليهنّ إبقاء طرفي «*الحايك*» معقودَيْن تحت
ذقونهن بصعوبةٍ جمّةٍ؛ كي يَحُلن دون وقوعه. كانت شامة تقول: «إن
«*الحايك*» ابتُدع على الأغلب كي يتحوّل خروج النساء إلى الشار
خلال وقتٍ وجيزٍ إلى تعذيب، حتّى تتملّكهن رغبةٌ واحدةٌ فقط، هي
الرغبة في العودة إلى البيت وعدم الخروج منه مجدّداً». كانت تزيد
أمّي على هذا القول: «إن زلّت أقدامكنّ يوماً، ووقعتن أرضاً، فمن
المحتّم أنّكن ستكسرن أسنانكن؛ إذ إنّ أيديكن مقيّدةٌ. فضلاً عن ذلك
إنّه ثقيلٌ بصورةٍ مريعةٍ، وأنا نحيفةٌ جداً!». في المقابل كان الجلباب
رداءً ضيّقاً نسبيّاً ذا قلنسوة (كبّوشة)، ومزوّداً بشقّين على الطرفين؛
ليسمح بالخطى الواسعة، وله كُمّان مريحان يمنحان اليدين حرّيّة
الحركة.

حين شرع الوطنيّون بإرسال بناتهم إلى المدرسة، سمحوا لهنّ أيضاً بارتداء الجلباب، وهو أخفّ وزناً من «*الحايك*»، ويفوقه من الناحية العملية، حيث يُسهّل لهن قطع المسافة بين المنزل والمدرسة لأربع مرّاتٍ يوميّاً. بذلك بدأت الفتيات بارتداء جلابيب الرجال، وسرعان ما قلّدتهن أمهاتهن. كان أبي ـ في سعيٍ منه لثني أمي عن فعل الشيء نفسه ـ يعلّق باستمرارٍ على الثورة التي يشهدها في شوارع المدينة: «إن لبست النساء كما يلبس الرجال، فذلك سيكون أسوأ من الفوضى. إنّه «*الفنا*» (أي نهاية العالم).». بيد أنّ اختلال النظام الذي عمّ الشارع قدتخلّل بيتنا ببطءٍ. لكن بصورة واثقة، ورغم ذلك استمرّت الأرض ـ بأعجوبة ـ في الدوران؛ فقد ظهرت أمي ذات يومٍ وهي ترتدي جلباب أبي، وقد أسدلت كبّوشته على جبهتها

بمهارةٍ، ووضعت «*لثاماً*» صغيراً من الموسلين الأسود الشفّاف. من المحتم أنّ وجهها كان يُرى تماماً عبر النقاب، وقد حذّرها والدي - الذي استشاط غضباً - من أنّ تصرفها هذا يُضرّ بالمصالح العائليّة، لكنّ شرف العائلة بدا - وعلى نحوٍ مفاجئٍ - مهدّداً بالخطر في مجمل مدينة فاس؛ فقد غزت شوارع المدينة نساءٌ يرتدين جلابيب الرجال و«*لثماً*» ماجنةً من الموسلين. بعد ذلك بزمنٍ ليس طويلاً بدأت بنات الوطنيين بالخروج إلى الشارع سافرات الوجه عاريات الساقين، مرتديات وفق الطراز الغربي، متقلّداتٍ حقائب أيدٍ نسائيةً. وبالطبع لم يكن اللباس ذو الطراز الغربي وارداً بالنسبة إلى أمي؛ حيث الوسط المحيط بها كان محافظاً إلى حدٍّ بعيدٍ، إلّا أنّها تمكّنت مع ذلك من فرض جلبابها و«*لثامها*» الموسليني الشفّاف. وفي وقت لاحق من عام 1956 ، ما إن علمت بخبر استقلال المغرب وجلاء الجيوش الفرنسيّة، حتّى هرعت لتشارك في تظاهرة زوجات الوطنيّين، وغنّت معهم حتى وقتٍ متأخّرٍ من الليل. وحين عادت إلى البيت منهكةً من كثرة المشي والغناء، كان رأسها عارياً كما كان وجهها مكشوفاً. ومنذ ذلك اليوم لم يعد «*اللثام*» يُرى على وجوه النساء الشابّات في «مدينة» فاس، واستمرّت السيّدات المسنّات والفلّاحات الشابّات - المهاجرات لتوّهنّ إلى المدينة فقط - بالخروج منقّباتٍ[3].

لكن دعونا نرجع إلى السينما. كانت النسوة في تلك المناسبات الاستثنائية يغادرن المنزل في موكب، وذلك في ساعة متقدمة قبل الظهيرة. وكان أبناء عمومتي يتقدّمون الموكب كأنّهم يريدون منع عامّة الناس من اختلاس النظر إلى الحُسن المخفي لنساء عائلة المرنيسي؛ وعلى الترتيب كانت جدتي لالا ماني تأتي وراء الرجال مباشرةً بقامتها القصيرة، ملتحفةً «*حايكها*» بمهابةٍ، وتمشي بازدراءٍ لمن حولها، ورأسها مرفوعٌ كأنّها تريد أن تجعل المارّة كلّهم يشعرون بالسلطة التي تحوزها. وإلى جانبها كانت لالا راضية

ـ والدة سمير ـ تسير بخطى صغيرةٍ تشقّها بعنايةٍ شديدةٍ، وقد أرخت ناظريها جهة الرصيف. تليهما العمّة حبيبة والقريبات المطلّقات أو الأرامل اللائي يمشين في صمتٍ مطبقٍ، وكلُّ واحدةٍ منهن تمسك بحرصٍ «*حايكها*» الأبيض الذي تلتحفه. وعلى العكس من حال أمي لم تكن النسوة المطلّقات أو الأرامل ـ من حيث أنّهن لايتمتّعن بحماية الزوج ـ قادراتٍ على أن يُجِزْن لأنفسهن ارتداء الجلباب؛ فإن فعلن ذلك فستُلصق بهنّ مباشرةً وبصورةٍ قاطعةٍ سمعةٌ سيّئةٌ. في نهاية الموكب تأتي المتمرّدات مرتدياتٍ جلابيب ضيّقةً ملوّنةً، تتبعهن المراهقات الخجولات اللائي كنّ يكركرن بصورةٍ عصبيّةٍ طيلة الطريق. وآخر من في الموكب كنّا نحن الطفلين نمسك بيديّ حْمِد.

لم تكن فصيلة المتمردات كبيرة العدد في الواقع؛ فهي لاتشمل سوى أمّي وشامة، بيد أنّهما قد نجحتا في استقطاب الانتباه العام. أمّي بعينيها المكحّلتين، وشامة بخالها الاصطناعي الذي تقلّد أسمهان بوساطته، بقيتا منقّبتين بـ «*اللثام*» الصغير الأسود الشفاف، لكنّهما كانتا حُرَّتي الأيدي، وغمامةٌ من العطر الجذّاب تفوح حولهما، وغالباً ما كانت أمي تُطلق ضحكةً متواصلةً مُدوّيةً، مُقلّدةً بها ليلى مراد نجمة السينما المصرية التي تؤدي دوماً دور المرأة المُغْوِية؛ كانت أمّي تمشي وهي تنظر نحو الأمام وبشكلٍ مستقيم (خوفاً من أن تتعثّر بحجارة شوارع «المدينة» غير المتساوية) مُحَمْلقةً كأنّها مصابةٌ بالتهابٍ عينيٍّ خطير؛ ثمّ ترمق ذات اليمين وذات اليسار بنظراتٍ غرام قاتلةٍ، وهي تهمس بصوتٍ ذي نبرةٍ تآمريّةٍ: «لايمكن لأيّ رجلٍ أن يقاوم جمالي الخلّاب!، وتكفي نظرةٌ منّي كي تتساقط الضحايا البريئة عند قدميّ كالذباب. سوف تحدث مذبحةٌ في شوارع فاس هذا اليوم!».

لقد عثرت أمّي على هذه الفكرة واستخلصتها عبر نظريّات كاتبٍ مصريٍّ نصيرٍ للمرأة يدعى قاسم أمين. وهذا الرجل هو صاحب الكتاب الشهير (الذي حقق أفضل المبيعات) والمُعَنْوَن

بعنوانٍ لايخلو من الاستفزاز «*تحرير المرأة*»، والمنشور سنة 1899 للميلاد الموافقة 1316 للهجرة. في كتابه هذا أعلن أمين نظريّته القائلة: إنّ الرجال يحجّبون النساء؛ لأنّ جاذبيّتهن وجمالهن يشعرانهم بالخوف، وكتب: إنّ الرجال العاجزين عن مقاومة النساء يكادون غالباً أن يسقطوا مغشيّاً عليهم حين تَمرُّ بهم امرأةٌ جميلةٌ. خرج قاسم أمين بنتيجةٍ يحثّ فيها الرجال العرب أن يجدوا في نفوسهم طريقةً للتغلّب على خوفهم؛ كي تتمكّن النساء من نبذ الحجاب. كانت أمي تعشق قاسم أمين، وبماأنّها لم تكن تستطيع القراءة؛ فقد كانت مضطرّةً أن ترجو أبي ليتلو عليها المقاطع المفضّلة لديها. وقبل أن يرضخ لرغبتها كان أبي يصوغ قائمةً طويلةً بطلباته ـ التي كانت أمي ترفض في بادئ الأمر أن تلبّيها ـ كأن تمسك بيده أثناء القراءة، أو أن تحضّر له شرابه المفضل (وهو الحليب المثلّج باللوز الطازج المقشّر، والمُعطّر بقليل من ماء الزهر)، أو ما هو أسوأ من هذا وذاك أن تدلّك له قدميه. إلّا أنّ أمّي كانت دائماً توافق آخر الأمر، وتستعجله البدء في القراءة. وفي اللحظة الأكثر تشويقاً كان أبي يتوقّف عن القراءة فجاةً، ويلقي الكتاب بحركةٍ غاضبةٍ، ويشكو متذمّراً من أنّ قاسم أمين سوف يدمّر تناغم الزواج العربي، ويصيح قائلاً: «هل من المعقول أن أكون بحاجةٍ إلى هذا المصريّ الأحمق كي أتقرّب من زوجتي، وكي تكون لطيفةً معي؟. إنّني أرفض تصديق هذا!». عندها تسرع أمّي إلى التقاط الكتاب، وتعيده إلى غلافه، ثمّ تخرج من الغرفة حَرِدَةً، لكن واثقة من نفسها وقد تأبّطت كنزها الثمين.

كانت شامة بنمشها وعينيها العسليتين تضحك بنشوةٍ، وقتَ تؤدّي أمي عَرْض المرأة المغوية في أثناء الرحلة إلى سينما بوجلود؛ وكانتا تنظران كلتاهما بانتباهٍ شديدٍ لتريا إن كان المارّة سيتساقطون كالذباب أو لا، وبالطبع كانتا تطلقان التعليقات بصدد الرجال الذي كانوا يمرّون بنا؛ ممّا يحتّم على زينٍ وأبناء عمومتي

الآخرين أن يستديروا خلفاً، ويطلبوا منهما أن تخفضا صوتيهما. ولدى الوصول إلى السينما، كان الحريم ذو النصاب المكتمل يشغل صفينّ كاملين من المقاعد؛ وفي الواقع كانت تُحجز التذاكر لأربعة صفوفٍ بهدف ترك الصفّين ـ المتقدِّم على والمتأخِّر عن الصفّين المشغولين من قبل العائلة ـ فارغين؛ ممّا يجعل من المستحيل أن يقوم أحد المشاهدين سيّئيّ النيّة وغير المحترمين باستغلال حلول الظلام ليقرص إحدى السيّدات الغارقات كلّهن في أحداث الفيلم.

14

نصائرُ المرأة المصريّاتُ يزرن الشرفة

كانت المسرحيّات التي تُعدُّها شامة معظمها تتطلّب ممثّلين ذكوراً، وكان شبّان المنزل جميعهم يشاركون في تلك العروض وقتَ لاتفي السينما المجاورة باهتماماتهم. وبالطبع زينٌ هو المطلوب أكثر من غيره تبعاً لشكله وفصاحته. لقد كان يستمتع جداً في استعارة عمائم ومشالح والدي وعمّي سرّاً، وفي تصنيع السيوف الخشبيّة بمختلف أشكالها؛ حتّى يغدو أداؤه لأدوار الأمراء العبّاسيّين أكثر إقناعاً. كان يلعب أدواراً شتّى، من دور شاعرٍ جاهليٍّ وحتّى دور البطل الوطنيّ المعاصر والمعتقل في السجون الفرنسيّة أو البريطانية. وبالنسبة إلى الجمهور كانت المسرحيّات الأكثر رواجاً تلك التي تتضمّن مشاهد جماعيّةً يشترك فيها عددٌ كبيرٌ من الممثّلين وتصحبها استعراضاتٌ وأغانٍ؛ وذلك لأنّ الحاضرين كافّةً يستطيعون المشاركة فيها. هذا النوع من المشاهد كان يُفقد شامة صوابها ـ إذ بشكل حتميٍّ والحال هذه ألّا يتبقّى أيُّ مشاهدٍ ـ وجرّاء ذلك كانت تصيح: «من الضروري جدّاً أن يبقى أحدٌ ما يتفرّج على المسرحيّة؛ إذ لايمكن القيام بعملٍ مسرحيٍّ دون جمهورٍ!». تكمن مشكلة شامة في أنّها كانت متقلّبة المزاج، فهي تنتقل من حالة الانفعال الغليانيّ إلى حالة السكون المطبق، دون أن يكون في

الإمكان استكشاف تباشير لأيّة إشارات تدلّ على هذا التغيير. كما إنّ عزيمتها تُثبَّط بكثير من اليسر، وقتَ لايُبدي الجمهور التجاوب المرجوّ؛ فعندئذٍ كانت تتوقّف على نحوٍ مفاجئ وسط جملةٍ ما، وتنظر بحزنٍ إلى أولئك الذين تسبّبوا في انقطاع العرض، ثمّ تتجّه على الفور صوب الدرج، وفي هذه الحال لم يكن ممكناً فعل أيّ شيءٍ في الواقع. وأحياناً كانت تظلُّ مكتئبةً على مدى عدّة أيّام عازلةً نفسها في غرفتها. لكنّ مزاج شامة عندما يكون في حالةٍ من البهجة والسرور، فإنني أؤكّد لكم أنّها قادرةٌ على إلهاب البيت برمّته!.

كان مسرح شامة يتيح فرصة استثنائية أمام كلّ واحدٍ منّا؛ ليكتشف مواهبه ويظهرها، وليتغلّب على خجله، وينميّ ثقته بنفسه. لقد كانت بنات عمومتي الخجولات للغاية يحظين بفرصتهن في التألّق حين يغنّين مع الجوقة؛ وكان يربكهن جدّاً أن يتواجدن على ساحة المسرح لحظة رفع الستار؛ فكنّ عندئذٍ يحيّين الجمهور وهن يفتّلن ضفائرهن بعصبيّةٍ، لكن ما إن يُسدل الستار حتّى تصدح أصواتهن وتعلو صافيةً ورائعةً. أما فيما يتعلّق بي، فقد أصبحت ضروريّةً بالنسبة إلى شامة التي باتت لاتستغني عنّي، بعدما اكتشفَتْ أنّي أتقن أداء قفزاتٍ بهلوانيّةٍ (كانت علّمتني إيّاها جدتي ياسمينة). ومذّاك أُوكلت إليّ مهمّة تهدئة روع الجمهور عبر حركاتي الدورانيّة، وذلك كلّما طرأ عارضٌ يعرقل سير العرض؛ فمذ أشعر بوجود مشكلةٍ ما بين المخرجة والممثّلين أو الجمهور. كنت أظهر على ساحة المسرح وأنا أمشي على يديّ؛ وقد تعلّمت أن أكتشف ـ عن طريق الحدس ـ اللحظة التي تكون فيها شامة على وشك أن تُصاب بحالةٍ اكتئابيةٍ. كانت حركاتي البهلوانيّة تتيح الوقت اللازم أمام الممثّلين لتبديل ملابسهم خلال الفترات الفاصلة بين المشاهد؛ ودون مساعدتي كانت شامة ستضطرّ إلى تقليص استعداداتها التي تقوم بها بين الفاصل والآخر.

لقد كنت فخورة بأنّ لي دوراً أؤديّه، وإن كان دوراً صامتاً

وهامشيّاً إلى حدٍّ ما، وقدماي النجمتان الأساسيتان فيه. غير أنّ العمّة حبيبة كانت تقول: إنّ طبيعة الدور الذي نؤدّيه ليست مهمّةً مادام الدور ذا نفعٍ؛ فالمهمّ هو أن يكون لكم دورٌ ومشاركةٌ في المشروع الجماعيّ. كما كانت تقول لي إنّه سيكون لي عمّا قريبٍ دورٌ أكثر أهميّةً في الحياة الواقعيّة: إذا كان يتوجّب عليّ أن أكشف عن موهبةٍ ما. فقلت لها إنّها ستكون على الأرجح موهبة الحركات البهلوانيّة؛ لكنّها لم تَبْدُ مقتنعةً بذلك، وقالت: «إنّ الحياة أصعب من المسرح، وفوق ذلك يجب على النساء تبعاً لتقاليدنا أن يمشين على أقدامهن؛ إذ إنّ إطلاقها في الهواء ينطوي على مخاطرةٍ كبيرةٍ». في ذلك الوقت بدأت أقلق في صدد مستقبلي؛ فنصحتني العمّة حبيبة بألّا أشغل بالي؛ فكلٌّ يمتلك داخله كنوزاً مخفيّةً، والفارق الوحيد ينجم عن أنّ البعض ينجح في استثمارها في حين يخفق الآخرون؛ وأولئك الذين لايتوصّلون إلى اكتشاف مواهبهم القيّمة، يشعرون بالبؤس طيلة حياتهم، ويظلّون تعساء، ويتصرّفون برعونةٍ مع الآخرين، وغالباً يكونون عدائيّين. من الضروري بمكان أن يستثمر المرء موهبته؛ كي يكون قادراً على العطاء والمشاركة والتألّق. ولتحقيق هذا يجب عليه أن ينظّم نفسه، ويعمل بجدٍّ؛ كي يصبح متميزاً في مجالٍ ما، مهما يكن هذا المجال، سواءٌ أكان الغناء أو الرقص أو الطهو أو التطريز؛ إذ يكفي أن يتقن شيئاً ما، كأن يبلغ مستوىً جيّداً في الإصغاء أو المشاهدة أو الابتسام أو الانتظار أو الحلم أو التمرّد أو القفز. هذا ماكانت العمّة حبيبة تكرّره دائماً، وكانت تقول لي أيضاً: «كلُّ ما تتقنين فعله يمكن له أن يغيّر حياتك». قرّرت عندئذٍ أن أُنمّي موهبةً تخوّلني لأدخل البهجة إلى قلوب من يحيطون بي. بهذا الشكل لن يفكّر أحدٌ في إيذائي، لكنّ المشكلة الوحيدة تكمن في أنّي لم أكن أعرف بعدُ تلك الموهبة، ولا أيّ شيءٍ هي!؛ فقد كنت واثقةً من امتلاكي لموهبةٍ ما؛ فاللّه كريمٌ، ويعطي كلَّ مخلوقٍ من مخلوقاته حصّته من الجمال، حتّى إن كانت مخفيّة في أعمق أغواره،

تماماً كزهرةٍ غامضةٍ لاندرك وجودها. والأرجح أنّني قد تلقّيت نصيبي، وليس عليّ إلّا أن أنتظر وأدع تلك الزهرة تتفتّح وقتَ تحين اللحظة المناسبة. وفي انتظار تلك اللحظة سوف أتعلّم كلَّ شيءٍ عن بطلات الأدب والتاريخ.

كانت البطلات صاحبات النصيب الأكبر في عرض قصصهنّ على مسرح شامة والعمّة حبيبة، هنّ المتتاليات على الترتيب: أسمهان الأميرة المطربة ـ نصائر المرأة المصريّات واللبنانيّات ـ شهرزاد وأميرات *«ألف ليلةٍ وليلة»* ـ وأخيراً الشخصيّات الدينيّة الهامّة حين تطالب لالا ماني بذلك. بين نصائر المرأة *«الرايدات»* ـ أي الرائدات على صعيد حقوق المرأة ـ كانت هناك ثلاثٌ ذوات حظوةٍ لدى شامة، وهنّ: عائشة تيمور ـ زينب فواز ـ هدى شعراوي[1]. أما أكثر الشخصيات الدينيّة جماهيريّةً فكانت خديجة وعائشة زوجتا النبيّ محمّدٍ، إضافةً إلى المتصوّفة رابعة العدويّة. كانت قصص حياتهن تُعرض عموماً في شهر رمضان وقت كانت لالا ماني تتسربل بالأخضر من رأسها حتى أخمص قدميها (وهو لون النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم)؛ وتغرق في تأمّلاتها الصوفيّة، وتَعِظ الخَطَأة كي يتوبوا، وتتوعّد بالنار أولئك الذين لايطيعون أوامر الله، ولاسيّما النسوة اللائي كن يُردن نبذ الحجاب، ويحببن الرقص والغناء واللهو. لكن بما أنّه لم يكن هناك سوى شهر رمضان واحدٍ؛ فإنّ الأشهر الأحد عشر الباقية كانت مُكرّسةً للعروض الدنيويّة.

كانت النساء المغربيّات الحالمات بالتحرّر والتغيير مضطّراتٍ إلى أن يفتّشن عن نصائرهنّ في الشرق، أي في مصر وتركيّا؛ إذ لم تكن في البلاد نساءٌ يناصرن المرأةٍ على هذا القدر من الشهرة كفيلاتٌ بإرواء تعطّشهنّ. كانت شامة ـ من حينٍ لآخر ـ تشير إلى أنّه: «لاعجَب في أن يكون المغرب متخلّفاً إلى هذا الحدّ؛ فهو محاصرٌ من الجنوب بصمت الصحراء، ومن الغرب بأمواج الأطلسيّ الصاخبة، ومن الشمال بالغزو المسيحيّ. لقد انطوى المغربيّون على ذواتهم في حالةٍ دفاعيّةٍ، فيما تحقّق الأمم الإسلامية قاطبةً نهضتها

لمواجهة العالم الحديث. لقد تقدمت النساء في كلِّ مكانٍ باستثناء هذا البلد الذي يَفخر بأنّه قاوم العثمانيّين. من فرط ما قاتلنا الأجانب انعزلنا. إنّنا متحفٌ، ويجب علينا أن نجعل السيّاح القادمين إلى طنجة يدفعون رسم دخولٍ!».

المزعج في أمر بعض نصائر المرأة المفضّلات لدى شامة - وخاصّة القديمات منهن - أنّهن لم يكنّ يفعلن شيئاً ذا شأن باستثناء الكتابة؛ فقد كنّ حبيساتٍ في الأحاريم، وبالتالي لم تكن هناك أحداثٌ كثيرةٌ يمكن إخراجها على المسرح، وكان يتوجّب علينا الاكتفاء بالاستماع إلى شامة وهي تتلو احتجاجاتهن والتماساتهن. والأسوأ في ذلك كانت حياة عائشة تيمور التي وُلدت عام 1840 ، وقضت وقتها - دون كللٍ أو مللٍ حتّى موتها عام 1906 - في كتابة قصائد ملتهبةٍ تهاجم ارتداء الحجاب. حسناً.. لقد كانت تكتب بعدّة لغاتٍ، بالعربيّة والتركيّة وحتّى بالفارسيّة، وهذا ماكان يثير إعجابي ودهشتي. تخيّلوا امرأةً تُحتجز رهينةً في حريم وتتكلّم عدّة لغاتٍ أجنبيّةٍ!. إنّ تكلّم لغةٍ أجنبيّةٍ يماثل فتح نافذةٍ في جدارٍ مُصمت، أما تكلّم لغةٍ أجنبيّةٍ في حريمٍ فهو التزوّد بأجنحةٍ تسمح لكم بالتحليق صوب ثقافةٍ أخرى، حتّى إن كانت الحدود ماتزال في مكانها، وحتّى إن لم يزل البّواب متسمّراً في مكانه.

حين كانت شامة تريد الإيحاء لنا أنّ عائشة تيمور كانت تقرأ الشعر باللغة التركية أو الفارسية - وهما لغتان لم يسمعهما أحدٌ قط في «مدينة» فاس - كانت تردّ رأسها إلى الوراء، وتثبّت ناظريها في السماء أو السقف، وتبدأ بإطلاق لجْلَجَاتٍ من حنجرتها مقلّدةً أوزان الشعر العربي الجاهلي. ممّا يُفقد أمي صبرها؛ فتصرخ قائلة: «لقد فهمنا يا عزيزتي، الكلّ مبهورٌ بإتقان عائشة للّغة التركية. عودِي الآن إلى اللغة العربية وإلّا ستفقدين جمهورك». لدى سماعها لهذه الكلمات كانت شامة تصمت فجأةً، وقد ارتسمت على وجهها علائم الغيظ الشديد، وتطلب من أمّي أن تعتذر فوراً، وتقول: «إنّني أعمل جاهدةً لخلق جوٍّ رقيقٍ من السحر، وأنت بمقاطعتك لي تدمّرين هذا

الحلم»؛ عندها كانت أمّي تنهض وتخفض رأسها وتحنو ظهرها حَنواً شديداً، ثمّ تنتصب من جديدٍ، وتقسم ألّا تنطق بكلمةٍ واحدةٍ بعد ذلك، وتظلّ جالسةً طوال السهرة دون حراكٍ، وهي ترسم على شفتيها ابتسامة إعجابٍ ظاهرةً للعيان.

كانت هناك رائدةٌ أخرى من نصائر المرأة تكنّ شامة لها إعجاباً شديداً؛ ولايمكننا الابتعاد عن ذكرها. إنّها زينب فوّاز اللبنانيّة التي جهدت في تثقيف نفسها، وحصّلت معرفةً واسعةً. ولدت زينب فوّاز عام 1850 ، وشبّت في قريةٍ بائسةٍ، حيث استهلّت حياتها كخادمةٍ، ثمّ نجحت ـ بفضل استراتيجيا علاقات التواصل المنسّقة، تلك الاستراتيجيا المحسوبة جيداً، والمصحوبة بالعمل الجادّ ـ في أن تغدو وجهاً من الوجوه الأدبيّة اللامعة في الأوساط الثقافية التي كانت سائدة في بيروت والقاهرة. لكن بما أنّ زينب لم تضع قدمها قطّ خارج الحريم؛ فقد كان من الصعب جدّاً أن نجد في حياة العزلة التي كانت تعيشها مادّة لإشباع الحدث الدرامي. إنّ الشيء الوحيد الذي كانت زينب قادرةً على القيام به داخل الحريم، هو الإمطار على الصحافة العربيّة بوابلٍ من المقالات والقصائد التي كانت تعبّر فيها عن حقدها على الحجاب، وتدين عزل المرأة، وتؤكّد على أنّ هذين العنصرين يتنزّلان إلى النهضة العربيّة منزلة العائقين الأساسيّين اللذين يحولان دون تحقّقها؛ وهما يفسّران سبب ضعف أدائنا في صدّ الجيوش الغربيّة. لحسن الحظ نجونا خلال عروض الشرفة من الأعمال الصحافية لزينب؛ فهي نصوصٌ مكرورةٌ بصورةٍ فائقةٍ، ومملّةٌ إلى حدٍّ بعيدٍ؛ إذ إنّ نصيرتنا هذه قد نشرت في عام 1893 نوعاً من الـ *«Who's who»* أي (السيرة الذاتية) لنساءٍ شهيراتٍ، وقد ضمّ مؤلَّفُها هذا أكثر من خمسين وأربعمئة سيرةٍ حياتيّةٍ استثنائيةٍ؛ حيث تتواجد كليوباترا أو الملكة ڤيكتوريا معاً وجهاً لوجهٍ. وهذا ماكان يوفّر لشامة نبعاً لاينضب من الوثائق[2].

أما هدى شعراوي ـ حسب رأي الحضور على شرفة سطحنا ـ فقد كانت بطلة الفئات المدافعة عن حقوق المرأة كافّةً؛ وهي حسناء

من الطبقة الأرستقراطيّة المصريّة وُلدت عام 1879 . لقد نجحت في ضمّ الزعماء المصريّين إلى قضيّتها عبر الخطابات المشحونة بالانفعال، وعبر التظاهرات الشعبيّة. كان تمثيل قصّة حياتها يعطي الفرصة لمتفرّجي الشرفة جميعهم - بمن فيهم نحن الأطفال - للوقوف على خشبة العرض لأداء الأناشيد العسكريّة الوطنيّة، وكان العرض يتطلّب ممثّلين يؤدّون أدوار المتظاهرين المصريّين والعساكر البريطانيّين، وبالطبع أدوار المتسكّعين أيضاً. وهدى التي كانت ضحيّة زواجٍ مبكّرٍ في سنّ الثالثة عشرة، كانت تُبهر شامة؛ لأنّها نجحت في قلب مجتمعٍ بأسره خلال بضعة قرون بوساطة عزيمتها القويّة. لقد حققت هدى صنيعين باهرين متناقضين ظاهرياً، هما - في الوقت عينه - مقاومة الاحتلال البريطاني، ووضع حدٍّ للعزلة الموروثة والمضروبة حولها وحول بنات جنسها؛ وقد تخلّصت من حجابها حين قادت أوّل تظاهرةٍ ضد البريطانيّين عام 1919 ، وعبر قوّة تأثيرها تمكّنت من جعل المشرّعين يصدرون عدّة قوانين هامّةٍ؛ كان بينها القانون الصادر عام 1924 ، والقاضي برفع سنّ زواج الفتيات إلى السادسة عشرة؛ وممّا أثار استياءها أيضاً أن ترى الحكومة الجديدة المشكّلة عام 1922 تتبنّى معاهدة عام 1923 التي تحصر حقّ الانتخاب بالرجال فقط؛ حتّى أنّها شكّلت الاتّحاد النسائي المصري، وناضلت بنجاحٍ من أجل الحصول على حقّ النساء في الانتخاب[3]. كانت الجهودُ الحثيثة لهدى شعراوي - فيما يتعلّق بحقوق المرأة - مثالاً يُحتذى لباقي الدول العربية حديثة الاستقلال والتي كانت منجذبةً مسبقاً إلى المثل الوطنيّة؛ فضمّنت دساتيرها الجديدة حقّ المرأة في الانتخاب.

كنا على شرفة السطح نعشق التظاهرات النسائية لعام 1919 ، وكانت تلك اللحظةُ اللحظةَ الأهمّ في إخراج شامة؛ إذ كنّا نغزو المسرح ونتدافع خلف الستائر الجوخيّة رخوة التثبيت، والتي لاقت شامة صعوبةً جمّةً في نصبها (حيث كانت مثبّتةً على أوتاد حبال الغسيل المغروزة في جرار الزيتون). كان ذلك المشهد يشكّل الذريعة

المثلى لنا بغية القفز في كلّ اتّجاهٍ، وإطلاق الشتائم على جنودٍ بريطانيّين مُتخيَّلين، ونزع المنديل الذي يرمز إلى الحجاب الممقوت إلى حدٍّ كبيرٍ. أمّا نحن الأطفال فقد كان بالنسبة إلينا أن نرى الكبار - بمن فيهم أمهاتنا - يلعبون كالصبية، سبيلاً لتحقيق التسلية بصورةٍ خاصّةٍ. كانت الأمور في الغالب تتّخذ دورةً مفرطة الحيويّة والحركة، حتّى أنّ شامة كانت تضطرّ إلى تسلّق السلّم - المخصّص لتنفيذ أعمال التزيين (الديكور) - كي تصيح بالممثّلين أن يُخلوا خشبة المسرح على الفور؛ لأنّ البريطانيّين قد جَلوا عن مصر عام 1922 ، ونحن الآن في عام 1947 . في المشهد التالي كانت هدى على وشك أن تفارق الحياة وكان يتوجّب علينا أن نصمت حتماً؛ فقد كانت روحها تُزهق في حُجرتها بسكونٍ لانهائيٍّ. وكما هو الحال في أغلب الأحيان، لم يكن أحدٌ يقبل بالابتعاد عن خشبة المسرح، وكانت صيحات شامة تتحوّل إلى تهديداتٍ، وتصرخ قائلةً من أعلى درجات السلّم: «إن لم يَعُد الممثّلون إلى رشدهم، وإن لم يحترموا سير المسرحيّة، فإنّ إدارة المسرح ستضطرّ إلى إغلاق أبوابها طيلة الموسم الصيفيّ بسبب الهمجيّة التخريبيّة التي يُقدم عليها بعض العناصر والتي يتعذّر ضبطها».

كان الانتقال - دون عبورٍ تمهيديٍّ - من الجوّ الصاخب للتظاهرات إلى مشهد احتضار هدى يمثّل لحظةً حرجةً جدّاً؛ فلم تتوجّب علينا مغادرة خشبة المسرح لنسترجع دورنا كمتفرّجين وحسب؛ بل علينا أيضاً أن نظهر عن طريق الصمت الذي يمليه مناخ المشهد أنّنا في حالة حدادٍ، ولم يكن أحدٌ على الإطلاق قادراً على فصل ذلك، وقد أُقصيت العمّة حبيبة عن الشرفة ذات يوم؛ لأنّها لم تستطع كبح نفسها عن الانفجار مقهقهةً، عندما ظهرت شامة من وراء الستار - مرتديةً ملاءةً سوداء - على عجلٍ؛ فتعرقلت بها، وفقدت توازنها. أكيدٌ شعرنا جميعاً برغبةٍ في الضحك، لكنّ شامة التي كانت مشغولةً جداً في أن تنهض وتقف على قدميها؛ لم ترَ أمارات الضحك على وجوهنا.

إلّا أنّ قصص حياة نصائر المرأة لم تكن تتضمّن عدداً كافياً من المقاطع الغنائيّة والراقصة. ربّما كانت شامة تحبّ أن تقدّم هذه القصص على المسرح، لكنّ الجمهور بشكلٍ عامٍّ كان يفضّل رواية أسمهان، أو إحدى بطلات *«ألف ليلة وليلة»* المُغامرات؛ حيث كانت تلك الحكايات تفيض بقصص الحب والغزوات والمغامرات. تقتصر قصص حياة النصائر ـ كما يبدو ـ على ذكر النضال بأشكاله المختلفة، وعلى ذكر الزيجات البائسة؛ ولم تكن تقرب البتة من قصص السعادة أو الليالي الرائعة أو العشّاق المتيّمين. كانت العمّة حبيبة تقول: «كلُّ أولئك السيّدات الناشطات إلى حدٍّ كبير قد سحرن الرجال العرب بأفكارهن الجديدة، وكان الرجال يقعون في غرامهن على الدوام، لكنّهن لم يتحدّثن مطلقاً عن غراميّاتهن؛ وذلك يعود على الأرجح إلى أنّ النصائر كنّ يعتبرن أن تلك الأمور لاصلة لها بالسياسة، أو لأنّهن كنّ يطبّقن نظام رقابةٍ على أنفسهن خوفاً من أن يُتَّهَمْن بالفجور».

وكانت العمّة حبيبة تتساءل هل شامة هي التي تقوم بالرقابة؛ خشيةً من إيلاء أهميّةٍ كبرى للفقرات الرومانسيّة التي قدتحوّل أنظار الجمهور وتجعله ينسى النضال؟. مهما يكن من أمرٍ، فقد قرّرت ـ في تلك الحقبة ـ أنّني حتماً لن أهمل جانب ملذّات الحياة وقتَ ألتزم يوماً بالنضال من أجل تحرير المرأة. وحسب ماكانت تلاحظه العمّة حبيبة: «ماهو نفع التمرّد وتغيير العالم، إذا لم نتمكّن من الحصول على ما ينقصنا؟. وأكثر ما ينقصنا في حياتنا النسويّة: الحبّ والرغبة والحنان. لِمَ تشنُّ الثورة إذاً إن كان العالم سيبقى في صحراء مقفرةٍ تخلو من العاطفة؟. يجب أن تجعل الثورة النسويّة الرجال والنساء يسبحون في حمّامٍ من الحنان».

لم تكن شخصيّات حكايا شهرزاد في *«ألف ليلة وليلة»* يشغلن أنفسهن بإلقاء الخطب أو الكتابة عن تحريرهن المُفترض أن يتحقّق، بل كنّ يتقدّمن وينطلقن ويحيين في خطرٍ دائمٍ، ويواجهن اضطراب

الأهواء، وينجحن دائماً في تدبّر أمورهن. ولم يكنّ يسعين إلى إقناع المجتمع بتحريرهن، بل كنّ يحرّرن أنفسهنّ بأنفسهنّ. خذوا على سبيل المثال قصّة الأمير بدور: إنّها أميرةٌ مدلّلةٌ إلى حدٍّ كبير، ومحميّةٌ بصورةٍ فائقةٍ، وابنة ملكٍ قويٍّ ومتنفّذٍ... إنه الملك الغيور(*)، وزوجة أميرٍ لايقلّ عن الملك نفوذاً وقوّةً.. إنّه الأمير قمر الزمان(4). لقد سافرت مع زوجها في رحلةٍ، ومن الطبيعي أنّه المسؤول عن كلّ شؤون الرحلة، بينما كانت تكتفي بأن تتبعه، كما تفعل سائر النسوة اللائي يسافرن مع أزواجهن أو رجال عائلاتهن. لقد سافر إلى مكانٍ بعيدٍ، وفي أحد الأيّام عندما استيقظت الأميرة بدور، وجدت نفسها وحيدةً داخل خيمتها في بلدٍ مجهولٍ تماماً، كما فوجئت باختفاء زوجها الأمير قمر. عندها راودها الخوف من أن يحاول رجال القافلة الاعتداء عليها أو سرقة مجوهراتها أو حتّى بيعها كجاريةٍ؛ فقرّرت أن ترتدي ملابس زوجها وأن تنتحل شخصيّته، وهكذا انطلت حيلتها على الجميع.

كان حضور مسرح الشرفة يكلّلون الأميرة بدور بالنصر؛ لأنها تجرّأت على تخيّل المستحيل وكلّ ماهو متعذّر التحقيق. وهي كامرأةٍ كانت عاجزةً وضعيفةً للغاية، وكانت محاطةً بقطّاع الطرق، بعيدةً عن موطنها مسافة ألف فرسخٍ(**). لقد وجدت نفسها وسط قافلةٍ من العبيد والخِصْيان الذين لاتستطيع الاعتماد عليهم، فضلاً عن التجّار اللاجديرين بثقتها. لكن وقت تكونن في وضعٍ ميئوسٍ منه؛ فإنّ الشيء الوحيد الذي تستطعن فعله هو أن تقلبن العالم بصورةٍ عكسيّةٍ، وتحوّلنه وفق مراماتكن وحسب ما تتمنين، وتُعِدن خلقه من جديدٍ.. هو ذا بالضبط ما فعلته الأميرة بدور.

(*) في الأصل الملك غيور Chayur، وقد اعتمدنا الاسم المعرّف «الملك الغيور» حسب ماهو شائع في حكايات ألف ليلة وليلة.

(**) الفرسخ Lieue: وحدةٌ لقياس المسافات، وتساوي تقريباً ثلاثة أميال هاشميّةٍ، وقيل اثنا عشر ألف ذراعٍ، وهي تقريباً ثمانية كيلومترات. وهي فارسية الأصل.

15

مصير الأميرة بدور

إذا فتّشتم عن الأميرة بدور في كتاب *«ألف ليلة وليلة»*، فسوف تواجهون صعوبةً في إيجادها؛ فبدايةً إنّ قصّتها تحمل اسم زوجها: «حكاية قمر الزمان»، كما إنّ هذه الحكاية لاتُروى إلّا حين تبدأ الليلة الثانية والستّون بعد التسعمئة(*). بذلك فإنكم مضطرّون إلى قراءة الكتاب كلّه تقريباً قبل أن تقعوا على حكاية أميرتنا بدور[1]. وتعتقد العمّة حبيبة أنّ شهرزاد ـ التي لم تألُ جهداً لتسلية الملك ـ لم تروِ قصّة الأميرة بدور في ليلةٍ سابقةٍ؛ خشية الإطاحة برأسها؛ فجوهر القصّة في الواقع يكمن في أنّه يكفي لامرأةٍ ـ كي تتمكّن من التظاهر بأنّها رجلٌ، فتخدع الناس عامّتهم ـ أن ترتدي ملابس زوجها فقط؛ ممّا يعني أنّ الفارق بين الجنسين مقصورٌ على طريقة اللباس وحسب. من هنا فقد كان لابدّ لشهرزاد من أن تحوز قدراً كبيراً من الجرأة؛ كي تلقّن الملك شهريار درساً كهذا الدرس. لذلك توجّب عليها أن تلاطفه وتسلّيه بادئ الأمر بحكاياتٍ أقلّ إقلاقاً.

(*) حسب طبعة بولاق/صادر التي بين أيدينا وقد أوردنا ذكرها سابقاً، تبدأ شهرزاد في قصّ حكاية قمر الزمان في الليلة السبعين بعد المئة (الجزء الأوّل ـ ص343). وفي الواقع تختلف مواقع الحكايات من طبعةٍ إلى أخرى ومن مصدرٍ إلى آخر، فعلى سبيل الذكر تبدأ حكاية قمر الزمان في الليلة الثامنة والتسعين بعد المئة (الجزء الأول ـ ص508)، وذلك في الطبعة الصادرة عن دار العودة ـ بيروت ـ 1988 .

إحدى الصفات المميّزة للأميرة بدور - والتي جعلتنا نحبّها بشغفٍ - هي رقّتها مثل نساء شرفتنا كافّةً؛ فقد كانت امرأةً غير معتادةٍ على حلّ مشاكلها وحدها، وكانت تابعةً كلّياً للرجال، وجاهلةً بكلّ شيءٍ عن العالم الخارجي، وهي لم تبدِ يوماً أيّة ثقةٍ بالنفس، ولم تحظَ بفرصةٍ لتحليل المواقف واقتراح الحلول. لكنّها - على رغم افتقارها الجليّ لثقتها بنفسها - نجحت في اتّخاذ القرارات الصائبة، وفي المجازفات كلّها التي هدّدتها بأن يُفتضح سرّها. عندما يُناط بالعمّة حبيبة الوقوف على خشبة المسرح كانت تقول: «الضعف يا سيّداتي ليس عاهةً، ولدى الأميرة بدور البرهان على ذلك؛ فإن لم تحظَيْنَ يوماً بفرصةٍ للإفصاح عن مواهبكن، فهذا لايعني أنّكن لاتمتلكن أيّة موهبةٍ». كانت العمّة حبيبة تعتلي خشبة المسرح وقتَ يملّ الجمهور من نصائح شامة؛ ويطالب بمسرحيّاتٍ أكثر تسليةً مصحوبةٍ بأغانٍ ورقصاتٍ.

لم تكن العمّة حبيبة في عملها مخرجةً صارمةً كشامة التي كانت تستنفر طاقةً هائلةً في تنفيذ الديكورات والأزياء؛ بل كانت على العكس من ذلك تبسّط الأمور إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ؛ وكانت تقول: «إنّ الحياة صعبةٌ بما فيه الكفاية كما هي؛ فأرجوكن لاتزدن عيشتنا بتعقيداتٍ جديدة!». كانت تجلس على كرسيٍّ ذي ذراعين مريحٍ ومكسوٍّ بقماشٍ مطرّزٍ؛ للإيحاء بهيئة عرشٍ، كما كانت ترتدي خصّيصاً لتلك المناسبة قفطانها الأنيق الـ *«طَرْزَنْتا»*(*) المخيط من المخمل الأسود المطرّز بالذهب؛ والذي تحتفظ به عادةً مطويّاً بعنايةٍ فائقةٍ في خزانتها المنجورة من خشب الأرز، والتي تمكنّت من الحصول عليها بعد طلاقها. لقد طرّزت العمّة حبيبة بنفسها ذلك القفطان المخمليّ المرصّع بالدرر التي جلبها والدها معه من مكّة؛ خلال رحلته لتأدية مناسك الحجّ. وقضت في طرازته ثلاث سنواتٍ! وكانت تشير إلى أنّ الناس: «في أيّامنا هذه يشترون الملابس

(*) في الأصل Tarzntaa.

الجاهزة، ويرتدون ثياباً لم يخيطوها بأنفسهم، لكن حين نمضي ليالي عديدةً في طرازة منديلٍ أو قفطانٍ؛ فإنّنا نصنع منه أثراً فنّياً فريداً، حتّى إذا كان القماش بسيطاً ورخيصاً. إنّه العمل الإنسانيّ. وأصابعنا الصغيرة هي التي تحوّل أجزاء القماش البسيطة إلى تحفٍ فنيّةٍ»[2]. من المؤكّد أنّ قفطان العمّة حبيبة كان مُبْهِراً بتميُّزٍ، ونظراً لأنّها لم تكن ترتديه إلّا في المناسبات الكبرى؛ كان يتبادر إلينا الشعور بأنّ العالم قد انقلب رأساً على عقبٍ لحظةَ تهلُّ بحلّتها القفطانيّة على خشبة المسرح.

تبدأ قصّة بدور بصورةٍ حسنةٍ، فقد أمّن أبوها الملك الغيور لها ولزوجها الحبيب الأمير قمر الزمان، كلَّ ما يحتاجانه في رحلتهما، حيث: «... اقتاد الملك من حظائره أحصنةً موشومةً بخاتمة، وجياداً عربيّةً أصيلةً تستطيع أن تسير رحلة عشرة أيّام دون أن تطلب الماء؛ وجهّز مِحَفّةً(*) لابنته مُحَمَّلةً بالمؤونة، وهيّأ لهما إضافةً إلى ذلك عدداً من البغال والجمال، كما أعطاهما عبيداً وخِصْياناً لخدمتهما، فضلاً عمّا يلزم من ملحقاتٍ للرحلة من كلّ ضربٍ ونوعٍ. وفي يوم السفر ـ بعد أن استأذن الملك الغيور الأمير قمر الزمان ـ قدّم له عشرة أرديةٍ ذهبيةٍ مطرّزةٍ بالأحجار الكريمة، وعشرة جيادٍ لجرّ العربات، وعشرة جِمالٍ، وكنزاً من الفضّة، وأوصاه أن يحبّ ابنته ـ الأميرة بدور ـ ويرعاها؛ ثمّ شدّ الأمير والأميرة رحالهما دون أن يتوقّفا، لا في اليوم الأوّل، ولا الثاني ولا الثالث ولا الرابع. وظلّا مسافرين طوال شهرٍ كاملٍ، إلى أن وصلا إلى سهلٍ فسيحٍ تنتشر فيه المراعي الخصبة، فضربا فيه الخيام، وأكلا وشربا واستراحا، وتمدّدت الأميرة بدور حتّى تنام...»[3](**). في صباح اليوم التالي،

(*) المِحَفّة: مكانٌ مجهّزٌ لنقل النساء، وهو يشابه الهودج.

(**) تظهر اختلافات طفيفة بين هذا المقطع من حكاية قمر الزمان والأميرة بدور، وبين المقطع المقابل له في طبعة دار صادر التي بين أيدينا، فمثلاً في هذا المقطع: «استأذن الملك الغيور الأمير قمر الزمان» والأقرب إلى الإقناع هو العكس حسب ما جاء في طبعة دار صادر (ج1 ـ ص371) والتي لاتختلف في هذا الموقع مع طبعة ←

عندما استيقظت الأميرة وجدت نفسها وحيدةً في الخيمة، فقد اختفى زوجها بصورةٍ غامضةٍ.

في هذا الموضع من الحكاية، كنت وسميرٌ جالسين خلف خيمة الأميرة بدور، نُحدث كلَّ ضربٍ من ضروب الضجيج؛ للإشارة إلى أنّ القافلة قد صحا أفرادها من النوم. كان سميرٌ ذا موهبةٍ لاتُضاهى في تقليد صهيل الجياد وقرقعة حوافرها، ولم يكن يتوقّف عن إصدار تلك الأصوات إلّا مُكرهاً، وقتَ تبدأ شامة ـ التي تؤدّي دور الأميرة بدور ـ بالتعليق مُصَوِّتَةً على حالة الوحدة والعجز التي تشعر بها امرأةٌ تجد نفسها فجأةً دون زوجها: «... إن أخرجْ وأُعْلِمِ الخدم بأنّ زوجي قد اختفى، يحاولوا النيل منّي... لامناصِ لي سوى اللجوء إلى الحيلة...»[4][*]. عندئذٍ نهضت ولبست بعضاً من ثياب زوجها، وجزمة ركوب الخيل خاصّته، وعمامةً كعمامته جعلت أحد طرفيها متدلّياً وردّته على وجهها كلثامٍ يحجب ثغرها؛ ثمّ وضعت

← دار العودة التي ذكرناها سابقاً. أما المقطع الذي يقابل المقطع الوارد في الأصل، فنجده في طبعة دار صادر (الجزء الأول ـ ص371/372): «... ثمّ شرع الملك الغيور في تجهيز ابنته هي وزوجها وهيّا لهما أدوات السفر وأخرج لهما الخيول والهُجُن (الهُجُن والهَوَاجن من الخيل: مفردها الهجين وهي الخيل التي تلدها فرس تركيّة من حصانٍ عربيّ) وأخرج لابنته محفّةً وحمّل لهما البغال والهُجُن (في طبعة دار العودة/ الهِجَان/ وهي الإبل البيض) وأخرج لهما ما يحتاجانِ إليه في السفر وفي يوم المسير ودّع الملك الغيور قمر الزمان وخلع عليه خلعةً سَنِيّةً من الذهب مرصّعة بالجواهر وقدّم له خزنةَ مالٍ وأوصاه على بنته بدور ثمّ خرج معهما إلى طرف الجزائر وبعد ذلك ودّع قمر الزمان ثمّ دخل على ابنته بدور في المحفّة وصار يعانقها ويبكي وأنشد هذين البتين:

يا طالباً للفراقِ صبراً فمتعة العاشق العناقُ

مهلاً فطبع الزمان غدرٌ وآخر العِشرة الفراقُ

ثمّ خرج من عند ابنته وأتى إلى زوجها قمر الزمان فصار يودّعه ويقبّله ثمّ فارقهما وعاد إلى جزائره بعسكره بعد أن أمرهما بالرحيل فسار قمر الزمان هو وزوجته السيّدة بدور ومن معهم من الأتباع أوّل يوم والثاني والثالث والرابع ولم يزالوا مسافرين مدّة شهرٍ ثمّ نزلوا في مرجٍ واسعٍ كثير الكلأ وضربوا خيامهم فيه وأكلوا وشربوا واستراحوا ونامت السيّدة بدور...».

(*) لا اختلاف عن المقطع المقابل في طبعة دار صادر (الجزء الأوّل ـ ص374): «.... إن خرجتِ إلى الحاشية وأعلمتهم بفقد زوجي يطمعوا فيّ ولكن لابدّ من الحيلة...» وهذا مطابقٌ تماماً لطبعة دار العودة.

جاريةً مكانها في المِحَفَّة، وخرجت من الخيمة. ظلّت الأميرة مسافرةً أيّاماً وليالي حتّى أشرفت على مدينةٍ مطلّةٍ على البحر المالح، حيث نزلت وضربت خيامها بقصد الاستراحة، ثمّ سألت عن اسم هذه المدينة؛ فقيل لها: «... هذه مدينة الأبنوس، وملكها الملك أرمانوس، وله بنتٌ اسمها حياة النفوس...»[5](*). لكنّ مشاكل الأميرة بدور لاتنتهي بوصولها إلى مدينة الأبنوس، بل إنّ وضعها يزداد سوءاً؛ فقد افتُتن الملك أرمانوس بالأمير المزعوم قمر الزمان، حتّى أراد تزويجه ابنته حياة النفوس. يا له من مصيرٍ مريع ذاك الذي ينتظر الأميرة بدور!؛ فحياة النفوس ستكشف الحيلةَ مباشرةً، وقد يُقطع رأس الأميرة بدور على الفور.

في مدينة الأبنوس كانت الرؤوس تُقطع لأسبابٍ أتفه من ذلك بكثيرٍ. وفي المشهد التالي كانت الأميرة بدور تذرع الخيمة جيئةً وذهاباً، وتتساءل عمّ يجب عليها فعله، فإن قبلت بعرض الملك حُكِم عليها بالموت لأنّها كذبت، وإن رفضت العرض واجهت عقوبة الموت أيضاً؛ إذ لا أمل لكم في العيش وقتَ ترفضون عروض ملكٍ، وخاصّةً إذا كان رفضكم يُلحقُ الخزي والعار بابنته. وفيما كانت شامة تذرع خشبة المسرح رواحاً وإياباً، وهي تتمتم بعباراتٍ عن المأزق الذي وقعت الأميرة بدور بين براثنه، انقسم المشاهدون إلى فريقين: الفريق الأوّل كان يقترح قول الحقيقة للملك؛ فربّما يقع هذا في غرام الأميرة بدور فيصفح عنها حالما تخبره بأنّها امرأةٌ. أمّا الفريق الثاني فقد رأى أنّ الحَلّ الأكثر أمناً هو قبول عرض الزواج والبوح بكلّ شيءٍ لاحقاً للأميرة حياة، بعد أن تختلي الأميرتان في جناحهما الخاص. كان الفريق الثاني يشير بذلك إلى التضامن النسائيّ.

كان التضامن النسائيّ موضوعاً فائق الحساسيّة في الفناء؛ فمن النادر إجماع النسوة على رأيٍ واحدٍ فيما يتعلّق بالمواجهات مع الرجال؛ إذ إنّ البعض منهنّ ـ كلّالا ماني ولالا راضية القانعتين

(*) تطابقٌ تامٌ مع المقطع المقابل في طبعة دار صادر (الجزء الأوّل ـ ص374).

بقدرهما ـ يوافق على القرارات التي يتّخذها الرجال. وكانت أمّي تتّهمُ أولئك النسوة بأنّهن يتحمّلن القسط الأعظم من المسؤوليّة تجاه معاناة مثيلاتهنّ، وتقول شارحةً ذلك: «إنّهن أشدّ خطراً من الرجال؛ لأنهنّ مثلنا تماماً في الشكل، غير أنّهن في الواقع ذئابٌ متنكّرةٌ بهيئة حِمْلان. لو كان التضامن بين النساء أمراً واقعاً، لما كنّا حبيسات هذا السطح، ولَكُنّا الآن نطوف في أرجاء المغرب، أو نبحرُ إلى مدينة الأبنوس... إلى حيث يحلو لنا!». لقد أوكلت شامة مهمّة مراقبة حالة الجمهور المزاجيّة بانتباهٍ شديدٍ، إلى العمّة حبيبة التي كانت تجلس في الصفّ الأمامي دائماً حتّى وقتَ لم تكن تؤدّي دوراً أو تدير الممثّلين. فإن تُثَرْ مسألة التضامن النسائي، تضبطها العمّة حبيبة مباشرةً، قبل أن تتحوّل إلى شجارٍ عنيفٍ. في نهاية الحكاية آثرت الأميرة بدور فعليّاً أن تختار التضامن النسائي، وتبيّن أن خيارها كان صائباً، مبرهنةً بذلك على أنّ النساء قادراتٌ على تبادل أسمى المشاعر وأنبلها فيما بينهنّ.

لقد قبلت الأميرة بدور عرض الملك أرمانوس بأن تتزوّج ابنته، وكان ذلك القبول كفيلاً بمنحها الحقّ في حكم مدينة الأبنوس. كان طقسنا الاحتفاليّ بالزفاف على سطحنا يتمثّل في أنّني وسميراً نطوف على المتفرّجين لنقدّم لهم قطع الكعك المحلّى. وفي أحد الأيّام حاولت شامة أن تبيّن أنّه لايجوز تقديم الكعك؛ نظراً للاشرعيّة الزواج بين امرأتين، إلّا أنّ الجمهور ردّ على الفور: «يجب مراعاة نظام الكعك واحترامه؛ فشرعيّة الزواج لم تكن في يومٍ من الأيّام شرطاً يحول دون تطبيق هذا النظام!».

بعد حفل الزفاف دخل العروسان حجرة الأميرة حياة، لكنّ الأميرة بدور في تلك الليلة ـ وبعدأن قبّلت زوجتها الفتيّة قبلةً سريعةً متمنّيةً لها ليلةً هانئةً ـ راحت تصلّي... وتصلّي، حتّى نامت الأميرة المسكينة حياة. خلال ذلك المشهد كنّا نتلوّى من شدّة الضحك أمام صورة الزوج الورع للغاية، والذي تقوم شامة بأداء دوره أداءً مقنعاً ومتميّزاً. كانت أمّي تصيح قائلةً: «توقّفي عن الصلاة واشرعي

بالعمل!». بعدئذٍ كنتُ وسميرٌ نسرع لسَدْل الستار إظهاراً لانقضاء ليلةٍ، ثمّ نرفعه من جديد، ليظهر الزوج المسكين مرّة أخرى، وهو مايزال يصلّي، فيما تنتظر حياة النفوس قبلاته من غير أن تحظى بمرامها. نعيد سَدْل الستار ورفعه عدّة مرّاتٍ، والزوج ما يبرح يصلّي، والزوجة تنتظر. كانت الصالة برمّتها تضجّ بالضحك خلال هذا المقطع. أخيراً بعد مضيّ عدّة ليالٍ من الصلوات، نفذ صبر الأميرة حياة، وذهب تشكو لأبيها المتنفّذ الملك أرمانوس حال الأمير قمر الذي لايقوم بأيّة مبادرةٍ لكي يجعلها تنجب طفلاً؛ إنّما يمضي وقته كلّه في الصلاة.

وحسب ما يمكن أن نتوقّعه إثر ذلك، لم يكن الملك مسروراً لسماعه ذلك الخبر، وهدّد بنفي الزوج فوراً من مدينة الأبنوس إن لم يسلك سلوك زوجٍ حقيقيٍّ سريعاً؛ فباحت الأميرة بدور في تلك الليلة بقصّتها كاملةً للأميرة حياة من المبتدأ إلى المنتهى؛ وطلبت منها أن تساعدها: «... أستحلفك باللّه أن تحفظي سرّي؛ فأنا لم ألجأ إلى هذه الحيلة إلّا ليساعدني اللّه على إيجاد محبوبي قمر الزمان...»[6](*).

وبالطبع تتحقّق المعجزة؛ فقد تعاطفت الأميرة حياة مع الأميرة بدور، ووعدتها بأن تقدّم لها العون، وقامت الشابّتان بإجراء طقس فضّ بكارةٍ مزيّفٍ وفق ما تقتضيه التقاليد. «... قامت حياة النفوس وأخذت فرخ حمامٍ وذبحته فوق سروالها فلطّخته بالدمّ؛ ثمّ نزعت سروالهاوأطلقت صرخةً، فلمّا سمع الناس همّوا يهلّلون ويزغردون حسب جري العادة...»[7](**). إثر ذلك راحت المرأتان تتظاهران

(*) لا اختلاف عن المقطع المقابل في طبعة دار صادر (الجزء الأول - ص377) إلّا في الصياغة: «... سألتك باللّه أن تخفي أمري وتكتمي سرّي حتّى يجمعني الله بمحبوبي قمر الزمان...».

(**) اختلافٌ طفيفٌ مع المقطع المقابل في طبعة دار صادر (الجزء الأوّل - ص377) ففي هذه الأخيرة مثلاً تُذبح دجاجةٌ بينما في الأولى يُذبح فرخ حمام (زغلول): «... ثمّ قامت حياة النفوس وأخذت دجاجةً وذبحتها وتلطّخت بدمها وقلعت سروالها وصرخت فدخل لها أهلها وزغردت الجواري...».

بأنّهما زوجان، وأخذت الأميرة بدور تحكم المملكة بيدٍ، وتنظّم باليد الأخرى حملاتٍ للبحث عن محبوبها الأمير قمر الزمان.

كانت نسوة السطح يصفّقن لقرار الأميرة حياة في مساعدة الأميرة بدور - التي تجرّأت على طلب المستحيل - وإعانتها. وبعد انتهاء المسرحيّة بوقتٍ طويلٍ، تظلُّ النسوة حتّى ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل يتحدّثن بحرارةٍ عن القدر والسعادة، وكيف يمكن تحقيق الإفلات من القدر أولاً، والانطلاق سعياً وراء السعادة ثانياً. كان التضامن النسائيّ - وفقاً لرأي العديدات منهنّ - الطريقة المثلى لبلوغ الهدفين معاً.

16

السطح المُحرَّم

كنت في ذلك العهد ومازلت أعتقد أنّ السعادة لايُمكن تصوّرها دون سطح، وما أعنيه بالسطح لايمتّ بصلةٍ إلى سقوف البيوت الأوروبّيّة التي كان يَصفُها لنا ابن العمّ زينٌ؛ إثر زيارته لمملكة الإنكليز، إحدى «بلادِ الثّلج» الغريبة، حيث كدّس اللّه المسيحيّين المساكين الذين يقضون حياتهم وهم يرتعشون برداً. لقد روى لنا: إنّ البيوت هناك ليس لها سطوحٌ مستويةٌ كسطوحنا، مبيّضة بحلّةٍ جميلةٍ، ومرصوفةٌ أحياناً بشكلٍ باذخٍ، ومُجَهّزَةٌ بالصُفّات والنباتات والشجيرات المزهرة؛ بل على العكس من ذلك، سقوفهم مثلّثةٌ ومُدبَّبةٌ؛ لأنّهم ملزمون بحماية بيوتهم من الثلج؛ بالتالي فمن المستحيل أن يستلقي المرء عليها دون أن ينزلق مباشرةً نحو الأسفل. غير أنّ سطوح المنازل كلّها في فاس لم تُصمّم لتكون سهلة البلوغ؛ وكان من الطبيعي أن يُحظَّر الصعود إلى الأخيرة الأكثر ارتفاعاً منها؛ فقد يتسبّب سقوطكم من ذلك العلوّ المرتفع بموتكم. كنتُ أحلم ـ بالطبع ـ أن أذهب إلى سطحنا المحرّم الأخير ذي الارتفاع الأقصى عن مستوى الشارع؛ حيث لم يكن يُرى هناك ـ على حدّ علمي ـ أيُّ طفلٍ.

ولكن في المرّة الأولى التي بلغت فيها ذلك السطح المحرَّم، تزعزت ثقتي برغبتي في زيارة هذاك المكان، حتى أنّني وعلى الفور أعدت النظر في المبدأ الذي أعتبر وفقه أنّ الكبار مخلوقاتٌ

لاعقلانيّةٌ محدودة التفكير، وأنّهم لايفكّرون سوى بمنع الأطفال من أن يكونوا سعداء. لقد أُصبت بهلعٍ شديدٍ هناك في الأعالي، إلى درجة أنّ أنفاسي انقطعت ورحت أرتجف خوفاً، وندمت آخر الأمر على أنّني خالفت الأوامر، وغادرت شرفة سطحنا المعتاد والمُحاط في صورةٍ مريحةٍ بجدرانٍ يبلغ ارتفاعها المترين. كانت المنائر ـ بل حتّى مسجد القرويّين الضخم ـ تبدو عند أقدامنا كدمى صغيرةٍ في مدينةٍ مُصَغّرةٍ؛ وفي الوقت نفسه كانت الغيوم فوق رأسي تبدو لي قريبةً بشكلٍ خطرٍ، بأدخنتها الورديّة الضاربة إلى الحمرة، والتي لم أكن أستطيع مطلقاً تمييزها من الأسفل. كنت أسمع صوتاً غريباً مرعباً، حتّى ظننته صوت طائرٍ وحشيٍّ غير مرئيٍّ. وحين سألت ابنة عمّي مليكة عنه، قالت لي: إنّه ليس سوى خوفي، فالصوت ينبثق من دمي الذي يطنّ في عروقي، فقد أحسّتْ بالشعور ذاته حين صعدت إلى السطح المحرّم للمرّة الأولى. كما أبدت استعدادها لمساعدتي على النزول إن رحتُ أتباكى أو أشتكي؛ لكنّها لن ترضى أبداً بأن تصحبني معها مرّة أخرى إلى الأعلى، ولامناص لي وقتها سوى أن أتدبّر أمري بنفسي حتى نهاية حياتي؛ وذلك كي أفهم معنى كلمة حريم. فهذاك في الواقع هو الموضوع الذي كانت تطرحه مع سميرٍ للنقاش على السطح؛ وكانا ينهمكان في تحليل هذه الكلمة المتعذّر تحديدها؛ فعوّضا نفسيهما عن ذلك بزيارةٍ إلى السطح المحرّم الشهير. لقد كانت السرّيّة المطلقة مهمّةً جداً؛ فهما لم يكونا راغبين في أن يعلم أحدٌ بهذه الرحلة.

عندئذٍ دمدمت هامسةً إنّني لست خائفةً، والشيء الوحيد الذي أحتاج إليه هو نصيحةٌ تدلّني على السبيل لإيقاف الضجيج في رأسي؛ فأرشدتني إلى الاستلقاء على الظهر، وتجنّب رؤية الأشياء المتحرّكة كالغيوم أو الطيور مثلاً، وتثبيت النظر على نقطةٍ محدّدةٍ غير متحرّكةٍ. وآنذاك إن أركّز على هذه النقطة لبعضِ الوقت، ترجعِ الأمور إلى وضعها الطبيعيّ، وتنجلِ اختلاطاتي كلُّها. وقبل أنْ أستلقي، رجوتها أن تحيط أمّي علماً ـ في حال شاءت إرادة الله أن

أموت على هذا السطح ـ بأنّني مَدِينةٌ بمبلغٍ كبير من المال إلى سيدي سوسي بائع القَضَامِيّ وفستق العبيد واللوز المحمَّص، وهو صاحب حانوتٍ صغيرٍ قبالة مدرستنا القرآنية. لقد قالت لي معلّمتي لالا طَمْ: إنّنا نذهب مباشرةً إلى جهنّم، إذا أتينا يوم القيامة وفي رقابنا ديونٌ؛ فالمسلم الصالح يسدّ ديونه أوّلاً بأوّلٍ، ويسوّي حساباته يوماً بيومٍ، حيّاً كان أم ميتاً.

لقد كان السطح الذي يطلّ على شرفة سطحنا ـ حيث كنّا نقدّم عروضنا المسرحيّة ـ محظوراً (مُحرَّماً)؛ لأنّه لم يكن محاطاً بجدرانٍ، حتّى أنّ أقلّ حركةٍ خاطئةٍ قد تجعلكم تسقطون نحو الأسفل؛ فتكسروا أعناقكم وتموتوا بعد أن تتهشّم عظامكم. وهذا السطح ـ الذي يرتفع عن السطح الآخر بمقدار مترين ـ هو في الواقع سقف الحجرة الخاصة بالعمّة حبيبة؛ وما من درجٍ يوصل إليه؛ لأنّه ليس من المفروض أن نصعد نحوه. بذلك كانت الطريق الرسميّة الوحيدة لبلوغه سُلَّماً يحتفظ به حْمِد البّواب. لكنّ أهل البيت كافّةً كانوا يعرفون أنّ النساء اللائي يعانين الـ «هَمّ» (وهو ضربٌ من الاكتئاب الخفيف) يتسلَّقن إلى هذا السطح ليجدن الهدوء والجمال اللذين يحتجن إليهما. و«*الهم*» مرضٌ غريبٌ يختلف كلَّ الاختلاف عن الـ «*مُشْكِلْ*» (أو المشكلة)؛ فالمرأة التي تعاني من «*مشكل*» تعرف علّة وجعِها. وعلى الطرف المقابل في حالة «*الهم*» فإنّ المرأة التي تعاني تجهل مصدر ألمها. لقد روّعتني فكرة أن أعاني من شيءٍ لست قادرةً على تحديد تسميته. لقد توجّهت إلىالعمة حبيبة صائحةً: «عمّة حبيبة، إنّني أفضّل مئة «*مشكل*» عن «*هم*» واحد»، وذلك حين طُرح موضوع المعاناة في أحد الأيام التي كانت تجري خلالها الحوارات المُتَخَلّلة بحالاتٍ من الصمت المطبق الطويلة؛ والتي كانت تنعم عليّ بها وقتَ أجلس قبالة طَرّازتها دون إحداث ضجّةٍ. عندها أجابتني: «ليست هذه الطريقة طريقةً جيّدةً لمواجهة الحياة يا بُنيّتي؛ فمئة «*مشكل*»... هذا كثيرٌ جدّاً. الأمر المثالي هو أن تنظّمي أمورك بحيث لايكون لديك سوى «*مشكل*» صغيرٍ ووحيدٍ في آنٍ معاً. وهكذا يتسنّى

الوقت الكافي لتحليله بروِيّةٍ، وللتفكير فيه بهدوءٍ؛ بغية إيجاد الحلّ المناسب له». كانت العمّة حبيبة تقول: تلك هي الفرصة السانحة لتحديد مُصابكن؛ فبهذا الشكل تستطعن معالجة أنفسكن. إنّ المرأة المصابة بـ «الهم» لاتستطيع أن تفعل شيئاً سوى الجلوس بصمتٍ، وقد حَمْلقت وأسندت رأسها إلى باطن كفّها، كأنّ عنقها لم يعد يقوى على حَمْل رأسها.

وسعياً مني لأحضّر نفسي أمام المخاطر التي قد تسم حياتي المستقبليّة كراشدةٍ بمِيْسَمِها، كنت أجلس في إحدى زوايا شرفة السطح حين تكون مقفرةً، وأتدرّب على إسناد رأسي إلى كفّي... العينان مثبّتتان نحو الفضاء، والعنقُ مَلْوِيٌّ إلى اليسار كأنّني خائرة القوى. وذات يوم فاجأتني أمّي وأنا في هذه الوضعيّة؛ فغضبت غضباً مرعباً: «لاتتباءسي أبداً أيّتها الحمقاء!. الحياة بكلّ ما جُبلت به لاتعدو عن كونها مسرحاً، وإن تظهري للناس مهيضة الجناح يسحقوك. فارفعي رأسك عالياً، حتّى إذا كنت تعانين المواجع، وحافظي على هيئة ملكةٍ، حتّى إذا كان «الهم» يثقل كاهلك. إن ضبطتك مرّة ثانيةً وأنت في حالٍ كهذه، فسوف أخبر لالاطَمْ بكلّ شيءٍ، وهي ستعرف كيف تجازيك». وفقط كي أتجنّب الوقوع في مشاكل مع المُرعبة لالاطَمْ، قرّرت على الفور أن أُبعد عن حياتي «الهم» و«المشكل»، وأن أكرّس نفسي للسعادة وحسب. لا لأيِّ شيءٍ آخر.

ونظراً لأن الهدوء والجمال كانا وحدهما كفيلين بشفاء النسوة المصابات بـ «الهم»؛ فقد كُنّ يُصحبن غالباً إلى المزارات التي تمتطي قمم الجبال، كمزار مولاي عبد السلام في «الريف»، ومولاي بو عَزّة في «الأطلس»، أو إلى إحدى مغارات لالا عائشة التي تشقّ الشطآن الصخريّة على أطراف المحيط الواقعة بين طنجة وأغادير[1].

كانت شامة تُصاب أحياناً بـ «الهم»، وعلى وجه العموم تنشب

نوباتها بعد استماعها إلى أحد البرامج الإذاعية التي تبثّها إذاعة القاهرة، وهو برنامجٌ تفصيليٌّ يتحدّث عن هدى شعراوي، ويبينُ أخبار حقوق المرأة في مصر وتركيّا. كانت شامة تنتحب قائلةً: «إنّ جيلي لضحيّةٌ!. فالثورة تحرّر النساء في مصر وتركيّا وفي البلدان كلِّها التي كانت ترزح تحت حكم الأمبراطوريّة العثمانية. أمّا نحن فقد غدونا هنا طيَّ النسيان؛ فلا نحن عدنا ننتمي إلى العالم القديم، ولانحن نفيد في الوقت الحاضر من ميّزات الحداثة. إنّنا محشورون بين الجهتين كالفراشات التائهة». ومتى تبدأُ شامة بالبكاء في تلك الصورة، نُحِطْها بـ «*حنان*» لاحدود له، إلى أن يتحسّن حالها.

كانت هناك امرأةٌ أخرى تتسلّق أحياناً إلى السطح المُحرَّم، إنّها العمّة حبيبة. لقد بدأت باستعمال السطح مذ جاءت للعيش معنا بعد طلاقها، ويعود الفضل إليها في تعلّمنا كيفيّة الصعود إليه دون استعمال سُلَّم. كنّا نحن الأطفال نعرف سرّ العمّة حبيبة؛ لأنّها كانت تفيد من خِدْماتنا ـ في القيام بدور حرّاس المراقبة في الفناء وعلى الأدراج ـ وقت كانت تطلع إلى السطح. كانت تأخذ وتدين ضخمين ـ لاستخدامهما كسلَّم ـ من الأوتاد التي تُربط بها حبال الغسيل على السطح السفليّ (المستَخْدَمة لتجفيف القطع القماشيّة الكبرى، كالأغطية الكتّانيّة أو السجّادات التي كانت تُنظَّف في شهر آب، حيث تكون أشعّة الشمس أكثر حرارةً). لم تكن تلك بالعمليّة البسيطة؛ فقد كانت العمّة حبيبة تثبّت الوتدين بغرسهما في جرّتي زيتونٍ محشوَّتين بالوسائد؛ لكتم الضجيج وتخفيف التصادمات، ثمّ تصالب نهايتيَ الوتدين، بحيث تتشكّل من هذا التصالب مَرْقاةٌ يمكن الدوس عليها، وفي الأسفل تهيّء مَرَاقيَ أُخَرَ باستخدام الصناديق الموجودة على السطح؛ وبفضل تلك الصناديق كانت تتمكّن من بلوغ ارتفاع كافٍ، بحيث لايلزمها بعدئذٍ سوى أن تستند إلى الوتدين المتقاطعين، لتندفع إلى السطح المحرَّم.

لم تكن لتخطر ببالنا فكرة الصعود إلى السطح بهذه الطريقة، لو

لم نرَ العمّة حبيبة وهي في غمرة نشاطها. لقد كان لجرار الزيتون القدر نفسه الذي كان لأوتاد الغسيل من الأهميّة بالنسبة إلى العمليّة. كان الزيتون الأسود ـ الذي يُؤتى به من الجبال الواقعة إلى الشمال من فاس ـ يُجلَب إلينا خلال شهر تشرين الأوّل، وكان يُخزَّن بادئ الأمر في سلالٍ عملاقةٍ من القشّ، ويُمَلَّح ثمّ توضع فوقه حجارةٌ مصقولةٌ؛ للتخلُّص من العصارة المُرّة الناتجة عنه (الزيتون الطازج لايؤكل، وفي الأمسيات الشتائيّة ـ حيث البرد يحوّل أمزجة الناس فيجعلهم شرسين ـ كنّا نتسلّى بتقديمه إلى أولئك الساهين). وبعد خروج العصارة من الزيتون، كان يُنقل إلى جرارٍ فخّاريّةٍ كبيرةٍ، ويترك على السطح؛ ليجفّ تحت أشعّة الشمس، وعمليّاً يتمّ ذلك طيلة السنة. كانت العمة حبيبة ـ من وقتٍ لآخر ـ تعرّض الزيتون للهواء الطلق، بأن تفرّده على شرشفٍ في أحد أركان السطح السفلي. وخلافاً للنسوة كانت العمّة حبيبة تقول: لايطيب مذاق الزيتون الأسود إلّا إذا كان مجعّداً. ووقت يجفّ تماماً، كانت تُضيف إليه كميّاتٍ من الزعتر البرّي الأخضر وأنواعاً أخرى من الأعشاب، ثمّ تعيده إلى الجرار، وفي نهاية شهر شباط يصبح قابلاً للأكل. كان فريق النسوة المكلَّف بإعداد الفطور، يذهب كلَّ يومٍ لإحضار جردلٍ كاملٍ من الزيتون. وفي الغالب كنّا نتناول ـ على وجبة الفطور ـ الزيتون الأسود مع الشاي بالنعناع والـ «*خليع*»(2)(*) والخبز الطازج. لقد كان الفطور لذيذاً جداً، وكنت أحبّه، ليس بسبب الزيتون وحسب، بل أيضاً من أجل الـ «*شْهِيوَات*»(**)، وهي قطعٌ من الحلوى كانت تعدُّها النسوة ذوات الأمزجة الخاصّة اللائي لم يكنّ يكتفين بالطعام المقدّم على الطاولة المشتركة. وبما أنّ تناول الطعام ممنوعٌ أمام الآخرين دون مشاركتهم؛ فقد كانت «*الشّهيوَات*» تحوّل وجبات الفطور إلى مآدب حقيقيّةٍ، وكان يتوجّب على أولئك النسوة أن

(*) في الأصل Khli.

(**) في الأصل Ch - hiwat.

يُحضِرن كميّةً كافية من أطباقهنّ المفضّلة لإرضاء أهل البيت جميعهم. كان بعض النسوة يجيء ببيض البطّ أو بالديكة الروميّة، وبعضهن تدهمه رغبة مفاجئةٌ بتناول العسل المعطّر بالأوكاليبتوس (الكينا)(*) التي يُؤتى بها من غابات منطقة القنيطرة؛ أما بعضهن الآخر فكان مولعاً بالفطائر محضراً العشرات منها لاقتسامها مع الجميع. ماكنت أفضلّه بين هذه المأكولات هو الفواكه النادرة المثمرة في غير موسمها، أو الأجبان المملّحة الخاصّة بمنطقة «الريف»، والتي تُقدّم على سعف النخيل. لكن لنعد ثانيةً إلى زيتوناتنا، فقد كنّا مغرمين بتناولها، لكنّنا كنّا أيضاً أكثر غراماً برؤية الجرار تُفرغ من محتوياتها تدريجيّاً. فللجرار استخداماتٌ لاحصر لها لدينا، ولم يكن التسلّق نحو السطح سوى واحدٍ بين استخداماتٍ أخرى كثيرةٍ.

كانت نتائج حملتنا الأولى إلى السطح المحرّم متواضعةً؛ فبعد أن استرجعنا أنفاسنا، افتُتِنّا بهدوء المكان وجَماله، ولبثنا جالسين بصمتٍ، نتأمّل ماحولنا دون رغبةٍ منّا في الحركة، فقد كنّا ملتصقين بعضاً إلى بعضٍ، حتّى أنّ أقلّ حركةٍ تصدر عن واحدنا، كانت دافعاً لإزعاج رفيقيه؛ فحين رفعت ضفيرتي - بقصد ربطها إلى هامتي - أبدى الاثنان الآخران استياءهما. بعدئذٍ طرحت مليكة سؤالاً في غاية البساطة: «هل الحريم بيتٌ يعيش الرجل فيه مع زوجاتٍ عدّةٍ؟»؛ فتباينت إجابة كلٍّ منا على هذا السؤال، فقد أجابت مليكة بنعم؛ لأنّ ذلك كان حال أسرتها، فأبوها العمّ كريم متزوّجٌ بامرأتين: بيبا وهي أم مليكة، وقناطة. أمّا سمير فأجاب بلا، إذ كان هناك أحاريم بزوجةٍ واحدةٍ كحريم أبيه العمّ علي أو حريم أبي (كان الكره الأعمى لتعدّد الزوجات النقطة الوحيدة المشتركة بين أمّي ولالا راضية أم

(*) الأوكاليبْتوس Eucalyptus: ضربٌ من الأشجار الحرجيّة من فصيلة الآسيّات. تزرع في المناطق الحارّة، وفي الأراضي الناقعة حيث تساعد على تجفيفها. سريعة النمو للغاية. وقد يبلغ ارتفاع الواحدة مئة مترٍ. وتعرف أيضاً «بشجرة الكينا».

سمير). الإجابة الأكثر تعقيداً بين الإجابات كانت إجابتي؛ فإن آخذ حالة جدتي ياسمينة أُجِبْ بنعم، وإن أنظر إلى حالة أمي أُجِبْ بلا. بيد أنّ الإجابات المركّبة تثير استياء الآخرين دوماً، وتجعلهم يقفون ضدّكم؛ لأنّها لاتؤدّي إلّا لزيادة تشوّشهم؛ لذا فقد آثر الاثنان ـ مليكة وسميرٌ ـ تجاهل رأيي، وتابعا نقاشهما سويّةً، فيما انصبّ اهتمامي على السحب التي كانت تتبدّى وهي تدنو... وتدنو... وتدنو. بعدئذٍ خلُصنا إلى أنهما طرحا سؤالاً في غاية التعقيد كبدايةٍ لنقاشهما؛ بالتالي يتوجّب عليهما الرجوع إلى حيث البداية، وطرح السؤال الأكثر سذاجةً، وهو: «هل يمتلك كلُّ الرجال المتزوِّجين حريماً؟». كنّا نعرف ـ نحن الثلاثة ـ أنّ البوّاب كان متزوجاً ويسكن بالقرب من البوّابة في بيتٍ صغيرٍ جدّاً يتألّف من غرفتين وباحةٍ؛ مع زوجته لوزة وأطفالهما الخمسة. إلّا أنّ بيته ليس بحريمٍ؛ وعليه فالأمر لايتعلّق بالرجل هل هو متزوّجٌ أو لا.

وقتّها سألتُ: «هل هذا يعني أنّه لايمكن أن يكون لديكم حريمٌ إن لم تكونوا أغنياء؟». ولقد وجدت نفسي ماكرةً جداً بطرحي لهذا السؤال، ولابدّ.. إنّه سؤالٌ ممتازٌ؛ فقد خانت القدرة على الإجابة كلاًّ من مليكة وسميرٍ لمدّةٍ من الزمن، إلى أن طرحت مليكة ـ مستفيدةً بصورة مطلقة من المزيّة التي يمنحها لها سنُّها ـ سؤالاً هائلاً وفاحشاً لم نكن نتوقّعه بتاتاً: «لربّما يجب أن تكون للرجل «حمامةٌ»(*) كبيرةٌ تحت جلبابه كي يمتلك حريماً، و«حمامة» خمِد صغيرةٌ للغاية؟»؛ لكنّ سميراً وضع مباشرةً حدّاً لهذا النوع من

(*) القصد هنا العضو الجنسي، ولكن في لغة الأطفال. وله تسميات عديدة تبعاً للهجة كلّ منطقة وكلّ قطر، وقد استعملنا تسمية «حمامة» وهي التسمية الأكثر شيوعاً عند الأطفال في سوريا، وآثرنا هذا الاستعمال لتوافقه مع ما ورد في الأصل، حيث استُخدِمت كلمة «Zizi ـ زيزي» التي تعني العضو الجنسي في لغة الأطفال كتسميةٍ مجازيّة مستمدّة من معناها الأصلي، وهو اسم طائرٍ صغيرٍ وجميلٍ ولطيف الصوت ذي ريشٍ متعدّد الألوان، يدعى في العربيّة «الشُرشُور» أو «البِرقِش». وهذا يقارب نوعاً ما استعارة التسمية المجازية «حمامة» المستمدّة من اسم طائر.

التساؤلات؛ فقد قال لنا: إنّ لكلٍّ منّا ملاكين حارسين على كتفيه، أحدهما على الكتف اليمنى والآخر على اليسرى؛ وهما يدوّنان كلّ ما نقوله في كتابٍ كبيرٍ، وفي يوم القيامة يُراجع هذا الكتاب، وتُقيَّم أعمالنا وفقاً لما جاء فيه، وفي ختام الحساب لايُقبل في الجنّة إلّا أولئك الذين لاإثم عليهم في شيءٍ، أمّا الآخرون فيقذفون إلى نار جهنّم دون ترتيبٍ ولاتمييزٍ، واستخلص سميرٌ: «إنّني لا أريد أن أجد نفسي في وضعٍ مُحرجٍ». وحين سألناه عن مصدر استقائه تلك المعلومة، أجابنا: إنّه قد أخذها عن لالاطَمْ معلِّمتنا. وبناء عليه قرّرنا أن نقصر استقصاءاتنا منذ ذلك الأجل فصاعداً في حدود *«الحلال»* أي: المباح والمشرَّف والمشرَّع؛ فجهدت منذئذٍ على جعل نفسي أنسى احتمال وجود علاقةٍ غامضةٍ بين حجم العضو الجنسي للرجل وبين حقّه في امتلاك حريمٍ.

عندما صعدنا إلى السطح للمرّة الثانية كنّا أكثر استرخاءً؛ فقد كان الارتفاع يبدو لنا أقلّ رَوعاً، وكنّا نعرف أنّ علينا ألّا نحيد عن *«الحلال»* أبداً، وكان سؤالنا في هذه المرّة هو: «هل يمكن أن يكون هناك أكثر من سيّدٍ في حريمٍ واحدٍ؟». لقد كان سؤالاً دقيقاً جعلنا نسترسل في التفكير لبضع دقائق؛ ثمّ قال سميرٌ: إنّ ذلك ممكنٌ في بعض الحالات، أمّا في حالاتٍ أُخَر فليس ممكناً؛ وقارن بين حريمنا وبين حريم العمّ كريم والد مليكة؛ ففي حالة العمّ كريم لايوجد سوى سيّدٍ واحدٍ، أما في حالتنا فهناك سيّدان، وإن كان العمّ عليٌّ يفوق أبي قليلاً في السيادة؛ نظراً لكونه الأكبر سنّاً والأكثر ثراءً والابن البكر للأسرة. إلّا أنّ كلاًّ من عمّي عليٍّ وأبي كانا - على رغم ذلك - يتّخذان القرارات معاً، ويقبلان أو يرفضان التصاريح المطلوبة على حدٍّ سواءٍ.

والحقّ - على حدّ ما تقول ياسمينة - أن يكون هناك سيّدان لأفضل من سيّدٍ واحدٍ؛ فإن عجزتم عن الحصول على الإذن من أحدهما، تبقَ الفرصة سانحةً أمامكم دوماً لتجرّبوا حظّكم مع الآخر.

وفي منزل مليكة لم يكن هناك أملٌ كبيرٌ حين كان العمّ كريم يرفض منح إذنٍ، وسواءٌ قبل أو رفض فإنّ قبوله أو رفضه يكون قاطعاً؛ وحين تطلب مليكة منه السماح لها بالمجيء لزيارتنا ـ بعد خروجها من المدرسة القرآنية ـ بقصد أن تبقى عندنا حتّى مغيب الشمس، كان يتوجّب عليها أن ترجوه على مدى أسابيع عدّةٍ؛ لكنّه كان يأبى النُّصْت لحرفٍ ممّا تقول، ويقول: إنّه يجب على أيّة فتاةٍ صغيرةٍ أن تعود إلى بيتها مباشرةً بعد المدرسة. في نهاية المطاف كانت مليكة تحصل على تأييد لالا ماني ولالا راضية والعمّة حبيبة اللواتي ينجحن في جعله يغيّر رأيه بحجّة أنّ لااخلاف بين بيت أخويه وبين بيته؛ وأنّ مليكة فوق ذلك ليس لديها من تلعب معه في بيتها؛ فإخوتها وأخواتها يكبرونها سنّاً بفارقٍ كبيرٍ.

كلّما زاد عدد الأسياد زادت فسحة الحريّة وفرص التسلية، وهذاك كان حال مزرعة ياسمينة؛ فقد كان جدّي تازي يحوز السلطة العليا بالطبع، لكنّ ولديه الأكبرين حاجّ سالماً وحاجّ جليلاً كانا يمتلكان سلطة إصدار القرار؛ ومتى يكن جدّي تازي غائباً يلعبا دور خليفتين، ويفعلا ما بوسعهما لاستفزاز ياسمينة والزوجات الأُخريات. كانت ياسمينة عموماً تنتقم على الفور، معلنةً أنّ جدّي قد أذن لها بالذهاب إلى الصيد، قبيل مغادرته عند بزوغ الفجر، ولم يكن أيٌّ من الابنين يستطيع أن يعارض هذا القول؛ لأنّهما لايستيقظان قبل الساعة الثامنة صباحاً. لقد كانت ياسمينة تتدبّر أمورها باستمرار؛ لأنّها تستيقظ عادةً في ساعةٍ مبكّرةٍ جدّاً. كانت تقول لي إنّني إذا أردت أن أكون سعيدةً في حياتي؛ فيجب عليَّ الاستيقاظ قبل العصافير: «عندئذٍ سوف تنبسط حياتك مثلما ينبسط مرجٌ حريريٌّ جميلٌ داخل حديقة، وسوف يولّد تغريد العصافير السعادة في نفسك أوّل الأمر، فيما تجلسين بهدوءٍ للتفكير بما ستكون عليه مجريات نهارك الوليد؛ فلكي تكون المرأة سعيدةً عليهاأن تفكّر مليّاً على مدى ساعاتٍ طوالٍ ـ وفي صمتٍ كأنّها تلعب لعبة الشطرنج[3] ـ بالطريقة التي يجب أن تتّبعها لاتّخاذ الخطوة

الصغيرة القادمة. يجب عليك بادئ بدءٍ أن تحدّدي من لديه *«السلطة»* عليك؛ فهذه المعلومة أساسيّةٌ. بعدئذٍ عليك أن تخلطي ورق اللعب، وأن تمزجي الأدوار. هذا هو الجزء الأكثر إثارةً. إنّ الحياة لعبةٌ، فلتنظري إليها من هذه الزاوية، وسوف تقدرين على الضحك منها».
«السلطة» واللعب: هما الكلمتان الأساسيّتان اللتان كانتا تردان كثيراً في سياق حواراتنا، وقد خطرت ببالي فكرةٌ مفادها: إنّ الحريم بحدّ ذاته قد لايكون سوى لعبةٍ، لعبة بيد الرجال والنساء الراشدين. فريقان يخشى كلٌّ منهما الآخر. بالتالي كانا دوماً بحاجة لإثبات قوّتيهما مثلنا تماماً نحن الأطفال؛ بيد أنّني لم أجرؤ على طرح تلك الفكرة أمام مليكة وسمير في عصر ذلك اليوم؛ لأنّني كنت أجدها جنونيّةً بعض الشيء، فهي تعني أنّ الكبار لايختلفون عن الأطفال.

ونحن نغادر السطح كنّا غارقين في تساؤلاتنا، حتّى أنّنا لم نلحظ السحب الورديّة تنحو باتّجاه الغرب صوب المحيط الذي كنّا نجهله. لم نجد أيّة إجابةٍ على تساؤلاتنا، بل بتنا أكثر حيرةً من ذي قبل. وفي الختام أسرعنا في الذهاب قاصدين العمّة حبيبة طلباً لعونها، فوجدناها منغمسةً بالطرازة، وقد حنت عنقها منكبّة الرأس فوق *«مَرِيْمَتِها»*(*)، وهي الإطار الخشبيّ الأفقي الذي كانت تستعمله للأعمال المعقّدة. *«المريمة»* تشبه نول الحياكة الخاصّ بالرجال الذي نراه لدى حرفيّي «المدينة»، لكنّها أصغر حجماً بكثير وأخفّ وزناً. ويُثبّت القماش على الإطار بدقّةٍ؛ كي يبقى مشدوداً وقت مرور الإبرة خلاله. و*«المريمة»* غرضٌ من الأغراض الشخصيّة التي توافقها المرأة مع طول قامتها، بحيث لاتُضطر إلى جِنَايَةِ رأسها كثيراً، والطرازة عملٌ فرديٌّ بصورةٍ خاصّةٍ، غير أنّ النسوة ـ وقتَ يرغبن في الثرثرة أو وقتَ يشرعن بمشروعٍ يتطلّب عملاً كثيراً ـ يجتمعن وهنّ يقمن بالطرازة.

(*) في الأصل Mrema.

كانت العمّة حبيبة في ذلك اليوم تطرّز رسماً لعصفورٍ أخضر ذي جناحين مذهّبين؛ ولم يكن هذا النوع من العصافير ـ الذي يبسط جناحيه بصورةٍ استفزازيّةٍ ـ ينتمي إلى عداد العصافير التي ترسم في النقوش التقليديّة، ولو رأته لالا ماني لنعتته بالبدعة الفظيعة، ولأوحت إلى أنّ مُبْتَدِعته لاتفكّر سوى بالطيران. من المؤكد أنّ العصافير تُلحظ في نقوش الطرازة التقليديّة، لكنها كانت في أغلب الأحايين صغيرةً جداً وعاجزةً تمام العجز عن الحركة، ومحتجزةً أيضاً بين النباتات الضخمة والأزهار الكثيفة العملاقة. وبسبب لالا ماني كانت العمّة حبيبة تطرّز الرسوم التقليديّة باستمرار لمّا تكون في الفناء، لكنّها كانت تحتفظ بعصفورها ذي الجناحين الطليقين لنفسها آنَ تختلي بوحدها في حجرتها.

كنت أحبّ العمّة حبيبة كثيراً. لقد كانت شديدة الصمت، وتتبدّى جاهزةً على الدوام لأن تردّ ـ بالاعتماد على نجاحها في التشبّث بجناحي عصفورها ـ على كلّ ما يُتوقّع أن يجيء به العالم الخارجيّ القاسي. لقد منحتني رؤيةً مُطمئِنةً للمستقبل حين قالت: حتى إن كانت امرأةٌ ما عاجزةً تماماً، فهي تستطيع أن تضفي معنىً على حياتها، وهي تحلم بأنّها تشرع بتحليقها... انتظرتُ ومليكة وسمير العمّة حبيبة إلى أن رفعت رأسها، ثم شرحنا لها مشكلتنا، وكم نحار كلّما حاولنا أن نوضّح قصّة الحريم تلك؛ وبعدأن أصغت إلينا بانتباهٍ، قالت لنا: إنّنا قد وقعنا في «*تناقض*»، والوقوع في «*التناقض*» يعني أنّكم عندما تطرحون سؤالاً تكون لديكم إجاباتٌ كثيرةٌ جداً، وذلك لن يؤدّي إلّا لتفاقم تشوّشكم. وقالت أيضاً: «وحين يقع المرء في تناقضٍ، لايشعر بأنّه ذكيٌ؛ إلّا أنّكم إن أردتم أن تصبحوا راشدين، فعليكم أن تتعلّموا كيف تتعاملون مع «*التناقض*»».

ولكن كيف؟. صِحنا جميعنا متوسّلين لها ألّا تتركنا معلّقين عند هذه النقطة؛ فقالت لنا: إنّ المرحلة الأولى هي التزوّد بالصبر؛ فالصبر هو الطريقة الوحيدة لتجاوز تناقضٍ ما، وينبغي لكم أن تتقبّلوا أنّكم ـ في وقتٍ من الأوقات ـ كلّما حاولتم الإحاطة بسؤالكم واستيعابه،

تجلّى لكم بصورةٍ أقلّ وضوحاً من السابق؛ لأنّ الإجابات تتراكب بعضها فوق بعضٍ، وتتشابك ليصبح كلٌّ منها في اتّجاهٍ. لكنّ ذلك ليس بمسوّغٍ لهجر أغلى هبةٍ منحها اللّه للبشر، ألا وهي «*العقل*». وتضيف العمّة حبيبة: «تذكّروا أنّ أحداً لم يتمكّن قطّ - وحتّى وقتنا الحاضر - من إيجاد حلٍّ لمشكلةٍ دون طرح الأسئلة».

لقد تحدّثت العمّة حبيبة أيضاً عن الزمان والمكان، وعن كيفيّة تغيّر الأحاريم من مكانٍ إلى آخر... من المغرب إلى أندونيسيا، ومن عصرٍ إلى آخر.. فعلى سبيل المثال، حريم الخليفة العبّاسي هارون الرشيد خلال القرن التاسع في بغداد لايمتّ بصلةٍ إلى حريمنا؛ إذ إن «*جواريه*» كنّ شابّاتٍ متعلّماتٍ حَفِظن كتب التاريخ والخطط الحربيّة و«*الفقه*»؛ كي يتمكّنّ من تسليته والترويح عنه بوساطة علمهن. كما كان رجال ذلك العصر لايحبّون صحبة النسوة الأمّيّات وغير المتعلّمات، ولن يكون لديكم أيّة فرصةٍ لجذب انتباه الخليفة إن لم تبهروه بمعارفكم في الجِغْرافيا وعلم الأنساب والقضاء وعادات البلدان الأجنبية وأعرافها، وغير ذلك من العلوم! لقد كان الخليفة مهووساً بهذه المواضيع، وكان يمضي في مناقشتها جلّ وقته الممتدّ بين «*جِهَادين*». تضيف العمة حبيبة: مهما يكن من أمرٍ فإنّ عصر الخلفاء العباسيّين قد ولّى منذ زمنٍ بعيدٍ، أمّا في عصرنا الحاضر فإنّ الأحاريم تعجّ بالنساء الأمّيّات؛ ممّا يدلّ على تعذّر ابتعادنا عن العرف والتقاليد. وبالنسبة إلى القوّة، لم يعد الزعماء العرب بغزاةٍ، بل إنّهم مهزومون ومسحوقون أمام جحافل الجيوش الاستعماريّة. في العصر الذي كانت فيه «*الجواري*» متعلّماتٍ من الطراز الأوّل، كان العرب يتربّعون على قمة العالم. أمّا الآن فإنّ الرجال كما النساء يتدحرجون نحو هاويةٍ لاقرار لها، لكنّ تعطّشنا للعلم هو إشارةٌ إلى أنّنا على وشك الانبعاث والخلاص من ذلّ الاستعمار.

بينما كانت العمّة حبيبة تتكلّم، كنت أنظر إلى سميرٍ لأرى هل

يفهم كلَّ ما تقوله؟. إلّا أنّ ملامح القلق والحيرة كانت تبدو على وجهه، وقد لحظت العمّة حبيبة ضيقنا؛ فطلبت منّا ألّا نقلق، فالمهمّ مبدئياً أنّنا نتطوّر حتى إن لم ندرك ذلك، والشيء الوحيد الذي نستطيع القيام به في الوقت الحاضر هو متابعة المهمّة التي أوليناها اهتمامنا.

بعد مضيّ أسبوع طرحت مليكة ـ في أثناء الجلسة التالية على السطح المحرّم ـ مسألة الجواري: «هل من الضروري امتلاك جوارٍ كي يكون لدينا حريم؟»؛ فقال سمير: إنّه لمن الغباء طرح سؤالٍ كهذا؛ فنحن لانمتلك جواري في حريمنا. لكنّ مليكة بادرت بسؤاله عمّ يسمّي مينا التي كانت تسكن عندنا، وهي ليست إلّا أَمَةً؛ فردّ عليها سمير: إنّ وجود مينا عَرَضيٌّ؛ فلا زوج لها ولا أطفال ولا عائلة، وهي تسكن معنا لأنّها لاتعرف أحداً وليس لديها مكانٌ تذهب إليه. إنّها *«مَقْطوعَة»*(*) كجزءٍ من شجرةٍ ميتةٍ.

قبل سنين عدّةٍ انتُزعت مينا من بلدها الأمّ السودان، في مكانٍ ما جنوب «الصحراء»، وبِيعت كأَمَةٍ في مَرّاكش، ثم بِيعت من سوق نخاسةٍ لآخر، إلى أن وصلت إلينا في أحد الأيام كطاهيةٍ. وبعد مضيّ بعض الوقت طلبت من عمي أن يعفيها من أداء المهمات المنزليّة، كي تتمكّن من الانزواء متنسّكةً على السطح بغية الانقطاع إلى الصلاة.

17

مينا المقطوعة

كانت مينا تُخيِّم على السطح السفلي مواجَهَةً مع مكّة، وتجلس على جلد خروفٍ عتيقٍ متّكئةً على الجدار الغربي، وقد سندت ظهرها بوسادةٍ صفراء زعفرانيّة اللون جُلبَت من موريتانيا، كما كانت عمرتها وقفطانها بلون الزعفران أيضاً. كان هذا اللون يعطي لوجهها الأسود الهادئ نوراً استثنائيّاً، وقد قُدِّر لها أن ترتدي هذا اللون بتدرّجاته المختلفة؛ إذ كان يسكنها جنّيٌّ غريبٌ يمنعها عن ارتداء ملابس ذات ألوانٍ أُخَر. والجانّ أرواحٌ متسلّطةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ، تتلبّس الناس وتجبرهم على اتّباع أهوائها، كارتداء ملابس بألوانٍ خاصّةٍ، أو الرقص على أنغام لحنٍ محدّدٍ، وذلك حتّى في البلدان التي يُعتبر فيها رقص النساء تصرُّفاً غير قويمٍ.

تبعاً للتقاليد، يلبس الإنسان الراشد ثياباً بألوانٍ رزينةٍ، ونادراً ما يرقص، وإن رقص فلا يرقص على الملأ أبداً، ووفق رأي لالاماني: فقط حثالة الرجال والنساء وأنصاف المجانين أو المسكونون بالجنّ هم الذين يرقصون جهاراً. كان هذا التصريح يصعق أمّي دائماً، ويجعل ياسمينة تنفجر بالضحك: «يا لمدينيّات فاس المسكينات. من المؤكّد أنّهن لايحرّكن أردافهن مطلقاً، كما من المؤكّد أنّ لديهنّ مؤخّراتٍ هائلة الحجم، لكنّ أهالي المغرب الريفيّ

بأسره ـ والذي أنتمي إليه وأفخر بهذا الانتماء ـ يرقصون رجالاً ونساءً للاحتفال بالمواسم، والأطفال يحيطون بهم. إنّهم يتمتّعون بسيقانٍ رشيقةٍ وأرواحٍ يقظةٍ». لم يكن الدفاع عمّا هو ريفي أمراً يسيراً بالنسبة إلى من يكون حبيساً في مدينة فاس كما هي حال أمّي؛ ومع ذلك كانت تحاول، وتقول لي مراراً وتكراراً: إنّ على المرء أن يكون فخوراً بأصله أبداً. لقد كان جدي مدينيّاً، أمّا ياسمينة فهي فلاحةٌ وكانت تردّ على لالا ماني بقولها: إنّ فلّاحي المغرب بقسمهم الأعظم يرقصون دون حرجٍ خلال الاحتفالات الدينيّة؛ مشكّلين حلقات رقص تضّم الرجال والنساء والأطفال، وهم يثبون بصورةٍ إيقاعيّةٍ طيلة الليل، وأولئك نفسهم هم الناس الذين يطعمون البلد كلّه. كانت أمّي تصرّ على رأيها عبر قولها بلهجةٍ ساخرةٍ: «كنت أعتقد أنّ أشباه المجانين لايقومون بأعمالهم على الوجه الصحيح». عندها كانت لالا ماني تردّ عليها بالمثل فتقول: قد يكون الفلّاحون يؤمّنون الغذاء للمدينيّين، غير أنّ دخولهم الجنة ليس مؤكّداً البتّة؛ فهم ضعفاء فيما يخصّ معرفتهم *«بالشريعة»*. ثمّ تضيف: «قد يغفر الله لهم، فهو كريمٌ غفورٌ رحيمٌ». وحين ترى لالا ماني أنّ أمّي تكاد تختنق من شدّةالغيظ، كانت تقول: إنّ مشكلة الرقص تكمن في أنّ المرء ـ وقتَ يكون مسكوناً بالجنّ ـ يفقد كلّ إدراكٍ *«للحدود»*: «النساء المسكونات بالجنّ يقفزن في الهواء مذ يسمعن إيقاع لحنٍ معينٍ يُعزف، ويلتوين دون حياءٍ وهنّ يحرّكن أذرعهن وسيقانهن إلى ما فوق رؤوسهن».

لقد احتفظت مينا بذكرى عن بعض المقتطفات من طفولتها، وذلك بلغتها الأمّ، لكنّ هذه الذكرى كانت على الأغلب لأغانٍ لاتشكّل أيّ معنىً، سواءً بالنسبة إليها أو بالنسبة إلى الآخرين. وأحياناً كانت مينا تؤكّد أنّ موسيقا «التامبو» قرع الطبول (المستخدمة لعزائم واستحضار الجنّ خلال القيام بطقوس *«الحضرة»* وهي رقصات الاستحواذ الشيطانيّ الشعائرية) تذكّرها بالإيقاعات التي

سمعتها في طفولتها، لكنّها لم تكن دائماً واثقةً من ذلك، فهي تستطيع وصف أشجارٍ وفواكه وحيواناتٍ لم يرَ أحدٌ مثيلاً لها في فاس، بل كنّا نصادفها أحياناً في حكايات العمّة حبيبة، خاصّةً حين كنّا نجتاز الصحراء مع قافلةٍ تتّجه إلى تُمبوكتو. وفي تلك المناسبة كانت مينا تطلب من العمّة حبيبة أن تذكر تفاصيل عمّا تصفه، والعمّة حبيبة ـ التي لم تكن تعرف القراءة بل استقت معلوماتها عبر الاستماع إلى زوجها بانتباهٍ وهو يقرأ لها كتب التاريخ والأدب ـ كانت عندئذٍ تستدعي شامة لتنجدها؛ فكانت شامة تجري صوب الطابق الأوّل، وتحضر كتباً وضعها علماء جغرافيا عربٌ، ثمّ كانت تفتّش عن تُمبوكتو في الفهرس، وتقرأ لنا صفحاتٍ عديدةً وطويلةً بصوت عالٍ عسى مينا تستعيد بعضاً من ذكريات طفولتها. كانت مينا تظلّ جالسةً دون حراكٍ وهي تصغي بانتباهٍ، وتطلب أحياناً من شامة أن تعيد قراءة مقاطع معيَّنةٍ، خاصّة تلك التي تصفُ سوقاً من الأسواق أو حيّاً من الأحياء؛ وكانت تقول واضعةً يدها على فمها لتخفي بسمةً خجولةً: «لعلني ألتقي بشخصٍ أعرفه. ربّما أصادف أخي أو أختي، وقد يتعرّف عليّ صديقٌ من عهد طفولتي»، وما تلبث بعدئذٍ أن تعتذر لأنّها قاطعت الراوية.

كانت مينا «*مقطوعة*» ومسنّةً وفقيرةً، لكنّها كانت تفيض «*بالحنان*».. ذلك التحنان الإعجازيّ، «*فالحنان*» هبةٌ إلهيّةٌ، يتدفّق كالنبع غامراً ما حوله بالحنوّ والعطف دون اهتمامٍ بمن يتلقّاه هل يسلك سلوكاً قويماً، أم ينحرف عن درب الصوابِ التي ترسمها «*حدود*» اللّه. فقط القدّيسون والمخلوقات المقدّسة هم الذين يمنحون «*الحنان*»، ومينا كانت واحدةً من هؤلاء؛ فهي لم تغضب يوماً، إلّا وقتَ ترى طفلاً يُضرب. كانت مينا ترقص مرّةً واحدة في السنة خلال الاحتفال بـ «المولد»(*) (وهو يوم مولد النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم). وخلال «المولد» كانت تُقام الاحتفالات الشعائريّة في مختلف أرجاء

(*) في الأصل Mouloud. عيد المولد النبويّ.

المدينة، ابتداءً بأكثرها رسميّة وهو «*السَّمَا*»، حيث تقوم أجواقٌ رائعةٌ من المُنشدين بأداء الأناشيد الدينيّة، تحت القبّة المهيبة لضريح مولاي إدريس؛ وانتهاءً «*بالحضرة*» وهي أكثر الاحتفالات غموضاً، وتتمثل برقصات الاستحواذ والمَسّ التي ينغمس الناس البسطاء في أدائها، وذلك في أجواء خاصّةٍ داخل بيوتٍ خاصّةٍ. وكانت مينا تشارك في الطقس الذي يُنظَّم في بيت سيدي بلال، وهو الأكثر شهرةً، وعمله هو الأكثر فعالية بين الرقّائين طارديّ الجنّ في إقليم فاس أجمع. وهو سودانيّ الأصل كمينا، عاش في المغرب كعبدٍ في بادئ الأمر، لكنّه أظهر مواهب عدّةً في التغلّب على الجنّ، ولاسيّما تنظيم أعيادٍ خارقةٍ، حتّى أدرك أسياده أنّهم يمتلكون ورقةً تجاريّةً رابحةً. فحوّلوا «*الحضرة*» إلى عمليّةٍ تجاريّةٍ حقيقيّةٍ. ولم يكن في مقدور أيّ شخصٍ أن يشارك في الطقوس الاحتفاليّة التي تقام في دار سيدي بلال؛ بل كان ينبغي للمرء أن يتلقّى دعوةً لحضور تلك الاحتفالات.

قد يقع اختيار الجانّ على العبيد، وقد يقع على الرجال والنساء الأحرار. وبصورةٍ عامّةٍ لايمكن أن يقف أمامهم أيّ عائقٍ، غير أنّهم - على ما يبدو - ينتشرون بسهولة أكبر بين صفوف الضعفاء والمُعدمين. والفقراء هم أتباعهم الأشدّ وَرَعاً. وتشرح مينا قائلةً: «إنّ «*الحضرة*» بالنسبة إلى الموسرين أقرب لأن تكون تسليةً، أما بالنسبة إلى نساء مثلي فهي فرصةٌ فريدةٌ للخروج والهروب من القدر، وللرحيل بشكلٍ مغايرٍ.». وبالنسبة إلى رجل أعمال كسيدي بلال، فإنّ حضور بعض السيّدات من صاحبات المقامات الرفيعة إلى الحفل هو قطعاً مسألةٌ حيويّةٌ للغاية؛ حيث يأتين إليه حاملاتٍ معهن الهدايا القيّمة. لقد كان حضورهن وكرمهم يُفهم من الجميع على أنّه تعبيرٌ عن التضامن النسائي؛ وكان دعمهن ضرورياً بصورةٍ حتميّةٍ.

كان الوطنيّون - كما هو حال لالا ماني - يعارضون طقوس الرّقي وطرد الجنّ، مذكّرين بأن تلك الشعائر تخالف الإسلام

و«الشريعة». ونظراً لكون أرباب العوائل الذوات يشاركون الوطنيّين رأيهم؛ فقد كانت النسوة يذهبن إلى «حضرة» سيدي بلال بسرّيةٍ مطلقةٍ. وكانت مينا أيضاً تشارك فيها سرّاً؛ فقد كان أبي وعمّي يؤيّدان الوطنيّين، بيد أنّ النسوة كلّهن وأطفال البيت كانوا على علم بمواعيد «المولد»؛ وكانوا جميعهم يلحّون على مرافقتها. لابد أنّ يصحبكم صديقٌ عند الذهاب إلى حفل رقص الاستحواذ، فبعد ساعاتٍ عدّةٍ تمضونها في القفز والغناء، قد تصابون بالإغماء من شدّة التعب. وبما أنّ مينا كانت محبوبةً جدّاً، فإنّ كلَّ من يحلّ في الفناء كان يبدي استعداده لأن يكون ذلك الصديق. لكن لنتجاوز مسألة الصداقة؛ فقد كنّا جميعاً مشدودين بشكلٍ لايُقاوم إلى تلك الطقوس التي تضرب عرض الحائط ـ حتماً ـ بكلّ النظم السائدة؛ تلك الطقوس التي كانت النسوة في أثنائها يرقصن وقد أغلقن عيونهن، وأسدلن شعورهن، كأنّ كلَّ احتشامٍ أو تحفّظٍ بات ملغيّاً تماماً.

لقد تمكّنت وسميرٌ من الذهاب إلى الحضرة بصورةٍ منتظمةٍ تقريباً؛ حيث كنا نهدّد بكشف الأمر لعمّي ووالدي. كان ابتزازنا للنسوة بالتهديد يعطينا سلطةً هائلةً، وقد ضَمِنّا حقّنا ـ بهذا الشكل ـ بالمشاركة في الطقوس الاحتفاليّة المحظورة جميعها. كان منزل سيدي بلال يماثل بيتنا من حيث الحجم، لكن لم تكن فيه تبليطاتٌ كتبليطاتنا، ولاخشبيّاتٌ فخمةٌ كالتي لدينا. كانت «الحضرة» تبدأ بحضور مئات النسوة، لابساتٍ ومتبرّجات جميعهنّ في أبهى حلّةٍ، وقد اصطففن وفق ترتيبٍ محدّدٍ على صفّاتٍ موزّعةٍ على امتداد جدران الباحة الأربعة. وكُنّ يمسكن بعضاً بأيادي بعضٍ، ويتحلّقن حول «مِزيَاحتهن»(*)، وهي تلك التي لاتستطيع مقاومة «الريح»، أي الإيقاع الذي يجبرها على الرقص. وكان سيدي بلال شخصيّاً يقف وسط الفناء مرتدياً ثوباً أخضر فضفاضاً وعمامة وبابوجاً بلون

(*) في الأصل Meriaha.

الزعفران، ومحاطاً بجوقةٍ موسيقيّةٍ تتألّف من الرجال حصراً، يدقّون على الدفوف، ويعزفون على «الكِنْبرِي» (وهي آلةٌ وتريّةٌ)، ويضربون الصنوج. وكانت تشغل الحجرات الأربع التي تحيط بالفناء نسوةٌ ينتمين إلى عائلاتٍ ثريّةٍ، وقد جلبن أثمن الهدايا، ولم يكنّ يرغبن في أن يُرين وهن يرقصن. أمّا النسوة الفقيرات فكنّ جالساتٍ في باحة الفناء. وكانت تُحضَّر كؤوس الكريستال البوهيميّ، وغلّايات الشاي الروسية (السماوَرَ) البرونزيّة المعبّأة بالماء المغليّ، ثمّ توضع على صوانٍ فضّيةٍ قيّمةٍ في جهات الفناء الأربع وفي وسط كلّ قاعةٍ. بعدئذٍ كان يُطلب منّا أن نتوقّف عن التحرّك.

القاعدة التي تسري على كلّ طقس ـ دينيّاً كان أو دنيويّاً ـ هي أن يجد كلُّ شخصٍ مكاناً له، وأن يتوقّف عن التحرّك. لهذا السبب تماماً، لم يكن الأطفال محبّذين، وبما أنّنا كنّا حوالى عشرة أطفال ممّن كانوا يريدون مرافقة مينا؛ فقد وضعت العمّة حبيبة قانوناً بسيطاً غير أنّه صارمٌ: يستطيع كلُّ طفلٍ أن يختار الشخص الذي يرغب في الجلوس إلى جانبه، لكن إذا ترك واحدنا مكانه وأخذ يجري أو يحاول التحدّث مع الأطفال الآخرين؛ فإنّه ـ وبعد أن يتلقّى ثلاثة تنبيهاتٍ ـ سيُطرد إلى الخارج. لم أواجه أيّة صعوبة في تطبيق هذه القاعدة؛ لشدّة فضولي تجاه حضور ومشاهدة ذلك العرض المُحرَّم، فيما لم يتمكّن سميرٌ المسكين قطّ من البقاء حتى آخر الحفل. وقد صاح مرّة شاتماً سيدي بلال قبل أن تصحبه العمّة حبيبة إلى الباب؛ مما اضطرّها في العام التالي إلى أن تصنع له عمامةً صغيرةً لإخفاء شعره الأجعد؛ حتّى لايتعرّف عليه سيّد الحفل.

في بادئ الأمر كانت جوقة سيدي بلال الموسيقيّة تعزف ببطءٍ رفقٍ، حتّى أنّ النسوة كنّ يتابعن ثرثرتهن كأنّ شيئاً لم يكن، ثمّ بشكلٍ مفاجئٍ بدأ ضرب الدفوف يصدر إيقاعاً غريباً، وكانت «المِرْيَاحَات» جميعهن يقفزن قاذفاتٍ عمراتهن وبوابيجهن، ثم

ينثنين وهنّ يؤرجحن شعورهن الطويلة في كلّ اتّجاهٍ، وكانت أعناقهن تلتوي من طرفٍ لآخر وتبدو آخذةً بالاستطالة؛ كأنّهن يسعين للهروب من ضغطٍ لاتُعرف ماهيته. وكان سيدي بلال أحياناً يشير إلى الفرقة الموسيقية أن تبطئ عزفها، فزعاً من أن تؤذي الراقصات نفوسهن بعنف حركاتهن. لكنّ ذلك يكون - في الغالب - بعد فوات الأوان، فقد كانت النسوة يتابعن رقصهن على إيقاعهنّ القويّ الخاص، دون إدراكٍ منهن للموسيقا، وكأنّهنّ يدلّلن بذلك على أنّ سيد الحفل قد فقد السيطرة على الوضع. يُقال إنّ النسوة كنّ يتحرّرن وبصورةٍ نهائيّةٍ من الضغوطات الخارجيّة. كانت الكثيرات منهن يرسمن ابتساماتٍ صغيرةً على شفاههن، وعيونهن مغلقةٌ نصف إغلاقةٍ، وكأنّهن قد انبعثن من حلمٍ بديعٍ. وفي نهاية الحفل كنّ يتدحرجن على الأرض منهكاتٍ تماماً وشبه فاقداتٍ لوعيهنّ؛ الأمر الذي يدفع صديقاتهن لأن يضممنهن ويهنّئنهن ويرششن وجوههن بماء الورد، ويوشوشنهن بما هو سرّيٌّ. بعدئذٍ تنهض النسوة الراقصات ببطءٍ، ويستعدن أمكنتهن كأنّ شيئاً لم يكن.

كانت مينا ترقص على مهلٍ، وكان رقصها يقتصر على أرجحةٍ خفيفةٍ لرأسها إلى اليمين وإلى اليسار، أمّا جسدها فتبقيه منتصباً تماماً، وكانت تتفاعل مع الإيقاعات اللطيفة، وحتّى مع هذه الإيقاعات كان رقصها يبدو غير منسجمٍ، وكأنّها ترقص على نغم موسيقا تنبع من داخلها. كنت معجبةً بها، ومازلت أجهل سبب إعجابي هذا حتّى الآن. ربّما لأنّني قد أحببت دائماً الحركات البطيئة؛ فأنا أتصوّر الحياة (ومازلت حتّى الآن) كرقصةٍ موزونةٍ هادئةٍ ناعمةٍ؛ أو ربّما لأنّ مينا قد نجحت في أداء دورين متناقضين في الوقت نفسه، هما الرقص ضمن المجموعة، واتّباع إيقاعها الخاصّ. كنت أريد أن أرقص مثلها: أي أن أرقص مع الجماعة وأنا أتّبع أيضاً موسيقاي الخاصّة التي تنبعث من منبعٍ داخليٍّ غامضٍ.. موسيقاي التي يعلو صوتها مع صوت الدفوف، لكنّها مع ذلك أكثر

نعومةً، وذات قدرةٍ تحريريّةٍ أكبر. لقد سألت مينا يوماً: لماذا ترقصين برفق فيما يقوم معظم النساء الأخريات بحركاتٍ عنيفةٍ واهتزازيّةٍ؛ فأجابتني إنّ كثيراً منهن يخلط بين التحرّر والهيجان: «بعض النسوة غير راضياتٍ عن حياتهن، ورقصهن هو تعبيرٌ عن غضبهن». في الغالب تقع النسوة أسيراتٍ لغضبهن، ولايتمكّن من الهروب بعيداً عنه أو من تحرير أنفسهن، وذلك لقدرٌ بائسٌ. إنّ أسوأ السجون هو ذلك السجن الذي يحبس المرء نفسه فيه. فجأةً أصاب بالخوف وأنا أنصت إليها: «مينا كيف يمكنني أن أتلافى احتمال أن أصبح امرأةً تاعسةً يُضنيها غضبها؟. وكيف السبيل إلى الهروب من شيءٍ ينبع من الداخل؟. أنا أستطيع أن أنتبه لما هو خارجيٌّ، أمّا الداخليّ، وخاصّةً شعورٌ يُفقِد المرء صوابه كالغضب، ما عساي أفعل به؟. انظري إلى حَمِيد ابن جيراننا آل الشاوي».

كان حميد الشاوي يمضي جُلّ نهاره وهو يصرخ في الحيّ، منتقداً وواشياً بالشراك التي لايكفّ أهالي المدينة أجمعهم عن نصبها له. وقد نُصِحْنا وقتَ كنّا صغاراً جدّاً بألّا نردّ عليه البتّة، وبأن نتجنّب خصوصاً خوض حوار معه؛ لأنّه «خَرَجْلُو عَقْلُو»(*)، أي بالفصحى قد خرج دماغه من رأسه. لقد بقيت وسميرٌ مشدوهين لأسابيع عدّةٍ بدماغ حميد هذا. «كيف يمكن لدماغٍ أن يخرج من الرأس؟؛ فرأسه كرؤوس الآخرين، ولايختلف عنها في شيءٍ». أصرّ سميرٌ الذي كان يطلب من الكبار الدقّة التامّة على هذا القول. وقد أخبرنا آخر الأمر بأنّ مشكلة حميد هي الغضب، فبدل أن يخبر الناس بما يريده، يأخذ بالزعيق، وكانت النتيجة كارثيّةً؛ فلم يعد أحدٌ راغباً بالتحدّث معه، وبما أنّه كان يُصاب بالإرهاق الشديد حين يتوقّف عن صراخه، فإنّه يأوي إلى فراشه في ساعةٍ مبكّرةٍ جدّاً». وكانت فكرة انقضاض الغضب عليّ من الداخل ترعبني ممّا جعل مينا

(*) في الأصل Khrejlu' aqlu .

تنفجر مقهقهةً، وذلك كان نادر الحدوث: «أنتِ سوف تكونين سعيدة لأنك تبسّطين الأمور كلها؛ فأنت تتحدثين عن السعادة والغضب والتعس والمستقبل، كأنّ القضيّة هي قضيّة سباكةٍ أو فتح مغسلةٍ مسدودةٍ أو تصليح تسرُّب أو رشحٍ مائيٍّ ما. لا أدري كيف يستطيع المرء تفريغ شحنة غضبه دون زعيقٍ، وما أعرفه هو أنّ الرقص بهدوءٍ مع الإصغاء إلى إيقاعٍ بديعٍ، يُساعد على تجاوز هذا الغضب. على أيّة حالٍ، إنّ الغضب يختبئ في العضلات لذلك لابدّ من القيام بشيءٍ ما في صدد الجسد والساقين والذراعين والعنق».

وفقاً للأسطورة، يُفترض أن تتألّف جوقة رجال *«الحضرة»* الموسيقيّة بأكملها من السود القادمين من أقصى أصقاع «الصحراء»(*)، من بلدانٍ أجنبيّةٍ وبعيدةٍ. كان أولئك الموسيقيّون يجيئون من أمبراطوريّةٍ عجيبةٍ تُدعى غناوا (غانا) تمتدّ إلى ما وراء «الصحراء»، وإلى ما وراء الأنهر في أقاصي الجنوب، وفي قلب السودان، وحين صعدوا إلى الشمال جلبوا معهم عدّةً كاملةً من الأناشيد، كما جاؤوا بإيقاعاتهم الفتّانة. كانت مَرّاكش مدينتهم المفضّلة. وهي البوابة المفتوحة علىالصحراء، ومَرّاكش التي تُعرف أيضاً باسم «الحمرا» أي المدينة ذات الجدران الحمراء تختلف كلّ الاختلاف عن فاس؛ فهي مدينةٌ سكّانها قلقوّ البال يتّخذون حيطتهم باستمرار، ويحرصون على التخطيط لكلّ شيءٍ؛ كي يتجنّبوا حدوث المفاجآت. أمّا فاس فهي متموقعةٌ قريبةٌ جداً من الحدود المسيحية والمتوسّطيّة، وتعصف بها رياح الشتاء الباردة؛ في حين إنّ مرّاكش ـ على الطرف النقيض ـ تناغمٌ عميقٌ يجمع بين رموز الجماليّات الأريجيّة الأفريقية. لقد كنّا نسمع دوماً قصصاً رائعةً عنها. وقلةٌ قليلة جداً من المقيمين في الفناء هم الذين سبق لهم أن زارو

(*) الصحراء Sahara. أشرنا إليها سابقاً، ولكن المقصود بها في هذا الموقع الصحراء أو الصحراء الكبرى الواقعة في شمال أفريقيا، وهي أوسع صحارى العالم، وتمتدّ بين الأطلسي والبحر الأحمر. وتتقاسمها المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر، وتشمل موريتانيا والصحراء الغربية والصحراء الجزائرية، وغيرها...

مَرّاكش؛ لكنَّ كلَّ فردٍ من المقيمين كان يعرف ـ على وجه العموم ـ بعض التفاصيل السرّيّة عنها.

جدران مرّاكش حمراء كالنار، وكذلك هي أرضها التي يُمشى عليها. أمّا في فاس فإنّكم تكونون في غاية السعادة حين لاتسيرون في الطين. ومرّاكش حارّةٌ كالجمر، لكنّها محاطةٌ دوماً بالثلوج المنتشرة على مقربةٍ منها، والمتلألئة فوق جبال الأطلس. وجبال الأطلس التي تمتدّ على عدّة بلدانٍ لاتتفتّح وتزدهر إلّا في مَرّاكش؛ وفي الأساطير القديمة كان «أطلس» إلهاً إغريقيّاً يعيش بطمأنينةٍ مع السكّان المتوسّطيّين جميعهم. لقد كان جبّاراً يقاتل الجبابرة الآخرين، وذات يوم هُزِم في معركةٍ حاسمةٍ؛ فالتجأ وقتَها إلى الشواطئ الأفريقيّة ليختبئ هناك، وتمدّد لينام، فوضع رأسه في تونس، ومدّ ساقية حتّى بلغتا مَرّاكش، وقد وجد سريره رائعاً جدّاً، حتّى أنّه لم ينهض بعدئذٍ قطّ، وتحوّل إلى جبلٍ. في كلِّ سنةٍ يزور الثلج «أطلس» على مدى أشهرٍ؛ فيبدو مسروراً جدّاً بقدميه العالقتين في شرك الصحراء، ومن سجنه المَلَكيّ يتألّق بثلوجه كلّها في عيون معجبيه.

مَرّاكش هي المدينة التي تلتقي فيها أساطير شعوب العرقين الأبيض والأسود، وتختلط ببعضها. وهي المدينة التي تتشابك فيها اللغات، وتندمج الأديان وتكيل قواها تحت وطأة صمت الرمال السرمديّ. ومَرّاكش هي ذلك المكان المضطرب الذي يكتشف فيها حجّاج الأديان كلّها ـ على حين غرّة ـ أنّ الجسد إلهٌ، وأنّ سائر الأمور الأخرى بما فيها الروح (وتحديداً العقل بكهنته المتسلّطين وجلّاديه القساة) لا قيمة لها حين تُدقُّ الطبول. وفي مَرّاكش ـ كما يقول المسافرون ـ يرقص الناس وقت تحُول لغاتهم المختلفة دون تواصلهم. كنت أحبّ فكرة وجود مدينةٍ تشرع بالاهتزاز مذ تصبح الكلمات عائقاً يقف في وجه التواصل؛ وكنت أقول لنفسي: هذا ماكان يحدث في فناء سيدي بلال حين كانت النسوة ـ اللائي يستقين

قوّة متجدّدةً من نبع الحضارات القديمة المنسيّة ـ يعبّرن بالرقص عن كلّ رغباتهن المتعذّر كبتها.

كان الجانّ القادمون من أراضٍ بعيدةٍ مجهولةٍ يستحوذون على الأجساد؛ ويشرعون يتكلّمون معها بلغةٍ مألوفةٍ. وأحياناً كان يُلحظ موسيقيٌّ أبيض في جوقة سيدي بلال؛ فكانت السيّدات الطيّبات اللائي موّلنَ الحفل يشتكين عندئذٍ: «كيف يمكن لأحدٍ ما أن يعزف الموسيقا الغانيّة(*)، وينشد أغاني غانيّةً أصيلةً، إذا كان أبيض كقرص أسبيرين؟». كنّ يطلقن شكواهن هذه صارخاتٍ، وقد استشطن غضباً لرؤيتهن هذا الخطأ الفادح. فيجهد سيدي بلال ليشرح لهنّ أنّ المرء حتّى إذا كان أبيض فهو يستطيع أن يتشبّع بالتراث الحضاريّ الغانيّ، وأن يتعلّم موسيقا تلك الحضارة وأغانيها، بيد أنّ أولاء النسوة كنّ عنيداتٍ؛ فعلى الجوقة بأكملها أن تتألّف من السود، وعلى أولئك السود أن يتكلّموا العربية بلُثْغَةٍ أعجميّةٍ، وإلّا فكيف لنا أن نعرف أنّهم ليسوا من المغاربة العوام الذين تعلّموا الضرب على الدفوف، والذين يفوقون قرنائهم سمرةً بقليلٍ. فبعد مرور قرونٍ من التبادلات التجارية عبر الصحراء كان هناك بعض الفاسيّين سود البشرة كالسنغاليّين؛ لكن متى يفتحوا أفواههم بحرفٍ، يُكشف أمرهم؛ فهم يلفظون الراء بطريقةٍ رخوةٍ تقضي على أيّة شكوكٍ حول أصولهم، فتتلاشى كلُّ جاذبيّةٍ قد يؤمّنها لهم وضعهم كأجانب. على أيّة حالٍ لم يكن المغاربة السود مناسبين؛ فإن تمكّنوا من خداع النسوة فلن يتمكّنوا من خداع الجنّ، ولم يكن ليُصار إلى تحقيق الهدف المنشود من الحفل؛ فقد كان ذلك الطقس مُقاماً للتحدث مع الجانّ بلغتهم السرّية. أليس الرقص قفزةً في عالم مجهولٍ؟. وفي جميع الأحوال كانت النسوة يفضّلن الجوقة الغانيّة الأصيلة؛ فهن لم يكنّ يحبّذن فكرة أن يطلق مواطنوّ المدينة العوام نظراتٍ شهوانيّةً

(*) نسبةً إلى غانا.

نحوهنّ، بينما ينغمسن في رقصهن؛ وكنّ يُفضّلن أن يقمن بعروضهن تلك أمام الغرباء الذين يجهلون كلَّ شيءٍ عن قوانين وأعراف المدينة. وكان يُسعد الجميع ألّا يتفوّه أيٌّ من أعضاء فرقة سيدي بلال بأيّة كلمةٍ بعد انتهائهم من العزف.

فيما عدا الاحتفال السنوي عند سيدي بلال، كانت حياة مينا تجري بصورةٍ اعتياديّةٍ دون أيّ شيء يذكر في معظم الوقت. وكانت تشترك بحجرةٍ صغيرةٍ جداً في الطابق الأخير مع ثلاث أمَوَاتٍ عجائز أخرياتٍ هن: دادا سعادة ودادا رحمة ودادا عايشاتا، وقد عِشْنَ جميعهن في البيت قبل أن تأتي أمّ سميرٍ وأمي إليه بزمنٍ بعيدٍ. وكما هو حال مينا، لم تكن هناك علاقةٌ واضحةٌ تربطهن بالعائلة؛ فقد كنّ في البيت ساعة صدور قرار إلغاء العبوديّة الذي سنّه الفرنسيون. كانت مينا تقول: «لم تنته العبوديّة تماماً إلا حين أتاح الفرنسيون للعبيد التوجّه إلى المحاكم لاستعادة حرّيّاتهم، وحين عُوقب تجّار العبيد بالسجن أو بدفع الغرامة؛ إذ لايتوقّف العنف إلّا وقتَ تأخذ العدالة مجراها»[1]. غير أنّ الكثيرات من الأَمَوَات كنّ إثر تحرّرهن ضعيفاتٍ جدّاً ليقاتلن، وخجولاتٍ جدّاً ليُغوين أو يحتججن، وفقيراتٍ جدّاً ليرجعن إلى أوطانهنّ؛ أو كنّ آنذاك غير واثقاتٍ بتاتاً من الاستقبال الذي سيحظين به في بلادهن. وكلّ ماكنّ يرغبن به ـ في الواقع ـ هو حجرةٌ هادئةٌ يستلقين فيها، حتّى تمرّ عليهن السنون، أي مكانٌ يتمكّن فيه من نسيان التعاقب العبثيّ للّيل والنهار، وهنّ يحلمن بعالمٍ أفضل تكون فيه النسوة بمنأىً عن العنف.

بينما كانت دادا سعادة ودادا رحمة ودادا عايشاتا ـ ومعظم نساء العائلة اللواتي يُقمن في الطابق الأخير ـ لايخرجن من حُجَرِهن مطلقاً، لم تكن مينا تشعر بالسعادة إلّا حين تكون على السطح. ونظراً لأنّها لم تكن عمليّاً تتكلّم على الإطلاق إلّا معنا نحن الأطفال، ولأنّها لم تكن تفشي أيّ سرٍّ؛ فقد كان حضورها على السطح لايزعج أحداً، سواءٌ الشبّان الذين كانوا يتسلّلون إلى السطح خفيةً سعياً منهم

لاستراق النظر إلى فتيات الجوار؛ أو النسوة اللواتي كنّ يصعدن إليه لإشعال الشمعات العسليّة، أو لما هو أدهى من ذلك أي الاستمتاع بتدخين السجائر الأمريكيّة النادرة والفاخرة والمختلسة من جيوب زينٍ أو جوادٍ؛ أو الأطفال الذين يلعبون لعبة «الغُمَّيْضَة» بين جرار الزيتون وداخلها.

كان الاختباء داخل هذه الجرار يشكّل بالنسبة إليّ متعةً سرّيّةً غايةً في الخصوصيّة، وإغراءً مَرَضياً يفاجئ الجميع ويؤدّي إلى عقد اجتماعٍ طارئٍ على أعلى المستويات لمجلس العائلة الذي أمثل أمامه. وكنت أحرص على ألّا أبوح بأيّ شيءٍ، حين تتقمّص لالا ماني دور الرئيس، وتسألني عن سبب ابتلائي بتلك الحاجَةِ المُفسِدة والمتمثّلة بدفن نفسي في تلك الآنية الضخمة الفارغة. لم أكن أتفوّه بكلمةٍ عن قصّة اختطاف مينا؛ لأنّ ذلك قد يسبّب الضيق لها. كانت مينا تتفاهم بصورةٍ عجيبةٍ مع جميع الأطفال، إلى حدّ أنّ الأمّهات كنّ يذهبن لطلب عونها حين يكابدن الصعوبات في التواصل مع ذرّيّتهن. كنت أحبّها كثيراً، ولم أكن أرغب في أن أسبّب لها أيّ ضيقٍ أو إزعاج، خاصّةً وأنّها قد عانت الكثير في صغرها.

ذات يوم اختُطفت مينا، حيث ابتعدت وقتها أكثر بقليلٍ ممّا تبتعد عادةً عن منزل والديها؛ فأمسكت بها يدٌ ضخمةٌ، ثم وجدت نفسها على الطريق بصحبة أطفالٍ آخرين وتحت تهديد سكاكين يستلّها رجالٌ متوحّشون. وللأسف كانت مينا تذكر تماماً كيف جرت الأمور. كان الخاطفون يحتفظون بها وبسائر الأطفال مخبّئين بعيداً عن الأنظار في النهار؛ ويسافرون بهم في الليل بعد مغيب الشمس. بعد أن اجتازوا الغابة المألوفة لها، والتي كانت تحبّها كثيراً، تابعوا المسير باتّجاه الشمال، وسرعان ما اختفت الخُضرة، وحلّت محلّها الكثبان والرمال البيضاء. وعلى حدّ ما تقوله مينا: «إن لم تروا «الصحراء» من قبل؛ فلا يمكنكم تصوّرها، إذ يتبيّن لكم لحظة ترونها إلى أيّ حدٍّ تبلغ قدرة الله. من الجليّ أنه لايحتاج إلينا!. إنّ

الحياة الإنسانيّة لعديمة القيمة في الصحراء؛ فليس هناك سوى الكثبان والنجوم، وتفقد معاناة طفلةٍ صغيرةٍ كلَّ أهميّةٍ، ولكنّني قد أدركت وأنا أجتاز الصحراء أنّ في داخلي طفلةً صغيرةً أخرى، كانت طفلةً قويّةً وعازمةً على البقاء والصمود. لقد أصبحت مينا مختلفةً عن سابقتها، وأدركتُ أنّ العالم بأسره كان ضدّي، وأنني لا أستطيع أن أتوقّع أيّ خيرٍ يجيء من خارج إطاري الذاتي». بعدئذٍ استُبدل خاطفوها السود الذين يتكلّمون لغتها الأم، برجالٍ آخرين ذوي بشرةٍ أفتح ويتكلّمون لغةً لاتفهمها[2]. وكانت مينا تقول: «كنت أعتقد قبل ذاك أنّ العالم كلَّه يتكلّم لهجتنا المحلّيّة».

كان الفريق يسافر بصمتٍ في الليل، وكانوا يحلّون في أماكن محدّدةٍ ومتَّفقٌ عليها كما يبدو؛ حيث كان أصدقاء المختطِفين يقدّمون لهم الطعام، ويخبّئونهم حتّى مطلع النهار. ويشرعون بالمسير وقت تغرق الرمال في الظلمة حيث لايمكن أن يصادفوا أيّاً كان؛ وكان عليهم تجنّب المراكزالعسكريّة الفرنسيّة ـ المنتشرة هنا وهناك ـ بأيّ شكلٍ من الأشكال؛ فقد أصبحت آنذاك تجارة العبيد ـ رسمياً ـ غير قانونيّةٍ، بعد صدور القانون القاضي بمنعها. وفي أحد الأيام اجتازوا نهراً، فاعتقدت مينا ـ لسببٍ لاتفسير له ـ أنّها تبصر في الأفق غابتها الحبيبة، وسألت فتاةً صغيرةً أخرى من قريتها مختطفةً معها هل ترى الغابة هي أيضاً، فأشارت لها برأسها: نعم. وقد ظنّت الاثنتان أنّ خاطفيهما قد ضلّوا الطريق بسحر ساحرٍ، وعادوا إلى قريتهما، أو أنّ قريتهما هي القادمة نحوهما، لافرق. وفي تلك الليلة حاولت البنتان الهرب، لكن بعد بضع ساعاتٍ أُلقي القبض عليهما. تقول مينا: «يجب أخذ الحيطة والحذر في الحياة من أن تتراءى للمرء أحلامه واقعاً. هذا ما فعلناه وقد دفعنا الثمن غالياً». حين كانت مينا تصل إلى هذه النقطة من القصّة كان صوتها يرتجف، وكانت علائم الضيق ترتسم على وجوه المحيطين بها جميعهم، ويأخذ بعضهم بالبكاء خاصّةً عندما كانت

تخوض في التفاصيل: «لقد فكّوا الدلو من الحبل المربوط به، وقالوا لي إنّني إن أردت المحافظة على حياتي؛ فيجب عليّ التمسّك بطرف هذا الحبل، والتكوُّر بصمتٍ، بينما ينزلونني في البئر الأسود المريع. وأفظع ما في الأمر هو أنّني لم أكن قادرةً حتّى على الارتجاف؛ إذ إنّ الحبل قد يفلت من أصابعي وأموت». هنا، كانت مينا تتوقّف عن الكلام، وتنتحب انتحاباً رقيقاً، ثمّ تجفّف دموعها، وتتابع حديثها. فيما كان المستمعون يبكون محاولين إخفاء دموعهم: «إنّني أبكي الآن بسبب الغضب الذي مايزال كامناً في دواخلي، والناجم عن أنّهم لم يتركوا لي الفرصة حتّى للشعور بالخوف. كنت أعرف أنّني سأصل قريباً إلى المنطقة الأكثر عمقاً والأكثر ظلمة من البئر حيث كان الماء؛ لكن كان يتوجّب عليّ أن أقهر رُعبي. كان عليّ حتماً وقطعاً أن أقهره، وإلا كنت سأفلت الممسك الذي أتعلّق به. تابعتُ التفكير في الحبل وأصابعي وكانت إلى جانبي بنتٌ صغيرةٌ أخرى. مينا أخرى تكاد تموت من شدّة الخوف لحظةَ بدأ جسدها بالغوص في الماء المجمّد المليء بالأفاعي والحيوانات الصغيرة اللزجة؛ لكن كان عليّ أن أنفصل عنها مهما كلّف الأمر، وأن أحصر تركيزي على الحبل. عندما شدّوني إلى خارج البئر بقيت عمياء لعدّة أيّام؛ ليس لأنّ عينيّ فقدتا القدرة على الرؤية، بل لأنّني لم أعد راغبةً فيّ رؤية العالم الذي يحيط بي».

كانت حكايات الخطف الذي يقوم به النخّاسون شائعةً جدّاً في كتاب *«ألف ليلة وليلة»*؛ حيث كانت الكثيرات من البطلات يبدأن حياتهنّ كأميراتٍ، قبل أن يُختطفن، ويُبعن كجارياتٍ وقتَ يُهاجم قُطّاع الطرق القافلة المَلَكيّة المتجّهة إلى مكّة بقصد الحجّ[3]. بيد أنّ أيّاً من هذه الحكايات لم يكن لها ذلك التأثير الذي أثّرته بي قصّة مينا ونزولها إلى البئر؛ فعندما استمعت إليها للمرّة الأولى وقعت أسيرة الكوابيس، لكنّني لم أخبر أمّي عمّا روّعني حين أتت تقبّلني لتطمئنني وتصحبني معها إلى سريرها. لقد ضمّني أبي وأمي إليهما

وحاولا أن يعرفا لماذا لم أكن قادرةً على النوم؛ لكنّني لم أحدّثهما قطّ عن البئر خوفاً من أن يمنعاني من الاستماع إلى قصّة مينا؛ وكنت بحاجةٍ لأن أستمع إليها أكثر من مرّةٍ كي أكون قادرةً أنا أيضاً على اجتياز الصحراء والوصول إلى سطح بيتنا. كان عليّ حتماً أن أصغي إلى مينا؛ لأنّني كنت أريد معرفة التفاصيل كلها، وكنت بحاجةٍ لأن أعرف المزيد عنها، وأن أعرف خاصّةً كيف يُمكن الخروج من البئر. كان أهل البيت جميعهم غير متّفقين على ما يمكن أن يُقال أمام الأطفال، وكان الكثير من أفراد العائلة كلالا ماني يعتقدون أنّ إصغاء الأطفال إلى قصص العنف لأمرٌ كارثيٌّ. أمّا بعضهم الآخر فعلى العكس من ذلك كان يرى أنّ من المفيد لهم أن يصغوا إلى تلك القصص في سنٍّ مبكّرةٍ قدر الإمكان؛ وأنّ من الأساسي تعليم الطفلِ أن يحمي نفسه، وأن يهرب ويتجنّب الخوف لألّا يشلّ حركته.

لقد كانت مينا مؤيّدةً لهذا الرأي: «لقد بيّن لي النزول إلى ذلك البئر ـ أنّكم حين تواجهون محنةً ما يجب عليكم أن تستدعوا كلّ طاقتكم للتصدّي لها؛ عندئذٍ يتحوّل الغور أوالثقب الأسود إلى مِقْفَزٍ تستطيعون أن تثبوا منه لتصلوا إلى الغيوم. هل تدركون ماأعنيه؟».
نعم مينا إنّني أفهم ما تعنين. إنّني أفهمه تماماً. يكفيني أن أتعلّم القفز عالياً حتّى أصل إلى الغيوم، وسوف أتعلّم القفز عالياً حتى أصل إلى الغيوم، وسوف أتعلّم فعل ذلك وأنا أنزلق في جرار الزيتون الضخمة. سوف أدرّب نفسي كي أكون مستعدّةً لمواجهة الأهوال المستقبليّة. سوف أتعلّم أن أتألّق كما تتألّقين ـ رغم كلّ شيءٍ ـ وأنت تسندين ظهرك إلى الجدار الغربي قبالة مكّة، وتفيضين «*بالحنان*». لقد قلت لها ذات يوم: «أنا واثقةٌ من أنّ مكّة على اطّلاعٍ بقصّة البئر والخاطفين أليس كذلك يا مينا؟. لابدّ أنّ اللّه قد عاقبَ أولئك الذين آذوك. هذا أمرٌ مؤكّدٌ ولاداعي لأن أشعر بالخوف بعد الآن أبداً. أصحيحٌ يا مينا؟». كانت مينا متفائلةً جداً؛ فقالت لي: لا،

لم يَعُد هناك أيُّ سببٍ لتشعري بالخوف. «إنّ الحياة تتحسّن بالنسبة للنساء في الوقت الحاضر. انظري إلى الوطنيين كيف يطالبون بحقّ التعليم لهن وبإنهاء عزلتهن. إنّ مشكلة النساء اليوم تكمن في أنهنّ عاجزاتٌ تماماً، والعجز يأتي من الجهل ونقص التعليم. أنت ستكونين قويّةً. أنا واثقةٌ من هذا. سوف أتألّم كثيراً إن لم تصبحي كذلك. ليس عليك سوى أن تتشبّثي برقعة السماء التي تعلو البئر؛ فهناك دوماً قطعةٌ صغيرةٌ من السماء يمكن لك أن تثبّتي ناظريك عليها. إذاً لاتخفضي عينيك أبداً، وانظري دائماً إلى الأعلى... إلى أعلى الأعالي، وانطلقي!. وسوف يكون لديك جناحان!».

بعد أن أقنعت مينا بأن تروي لي مراراً وتكراراً كيف استطاعت أن تخرج من البئر، وبعد أن رحت أتسلّل إلى جرار الزيتون الكبيرة بانتظام، تمكّنتُ من نسيان خوفي، وتوقّفتْ كوابيسي، واكتشفت أنّني أملك قدرةً سحريّةً؛ إذ يكفيني أن أثبّت نظري على السماء - إلى أعلى ما يمكن منها - حتّى يصبح كلُّ شيءٍ على مايرام. فالفتيات الصغيرات رغم صغر حجومهن قادراتٌ على أن يباغتن الوحوش، وماكان يفتنني في قصّة مينا - في الواقع - هو المفاجأة التي وجّهتها إلى خاطفيها؛ فقد كانوا يتوقّعون أن تصرخ، لكنها لم تفتح فمها. كنت أجد في ذلك مهارةً كبرى. لقد قلت لمينا إنّني سأكون - أنا أيضاً - قادرةً على مواجهة وحشٍ إن تعرّضتُ لشيءٍ مماثلٍ؛ فقالت لي: نعم، لكن عليك أوّلاً أن تعرفي ذلك الوحش جيّداً. فهي راقبتْ خاطفيها طيلة نهاراتٍ كاملةٍ، لأنّ رحلتهم قد دامت أسابيع عدّةً. وكانت مينا تقول: إنّ للمرء خيارين حين يقع في شركٍ ما، إمّا أن يصرخ وينظر إلى الأسفل، وهذا ما يُسعد الوحش، وإمّا النظر نحو الأعلى، وهذا ما يباغت الوحش. فإن يُرِدِ المرء إسعاد الوحش، ينظر إلى الأسفل، ويفكّر بكلّ الأفاعي والمخلوقات الدبقة المتأهبّة للانقضاض عليه والتي تعجّ المياه بها. أو على العكس من ذلك، إن يُرِدْ أن يغلب الوحش، يثبّت عينيه في الأعالي على قطعة السماء

الصغيرة، ويحرص على ألّا يصدر عنه أيُّ صوتٍ، وعندئذٍ فإنّ الجلّاد المُعذِّب ـ الذي ينظر إليكم من الأعلى ـ يرى عيونكم ويصاب بالخوف. «سوف يظنّ أنّ هناك جنّيّاً من الجانّ، أو يخالكم نجوماً مشعّةً في عمق الظلام الدامس». لن أنسى مينا أبداً. تلك المخلوقة الصغيرة المُراعة والضائعة بين الرمال والواقعة تحت قبضة أغرابٍ عدائيّين، والتي تتحوّل إلى نجمتين مشعتين. لقد لازمتني هذه الرؤية وماتزال تلازمني حتّى الآن. وفي كلّ مرّةٍ أجد فيها الهدوء والقدرة علىالتأمّل اللازمين كي أتمثّل تلك الصورة أمام ناظري؛ كنت أحسّ بالطاقة والأمل يتجدّدان في نفسي، لكن كان عليّ أوّلاً أن أتدرّب على الخروج من البئر، وقد كانت لعبتي المفضّلة لفترة من الزمن هي القفز إلى الغور الأسود لجرّة زيتونٍ كبيرةٍ فارغةٍ؛ ولم يَعُد بإمكاني ممارستها مذ رآني أحد الأشخاص الكبار وهو يمرّ في الأنحية المجاورة؛ كما لم يعد بإمكاني ذلك لأنّ سميراً وجد تلك اللعبة خطرةً للغاية. كنت سعيدةً جدّاً حين كانت مينا تساعدني على الخروج من البئر، حتّى أنّني جعلت من هذه اللعبة هاجساً حقيقيّاً بالنسبة إليّ.

برفقة الأطفال الآخرين كنّا نستعمل الجرار للّعب بلعبة «الغُمَّيْضَة» حيث نختبئ وراء هذه الجرار. وحين نلعب لعبة الخوف كنّا ننزلق إلى داخلها. لكنّكم تتعرّضون لخطر البقاء محتجزين فيها، ويجب عندئذٍ أن يأتي شخصٌ كبيرٌ لمساعدتكم على الخروج. وكانت مينا ـ التي تعيش عمليّاً على السطح وظهرها باتّجاه الجدار الغربي ـ تراقبنا ونحن نلعب دون أن تقول شيئاً، منتظرةً حلول الكارثة؛ ولحظة تسمعنا نصرخ طلباً للنجدة، كانت تنهض وتلقي نظرةً إلى عمق الجرّة، وتخاطب أحدنا: «أنت لاتستطيع إذاً أن تنتظر الخوف ليأتي وحده؟. هل يجب عليك أن تجري إليه؟!. اهدأ الآن. سوف أُخرجك من هنا». وكنّا عندئذٍ لاحيلة لنا سوى الاسترخاء ومحاولة التنفّس بصورةٍ طبيعيّةٍ، مثبّتين أنظارنا صوب

دائرة الضوء الزرقاء الصغيرة الواقعة في الأعالي. وبعد قليلٍ كنّا نسمع صوت خطواتٍ على السطح، وصوت مينا هامسةً بتعليماتها إلى دادا سعادة ودادا رحمة ودادا عايشاتا، ثمّ كان يحدث شيءٌ أشبه بهزّةٍ أرضيّةٍ خفيفةٍ، حيث تميل الجرّة وتأخذ وضعاً أفقيّاً، ولايبقى أمامنا سوى الخروج ونحن نَدُبّ على قوائمنا الأربع. وفي كلّ مرّةٍ تهبّ فيها مينا لنجدتي، كنت أقفز وأطوّق عنقها بحماسةٍ كي أقبّلها؛ فتقول لي: لاتضمّيني بقوة. سوف تُفسدين ترتيب «*رومّيتي*» (أي العمرة أو الكوفيّة). «ماذا كان سيحدث لو كنتُ في الحمّام، أو غارقةً في صلواتي؟ ها؟». عندها كنت أدفن رأسي في عنقها، وأقسم ألّا أختبئ أبداً في الجرار مرّةً ثانيةً. ووقت تلين ويهدأ مزاجها، كانت تدعني ألعب بطرفيّ «*رومّيتها*»، وكنت أجازف فأسألها أن تُسدي لي معروفاً: «مينا، هل أستطيع أن أجلس على ركبتيك وأصغى إليك تقصّين عليّ كيف خرجت من البئر؟».

ـ «لكنّني رويت لك هذه القصّة مئات المرّات!. ما بك؟ أنت تعرفين ما هو أساسيٌّ: إنّ بنتاً صغيرةً، مهما تكن صغيرةً، فهي تمتلك القدر الكافي من الطاقة كي تتحدّى مُعذِّبيها، وكي تكون صبورةً وشجاعةً، وكي لاتضيّع وقتها في الارتجاف والبكاء. قلت لك إنّ الخاطف كان يتوقّع أن يراني أبكي وأصرخ، لكنّه حين لم يسمع شيئاً، ورأى نجمتين مشعّتين تتوجّهان إليه، أخرجني مباشرةً من البئر. لكنّك تعرفين مسبقاً كلَّ هذا!». فأقسمت لها إنّ تلك هي المرّة الأخيرة التي أطلب منها أن تحكي لي هذه القصّة، وإنّني لن أعود أبداً للّعب في الجرار.

حتّى المرّة المقبلة.



18

سجائر أمريكية

لم تكن لعبة «الغُمَّيْضَة» النشاط المحظور الوحيد الذي كان يُمارس على السطح؛ فقد كانت النسوة الراشدات يقترفن آثاماً أشدّ خطورة بكثير، كمضغ العلوك، أو وضع طلاء الأظافير، أو تدخين السجائر. كان ارتكاب تلك الجُنح نادراً نسبيّاً إذا أخذنا بعين الاعتبار صعوبة التزوّد بالمنتجات الأجنبيّة اللازمة لأمرٍ ما. لكن كانت هناك جنحٌ أكثر شيوعاً تقوم أولاء النسوة بارتكابها، كإشعال شموعٍ سحريّة بهدف زيادة الـ «*قَبُول*»، أي القدرة على الجذب والإغواء، أو فَرْقُ الشعر في تسريحةٍ مُعَدَّةٍ للتشبّه بالممثّلة الفرنسية كلوديت كولبير، أو تدبير تسلّلاتٍ إلى خارج المنزل للذهاب والمشاركة في اجتماعات الوطنيّين التي كانت تُعقد في دار مكوار بالقرب من بيتنا، أو للذهاب إلى جامع القرويّين. وبما أنّنا نحن الأطفال كنا نستطيع أن نسبّب كمّاً هائلاً من المضايقات لجميع المخالفين والمُخالِفات إذا أخبرنا أبي أو عمّي أو لالا ماني بما نعرفه؛ فقد كان التعامل معنا على السطح يتمّ بتساهلٍ شديدٍ. فمتى تسمح إحدى الراشدات ـ أو أحد الراشدين ـ لنفسها بمعارضتنا، نهدّدُ على الفور بإبلاغ السلطات، وكانت السلطات تعتمد علينا فعليّاً حينما ترتاب في أمرٍ يدعو إلى الشبهة، متّبعةً المبدأ القائل: «إنّ الحقيقة تخرج من أفواه الأطفال». بالتالي فقد كنّا نحظى بتعاملٍ

ينطوي على كثيرٍ من الودّ والمراعاة، من جهة الكبار الذين لاينعمون براحة البال؛ حيث كانوا يقدّمون لنا بسخاءٍ الكعك المحلّى والسكاكر، ولاسيّما «*الشّفينج*» (الفطائر)، من غير أن ينسوا تقديم الشاي لنا قبل الآخرين. كانت مينا تراقب كلّ هذا بصمتٍ، وتُكثر من صلواتها الدعائية من أجل راحة نفوس أفراد العائلة جميعهم. وكان يُجرح إحساسها تماماً وقتَ يصعد الشبّان إلى السطح ليلصلصوا على فتيات عائلة بنّيس؛ فقد كان هذا الفعل من وجهة نظرها إثماً عظيماً وانتهاكاً خطيراً «*للحدود*». صحيحٌ أنّ شبّان (وشابّات) كلّ عائلةٍ كانوا يلبثون في شرفاتهم الخاصّة، لكنّهم كانوا غالباً ينشدون أغنيات الحبّ لعبد الوهاب وفريد الأطرش وأسمهان بصوت عالٍ كي تصل إلى مسامع الجيران؛ وكانت شامة ترقص أيضاً، وكذلك كانت بنات آل بنّيس، خالقاتٍ بهذا لحظاتٍ عابرةً من السعادة، تتفتّح بَرَاعِمَ لحبّ المراهقة الربيعيّ، مُلوّنةً بالضياءات الرومانسيّة الأرجوانيّة لسويعات انسحاب الشمس هادئةً نحو مرقدها. وتبعاً لمينا، رديء الأمور هو نظرات الغرام الولهى المتبادلة بين الصبيان والبنات الذين لم يكونوا يكتفون بتبادل النظرات العاديّة من شرفةٍ إلى أخرى.

آنَ ترمقن رجلاً بنظرةٍ، وأنتنّ تغلقن عيونكن نصف إغلاقة فيطغى عليها الذبول، كأنّكن على وشك الغُفُوِّ... تلك هي نظرة الغرام. كانت شامة خبيرةً في هذا المجال خصوصاً، وقد تلقّت العديد من عروض الزواج تقدّم بها أبناء عائلات الوطنيّين، وذوو المستقبل الواعد، وآخرون استرعت انتباهم وقتَ كانت تنشد نشيد «*مغربنا وطننا*» في أثناء التظاهرات، وخلال الاحتفال الذي أقيم في مسجد القرويّين ساعةَ أطلق الفرنسيّون سراح السجناء السياسيّين. ونزولاً عند طلبي، وافقت مليكة أن تعلّمني فنّ نظرات الغرام مقابل نسبةٍ لابأس بها من حصّتي في قطع الكعك المحلّى والسكاكر و«*الشّفِنج*». وهي بالفعل بدأت بجذب انتباه عددٍ كبيرٍ من صبيان المدرسة القرآنية، وكنت لا أطيق صبراً لأن أعرف سرّها، وأخيراً وبعد جهدٍ

جهيدٍ قالت لي بغموضٍ ردّاً على أسئلتي اللَّجُوجَة: إنّها تطبّق مزيجاً من نظرات الغرام وتلاوةٍ ذهنيّةٍ لعبارة *«قَبُول»* مستمدّةٍ من أحد كتب *«الحكمة»*[1]. وهو يضمّ مجموعة من العبارات أو الوصفات السحريّة التي ترجع إلى القرون الوسطى، والتي يُفترض بها أن تضمن لكنّ الفوز بقلب رجل حياتكن. كان هذا كلّه يثير اهتمامي إلى أبعد حدٍّ، وقد حاولت أن أشرك سميراً في حماستي، بأن «استعرت» كتاباً من كتب شامة، لكنّه سرعان ما اشتكى من طول الوقت الذي أقضيه في حكايات الجمال والإغواء هذه، ممّا جعلنا نهمل ألعابنا كافّةً؛ عندها أدركت أنّ مليكة تمثّل لي الفرصة الوحيدة للتّزوّد بالمعلومات الضروريّة.

على السطح، كان الكبار يعاملونني وسميراً كأنّنا نجهل كلّ شيءٍ عن الحبّ وإنجاب الأطفال، وكانوا يعتقدون على الأرجح أنّنا لانعرف مدى أهميّة الجمال الظاهري لجذب حبّ الجنس الآخر. لقد أخبرتني مليكة مرّاتٍ عدّةً أنّ الحبّ بعيدٌ كلّ البعد عن كونه مسألةً بسيطةً، وكنت أصغي إليها بانتباهٍ فائقٍ وهي تحيطني علماً بكلّ الصعوبات وباحتمالات حدوثها؛ وأنا أتساءل هل هي تسعى لأن تبهرني كي ترفع السعر المبرم لصفقتنا أم لا؟. كانت تزعم أنّ إيقاع أحدٍ ما في الغرام ليس الخطوة الأصعب، بل إنّ أصعب ما في الأمر الحفاظ على ذلك الحبّ البكر لاحقاً؛ فللحبّ ـ على ما يبدو ـ أجنحةٌ، وهو يجيء ويغدو. عندها قرّرت تبسيط الأمور في تلك الحقبة، بأن أركّز على عمليّة الجذب الأوّلي، وأرجأت الاهتمام بمشكلة الاستمراريّة؛ إذ سيكون لديّ الوقت الكافي من أجل ذلك.

حتّى تغوي المرأة الرجل كان ينبغي عليها القيام بشيئين: الشيء الأوّل يستند إلى السحر: إذ يجب أن توقد شمعةً عند تمام البدر وتتلو رُقْيَةً تعرفها الصبايا كلّهن؛ أمّا الشيء الثاني فهو سلسلةٌ من العمليّات المعقّدة تستغرق وقتاً مديداً وتستمرّ استمرار الزمن: إذ ينبغي للمرأة أن تجمّل نفسها؛ وبذلك يترتّب عليها أن تولي عنايةً فائقةً لشعرها وبشرتها ويديها وساقيها و... آه!. أنا واثقة من أنّني

نسيت شيئاً ما. على أيّ حالٍ، لقد قالت لي العمّة حبيبة: لا داعي للعجلة؛ فسيكون لديّ متّسعٌ من الوقت لأتعلّم تقنيّات الجمال وفنون التزيُّن كلّها. وكنت أعرف مسبقاً ما يجب عليّ فعله كي أحظى بشَعرٍ جميلٍ؛ فقد صرّحت أمّي بأنّ شعري شنيعٌ ـ إذ كان أجعد وعصيّاً على التسريح ـ وبأنّه يتكبّب ككتلةٍ ضخمةٍ تُعتبر فائقة الحجم لفتاةٍ صغيرةٍ جميلةٍ. حتّى أنّ أمّي كانت تنقع أسبوعيّاً ـ في نصف فنجان من زيت الزيتون المغليّ ـ ورقتين أو ثلاثاً من ورق التبغ الأخضر، والمُبتاع بسعرٍ كاوٍ من جبال «الريف»، حيث تنتشر حقولٌ واسعةٌ من التبغ (وفي حال عدم توفّر الورق الأخضر، يمكن للتبغ المجفّف المعدّ للاستنشاق أن يفي بالغرض). بعد عمليّة النقع كانت تفصل شعري بصبرٍ إلى خُصلٍ متعدّدةٍ، وتُبلّلها بمزيج النقوع الواحدة تلو الأخرى. بعدها تلفّ الشعر كلّه وتربطه إلى أعلى رأسي؛ كي لاألوّث ملابسي. وكنت مضطرّةً إلى أخذ الحيطة قبل موعد الحمّام فلا أدنو كثيراً من أيِّ شخصٍ. ووقتَ يحين ذلك الموعد، كانت أمّي تُشبع الحنّاء بالماء الحارّ، ثمّ تفرك رأسي بها، وبعد حينٍ يُشطف كلّ ما على الشعر بالماء. كانت أمّي ترى أنّ لاخيراً يُرتجى من امرأةٍ لاتبذل جهداً للاعتناء بشعرها، وأنا كنت أريد لنفسي أن تكون خيّرة الجانب. كانت مرحلة الاغتسال في الحمّام هي المرحلة المفضّلة لدي؛ لأنّ الذهاب إلى الحمّام كان بالنسبة إليّ كالتغلغل إلى فُقّاعةٍ في البخار الضبابيّ الفاتر. كنت أستعير «*طاسة*»(*) أمّي التركيّةَ الفاخرةَ المصنوعة من المعدن المفضّض؛ وأجلس على كرسيّها السوريّ الخشبيّ المرصّع بالصدف، والذي استعارتْه من لالا ماني كي تبهر الحاضرات؛ ثمّ أغسل شعري مقلِّدةً حركات أمّي، حيث أجلس متربّعةً، وأبدأ بدلق الماء على رأسي كما تفعل النسوة المتكلّفات، لكن سرعان ماكانت الأمور تسوء؛ إذ تشرع جاراتي

(*) في الأصل Tassa. في العاميّة «طاسة» وهي إناءٌ للشرب. ويستخدم أيضاً في الاستحمام وغير ذلك. وأصل الكلمة في الفصحى «الطاس» جمعها «طاسات».

القريبات منّي بالصراخ: «*بِنْت مِيْن هَادِ لَعْجُوبَة*»(*) (ابنة مَنْ مَسْخَةُ الأرض هذه؟)، ويشتكين من أنّني أرشم الجميع بالحِنّاء التي ملأت عيونهنّ. عندها كنت أغادر مكاني، ونظرةٌ متعاليةٌ ترتسم على وجهي؛ لثقتي التامّة بأنّ جمالي يضاهي جمال الأمير بدور.

كنت أشعر بمتعةٍ لانظير لها في الذهاب إلى حمّام حيّنا، ببلاطه الرخاميّ الأبيض، وسقفه الزجاجيّ. حتّى أنّني قرّرت يوماً ـ وأنا أرشّ نفسي على سبيل التسلية ـ أن أجد وسيلةً حين أغدو كبيرةً توفّر لي حمّاماً قريباً منّي دوماً، كما توفّر لي سطحاً أيضاً. لقد كان الحمّام والسطح يمثّلان المظهرين الأكثر روعةً في حياة الحريم، حسب ما كانت تراه أمّي. إنّهما الشيئان الوحيدان اللذان تجب المحافظة عليهما. لقد كانت تريدني أن أدرس وأحصّل الشهادات العليا، وأصبح ذات مكانةٍ مرموقةٍ، وأيضاً أن أحظى ببيتٍ خاصٍّ بي، مؤلّفٍ من حمّامٍ في الطابق الأوّل، وشرفة سطحٍ في الطابق الثاني. وعندما سألتها أين سأعيش وأين سأنام، أجابتني: «على شرفة السطح يا عزيزتي!. سيكون لديك سقفٌ زجاجيٌّ متحرّك يمكنك استخدامه عندما تأوين إلى النوم، أو إذا كان الجوّ بارداً. فإذا استمرّ المسيحيّون في المضيّ قدماً باختراعاتهم الجديدة، فسوف يجدون حتماً ـ عندما تصبحين كبيرةً ـ طريقةً لبناء منازل ذات سقوفٍ متحرّكةٍ!». كلُّ شيءٍ كان يبدو ممكناً من الحريم: سوف تُقوّض الجدران، وتُبنى منازل لها سقوفٌ زجاجيّةٌ. كانت الحياة تقدّم خياراتٍ متنوّعةً لاحدّ لها. وكانت الأحلام الأوسع خيالاً تتجسّد على أرض الواقع، ونحن الأطفال كنّا المؤتَمَنِين عليها والجزعين والمشرقين بالأمل. من سيشهد ذاك العالم الجديد الذي سيخلو من الحدود.

لوقتٍ وجيزٍ، وعبر تلك الزاوية من الحريم، كنّا نحلم بأمورٍ

(*) في الأصل Bent men had la'jouba .

عاديّةٍ للغاية؛ فقد كنّا مشدودين جدّاً إلى الطعم اللذيذ للعلوك، ولم نحظ بفرصٍ كثيرةٍ لتذوّقها؛ فقد كان الكبار يحتفظون بها لأنفسهم، وكانت فرصتنا الوحيدة تتمثّل في أن نكون متورّطين في عمليّةٍ لاشرعيّةٍ: كأن تكون شامة في حاجةٍ إلينا لإحضار رسالةٍ من صديقتها وسيلة بنّيس. وقد كنت وسميرٌ على درايةٍ تامّةٍ بأنّ هذه الرسائل لم تكن في الواقع إلا رسائل من الشاذلي وهو أخو وسيلة. لقد كان الشاذلي عاشقاً لشامة، لكن كان يُفترض بنا أن نجهل ذلك الأمر. على كلٍّ كان أبي وعمّي لايحبّذان كثرة الرواح والمجيء بين البيتين؛ من جهةٍ لأنّ لآل بنّيس أبناء كثيرين، ومن جهةٍ أخرى لأنّ السيّدة بنّيس كانت تونسيّةً من أصلٍ تركيٍّ؛ بالتالي فهي بالغة الخطورة، فقد كانت تطبّق أفكار كمال أتاتورك[2] الثوريّة، وتتنزّه عارية الرأس في سيّارة زوجها الأولدزموبيل السوداء، وقد صبغت شعرها باللون الأشقر البلاتينيّ، وقصّته بشكلٍ يشابه تسريحة غريتا غاربو. وكان الجميع يقول: إنّها فعلاً ليست منّا. ليست من «المدينة». مع ذلك كانت ترتدي ـ وقتَ تخرج إلى المدينة القديمة ـ جلباباً وحجاباً وفق التقاليد. ويمكن القول في الواقع: إنّ السيّدة بنّيس كانت تعيش حياتين مختلفتين: واحدةٌ في المدينة الجديدة، أي في الحيّ الأوربيّ، حيث تتجوّل دون حجابٍ. وأخرى في «المدينة» التقليديّة. كانت فكرة الحياة المزدوجة هذه تثير فضول الجميع، وتجعل من السيّدة بنّيس امرأةً مشهورةً وكان يبدو أنّ العيش في عالمين لأكثر إثارةً للاهتمام من العيش في عالمٍ واحدٍ؛ فكيف لايمكن أن تجذبنا فكرة الانتقال من ثقافةٍ إلى أخرى، ومن شخصيّةٍ وعرفٍ ولغةٍ إلى شخصيّةٍ وعرفٍ ولغةٍ أُخَرَ؟. كانت أمّي تريدني أن أصبح كالأميرة عائشة ابنة ملكنا محمّد الخامس التي كانت تُلقي الخُطب بصورةٍ جيّدةٍ، سواءً بالعربيّة أو بالفرنسيّة. وترتدي قفاطين طويلةً أو فساتين قصيرةً على الطراز الفرنسي. في الواقع بالنسبة إلى الأطفال الذين كنّاهم مثلما هي بالنسبة إلى النساء أيضاً، كانت فكرة التنقّل بين حضارتين والارتجال بين لغتين خلّابةً كأنّها فتح

أبوابٍ سرّيّةٍ. لم يكن للرجال الرأي عينه!؛ فهم كانوا يجدون تلك الفكرة خطرةً، وبين الرجال لم يكن أبي - بوجهٍ خاصٍّ - يحبّ السيّدة بنّيس، مصرّحاً بأنّها تمضي وفي سهولةٍ فائقةٍ من تراثٍ حضاريٍّ إلى آخر دون أيِّ احترام «للحدود»؛ فتندفع شامة سائلةً: «وما الضير في ذلك؟»؛ فيجيبها: إنّ الحدود تصون الهويّة الحضاريّة، فإن تبدأ النساء العربيّات يحذون حذو قرائنهن الفرنسيّات، ويأخذن في ارتداء ملابس غير محتشمةٍ، وفي تدخين السجائر، والتجوّل كاشفاتٍ عن رؤوسهنّ؛ فلن يكون هناك سوى حضارةٍ واحدةٍ، أمّا حضارتنا فعليها السلام. فتحاججه شامة: «إذا كان هذا الأمر صحيحاً، فكيف يتجوّل أبناء عمومتي مُحاكين رودلف ڤالنتينو في كلِّ شيءٍ، وهم حليقوّ الشعور كالجنود الفرنسيّين، وما من أحدٍ يذكّركم بأنّ تراثنا الحضاري في سبيله إلى الانقراض؟»». ولم يكن أبي يجيب على هذا السؤال.

كان أبي - وهو الرجل الذرائعيّ (البراغماتي) جدّاً - على قناعةٍ بأنّ الخطر الأكبر الذي يتهدّدنا لايصدر عن الجنود الفرنسيين فقط، بل عن إعلاناتهم المعسولة أيضاً، والتي تمجّد لنا منتجاتٍ غير مؤذيةٍ ظاهريّاً. لقد شقّ حملةً صريحةً ضدّ العلوك الأمريكيّة وسجائر الـ «كول»، وبالنسبة إليه، كان تدخين سيجارةٍ واحدةٍ من هذه السجائر البيضاء الرفيعة، كفيلاً بمحق قرونٍ كاملةٍ من الحضارة العربيّة، وكان يقول: «يريد المسيحيّون أن يحوّلوا بيوتنا الإسلاميّة المحترمة إلى أسواقٍ تجاريّةٍ. إنّهم يبتغون جعلنا نشتري منتجاتهم الضارّة وعديمة النفع؛ لتحويلنا إلى أمّةٍ من الكائنات المجترّة. وبدل أن يتضرّع الناس ويصلّوا إلى الله، يلصقون تلك القاذروات بأفواههم من الصباح إلى المساء، ويرتدّون إلى عهد الطفولة، مثلهم مثل الأطفال الرضّع يحتاجون باستمرارٍ لأن تكون أفواههم ملآنة». كان أبي يصرّ كثيراً على إبراز الخطر الذي تمثّله السجائر - فهي حسب ما يقول أسوأ من طلقات البنادق الإسبانية أو الفرنسية - الأمر الذي يؤثّر فيّ لدرجة شعوري باستياءٍ كبيرٍ لأنّني

لأخبره بما يجري على السطح؛ فأنا لم أكن أريد أن أخون ثقته؛ فقد كان يحبّني حبّاً جمّاً، ويأمُل منّي الصدق دائماً. في الحقيقة، وفي معظم الأحايين، لم يكن هناك الكثير من السجائر في المنزل؛ لأنّ الحصول عليها كان أمراً في غاية الصعوبة؛ إذ لم يكن لدى النسوة أو الشبّان كثيرٌ من المال؛ ممّا كان يُخفّض مقدار مشترياتهم؛ فالرجال هم المتحكّمون بمشتريات البيت جميعها، أمّا نحن فكنّا نستهلك فقط، دون أن تكون لدينا أيّة قدرةٍ على الاختيار أو اتّخاذ القرار أو شراء أيّ شيءٍ كان؛ حتّى أنّ كلّ عمليّة شراءٍ ـ للسجائر أو غيرها ـ كانت تعني أنّ هناك استخداماً لاشرعيّاً للمال؛ ولهذا السبب كان والدي يحاول أن يوقع بالمسؤولين عن كلّ عمليّة تهريب. وتبعاً لقلّة المال، لم تكن حيازة علبة سجائر كاملةٍ أمراً اعتياديّاً، وكان الكبار (من الجنسين) يملكون سيجارةً أو اثنتين ـ في أغلب الأوقات ـ ويقتسمها خمسةٌ أو ستّةٌ منهم؛ وصراحةً لم تكن للكميّة الأهميّة الكبرى، إنّما الأهمّ كان ذلك الطقس التدخينيّ.

باديْ بدءٍ كانت توضع السيجارة في مِدْخنٍ(*) بأقصى طولٍ ممكنٍ، ثم يُمسَك المِدْخَن بين إصبعيْ السبّابة والوسطى، ويُسحب نَفَسٌ مع إغلاق العينينِ. وعند فتحهما من جديدٍ ينظر المدخِّن إلى السيجارة وكأنّها تجلٍّ سحريٌّ، ثمّ يمرّرها إلى الشخص الجالس بمحاذاته، والذي يمرّرها بدوره إلى الشخص التالي، وهكذا حتّى تكتمل الحلقة ويخرج كلّ فردٍ من أعضائها بحصّةٍ من أنفاس السيكارة... آه!... كنت سأنسى الصمت، فالعمليّة يجب أن تتمّ في صمتٍ مطبقٍ، وكأنّ المتعة تحيل أصحابها خُرْساً. كنت وسمير ومليكة نلهو أحياناً بمحاكاة الكبار، مستعيضين عن السيجارة بأحد العيدان، ولكن حتّى إن نجحنا في نسخ حركاتهم جميعها، لم نكن

(*) المِدْخَن: قصبة أو أنبوبة صغيرة لتدخين السجائر، وهي بطول الإصبع عادةً، ولها أنواع كثيرة. يسميها البعض «المَشْرَب»، ويطلق عليها البعض الآخر «المِبْسَم». وقد ارتأينا تسميتها بـ «المِدْخَن» اشتقاقاً من الفعل «دَخَّنَ».

نتمكّن قطّ من أن نقلّد صمتهم الذي كان بالنسبة إلينا الجزء الأصعب من ذلك الطقس.

لقد وصلت العلوك والسجائر إلينا بوساطة الأمريكيّين الذين رسوا بسفنهم على شواطئ الدار البيضاء(*) سنة 1942 . ورغم مُضيّ سنواتٍ على رحيلهم، مازال الناس يتحدّثون عنهم؛ لأنّ كلّ ما يخصّهم كان يشكّل لغزاً مبهماً بالنسبة إلينا؛ فهم وصلواإلى بلادنا من حيث لاندري، ودون أن يترقّب أحدٌ مجيئهم، وفاجؤوا الجميع خلال إقامتهم، فمن كانوا أولئك الجنود غريبّو الأطوار؟ ولماذا كانوا هنا؟. لم يكن لدى سميرٍ، ولا لديّ، ولا حتّى لدى مليكة، أيّة إجابةٍ على هذه الأحجية، والشيء الوحيد الذي كنّا متأكّدين منه هو أنّهم كانوا مسيحيّين؛ ولكنّهم يختلفون كلّ الاختلاف عن أولئك الذين كانوا يأتون باستمرارٍ من الشمال لتوجيه الضربات لنا. لم يكن الأمريكيّون يقطنون في الشمال، بل في جزيرةٍ بعيدةٍ في الغرب تُدعى أمريكا؛ ولهذا السبب جاؤوا على متن قاربٍ. لقد كانت الآراء متضاربةً بصدد تفسير كيفيّة وصولهم إلى تلك الجزيرة. في البداية رأى سميرٌ أنّهم كانوا على متن قاربٍ قرب الشواطئ الإسبانيّة، وجرفهم التيّار باتّجاه الطرف الآخر من المحيط. أمّا مليكة فقد زعمت أنّهم ذهبوا إلى تلك الجزيرة للبحث عن الذهب، لكنهم ضاعوا هناك، فقرّروا الاستقرار فيها. وفي جميع الأحوال، لم يكن الأمريكيّون قادرين على التنقّل مشياً على الأقدام، وكانوا مضطّرين إلى السفر بوساطة السفن أو الطائرات، كلّما أصابهم الضجر، أو رغبوا في زيارة جيرانهم المسيحيين الإسبان أو الفرنسيّين. لكن لابدّ أنّ صلة القربى بين الأمريكيين وبينهم كانت بعيدةً بعض الشيء؛ فقد كان الإسبان والفرنسيّون قصار القامة ذوي شوارب،

(*) الدار البيضاء أو كازا بلانكا Casablanca: أعظم المراكز التجارية والصناعية في المغرب، وهي من أهم مرافئه على المحيط الأطلسي. ونظراً لشهرتها لم نجد ضرورةً للإسهاب في شرحها.

أمّا الأمريكيّون فكانوا طوال القامة ذوي عيونٍ زرقاء خلّابةٍ، وهم ـ كما وَصَفَهم مطرب الدار البيضاء الشعبي حسين سلاوي ـ روّعوا قسماً لابأس به من أهالي «المدينة» حين نزلوا فيها؛ بسبب أزيائهم العسكريّة التي يفوق عرضها عند المنكبين بمقدار مرّتين تلك الخاصّة بالفرنسيّين، ولأنّهم قد شرعوا مباشرةً بالجري وراء النساء. وقد أطلق حسين سلاوي على أغنيته عنوان: *«العَيْن الزَّرْقَا جانا بُكُل خِيْر»*(*) (أي: حمل إلينا الشبّان ذوو العيون الزرقاء الهدايا من كلّ نوعٍ). لكنّ العمّة حبيبة شرحت لنا أنّ ذلك من باب التهكّم؛ لأنّ رجال الدارِ البيضاء اضطربوا حقّاً إثر مجيء الأمريكيّين الذين لم يكونوا يجرون وراء النساء مذ يرونهن يخرجن من بيوتهن وحسب؛ بل كانوا يقدّمون لهن كمّاً هائلاً من الهدايا المُسمَّمة كالعلوك وحقائب اليد والمناديل والسجائر وحمرة الشفاه.

كان الجميع يقولون إنّ الأمريكيّين جاؤوا إلى المغرب ليحاربوا أعداء لهم، لكنّني وسميراً لم نكن نعرف من أولئك الأعداء. كان البعض يقول: إنّهم الألمان، أولاء المحاربون الذين كانوا يحقدون على الفرنسيّين؛ لأنّهم لايحبّون لون شعورهم. وعلى ما يبدو استدعى الفرنسيّون الأمريكيّين لنجدتهم ومساعدتهم على كسب الحرب أمام الألمان. لكنْ، المشكلة لم يكن في المغرب أيُّ ألمانيٍّ!. وقد أقسم سميرٌ ـ الذي كان يسافر غالباً مع عمّي وأبي ـ إنّه لم يلتق بألمانيٍّ واحدٍ في المملكة قاطبةً. في مطلق الأحوال، كان الجميع سعيداً؛ لأنّهم لم يأتوا لمحاربتنا. بل إنّ البعض كان يقول: الأمريكيّون لطفاءُ للغاية، حتّى أنّهم يقضون جلّ وقتهم في ممارسة الرياضة والسباحة ومضغ العلوك الأمريكيّة، وتوجيه عبارة «OK!» أوكيّه لجميع الناس. كانت الـ OK طريقتهم الخاصّة في إلقاء التحيّة وهي تعادل *«السلام عليكم»* عندنا. في الواقع كان هذان الحرفان

(*) في الأصل Al - Ain az - zarga jana b - kul khir.

على الأرجح الحرفين الأوّلين من كلمتين طويلتين؛ لكنّ الأمريكيّين معتادون على اختصار مجمل عباراتهم حتّى لايضيّعوا أدنى وقتٍ ممكنٍ قبل أن يعودوا لمضغ علوكهم. وذلك كأنّنا نتبادل التحيّة بإلقاء حرفيّ «س.ع» سريعاً عوضاً عن «*السلام عليكم*».

كان هناك أمرٌ مدهش بصدد الأمريكيّين، فقد كان معهم رجالٌ سودٌ؛ إذ كان هناك أمريكيّون ذوو عيونٍ زرقاء، وأمريكيّون سود البشرة. إنّه لأمرٌ مفاجئٌ، أليس كذلك؟؛ فأمريكا بعيدةٌ عن السودان قلب أفريقيا، ومكان السود الوحيد. كان حكم مينا قاطعاً في هذا الخصوص، وكان الجميع يوافقونها الرأي. فقد وهب الله السودَ بلداً واحداً كبيراً فيه أشجارٌ كثيفةٌ وأنهرٌ كبيرةٌ وبحيراتٌ رائعة؛ ويقع إلى الجنوب من الصحراء. إذاً من أين يأتي أولئك الأمريكيّون السود؟ وهل كان لدى الأمريكيين عبيدٌ في الماضي كما كان للعرب؟. حين طرحنا هذا السؤال على والدي أجابنا: نعم، بالفعل كان للأمريكيّين ـ كالعرب ـ عبيدٌ. إذاً كان أولئك السود حتماً أبناء عمومةٍ لمينا، وقد أُسر أجدادهم منذ زمنٍ بعيدٍ وسِيقوا على متن قوارب إلى أمريكا ليعملوا فيها ضمن مزارع كبرى. لكنّ الأمور تغيّرت في الوقت الحاضر ـ كما قال لنا أبي ـ فالأمريكيّون يستخدمون الآلات، وقد أُلغيت العبوديّة بصورةٍ نهائيّةٍ. لكنّنا رغم كلّ شيءٍ لم نفهم لماذا لم يختلط الأمريكيّون السود والأمريكيّون البيض ـ كما فعل العرب ـ فينتج عن هذا الاختلاط أناسٌ لهم بشرةٌ بنّيّةٌ؛ وهذا ما يحدث عادةً لدى الأعراق السود والبيض المتعايشين جنباً إلى جنبٍ؛ وقد سألَتْ مينا: «لماذا مايزال الأمريكيّون البيض بيضاً إلى هذا الحدّ، والأمريكيّون السود سوداً إلى هذا الحدّ، ألا يتزاوجون فيما بينهم؟». وعندما تمكّن زينٌ من الحصول على المعلومات اللازمة قال: إنّه بالفعل ليست هناك زيجاتٌ متبادلةٌ بين العرقين الأمريكيّين، بل على العكس إنّ الأمريكيّين يفصلون بين العرقين، وكلّ مدينةٌ من مدنهم مقسّمةٌ إلى مدينتين، مدينةٌ للسود وأخرى للبيض، كما هو الحال بين المسلمين واليهود في فاس.

لقد مزحنا ولهونا بهذا الموضوع ونحن على السطح، فمن يفكّر بفصل الناس في المغرب حسب ألوان بَشَرِهم يجد صعوباتٍ هائلةً في القيام بذلك؛ فالناس متمازجون بعضاً ببعض إلى درجة ظهور ألوان البَشَرِ كلِّها بينهم: لون العسل ولون اللوز ولون القهوة بالحليب ومجمل التدرّجات اللونيّة للشوكولاتا. وكثيراً ما كان هناك أطفالٌ ذوو عيونٍ زرقاء، وآخرون ذوو بشرةٍ داكنةٍ في العائلة نفسها. كانت مينا مذهولةً تماماً أمام فكرة تقسيم مدينةٍ ما تبعاً للون البشرة، وكانت تقول: «نحن نعلم أنّ اللّه فصل الرجال عن النساء للسيطرة على عدد السكّان، وفصل بين الأديان كي يستطيع كلُّ فريقٍ أن يصلّي على طريقته الخاصة وأن يبتهل لنبيّه؛ لكنّنا لاندرك لِمَ الفصل بين السود والبيض؟». لم يكن أحدٌ يستطيع الإجابة على هذا السؤال الذي كان لغزاً جديداً يُضاف إلى الألغاز الأخرى، لكن يبقى الدافع وراء رسوّ الأمريكيّين في الدار البيضاء اللُّغزَ الأكثر تشويشاً بين هذه الألغاز. وقد قرّرت يوماً أن أساهم في حلّ هذه المسألة؛ فقلت لسميرٍ: إنّهم ربّما أتوا للقيام بنزهةٍ وحسب، وكانوا يقصدون الزيارة فقط؛ لأنّهم كانوا يظنّون الدار البيضاء جزيرةً مُقفرةً. فثارت أعصاب سمير، وسألني هل أنا متنبّهةٌ إلى أنّني أتفوّه بالحماقات، ولم يعد راغباً في متابعة الحديث؛ فرُحْتُ أرجوه، وبهدف إرضائه قلت له: إنّني واثقةٌ من وجود «هدفٍ سياسيٍّ خطيرٍ». كما كان والدي يقول لتفسير قدوم الأمريكيين إلى الدار البيضاء.

شيئاً فشيئاً كنت أستصعب الأمور مع سمير؛ فقد كان ـ وبشكلٍ مستمرٍّ ـ يتحوّل إلى شخصٍ جدّيٍّ ورصينٍ على نحوٍ مفاجئٍ يفرض إيجاد تبريراتٍ سياسيّةٍ لكلّ شيءٍ؛ وإذا لم أوافقه الرأي مرّةً، يشكو من أنّني أقلّل من شأنه ولا أحترمه. حتّى أنّني لم أعد أجد أمامي سوى حلّين: إمّا أن أخضع له واضعةً إشارة ضربٍ على كلّ هَذَري الشخصي، وإمّا قطع صداقتنا. ولم أفكر بالطبع بالاحتمال الثاني؛ لأنّني لم أكن أملك الشجاعة الكافية لمواجهة الكبار دون دعمه؛

فكلّما رغبت في الحصول على شيء ما، كفاني أن أهمس بالفكرة لسميرٍ، حتّى يتكفّل بالبقيّة، ولايترتّب عليّ بعدئذٍ سوى البقاء جالسةً بالقرب منه؛ لتشجيعه عند الضرورة، ولتهنئته عندما ينجح في مهمّته. فلنأخذ اللغز الأمريكي مثالاً على ذلك. كنت أعتقد أنّ فكرة رسوّ المحاربين من أجل القيام بنزهةٍ سوف تُسلّيه، لكن على العكس لم تسلّه البتّة، بل كان يصرّح بشكواه، وقوراً وجدّياً ومنشغل البال بمستقبلي: «إنّك تخلطين الحابل بالنابل، فالحرب هي الحرب، والنزهة هي النزهة. إنّك تتجنّبين دائماً مواجهة الأشياء لأنك خائفةٌ، وهذا لأمرٌ خطيرٌ؛ إذ سيغدو في مستطاعك أن تخلدي إلى النوم متوهّمةً أنّ الجنود يلبثون في الدار البيضاء فقط لمشاهدة الأزهار والاستماع إلى تغريد العصافير؛ بينما هم ـ إذا اتّفق ذلك ـ يتأهّبون للقدوم إلى فاس كي ينحَروك من الوريد إلى الوريد. حتّى مليكة التي تكبرني سنّاً تتفوّه بمثل هذه الحماقات. أعتقد أنّ المشكلة تكمن في أنّكما من النساء». لم أجد أيّ جوابٍ للردّ على هذه الكلمات التي كانت تبدو غريبةً وصحيحةً في الوقت نفسه.

إذاً، فالاستفسار عن وجود الأمريكيّين كان يتمثّل في تحديد أعدائهم، وبعد مناقشاتٍ عدّةٍ توصّل سميرٌ أخيراً إلى حلٍّ يبدو منطقياً: إذا كانت الحرب كلعبة الغُمَّيْضَة، فربّما نزل الأمريكيّون في الدار البيضاء بهدف خداع الألمان فقط، تماماً مثلما نفعل حين نختبئ في جرار الزيتون لننصب فخاخاً لبعضنا البعض؛ والمغرب هو جرّة زيتون الأمريكيّين، وهم يختبئون فيه لوقتٍ وجيزٍ؛ ولاحقاً سيتغلغلون نحو الشمال ليهاجموا الألمان. قلت لنفسي: إنّ سميراً يتمتّع بدهاءٍ عجيبٍ حتّى يفكّر بهذا الشكل، وربّما كانت أسفاره مع عمّي ووالدي هي التي غيّرته. وكنتُ أسارر نفسي: متى يسافر المرء يعملُ عقله بصورةٍ أسرع؛ لأنه يرى باستمرارٍ أشياء جديدةً يجب عليه أن يتكيّف معها؛ وبشكلٍ طبيعيٍّ يصبح أكثر ذكاءً ممّا هو عليه وقت يبقى حبيساً في فناء حريم. كان لأمّي الرأي عينه: «عبر القيام بجولةٍ حول الأرض، يتعلّم العقل كيف يعمل، وليس احتجازنا وراء

الجدران، إلاّ بهدف الحدّ من يقظة عقولنا»، وأضافت: إنّ كلّ هذه الحملة ضدّ العلوك والسجائر الأمريكيّة، هي في الواقع حملةٌ ضدّ حقوق المرأة. وعندما سألتُها إسعافي بشروحٍ لِما تقول، أجابتني: إنّ تدخين السجائر أو مضغ العلك بحدّ ذاتهما ليسا نشاطين يُنمّان عن قذرٍ من الذكاء؛ لكنّ الرجال يعارضونهما لأنّهما يتيحان للمرأة الفرصةَ لاتّخاذ القرار مستقلّةً بنفسها في القيام بأشياء لم تقنّنها التقاليد أو السلطة: «إلى درجة أنّ المرأة التي تمضغ العلك، تمارس بذلك سلوكاً ثوريّاً. أتفهمين؟. ليس عن طريق الفعل بذاته، بل لأنّ استهلاك العلك لاتنصّ عليه القوانين».

19

المرأةُ المُغْوِيَةُ... ساحرةُ الرجال

كان يُعتبر السطح ـ رسميّاً ـ مملكة النساء، أمّا الرجال فلم يكونوا مخوّلين بالصعود إليه؛ إذ إنّ الاتّصال بالمنازل المجاورة كان ممكناً عن طريق السطوح، ويكفي المرء أن يتقن القفز والتسلّق حتّى يبلغ تلك المنازل؛ فما نفع الأحاريم إذا كان الرجال يستطيعون القفز من سطحٍ إلى آخر؟. لو خُوِّل لهم ذلك، لكانت إقامة العلاقات بين الجنسين سهلةً للغاية. بالطبع كانت هناك اتّصالاتٌ بصريّةٌ بين أبناء عمومتي وبنات الجيران، وبوجهٍ خاصٍّ أيّام الربيع والصيف حيث مشهد الغروب يبهر الأبصار. كان الفتية والفتيات يطيلون المكوث على السطح، وعبر فيض السحب الأرجوانيّة الحمراء، كانت طيور السنونو ترقص رقصةَ باليهٍ جوّيّةً، كأنّها مصابةٌ بمسٍّ من الجنون. وكانت شامة تصعد دوماً إلى هناك برفقة أختيها الكبريين سليمة وزبيدة، وإخوتها الثلاثة زين وجواد وشكيب، وكان مفترضاً بإخوتها ـ من حيث المبدأ ـ ألا تطأ أقدامهم أرض السطح؛ فقد كانوا يستطيعون من هناك أن يروا مباشرةً الفراغ الداخلي لمنزل عائلة بنّيس التي تضمّ عدداً من الشابّات ـ وكذلك الشبّان ـ في سنّ الزواج. لكن لم يكن شبّان وشابّات عائلة المرنيسي أو عائلة بنّيس يحترمون هذه القواعد؛ وكانوا يجتمعون جميعهم في أمسيات الصيف على

السطوح البيضاء التي أضحت أكثر رومانسيّةً بدنوّ السحب منها. كانت كلّ أسرةٍ تبقى في مخيّمها، غير أنّ عدداً لايُعدّ ولايُحصى من النظرات والابتسامات، وغيرها من الرغبات المُحمّلة بالذنب، كان يتبادله أعضاء المعسكرين خفيةً. وكان الموهوبون بينهم يغنّون أغاني أسمهان وعبد الوهاب وفريد، فيما الآخرون يردّدون وراءهم. في أحد نهارات الدوام المدرسيّ، وخلال درسٍ من دروس علم الأحياء يتحدث عن معجزة *«الإنسان»*، شرحت لنا لالاطَمْ كيف يصبح الصبيان والبنات ـ المماثلين لنا في تلك الحقبة ـ رجالاً ونساء قادرين على إنجاب الأطفال؛ ففي سنّ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، وأحياناً قبل هذه السنّ، تصبح أصوات الصبيان أكثر غِلَظاً، وتنبت شواربهم على وجوههم، ويتحوّلون فجأةً إلى رجالٍ. بالاعتماد على هذه المعلومة راح سميرٌ يرسم شاربين جميلين بوساطة الكحل الأسود الغامق الخاصّ بأمي، والمُختلس ـ بفضل جهودي ـ من عداد المستلزمات التجميليّة العديدة الموضوعة على طاولة زينتها. أمّا فيما يتعلّق بنا نحن البنات، فقد كانت لالاطَمْ تتنبّأ بنموّ نهدين كبيرين لواحدتنا، كما سيكون لدينا *«حَقُّ الشّهَرْ»* (أي باللغة الفصحى: الضريبة الشهريّة)، وهو نوعٌ من الإسهال الدمويّ، وهذا الإسهال لايسبّب ألماً على الإطلاق؛ فهو أمرٌ طبيعيٌّ تماماً، وحين يصيبنا يجب ألّا نشعر بالخوف أبداً، وسوف نضطرّ خلال *«حَقُّ الشّهَرْ»* إلى وضع *«غِدْوَارْ»*(*) (فوطٍ صحيّةٍ) بين سيقاننا؛ حتّى لايلحظ أحدٌ شيئاً.

عندما عُدت إلى البيت في ذلك المساء، سألت أمّي على الفور عن تفاصيل إضافيّة فيما يتعلق *«بالغدوار»*؛ فانقطعت أنفاسها في بادئ الأمر، وسألتني: «مَنْ حدّثك عن *«الغدوار»*؟» بصوتٍ خنيقٍ ذي هدوءٍ مزيّفٍ ينذر بالانفجار، بعدئذٍ وعندما شعرت بأنّني قد أنغلق على

(*) في الأصل Guedouar.

نفسي كالقوقعة إن عنّفتني، غيّرت طريقتها، وأخذت تسألني بلطفٍ كأنّها تتحدّث إلى نِدٍّ لها، ويبدو أنّها قرّرت أن تكشف عن هوية الغول الذي أخبرني بهذه المعلومة قبل أوانها، وقد دُهشَت حين علمت أن «*فقيهتنا*»(*) لالاطَمْ هي التي أخبرتني، ولأنّها كانت تبدو قلقةً؛ بشرحتُ لها الأمر إذ: «وفقاً لـ «*بَا ـ ٱلفِقيْه*»(**) (أي: زوج «*ٱلفقيْهَة*») ـ وهو وطنيٌّ ذائع الصيت يمضي جُلَّ وقته في مسجد القرويّين ـ يجب على المسلمين أن يتلقّوا العلوم؛ كي يتمكّنوا من هزم الفرنسيّين، ويجب علينا أن نتعرّف إلى الجسم البشري، ذلك الخلق الإعجازيّ الذي أبدعه الله. فعلى المسلم الصالح أن يعرف كلّ شيءٍ عن العلم وعلم الأحياء وعن الكواكب والنجوم». لقد اضطربت أمي، إذ أدركت أنّني لم أعد طفلةً؛ ليس بسبب التغيّر الجسدي الذي طرأ عليّ، بل لأنّني أعرف سرّاً يُفترض ـ وفق ما تراه ـ أن يجهله الأطفال، وللمرّة الأولى أشعر بأنّ لي نوعاً من السلطة على أمّي، بفضل تلك المعلومة التي تلَقّنتها. لقد صنعت تلك المحادثة منعطفاً هامّاً في مجرى علاقتي بأمّي. لقد فَهِمتُ أنّني قد أصبحت مستقلّةً.

لقد أحسّتْ أيضاً ـ على الأرجح ـ بمرور الزمن، فإن كنت على وشك أن أصبح صبيّةً، فذلك يعني أنها بدأت تشيخ. وتوجّهت نحوي سائلةً وهي تنظر إليّ كأنّني أنتمي إلى كوكبٍ آخر: «هل أخبرتك لالاطَمْ بشيءٍ آخر؟ هل حدّثتك عن إنجاب الأطفال؟». يالأمّي المسكينة!. إنّها لاتستطيع أن تتصوّر أنّني ـ أنا طفلتها الصغيرة ـ على دراية بمعلومةٍ مُحرَّمةٍ على هذا القدر من التحريم. لقد قلت لها: إنّني سأكون قادرةً على إنجاب طفل في سنّ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة؛ لأنّني في هذه السنّ سيكون لديّ «*حَقُّ الشّهَوْ*»، كما سيكون النهدان «اللازمان لإطعام الرضيع نابتين». إثر سماعها ما بحت به، غدت ذاهلةً بعض الشيء، وقالت لي في آخر الأمر: «الواقع، كنت

(*) في الأصل Fquiha.

(**) في الأصل Ba - l - fquih. أي: الأب الفقيه.

أُفضّل الانتظار لسنةٍ أو سنتين قبل أن أتحدّث معك في هذه الأمور، لكن بما أنّها تشكّل جزءاً من تعليمك..»». فقاطعتها عندئذٍ طالبةً منها ألّا تقلق عليّ كثيراً؛ لأنّني أعرف كلّ شيءٍ عن مواضيع كهذه منذ وقتٍ بعيدٍ عبر الحكايات، وأحاديث النساء التي استمعت إليها، أمّا الآن فإنني أعرفها بصورةٍ رسميّةٍ، وذلك هو الفارق الوحيد. وكي أرفع من معنوياتها، وأدخل السرور إلى نفسها، قلت لها مازحةً: إنّ صوت سميرٍ سوف يصبح قريباً مشابهاً لصوت «فُقيه نَصيري» إمام جامع سيدي الخيّاط الواقع خلف بيتنا.

بيد أنّ ما تجنّبت الإسرار به لها، هو أنّني قد قرّرت أن أصبح *«غزالة»* لاتُقاوم، أي امرأةً مُغْوِيَةً تسحر الرجال، وجميلةً كأنّها غزالةٌ، وأنّني قد لجأت إلى استخدام تطبيقات *«سُحُور»* مريبةٍ، وهي عمليّاتٌ سحريّةٌ تنطوي على اختباراتٍ فلكيّةٍ، وذلك بفضل طيش شامة ولامبالاتها المواتيين لي، حيث كانت تترك كتب السحر خاصّتها ملقاةً في كلّ مكانٍ دون اكتراثٍ، وقد كان لديها أعدادٌ كبيرةٌ من هذه الكتب في غرفتها، وبما أنّها لم تكن تخفيها إخفاءً جيّداً؛ فقد اكتسبت - وفي أقصى سرعةٍ - مهارةً استثنائيةً في استظهار الصيغ والعبارات السحريّة بصورةٍ محمومةٍ، وفي نسخ لوائح التعاويذ، وحفظ جميع التفاصيل الخاصّة بالحروف والأرقام المعقّدة. كلّ ذلك خلال تلك الدقائق القصيرة حيث تكون شامة خارج غرفتها. وكان عليّ كي أتمكّن من ممارسة السحر أن أكتسب معارف فلكيّة في البداية؛ ولذلك كنت أمضي ساعاتٍ طويلةً عند الغسق وأنا أتفحّص السماء، سائلةً الجميع عن أسماء النجوم تبعاً لترتيب ظهورها.

في رأيي، كان الانتهاك الأكثر روعةً والممكن ارتكابه على السطح، هو ممارسة طقوس *«السحور»*، بإشعال شمعاتٍ بيضاء صغيرةٍ عند ظهور الهلال، أو شمعاتٍ كبيرةٍ مزيّنةٍ بإفراط عند تمام البدر، أو ترتيل رُقْيَاتٍ سرّيّةٍ عند مرور كوكب الزهرة أو المشتري.

كنّا جميعاً نشارك في هذه العمليّات، فقد كانت النسوة بحاجة إلى مساعدة الأولاد غير البالغين؛ لإمساك الشموع، وترديد الرقيات، وممارسة الحركات بكلّ ضروبها. كان الصبيان والبنات البالغون يشبهون إلى حدٍّ كبيرٍ الكبار؛ ممّا لايخوّل لهم أن يتمتّعوا بمزيّة الاتّصال بالنجوم أو الجنّ. كانت فكرة احتيازي على سلطةٍ قد فقدها الأطفال الأكبر سنّاً تسلب لبّي، وكانت المجَرَّةُ (درب التبّانة) تشعّ فتبدو لنا كأنّها لاتَمِضُ إلّا من أجلنا. ولحسن الحظّ، كانت شامة تنسى عادةً ما لي من العمر وقتَ تستغرق في قراءتها بصوتٍ عالٍ لـ «*طَلْسَم القمر*»[*] (أي: تعاويذ البدر)، وهو الفصل الأوّل من «*الكتاب الأوفق*» للإمام الغزالي[1]، وقد ذُكرت فيه طريقة ترتيل التعاويذ الموافقة للأيّام والساعات الخاصّة بأشكالٍ نجميّةٍ محدّدةٍ. لم تكن الآداب المتعلّقة بالتنجيم وعلم الفك تُعتبر مريبةً؛ فقد اهتمّ مؤرّخون قديرون كالمسعودي بتأثير البدر على الكون بما فيه من كائناتٍ نباتيّة وبشريّة؛ وكانت شامة تقرأ مؤلّفاتهم كثيراً[2].

كنت أصغي دوماً بانتباهٍ شديدٍ إلى ما يقوله المسعودي بصدد القمر: إنّه يجعل النباتات تنمو، والفاكهة تنضج والحيوانات تسمن، وهو مسؤول عن «*حَقِّ الشَّهر*» للنساء[3]. وكنت أقول لنفسي ياإلهي!. إن كان القمر قادراً على القيام بكلّ هذا؛ فيجب أن يكون قادراً أيضاً على جعل شعري ينمو، ونهديّ يكبران، إذ يبدو أنهما قد تأخّرا في النموّ بصورةٍ مزعجةٍ، وقد لحظت أنّ حركةً جميلةً جداً لكتفيّ مليكة، قد أصبحت تبدو عليها منذ بعض الوقت؛ فهي تمشي كالأميرة فريدة في مصر قبل طلاقها، وإن كان من غير الممكن بعدُ إطلاق تسمية نهدين على ماليديها، إنّما هما حبّتان صغيرتان من برتقال اليوسفيّ تتبرعمان تحت قميصها. أما فيما يتعلّق بي، فلم يكن أمامي سوى

(*) في الأصل Talsam al - quamar. الطَّلْسَم ج طَلاسِم والطِّلَّسْم ج طِلَّسْمات: وهي رموز كتابيّة يستعملها الساحر زاعماً أنّه يدفع بها كلّ أذيّةٍ. والكلمة يونانيّة الأصل دخلت على العربية فغدت مستعملةً بشكلٍ واسع.

الأمل الكبير بأنّ الأمور ستتغيّر عمّا قريب. بين التطبيقات والتجارب السحريّة التي تجري على السطح كان الأكثر إدهاشاً وفتوناً لي، أنّ صبيّةً صغيرة لاأهميّة لها مثلي، كانت تستطيع أن تنسج صلاتٍ سحريّةً مع النجوم الرائعة التي تسبح في الأعالي، وأن تجني بعضاً من ضيائها. وقد تعلمت بعدئذٍ الأسماء كلّها التي أطلقها العرب على القمر: يُطلق على القمر في مستهلّه اسم «*هلال*»، أما القمر الكامل فيسمى «*القمر*» أو «*البدر*» وهذان الاسمان صفتان تُطلقان أيضاً على رجلٍ أو امرأةٍ يكونان على قدرٍ كبيرٍ من الجمال ـ كقمر الزمان زوج الأميرة بدور ـ لأنّ القمر عندئذٍ يكون في أوج تألّقه وتمام جماله. وبين «*الهلال*» و«*القمر*» مراحل لها أسماء أُخَر؛ فالليلة الثالثة عشرة تُسمى «*بياض*» *أي بيضاء؛ لأن السماء عندها تكون مضيئةً*. و«*السّوَاد*» هي الليلة السوداء حين يختفي القمر وراء الشمس. وعندما باحت لي شامة أنّ نجمي الخاصّ هو كوكب الزهرة اتّخذت لنفسي مشيةً متأنّيةً وكأنني مصنوعةٌ من مادّةٍ سماويّةٍ ضبابيّةٍ، وكنت أشعر بأنّي قادرةٌ على أن أبسط جناحين من الفضّة.

وما كنت أحبّه أيضاً في السحر التنجيمي هو الاستخدامات المتعدّدة له؛ فبالاستخدام الحسن لتعاويذه يمكننا زيادة قدرتنا على السحر، إلى حدّ التأثير على أشخاصٍ ذوي شأنٍ، كجدّةٍ مثلاً أو ملكٍ، أو حتّى على بقّال الحيّ الذي يُخطئ في حساباته لصالحكم، ساعةَ إنفاق مبلغٍ كبيرٍ من المال على مشترياتكم من عنده. لكن بالنسبة إليّ لم يكن هناك سوى أمرين هامّين بصدد السحر، ألا وهما: التأثير على أساتذتي ليضعوا لي علاماتٍ جيّدةً، وزيادة قدرتي على الإغواء، وكان يتمثّل بالطبع في جذب سميرٍ، رغم حدوث العكس على ماكان يبدو؛ فقد كانت علاقتنا تغدو علاقةً عسيرةً أكثر فأكثر، إذ كان ـ كما هو حال أبي وعمّي ـ يحتقر «*السحور*» بشدّةٍ، ويصفه بالغباوة، وذلك ماكان يجبرني على التصرّف بسرّيّةٍ في قسمٍ كبيرٍ من الأمسيّة،

وعلى الاختفاء كليّاً في ليالي اكتمال البدر، كما كان يضطرّني إلى استخدام تعاويذي لسحر أمراء عرب متوهَّمين من أبناء جيلي لم أكن أعرفهم بَعْدُ. وقد كنت حذرةً جدّاً؛ إذ لم أُرِدْ تشتيت قدراتي السحريّة إلى خارج فاس أو الرباط أو الدار البيضاء؛ أما مَرَّاكش فكانت تبدو بعيدةً بعض الشيء، لكنّ شامة كانت تقول: إنّ في إمكان فتاةٍ مغربيّةٍ أن تتزوّج بكلّ يسرٍ رجلاً من لاهور أو كوالا لامبور أو حتّى من الصين؛ وتضيف: «لقد جعل الله العالم الإسلاميّ واسعاً جدّاً ومتنوّعاً بصورةٍ عجيبةٍ».

بعد مضيّ زمنٍ طويلٍ على ذلك الحين، اكتشفت أنّ الجاذبيّة السحريّة لاتؤدّي فعلها إلّا إذا كنّا نعرف أميرنا، ونستطيع أن نتخيّله بصريّاً خلال ممارسة الطقس، ممّا يعني أنّني أعاني إعاقةً كبيرةً، فإن استبعدت سميراً ـ كما أشعرني بصورةٍ قاطعةٍ ـ لايبقَ لديّ أيّ شخصٍ أستطيع أن أتمثّله؛ وكان زين خارج هذا الاحتمال؛ حتّى أنّه لاينظر إليّ، وكثيراً ما قدّمت له ـ خلال سهرات السطح ـ قطع كعكٍ متلاعب بها ومُحَمَّلةٍ بعبارات *«القَبول»* التي كنت أردّدها، ممسكةً تلك القطع بكفّي ساعة اكتمال البدر. لقد كانت نظرته تتجاوزني دون أن يصيبني أدنى قسطٍ منها. أمّا الصبيان الذين ألعب معهم في المدرسة القرآنية فقد كانوا ـ بقسمهم الأعظم ـ أقصر منّي قامةً وأصغر منّي سناً، وكنت أريد أن يكون أميري أطول مني بسنتيمترٍ واحدٍ، وأكبر منّي ببضعة أشهرٍ على الأقل؛ فحسب الوصفة السحريّة المكرّسة لهذا الأمر: *«اللّي فاتِك بْلِيلَة فاتِك بْحِيلَة»*(*) (أي: الأكبر منك بليلةٍ أعرف منك حيلةً».

إلّا أنّني اكتسبت على الأقلّ معارف في السحر، وذلك كان يعزّز ثقتي بنفسي، وإن كنتنّ تُرِدْن أن يُغرم بكنّ رجلٌ ما، يجب أن تفكّرن

(*) في الأصل Li fateq b - lila fateq b - hila. وهو يقابل لدينا: أكبر منك بيومٍ أعرف منك بسنةٍ.

فيه بقوّةٍ مساء يوم الجمعة ساعة ظهور كوكب الزهرة في السماء، وعليكن أن تردّدن في الوقت نفسه التعويذة التالية:

لاف، لاف، لاف داف،

داف يابِش، بيبِش،

غالبِش، غالبِش،

داعوج، داعوج،

عَزَق شدروح،

حاح، حاح.[4]

وبالطبع، كي تكون التعاويذ فعّالة من الضروري ترديد هذه الكلمات السحريّة بصوتٍ واثقٍ ومنغّم، دون ارتكاب خطأ لفظيّ. وذلك كان شبه مستحيلٍ لأنّ الكلمات غريبةٌ؛ فهي ليست كلماتٍ عربيّةً، إذ أصول التعاويذ مأخوذةٌ عن مقاطع من لغة الجنّ، المخلوقات فوق الطبيعيّة. لقد استُعيدت هذه الكلمات وفُكّت رموزها بجهود خبراء قاموا بتدوينها كي يتمكّن البشر من استعمالها. وكنت أقول لنفسي إنّ سبب فشل هذه التعاويذ في إعطاء أيّة نتيجةٍ يعود إلى لفظي الخاطئ، وذلك هو السبب الكامن وراء عدم تقدّم أيّ أميرٍ لخطبتي. لقد كان من الخطورة بمكان ارتكاب أخطاء في لفظ الكلمات السحريّة؛ لأنّ الجانّ قد ينقلبون ضدّكم، وقد تتعرضون لأن تجدوا أنفسكم وخدوشٌ تملأ وجوهكم وسيقانكم ملتويةٌ، إذا أثرتم غضب الجانّ. ولو كان سميرٌ حاميّ المعتاد هناك ليتحقّق من حسن لفظي، لنجّاني من خطر إثارة غضبهم، لكنّه لم يكن مبالياً قطّ بهوسي المفاجئ في أن أصبح امرأةً مُغوِيَةً فتّانةً للرجال.

كانت مينا تشارك سميراً الرأي فيما يتعلّق بالسحر، فرغم تساهلها بصدد الطقوس التي تُمارس على السطح، لم تكن موافقةً على هذه الطقوس قائلةً: إنّ النبيّ كان يعارضها كلّيّاً، ومع ذلك كان الجميع يقول لها: إنّ النبيّ كان فقط ضدّ السحر الأسود الموجّه

لإيذاء الناس، أمّا إحراق الطلاسم مع المسك أو الزعفران، وترتيل تعاويذ سحريّةٍ عند اكتمال البدر؛ لزيادة القدرة على الجذب والإغواء، أو لجعل الشعر ينمو والنهدين يكبران، فليس في ذلك إثمٌ يُعاقب اللّهُ عليه. إنّ الله «*لطيف رحيم*» تجاه عباده الضعفاء المحتاجين، وهو كريمٌ جداً لكي يحيط بحاجاتهم. لكنّ مينا كانت تزعم أنّ النبيّ لم يكن يميّز بين ضروب السحر، وأنّ كلّ النسوة اللائي يمارسن السحر ـ مهما كان نوعه ـ سوف يلاقين مفاجآتٍ غير سارّةٍ يوم القيامة.

لكنّ «*السحور*» لم يكن خطراً بالنسبة إلى «الحريم» على قدر ماكان قرار الوطنيّين بتشجيع تعليم النساء، وقد انقلب حال المدينة رأساً على عقب حينما طالب مُفْتِيُو مسجد القرويّين ـ بمن فيهم فقيه محمد الفاسي وفقيه مولاي بِلْعَربي علاوي[5] ـ بحقّ النساء في الذهاب إلى المدرسة، وحينما شجّعوا الوطنيين ـ بدعم من الملك محمّد الخامس ـ على إنشاء مؤسّساتٍ تعليميّةٍ خاصّةٍ بالبنات. ومذ علمت أمّي بالخبر، طلبت من أبي أن أُنقل من مدرسة لالاطَمْ القرآنيّة إلى مدرسةٍ «حقيقيّةٍ»، فدعا أبي بدوره مجلس العائلة إلى الاجتماع على الفور. ومجلس العائلة أمرٌ جدِّيٌّ لم يكن يُعقد عموماً إلّا حين يكون أحد أفراد العائلة أمام قرارٍ هامٍّ يجب عليه اتّخاذه، أو وقت يكون عاجزاً عن الوصول إلى حلٍّ لبعض النزاعات التي يواجهها. وفي حالة نقلي من مدرسةٍ إلى أخرى، كان القرار هامّاً جدّاً، إلى حدّ أنّ أبي لم يكن قادراً على اتّخاذه بمفرده. كان هناك فارقٌ كبيرٌ بين المؤسّسة التقليديّة التي كانت ـ حتّى ذلك الحين ـ الإمكانية الوحيدة المتاحة للبنات؛ وبين المدارس الابتدائيّة الوطنيّة، كتلك التي قام بافتتاحها فقيه ابن عبد اللّه أو مولاي إبراهيم قطّاني في الأنحية المجاورة وفق النظام الفرنسي؛ حيث كانت البنات يتعلّمن الرياضيات واللغات الأجنبيّة والجغرافيا، ويتلقّين تعليمهن على يد مدرّسين رجال، ويمارسن الرياضة مرتدياتٍ سراويل قصيرةً. إذاً، فقد انعقد المجلس، وحضر الجميع: عمّي وجدّتي لالا ماني وجميع

أبناء عمومتي الشبّان الذين بلغتهم أنباء التغيُّرات المستجدّة فيما يتعلّق بالتعليم، بفضل الصحافة المحليّة والأجنبيّة. لقد أتوا جميعاً ليعينوا أبي على اتّخاذ القرار. لكن من أجل عقد مجلسٍ عادلٍ، كان لابدّ من وجود مَنْ يساند أمّي في رأيها، فهي التي كانت وراء إثارة هذا الموضوع، وكان من الطبيعي أن يمثّلها والدها في المجلس، لكن نظراً لكونه بعيداً، ويقيم في المزرعة؛ فقد أرسل ممثّلاً له هو خالي تازي الذي كان يقطن في القرب من دارنا. كان خالي تازي يُدعى دائماً إلى مجالس العائلة حين تكون أمّي معنيّةً بالأمر؛ تحاشياً لقيام حلفٍ مرنيسيٍّ ضدّ مصالحها.

دُعِيَ الخال تازي إذاً، وعُقد المجلس، وكادت أمّي تطير فرحاً عندما أُعلن في النهاية عن قبول تبديل مدرستي، ولم أكن المَعنيّة الوحيدة بالأمر، بل كان على أبناء وبنات عمومتي العشرة أن ينضمّوا إليّ أيضاً، وقد ودّعنا لالاطَمْ بكلّ سرورٍ، وأسرعنا إلى مدرسة مولاي إبراهيم قطّاني الجديدة، والواقعة على بعد بضع عشراتٍ من الأمتار عن بوّابة منزلنا. كنت سليبة اللبّ لشدّة بهجتي؛ ففي المدرسة القرآنيّة كنّا مجبرين على الجلوس متربّعين على طَرّاحاتٍ، وكانت لدينا استراحة واحدةٌ لتناول الغداء الذي كنا نحضره معنا. كان النظام صارماً، ولالاطَمْ تضربكم بمقرعتها إن لم تَرُق لها طريقة تصرفكم أو حديثكم أو استظهاركم للآيات؛ وكانت الساعات التي نقضيها في الحفظ عن ظهر قلبٍ والاستظهار تبدو كأنّها أبديّةٌ. وعلى العكس من ذلك كانت مدرسة مولاي إبراهيم الوطنيّة؛ فقد كان كلٌّ ما فيها عصريّاً، وكنا نجلس على كراسٍ، كلُّ ثلاثةٍ إلى طاولةٍ، فكان الواحد منّا يشارك اثنين آخرين من الصبيان أو البنات في طاولته. كان هناك دائماً من يتوسَّطُنا؛ فلا نشعر بالملل على الإطلاق، ولم نكن نقفز من موضوعٍ إلى آخر ومن اللغة العربيّة إلى الفرنسيّة، ومن الرياضيات إلى الجغرافيا فحسب، بل كنّا ننتقل من صفٍّ إلى آخر، وخلال الفترات الفاصلة بين الدروس كنّا نستطيع أن نقوم بجولةٍ صغيرةٍ، وأن نقضم بعض القَضَاميّ الذي نحصل عليه

شِحاذةً من مليكة، كما كنّا نستطيع أن نطلب الإذن للذهاب إلى بيت الخلاء الواقع في الجهة الأخرى من البناء. وهكذا كانت لدينا استراحةٌ من عشر دقائق هنيّةٍ، وحتى إن وصلنا متأخّرين، ليس علينا سوى طرق باب الصفّ طرقتين رزينتين قبل الدخول، وكانت هاتان الطرقتان تسعدانني بصورةٍ خاصّةٍ؛ لأنّ الأبواب في منزلنا كانت إمّا مفتوحةً أو مغلقةً، ولم يكن طرقها وارداً البتّة، أولاً بسبب ثخانتها واستحالة دفعها، وثانياً لأنّه لم يكن مخوّلاً لطفلٍ فتح أو إغلاق بابٍ بنفسه. وكانت لدينا فترتا استراحةٍ في المدرسة للّعب في الباحة: واحدةٌ في منتصف الصباح، وأخرى بعد الظهر. بالإضافة إلى فاصلين من أجل الصلاة: الأوّل عند الظهر قبل الغداء، والثاني عند العصر؛ وكنّا نُصطَحب إلى جامع المدرسة بعد أن نتوضّأ في المنهل المجاور. وهذا ليس كلّ شيءٍ، فقد كنّا نرجع إلى البيت لتناول وجبة الغداء. وفي تلك الساعة كان أطفال المرنيسي يُشاهدون وهم يتشيطنون، ويفعلون السبعة وذمّتها خلال مسيرتهم في الدرب القصيرة الفاصلة بين المدرسة والبيت، وكنا نقفز حول صغار الحمير المحمّلة بالخضار، والتي نصادفها على الطريق. وكان الصبيان يتمكّنون أحياناً من الوثب إلى ظهر أحدها وقت يكون غير مُحمَّلٍ بأيّة حمولةٍ.

وقتَ كنت أجد نفسي في الشارع عند منتصف النهار، أشعر بأنّني أكاد أطير فرحاً، وكنت أحياناً أتمكّن من تقبيل صغار الحمير ذات العيون الرطبة والناعمة، وأنا أكلّمها لبضع دقائق، حتّى يلحظني صاحبها، فيبعدني مهدّداً بسوطه قائلاً: «بَلَاك»(*) (أي: ابتعدي من هنا!). كان اندفاعنا جميعاً وعلى عجلٍ إلى عند ميمون بائع القَضَاميّ، أحد نشاطاتنا المفضّلة، وكانت الأمور تفسد دوماً؛ لأنّ الكميّة التي يعطيها لنا لاتتناسب مع كميّة المال التي يتلقّاها منّا. وعندها كان يصحبنا إلى باب المحلّ وهو يقسم بمولاي إدريس

(*) في الأصل Balak.

وليّ فاس الشفيع إنّه لن يتعامل معنا أبداً، ويصرخ قائلاً: إنّ بعضاً منّا سوف تكون عاقبته نار جهنّم؛ لأنّه ـ ودون حياءٍ ـ أكل من غير أن يدفع ثمن ما أكله. وأخيراً انتهت المشكلة عندما اقترح خمِد البوّاب ـ في أحد الأيّام ـ حلاًّ مشرّفاً: يجب على كلٍّ منّا أن يودِع خَرْجِيّته(*) لدى خمِد، وهو سيتكفّل بدفع ما علينا لميمون آخر الأسبوع، وإن تجاوز أحدنا مخصّصاته يُخطِراهُ ـ خمِد وميمون ـ بذلك.

كانت المدرسة الحديثة مسلّيةً جداً، حتّى أنّني بدأت أحصّل علاماتٍ جيدةً، كما بدأت أصبح مجتهدةً على رغم ماكنت عليه من البطء الذي يُرثى له. لقد وجدت طريقةً جديدةً لأن أغدو نجمةً؛ فقد حفظت عن ظهر قلبٍ العديد من الأناشيد الوطنيّة التي تعلّمتها في المدرسة، وكان أبي فخوراً بي إلى حدٍّ كبيرٍ، حتّى أنّه طلب منّي أن أستظهرها لجدّتي لالا ماني كلّ أسبوعٍ مرةً واحدةً على الأقلّ. كنت أُنشد في البداية «*يا مَلِك المَغْرِب*» وأنّا واقفةٌ، ثم حين بدأت أرى الأثر الناجم عن أغانيّ، طلبت الإذن لأعتلي كرسيّاً خفيضاً، ثمّ طلبت من أبي أن يلحّ على أمّي كي تسمح لي بارتداء ثوبي الذي يشبه ثوب الأميرة عائشة.

كان ذلك الثوب بصُدْرتِهِ المزخرفة بقماش التُّيْل (القماش القطنيّ الشفّاف) مطابقاً تماماً للثوب الذي كانت ترتديه أحياناً الأميرة، وقتَ كانت ترافق والدها الملك محمد الخامس. كانت الأميرة عائشة تتنقّل كثيراً في البلاد مُدْلِيَةً بتصريحاتٍ عن تحرير المرأة، وكانت أمّي معجبةً بها. ولم يكن مخوّلاً لي بارتداء ذلك الثوب عادةً إلّا في المناسبات الهامّة؛ لأنه كان ناصع البياض معرَّضاً للاتّساخ بسهولةٍ. وكان أبي يحاجج أمّي قائلاً: «لكنّ هذه الطفلة المسكينة تكبر بسرعةٍ، وثوبها هذا سيضيق عليها، حتى أنها لن تتمكّن من ارتدائه في نهاية العام». آخر الأمر، اقترحت على أبي

(*) الخَرْجِيّة: عاميّة معروفة، وهي مبلغ المال المخصّص للطفل كراتبٍ شهريٍّ أو أسبوعيٍّ يقدّمه الأهل. ويسمى أيضاً «مصروف الجيب».

- كي يكون العرض كاملاً - أن يعيرني عَلَماً صغيراً للمغرب؛ لكنّه رفض الفكرة على الفور قائلاً: «هناك حدٌّ فاصلٌ بين المسرح والسيرك، ولن تقوم للفنّ قائمةٌ إن لم يُحافظ على هذا التمييز بشكلٍ دقيقٍ».

إن كانت الأمور كلّها تسير على أفضل وجهٍ بالنسبة إليّ بفضل مُعلّميّ الجدد، فإنّ أمور أمّي لم تكن جيّدةً لكثرة سماعها عن كلّ أولاء المصريات نصائر المرأة اللواتي يتظاهرن في الشوارع، وعن أولاء النساء التركيّات اللواتي يصبحن وزيراتٍ ويتبوّأن عدداً كبيراً من المناصب الرسميّة؛ فضلاً عن حثّ أميرتنا عائشة للنساء وتشجيعهنّ - باللغتين العربيّة والفرنسيّة - على تبنّي الأخلاق والعادات العصرية. أصبحت حياة الحريم بالنسبة إلى أمّي لاتطاق، أكثر من أيّ وقت مضى، وكانت تشكو اللاجدوى في حياتها، وتشكو بقاءها حبيسةً بينما العالم يتغيّر والجدران في سبيلها إلى أن تُقوَّض عمّا قريبٍ. لقد طلبتْ أن تشارك في دروس محو الأمّيّة - فقد كان بعضٌ من مدارس الحيّ يوفّر تلك الإمكانيّة - لكنّ مجلس العائلة رفض طلبها، وأعلنتْ جدّتي ما يلي: «التعليم للبنات وليس للأمّهات؛ فذلك لا ينتمي إلى تقاليدنا»، فردّت أمّي:

- «لكن ما نفع الحريم؟ وكيف يمكننا أن نحقّق فائدةً لبلادنا ونحن حبيساتٌ في فناءٍ مغلقٍ؟ لماذا نحن محروماتٌ من التعليم؟ من ابتدع الحريم ولأيّ غايةٍ ابتدعه؟ هل لأحدٍ أن يشرح لي هذا؟». كانت أسئلتها تبقى في معظم الأوقات دون إجابةٍ، متطايرةً في الأجواء كالفراشات التائهة، وكانت لالا ماني تخفض نظرها، كي لاتلتقي عيناها بعينيّ أمّي، في حين كانت شامة والعمّة حبيبة تعملان على تغيير موضوع النقاش، وكانت أمّي تصمت لبعض الوقت، ثمّ تطمئن نفسها وهي تتحدّث عن مستقبل طفلتيها: «ستكون لبنتيّ حياةٌ أفضل على الأقلّ. سوف تحصّلان العلم وتسافران. سوف تكتشفان العالم وتفهمانه، وربّما ستشاركان في تغييره، فالعالم على ما هو عليه

الآن نَتَنٍ للغاية. هذا بالنسبة إليّ، أما بالنسبة إليكن يا سيّداتي، فلعلّكن قد اكتشفتن السرّ الذي يجعلكن سعيداتٍ في فناء حريم». ثمّ كانت تلتفت إليّ وتقول: «أنت سوف تغيّرين العالم، أليس كذلك؟ سوف تقودين السيّارات والطائرات، مثل ثريّا الشاوي (أوّل طيّارةٍ مغربيّةٍ). سوف تخلقين كوكباً خالياً من الجدران والحدود، حُرّاسه في إجازةٍ طوال أيّام السنة».

صمتٌ طويلٌ أعقب عباراتها، لكنّ جمال الصور التي استدعتها كان يبطئ الغُدُوّ سابحاً في فضاء الفناء، فناء الحريم، كأريجٍ أو كحلمٍ متوارٍ عن الأبصار لكنّه سرمديّ الأثر.

20

الأجنحة اللامرئيَّة

كان الفناء غارقاً في الصمت والسكينة، وكان كلُّ شيءٍ منظّماً، وربّما كان عصر ذلك اليوم أكثر هدوءاً وصمتاً ممّا هو معتادٌ. كنت أستطيع أن أميّز خرير المياه المترقرقة للبحرة، وكأنّ أهل البيت يحبسون أنفاسهم ترقّباً لحدوث أمرٍ ما، أو كأنّ أحدهم يحاول القيام بخدعةٍ سحريّةٍ؛ فقد علمت عن طريق كتب شامة وعبر حديثي معها أيضاً، أنّه يمكن أن ترسلوا صوراً إلى الشخص المجاور لكم، إن نمّيتم قدرتكم على *«التركيز»*، تماماً كما تفعلون عند التأهّب للصلاة، لكن بصورةٍ أكثر قوّةً. كانت لالاطم تصرّ دوماً على ضرورة التركيز من أجل الصلاة. «الصلاة هي خلق فراغ، ونسيان العالم لبضع دقائق؛ كي تستطيعوا أن تفكّروا باللّه فقط؛ فلا يمكن للمرء أن يفكّر باللّه وفي الوقت نفسه بمشاكله اليوميّة، تماماً مثلما يتعذّر عليه السير في اتّجاهين بآنٍ معاً؛ إذ لن يصل والحال هذه إلى أيّ مكانٍ، أو في جميع الأحوال إلى حيث يبتغي الوصول». كما كانت العمّة حبيبة تقول: إنّ التركيز مَلَكةٌ هامّةٌ، وهو ضروريٌّ أيضاً لأسبابٍ عمليّةٍ: «كيف يمكن لواحدتنا أن تمشي بشكلٍ مستقيم - أو لسببٍ أقوى من هذا - كيف يمكنها أن تطرّز أو تطبخ إن لم تكن متنبّهةً؟. إنّك لاتريدين أن تصبحي مثل شطِيلة لَزْرَقْ؟». لا، لا أريد أن أصبح مثل شطِيلة لَزْرَقْ، إحدى بنات جيراننا التي تنسى دائماً أسما

الأشخاص، ويُطلق عليها اسم «شطِيلة»(*) الذي يعني «الدلو الصغير»؛ لأنّ كلّ المعلومات التي تتلقّاها تتسرّب فوراً كالماء.

إذاً، كان أحد الأجزاء الهامّة من نظام تربيتي مُكرّساً لتدريبي على التركيز؛ غير أنّي لم أبدأ بتوجيه اهتمامي نحوه إلّا يوم أعلمتني شامة أنّ بإمكاني عن طريق التركيز أن أنقل صوراً إلى الأشخاص الذين يحيطون بي؛ وقد ذكّرتني هذه الفكرة السحريّة بأنّني طالما استمعت إلى شامة أو العمّة حبيبة أو أمّي يتحدّثن عن حثّ نسوة الفناء على جعل أجنحتهنّ تنمو؛ وكانت العمّة حبيبة تزعم أنّ في مستطاع الجميع أن يملكوا أجنحةً؛ فالمسألة مسألة تركيز، وليس بالضرورة أن تكون الأجنحة مرئيّةً كأجنحة العصافير؛ فالأجنحة الخفيّة تفي بالغرض أيضاً، وكلّما بكّر المرء في تعلّم التركيز، حقّق منه القيمة المثلى. لكن عندما طلبت منها أن توضّح الأمور أكثر، غضبت منّي وأخطرتني بأنّ بعض الأشياء الرائعة لايمكن أن تُلقَّن، وقالت: «ما عليك سوى أن تبقي متيقّظةً؛ كي تلتقطي الطنين الحريريّ للحلم المجنّح»، كما حدّدت لي شرطين ضروريّين للحصول على جناحين: «الأوّل هو أن تشعري بأنّك محاصرةٌ بطوقٍ، والثاني هو أن تؤمني بأنّ في استطاعتك خرق هذا الطوق». بعد فترةٍ قصيرةٍ من الصمت مشوبةٍ بالضيق، أضافت العمّة حبيبة وهي تعبث بعمرتها بحركاتٍ عصبيّةٍ ودون توقّفٍ؛ وتلك إشارةٌ إلى أنّها توشك أن تنطق بحقيقةٍ غير سارّةٍ: «أمّا الشرط الثالث يا صغيرتي، فهو ضرورة التوقّف عن زخّ الناس بوابلٍ من الأسئلة؛ إنّ الملاحظة طريقةٌ جيّدةٌ للتعلّم. هل تدركين؟. فإن تصغي بفمٍ مُقفلٍ وعينين متيقّظتين وأذنين مترصّدتين؛ فسوف تكتشفين سحرَ الحياة بصورةٍ أفضل من أن تجوبي في أنحية هذا السطح، متلصلصةً على كوكب الزهرة، أو مترقّبةً ظهور الهلال!». لقد أثارت هذه الكلمات في نفسي

(*) في الأصل Stela. اشتقاقٌ من «السّطل» يجمع على أسطال وسطول. إناء معدنيّ ذو عروةٍ يُحمل بها، وهو يقابل «الدلو». والكلمة فارسيّة الأصل دخلت على العربيّة. تصغّر على «سُطَيْل».

شعوراً بالقلق مشوباً بالخُيَلَاء. هو شعورٌ بالقلق لأنّه من الجليّ أنّ تدرُّبي غير المشروع على ضروب السحر والتعاويذ وغيرها من وصفات السحر لم يعد خافياً على أحدٍ؛ وشعورٌ بالخيلاء لأنّه مهما كان عدد الأسرار الموجودة، فهي تنتمي إلى عالم الكبار أكثر ممّا تخصّ عالم الأطفال؛ فالسحر هو سرٌّ أكثر جدّيّةً - وإلى حدٍّ كبيرٍ - من سرّ اختلاس بعض الفاكهة قبل موعد تناولها المحدّد بعد وجبة الطعام، أو من الهروب دون دفع المستحقّ لميمون بائع القضاميّ. كما كنت فخورةً بنفسي لأنّني أدركت أنّ السحر كالمُثلَّجات تماماً، يمكن أن تكون له نكهاتٌ مختلفةٌ، وكنت أتذوّق إحداها، وأنا أنسج صلاتٍ بيني وبين النجوم، وأركّز على أحلامٍ خفيَّةٍ، وأنميّ جناحيّ الداخليّين. كنت أتذوّق نكهةً أخرى، لكنّها نكهةٌ عابرةٌ أكثر من سابقتها، ولم أكن أجد أحداً - على ما يبدو - ليساعدني في تشكيل فكرة عن هذه الطريقة الثانية، ورغم ذكرها في كتب شامة، لم أحظَ يوماً بالوقت الكافي لبلوغها خلال قراءتي.

في أثناء تلك الساعات المشهودة عصرَ ذلك اليوم، كان لديَّ شعورٌ غريبٌ بأنّ أحداً ما يدبّر حيلةً سحريّةً لإنبات أجنحةٍ خفيَّةٍ، أو يطلق صوراً عن التحليق في جوّ الفناء الهادئ ظاهريّاً. لكن من كان ذلك الساحر؟. لقد أبقيت شفتيّ مطبقتين، وحدّقت راصدةً الأجواء المحيطة. كانت النسوة المشغولات بطرازتهن منقسماتٍ إلى فريقين، وكان كلّ فريقٍ يركّز بصمتٍ على الرسم الذي يطرّزه، لكن حين يسود صمتٌ من هذا النوع في الفناء، فذلك يعني أنّ هناك حرباً صامتةً تنشب، وبمراقبةٍ دقيقةٍ لمواضيع تلك النقوشات كان من الممكن اكتشاف سبب هذه الحرب؛ ألا وهو الصراع الأبديّ بين *«التقليدي»* و*«العصري»*. كانت شامة وأمي اللتان تمثّلان فريق العصريّات، تطرّزان رسماً يشبه جناح طيرٍ ممدوداً في أقصى درجة من طيرانه، وليست تلك بالمرّة الأولى التي يُرى فيها مثل هذا الرسم. لكنّ الجرأة تبقى ذاتها بكلّ تأكيدٍ؛ إذ إنّ الفريق الثاني الذي تترأسه جدّتي لالا ماني ولالا راضية قد أدان هذا العمل كسوابقه؛ بحجّة أنّه غير لائقٍ

بتاتاً. ونسوة هذا الفريق كنّ يطرّزن رسماً تقليديّاً، وكانت العمّة حبيبة إلى جانبهن، مشارِكةً لهنّ في *«مرئِيَمتهن»*؛ لأنّها لم تكن تستطيع أن تجاهر بآرائها الثوريّة، وكانت تحرّك إبرتها بصمتٍ، ولا تهتمّ إلا بأمورها الصغيرة.

أمّا فريق العصريّات في المقابل، فلم تكن نساؤه يظهرن أيّ تواضع، بل كانت لشامة ولأمّي سيماء استفزازيّةٌ متباهيتين بقبّعتين مماثلتين لآخر قبّعات أسمهان الشهيرة، وهي عمرةٌ من المخمل الأسود المزيّن بلآلئ صغيرةٍ، وكانت للعمرة مقدّمةٌ مثلّثة الشكل، تنسدل على الجبين وقد طُرِّزت عليها كلمة «ڤيينّا». وبين الفينة والأخرى، كانت شامة وأمي تدندنان أغنية *«ليالي الأنس في ڤيينا»* ذات الصيت الذائع، والتي أوحت بفكرة القبّعة. وكانت لالا ماني تُقطّب كلّما بدأتا بغنائها؛ لأنّها كانت ترى في أغنيةٍ عن المتعة المنحلّة في إحدى العواصم الغربيّة إهانةً للإسلام ومبادئه الأخلاقيّة.

لقد حاول سمير ذات يوم أن يعرف ما الذي يجعل ڤيينّا شديدة التميّز، فقال له زينٌ: إنّها مدينةٌ يرقص الناس فيها رقصةً تُدعى الڤالس طيلة الليل، ويؤدّي هذه الرقصة رجلٌ وامرأةٌ يضم أحدهما الآخر بقوّةٍ، ويرقصان على مدى ساعاتٍ، وهما يدوران حول بعضهما إلى أن يُغمى عليهما لشدّة الحبّ والبهجة، تماماً كرقصة الاستحواذ، غير أنّ النسوة لايرقصن وحدهن. وكلّ هذه العناقات والرقصات تتمّ في صالاتٍ مزيّنةٍ تزييناً رائعاً، أو حتّى في الشوارع خلال بعض الأعياد، فيما تتلألأ أنوار المدينة عبر الظلام الدامس. عندها زمجرت لالا ماني غاضبةً: «حينما تشرع ربّات البيوت المسلمات الصالحات يحلمن برقصاتٍ غير محتشمةٍ في مدينةٍ أوروبّيّةٍ فاحشةٍ، فتلك هي نهاية العالم». كانت والدة شامة لالا راضية معارضة لاعتمام ابنتها القبّعة الڤيينّيّة في البداية، وقد اتّهمت أمي بأنّ لها تأثيراً سيّئاً على ابنتها. لقد أصبحت العلاقة بين لالا راضية وأمّي متوتّرةً للغاية، حتّى أنّهما لم تعودا تتبادلان

الحديث تقريباً. عندما رأى أبي القبّعة الفينيّة على رأس أمّي للمرّة الأولى، أصابه الذهول، لكن بما أنّه قد وضع لتوّه حدّاً لاستيهاماتها بالذهاب إلى المدرسة؛ فلم ينبس ببنت شفةٍ. بعدئذٍ، ساءت الأمور وقتَ أصيبت شامة بنوعٍ من الشرود اللاوعي، بعد أن وقعت ضحيّةً لأزمة «همّ»، إلى حدّ أنّ لالا راضية لم تتراجع عن موقفها وحسب، بل أعادت بنفسها وضع القبّعة على رأس ابنتها، غير أنّ شامة أمضت بعض الوقت قبل أن تصحو من شرودها.

في عصر ذلك اليوم الذي يفيض سحراً على نحوٍ خاصٍّ، تابعت لالا ماني عِظَاتها المملّة والمطوّلة عن ضرورة التقيّد «*بالتقاليد*». ففي نظرها كلّ ما ينتهك تراث الأجداد لايمكن اعتباره صالحاً جماليّاً، وذلك ينطبق على عمرات وتسريحات الشعر، كما ينطبق على القوانين والعمارة؛ فالتجديد مكافئ للقبح والانحلال. وكانت تقول: «بإمكانكنّ أن تكنّ متأكّداتٍ من أنّ أجدادكنّ قد اكتشفوا الطريقة المثلى للتصرف». ثمّ وجّهت نظرتها إلى أمي وأضافت: «كيف يمكننا أن نكون أكثر حنكةً من جميع الأجيال التي سبقتنا؟». والإتيان بشيءٍ جديدٍ هو «*بدعة*»، أي انتهاك خطير للتقاليد المقدّسة. عندئذٍ توقّفتْ أمّي عن التطريز لهنيهةٍ؛ للردّ على لالا ماني: «إنني أضحّي يوميّاً، وأخضع للتقاليد كي تجري حياة هذه العائلة السعيدة بسلامٍ، لكن هناك بعض النشاطات الشخصيّة جداً، كالطرازة أو تسريحِ الشعر وارتداء العمرات، تشكّل متنفّساً بالنسبة إليّ، ولا أريد أن أتخلّى عنها، وأنا لم أحبّ يوماً الطرازة التقليديّة، ولا أرى ما يمنع الأشخاص من تطريز الرسوم التي تروق لهم. أنا لاأؤذي أحداً وقتَ أبدع رسماً مبتكراً لطيرٍ ما بدل أن أطرّز الرسم التقليديّ الفاسيّ البائس نفسه. فضلاً عن أنّ هذه المدينة تكتم أنفاسي؛ لأنّني لا أحلم سوى بمساحاتٍ شاسعةٍ يمكنني القفز في أطرافها». كان الجناحان اللذان تطرّزهما شامة وأمي يعودان لطاؤوسٍ أزرق، وهذا الرسم مخصّصٌ لتزيين «*قميص*» من الحرير الأحمر يعود لشامة، وحين تنجزان طرازته، ستعملان على طرازة واحدٍ آخر

مماثلٍ له من أجل أمّي؛ فقد كانت النسوة اللواتي يتشاركن في الآراء نفسها يلبسن غالباً بطريقةٍ متماثلةٍ إظهاراً لتضامنهن.

كان طاؤوس شامة مستوحىً من «*حكايات الطيور*» التي ترويها شهرزاد، وكانت أمّي تعشق هذه القصّة لأنّها كانت تشتمل على الموضوعين المفضّلين لديها: الطيور والجزائر المهجورة. لقد فرّت الطيور ـ بقيادة طاؤوسٍ ـ من المخاطر المحدقة بإحدى الجزائر؛ وهي تَنْشُد الأمن في جزيرةٍ أخرى، فتروي شهرزاد لزوجها في الليلة السادسة والأربعين بعد المئة هذه الحكاية: «...بلغني أيّها الملك السعيد أنّه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان طاووسٌ يأوي إلى جانب البحر مع زوجته وكان ذلك الموضع كثير السباع وفيه سائر الوحوش غير أنّه كثير الأشجار والأنهار وذلك الطاووس هو وزوجته يأويان إلى شجرةٍ من تلك الأشجار ليلاً من خوفهما من الوحوش ويغدوان في طلب الرزق نهاراً ولم يزالا كذلك حتّى كثر خوفهما فسارا يبغيان موضعاً غير موضعهما يأويان إليه فبينما هما يفتّشان على موضعٍ إذ ظهرت لهما جزيرةٌ كثيرة الأشجار والأنهار فنزلا في تلك الجزيرة وأكلا من أثمارها وشربا من أنهارها...»(*)[1].

ماكان يسرّ شامة في هذه الحكاية هو أنّ الزوجين شرعا بالبحث عن جزيرةٍ أكثر مواءمةً لهما، وكانت فكرة التحليق ـ بهدف إيجاد ما يحقّق لكم السعادة عندما لاتكونون سعداء ـ تبهر شامة؛ فتطلب من العمّة حبيبة أن تعيد رواية مطلع الحكاية لمَراتٍ عدّةٍ، دون أن تكلّ أو تملّ، إلى أن يحتجّ الحضور صائحين بها: «إنّك تعرفين القراءة، وما عليك سوى أن تحضري الكتاب، وتعيدي قراءة هذا

(*) اعتمدنا في هذا على طبعة بولاق ـ صادر التي بين أيدينا، حيث لا اختلاف بين الأصل وما يقابله في الطبعة المذكورة، لا من حيث الحكاية ولا من حيث عدد الليلة. وقد قمنا بنقلٍ حرفيٍّ رغم ضعف اللغة في بعض المواقع. (طبعة دار صادر ـ الجزء الأول ـ الليلة السادسة والأربعون بعد المئة ـ ص 301). وفي طبعة دار العودة تبدأ الحكاية في الليلة الرابعة والسبعين بعد المئة (الجزء الأوّل ـ ص 448).

المقطع بقدر ما تشائين. اقرئيه مئة مرّةٍ إن أردت، ودعي العمّة حبيبة تكمل الحكاية. كفّي عن مقاطعتها!». وكان الجميع يتحرّق شوقاً لمعرفة ما سيحلّ بالطيرين؛ إذ إنّ سحر القصّة التي تشكّل جزءاً من الطقس الحكاياتيّ يسري فعله دائماً، وكانت كلّ واحدةٍ من المستمعات تتماهى بتلك المخلوقات الهشّة صاحبة المغامرة والتي تنطلق في مغامراتها الخطرة صوب المجهول. لكنّ شامة كانت تدرك جيّداً أنّ القراءة لأقلّ تسليّةً بكثيرٍ من الاستماع إلى العمّة حبيبة وكلماتها الرائعة تنساب من فمها كالدرر. وكانت تعبّر عن رأيها، موجّهةً نظرة تحدٍّ نحو لالا ماني: «أريدكن يا سيّداتي أن تفهمن مغزى هذه القصّة. إنّها ليست قصّة طيورٍ فقط، بل هي قصّتكن أيضاً. إنّها تتحدّث عنّا وعنكن وعنّي. فأن تكون الحياة نابضةً فيكنّ يعني أن تتحرّكن وتبحثن عن الأماكن التي تلائمكن، وتجبن الأرض بحثاً عن جزائر أحسن استضافةً لكُنّ. إنني أنوي الزواج برجلٍ أستطيع أن أمضي معه نحو اكتشاف جزائر مجهولةٍ!». عندها، كانت العمّة حبيبة ترجوها بألّا تستخدم حكاية شهرزاد المسكينة هذه، من أجل الترويج لأفكارها الخاصّة، خوفاً من بثّ الشقاق بين أفراد جماعتنا. ثمّ تقول متابعةً قصّتها: «أرجوكن، فلنعد إلى طيورنا». لكن على رغم إشارة العمّة حبيبة إلى النسوة كجماعةٍ وهي تتحدّث عنهن؛ لم يكن هناك في الواقع أيّ ترابطٍ يجمع بينهن.

كانت الهوّة التي تفصل بين العصريّات والتقليديّات غير قابلةٍ للتخطّي، وكان الصدام الناشب بصدد رسوم التطريز يكشف عن رؤًى متضادّةٍ تماماً للعالم بشكلٍ عامٍّ. كانت الطرازة *«التقليديّة»* عملاً مضجراً ولانهاية له، فيما كان تنفيذ الرسوم *«العصريّة»* أكثر إمتاعاً إلى حدٍّ كبيرٍ. كانت عمليّة الطرازة *«التقليديّة»* تتطلّب القيام - وعلى مدى ساعات - بغرزاتٍ صغيرةٍ ومشدودةٍ جدّاً بوساطة خيطٍ رفيعٍ؛ لتغطية بالكاد بضع سنتيمتراتٍ من القماش. وقد حاولت لالا ماني أن تدرّبني على هذه الطرازة، مانحةً إيّاي شرف الجلوس إلى *«مريمتها»*؛ لكن عندما رأت نتيجة عملي المريعة صرفتني، متنبّئةً

لي بأنّني سأصبح كأمّي غير قادرةٍ على الانضباط: «آمل أن يكون حظّك كحظّها في الزواج برجلٍ يتحمّل هذا النوع من الإهمال». كانت الطرازة «*التقليديّة*» تُستخدم لمستلزمات جَهَاز العروس من مخّداتٍ وأغطيةٍ تزيينيّةٍ للأسرّة كانت تُوضع لأشهرٍ وأحياناً لسنين كاملةٍ. يجب أن يكون للغرزات الشكل ذاته على وجهيّ القماش، ويجب أن تكون الخيوط مربوطةً بحيث تكون العقد مخفيّةً. لقد كانت لالا راضية التي لديها عددٌ كبيرٌ من البنات للزواج، بحاجةٍ إلى كميّةٍ كبيرةٍ من الطرازة «*التقليديّة*» لإعداد أجْهزاتهنّ؛ وكانت رسوم الطيور الخاصّة بشامة وأمي - في المقابل - لاتستغرق وقتاً طويلاً، كما كانت غرزاتهما أكثر ارتخاءً، وكانتا تستخدمان خيطاً مزدوجاً، ولم يكن نادراً أن تُرى عقدٌ ضخمةٌ على الوجه الخلفيّ للقماش الذي تطرّزان عليه؛ ومع ذلك كانت نتيجة عملهما توازي جمال الطرازة «*التقليديّة*»، بل أجمل منها؛ بسبب الروح الابتكاريّة في رسومهما والمزج المدهش بين الألوان. وكانت رسومهما على العكس من «*التقليدي*» غير مخصّصةٍ للعرض، بل تقتصر على الثياب الشخصيّة «*كالقمصان*» والسراويل والأوشحة.

والطرازة العصرية هي طريقةٌ مرضيةٌ بما فيه الكفاية للتعبير عن التمرّد، إذ كان يمكن تزيين عدّة أمتارٍ من القماش خلال يومين أو ثلاثة أيّامٍ، ويمكن إنجاز العمل بسرعةٍ أكبر، عبر استخدام خيطٍ ذي ثلاث ثخَاناتٍ، أو بالقيام بغرزاتٍ أوسع. «كيف لك أن تتعلّمي الانضباط إن كنت تقومين بغرزاتٍ رخوةٍ كهذه وكيفما اتّفق؟». وجّهت لي لالا ماني هذا السؤال وقتَ لاحظت طريقة عملي. لقد وجدتُ سؤالها مزعجاً. كان الجميع يقول: إنّ من غير الممكن أن يصبح المرء ذا مكانةٍ دون أن يتعلّم الانضباط؛ وأنا كنت أريد أن أصبح شخصاً له مكانته. ومنذ ذلك اليوم رحت أتنقّل من «*مريمة*» إلى أخرى، وأنا أشعر ببعض الحرّية والاسترخاء لدى العصريّات، ثم أسترجع بعض النظام والصرامة لدى السلفيّات. لم تكن العمة حبيبة تحبّ بصدقٍ أشغال الإبرة التكراريّة والمعقّدة التي تميّز

المطرّزات «*التقليدية*»، وكانت شامة وأمّي تعرفان ذلك جيّداً، لكنّ العمّة حبيبة لم يكن بمقدورها التعبير عن آرائها بحرّيّةٍ، أوّلاً بسبب مكانتها المتواضعة، وثانياً لأنّها لاتريد أن تخلّ بالتوازن القائم بين الفريقين. لقد كان التوازن ضرورياً في فناء الحريم، وكانت شامة وأمي تتبادلان النظرات بين الفينة والأخرى مع العمّة حبيبة كي تشجّعاها وتظهرا لها دعمهما.

«أرجوك عمّة حبيبة، لنعد إلى الطيور». حين كان الجمهور يطالب بقصّةٍ، كانت تتخلّص بصورةٍ آليّةٍ من عبء غرزها للإبرة. وقد لاحظت أنّها كانت دوماً ـ قبل أن تستهلّ حكايتها ـ تثبّت نظرها على بقعة السماء المربّعة التي تعلو رؤوسنا، كأنّها تشكر اللّه على الموهبة التي أنعم بها عليها، أو ربّما كانت بحاجةٍ إلى إقامة تواصلٍ مع السماء ـ لفترةٍ وإن قصرت ـ كي تستنشق بعضاً من الحياة، وتوقد شعلتها الداخليّة المرهفة. كانت الجزيرة التي وجدها الطاؤوسان جنّةً ذات نباتاتٍ وافرةٍ وجداول متدفّقةٍ، جنّةً لايستطيع بلوغها البشر، أولئك المخلوقات الخطرة التي تدمّر الطبيعة: «... ابن آدم يحتال على الحيتان فيخرجها من البحار ويرمي الطير ببندقةٍ من طينٍ ويوقع الفيل بمكره وابن آدم لايسلم أحدٌ من شرّه ولاينجو منه طيرٌ ولا وحشٌ...»(*)[2]. كانت الجزيرة تقع في مكانٍ آمنٍ، لأنّها بعيدةٌ جدّاً وسط البحر، وفي منأىً عن قوارب البشر وطرقهم التجاريّة. كانت حياة الطاؤوسين تجري بانسجامٍ وسلامٍ، إلىأن التقيا في أحد الأيّام ببطّةٍ تعاني المشاكل؛ فقد كانت ترى كوابيس غريبةً. لقد أقبلت عليهم بطّةٌ فزعةٌ غاية الفزع وهي في حالٍ يُرثى لها، لكن ما إن وصلت إلى الشجرة التي يقيم فيها الطاؤوسان حتّى اطمأنّت. لم يشكّ الطاؤوسان بأنّ للبطّة قصةً عجيبةً لترويها لهما، وسألاها عن سبب مخاوفها، فردّت عليهما: «... إنني في هذه الجزيرة طول عمري آمنةٌ ولا أرى مكروهاً فنمت ليلةً من الليالي

(*) دار صادر (الجزء الأوّل ـ ص 301). دار العودة (الجزء الأوّل ـ ص 449).

فرأيت في منامي صورة ابن آدم وهو يخاطبني وأخاطبه وسمعت قائلاً يقول لي أيّتها البطة احذري من ابن آدم ولاتغترّي بكلامه ولا بما يدخله عليك فإنّه كثير الحيل والخداع فالحذر كلّ الحذر من مكره فإنه مخادعٌ ماكرٌ... فاستيقظت من منامي خائفةً مرعوبةً وأنا إلى الآن لاينشرح صدري خوفاً على نفسي من ابن آدم...»(*)(3).

لحظةَ وصول العمّة حبيبة إلى هذه النقطة من الحكاية، كانت تنتاب شامة حالةٌ من العصبيّة؛ لأنّها كانت شديدة الحساسيّة تجاه الطريقة المتّبعة في التعامل مع الطيور على سطوح المنازل في مدينة فاس؛ فقد كان صيد عصافير الدوري (باستعمال «*الفرّاقة*»(**) أي: قاذفة الحجارة، أو بوساطة الأقواس والنشاشيب المستأجرة لهذا الغرض). رياضةٌ شائعةٌ لدى الشبّان. ومَنْ يقنص أكبر عددٍ من العصافير، كان يحوز على الإعجاب والتهليل الكبيرين. وغالباً ما كانت شامة تصرخ وتبكي وتنتحب حين كان إخوتها زين وجواد وشكيب يتسلّون بقتل عصافير الدوري. مئات العصافير كانت تحلّق مزقزقةً، وتملأ السماء ساعةَ الأصيل، كأنّها خائفةٌ من الليل الذي يدنو. وكان الصيّادون يوقعون بها بإلقاء بضع حبّاتٍ من الزيتون على أرض السطح، ثمّ يسدّدون عليها ويقتلونها. وكانت شامة تبقى متسمّرةً في مكانها ترقب إخوتها وتسألهم أيّ متعةٍ يجدونها في الإطلاق على مخلوقاتٍ صغيرةٍ كهذه؟ وكانت تقول: «حتّى العصافير لاتستطيع أن تحيا بسلام في هذه المدينة». ثمّ كانت تتمتم مؤكّدةً أنّ هناك شيئاً غير سويٍّ في المكان الذي تُعامل فيه حتّى عصافير الدوري المسالمة ـ كالنساء تماماً ـ كأنّها ضوارٍ خطرةٌ.

كي تصوّر شامة حكاية الطاوُوسين، أرادت في البداية أن تستخدم خيطاً أزرق غامقاً لتطرّز الحرير الأحمر النيّر. لكنّ نساء الحريم لايتسوّقن بأنفسهن؛ إذ لم يكن مخولاً لهنّ الذهاب إلى

(*) دار صادر (الجزء الأوّل ـ ص 301). دار العودة (الجزء الأوّل ـ ص 449/448).
(**) في الأصل Ferraka. تقابلها «النُّقَيفَة» في سوريا.

«القيساريّة»، وهو حيٌّ في «المدينة» تُكدّس فيه الأقمشة الحريريّة الرائعة وأنواع المخامل جميعها في حوانيت صغيرةٍ. وكنّ مضطراتٍ لأن يشرحن لسيدي عَلّال ما يردنه، فيذهب لإحضار طلباتهن. وقد اضطرّت شامة لأن تنتظر شهوراً قبل أن تحظى بالحرير الأحمر الذي ترغب فيه، ثمّ بضعة أسابيع أخر للحصول على الخيط الأزرق، وبعد كلّ ذلك الانتظار لم تكن الألوان موافقةً تماماً لمبتغاها؛ فقد كان مفهوم سيدي علّال للأزرق والأحمر مختلفاً عن مفهومها لهذين اللونين. وممّا هو كثير الحدوث ـ كما تبينّ لي ـ ألّا تعني الكلمات الشيء ذاته لجميع الناس، حتّى عندما نتحدّث عن تفاصيل بسيطةٍ كالألوان. لاعجب إذاً أن تثير كلمة «الحريم» نزاعاتٍ حاميةً وخلافاتٍ حادّةً. ولمن الدافع المعنويّ والمحفّز لي أن ألحظ الكبار يفتقرون لأفكارٍ أكثر وضوحاً ممّا لديّ، فيما يتعلّق بالأمور الهامّة.

كان سيدي علال ابن عمٍّ من الدرجة الثالثة للالا ماني، وهذا ما كان يمنحه بعض السلطة. لقد كان رجلاً وسيماً طويل القامة له شاربان صغيران، وهو يُحسن الإصغاء إلى حدٍّ كبيرٍ؛ وهذا ما جعل زوجته لالا زهرة مثار غيرة النسوة جميعهن. وقد كان يتمتّع بذوقٍ رفيعٍ ويرتدي صُدْراتٍ تركيّةً مطرّزةً مخيطةً بقماشٍ صوفيٍّ ثقيلٍ بُنِّيٍّ اللونِ، وسراويل مخيطةً وفق طراز سراويل الفروسية، وينتعل خُفّاً جميلاً من الجلد الرمادي. وبما أنّ معظم تجّار القيساريّة أصدقاء له؛ فهم يحتكرون له من أجل خياطة عمائمه أثمن الأقمشة التي يجيء بها الحجّاج معهم من مكّة. وسيدي علّال لايباشر أيّ مهمّةٍ قبل أن يقدّم إلى زُبوناته بضع قطراتٍ من عطره؛ وقد كان اختباراً حسّيّاً للغاية أن يُشرَح له ما هو المراد تماماً، إذ كانت النسوة يأخذن الوقت الكافي بين جملةٍ وأخرى؛ ليجدن الكلمات الموافقة بدقّة لوصف نوع الحياكة ودرجة الصقل واللمعان، أو لتحديد الدرجة اللونيّة للونٍ ما بدقّةٍ، أو لوصف لونٍ ينتج عن المزج بين لونين آخرين وإعطاء صورةٍ محدّدةٍ عنه. وكان جعل سيدي

علّال يتصوّر بشكلٍ دقيقٍ الحرير والخيوط اللازمة للطرازة، أمراً على درجةٍ كافيةٍ من التعقيد. والنسوة الأقلّ موهبةً كنّ يطلبن إلى قرائنهنّ الأكثر فصاحةً أن يحملن على عاتقهن مهمّة وصف ما يحلمن به؛ فأحلام النسوة يجب أن تُوصف له بصبرٍ وأناةٍ، فمن دون مساعدته لايمكن أن يبلغن ما يتمنّين. كانت كلّ واحدةٍ منهن تصف له نوع الأزهار وألوانها وألوان براعمها، والتي تريد أن تطرّز رسومها بها. وأحياناً كنّ يطلبن مواداً لرسوم أشجارٍ لها أغصانٌ متشابكةٌ، وبعضهن الآخر لرسم جزيرةٍ محاطةٍ بالقوارب. ولوقوعهن في أسر الحدود المفروضة عليهن، كنّ يخلقن مناظر طبيعيّةً وأكواناً قائمةً بكلّ ما فيها. وكان سيدي علّال يصغي بانتباهٍ يتفاوت تبعاً للمكانة الاجتماعية التي تتمتّع بها محدِّثته. ولسوء الحظّ، كان ينحاز أيضاً إلى جهة لالا ماني فيما يتعلّق بقضايا الأعراف والتقاليد والرسوم «*التقليدية*». وكان هذا التحيّز يضع الأرامل والمطلّقات في وضعٍ صعبٍ؛ فمن باب اللياقة، لايجوز لهن أن يحلمن سوى بالرسوم الكلاسيكيّة تماماً، ويجب عليهنّ بالتالي أن يعتمدن على النساء ذوات النفوذ، كأمّي وشامة لوصف الأقمشة الحريريّة التي توافق رسومهن المستوحاة والمبتكرة.

كانت العمّة حبيبة مجبرةً على إخفاء أحلامها المتعلّقة بالطيور في أقصى أغوار مخيّلتها. ووقتَ كنت أقوم بدور الحارسة عند الدرج؛ كي تتمكّن من طرازة رسم طيرها الأخضر البديع، على طرّازتها اللاشرعية التي تحتفظ بها مخبّأةً في الركن الأكثر عتمةً من غرفتها، كانت تقول لي: «الشيء الأساسي لأولئك اللواتي لايمتلكن أيّ سلطةٍ هو امتلاك حلم. وصحيحٌ أنّ الحلم وحده ـ دون أيّة إمكانيّةٍ لتحقيقه ـ لايستطيع أن يحوّل العالم، ولا أن يقوّض الجدران، بيد أنّه يساعد على صون الكرامة».

الكرامة هي أن تمتلكن حلماً.. حلماً قويّاً يمنحكن فيضاً من الرؤى وعالماً تتبوّأن فيه موقعاً.. حيث ستغيّر مشاركتكن ـ مهما بدت صغيرةً ـ بعضاً ممّا فيه.

أنتن في حريمِ وقتَ لايحتاج العالم إليكن.

أنتن في حريم آنَ مشاركتكن لا اعتبار لها.. وترمى نحو مهملات الزمان... وآنَ لا أحد يَنْشُدها.

أنتن في حريمٍ وقتَ تكون إنجازاتكن عديمة النفع.

أنتن في حريمٍ وقتَ الأرض تدور بينما تُدفنّ حتّى أعناقكن.. تحت وابلٍ من الاحتّقار والاستهانة.

شخصٌ وحيدٌ تكمن القدرة فيه لقلب موازين المواقع... لجعل الأرض تدور عكْسَ ذلك الاتجاه... هذاك الشخص هو أنتن.

إن تنهضن ضدّ الاحتقار.. ضدّ الاستهانة.. إن حلمتن بعالمٍ مغايرٍ.. فسوف يتغيّر اتّجاه الأرض في دورانها...

لكن يجب عليكن أن تبذلن قصارى جهودكن؛ لتتجنّبن السماح للاحتقار الذي يطوّقكن بالنفاذ إلى دواخلكن. لم يخالج العمّة حبيبة أيّ شكٍّ في هذا الأمر: «عندما تبدأ المرأة تعتقد بأنّها لاشيء؛ فإنّ عصافير الدوري الصغيرة تبكي... مَنْ سيدافع عنها في مملكة السطح إذا لم يبق أحدٌ يتشوّف عالماً بلا قاذفات حجارةٍ؟».

وكانت العمّة حبيبة تقول: إنّ على الأمهات أن يحدّثن الصبيان والبنات الصغار عن أهميّة الأحلام. «لايكفي أن تنبذي فناء الحريم هذا، بل يجب أن تكون لديك رؤية للبراري التي ستضعينها مكانها». فسألتها: لكن كيف يمكنني أن أميّز ـ بين كلّ هذه الأحلام التي تنهال علينا ـ الحلم الذي يجب التركيز عليه، الحلم الأكثر أهميّةً الذي يمنحنا هذه الرؤية؟. فكانت تردّ بجوابها المعتاد: يجب على الأطفال أن يكونوا صبورين؛ لأنّ الحلم الجوهري سوف ينبثق ويتفتّح في دواخلهم، ثمّ سيدركون عبر المتعة التي يوفّرها لهم أنّه الكنز الأصيل الذي سيبزغ النور منه. ثم طلبت منّي ألّا أقلق لأنّني أنتمي إلى ذرّيّةٍ من النساء ذوات الأحلام القوية. «كان حلم جدّتك يا سمينة أن تعتقد بأنّها مخلوقةٌ استثنائيةٌ، وهي القادمة من الريف. لم تقبل يوماً فوقيّة المدينيّات، ولم يتمكّن أحدٌ من جعلها تغيّر آراءها. لقد

غيّرت جدّك بفضل قوّة الحلم الذي جعلته يشاركها فيه. ولأمّك جناحان داخليّان أيضاً، ووالدك يحلّق معها مذ تسنح له الفرصة لذلك. وستكونين أنت أيضاً قادرةً على تغيير الآخرين. إنّني واثقةٌ من ذلك. لو كنت مكانك لما قلقت البتّة».

عصر ذلك اليوم في الفناء، هذاك العصر الذي بدأ بإحساسٍ غريبٍ بالسحر وبالأحلام المجنّحة، انتهى بشعورٍ أكثر روعةً وغرابةً. لقد شعرت فجأةً بالرضى والاطمئنان، كأنّني نفذت إلى أرضٍ مجهولةٍ لكنّها آمنةٌ. لم أكتشف شيئاً خاصّاً، ولكن انتابني شعورٌ بأنّني قد عثرت على شيءٍ هامٍّ، لم يبق عليّ سوى اكتشاف اسمه، وكنت أعرف بصورةٍ غامضةٍ أنّه يتعلّق بالحلم والواقع، لكنّني لم أتمكّن من تحديده. وقد تساءلت: هل ذلك الشعور بالسكينة ناجمٌ عن البطء الاستثنائي لأفول الشمس؟. لقد كان مغيب الشمس في فاس سريعاً جدّاً في معظم الأحيان، حتّى أنّني كنت أسأل نفسي: هل أنا أحلم بالليل قد حلّ، أو بالأحرى هل كان هناك نهارٌ؟. في ذلك العصر كانت السحب الورديّة التي تعبر بقعتنا البعيدة المربّعة من السماء بطيئةً جدّاً، حتّى أنّ النجوم بدأت بالظهور في السماء قبل أن يحلّ الظلام. اقتربتُ عندئذٍ من ابنة عمّي شامة ووصفتُ لها ما أشعر به؛ فأصغتْ إليّ بانتباهٍ شديدٍ، ثم قالت لي إنّني أنضج؛ فتملّكتني رغبةٌ جامحةٌ في أن أسألها عمّ تعنيه بقولها هذا، لكنّني خشيت أن تنسى ما تعدّ نفسها لقوله، وأن تشكو مقاطعتي للكبار دوماً بأسئلتي التي لاتنتهي؛ فتابعت حديثها كأنّها تكلّم نفسها، وكأنّ ما تقوله لايعني أحداً سواها. «النضج هو عندما نبدأ بالشعور بحركة *«الزمن»* وكأنّها لمسة مداعبةٍ». لقد جعلتني هذه الجملة في مزاجٍ رائقٍ؛ لأنّها كانت تجمع ثلاث كلماتٍ تتكرّر دوماً في كتب السحر: الحركة ـ الزمن ـ المداعبة. تابعت الإصغاء لشامة التي دفعت *«مريمتها»* وألقت كتفيها إلى الخلف مداعبةً قبّعتها الفيينّية، ثمّ سحبتْ وسادةً ضخمةً خلف ظهرها، وانطلقت في حوارٍ ذاتيٍّ

كأسلوب أسمهان، ثمّ ثبّتت نظرتها نحو أفقٍ غير مرئيٍّ، مسندةً ذقنها إلى معصمها الأيسر، وهي تضمّ كفّها بشكلٍ تهديديٍّ:

«الزمن» جرح العرب.

إنهم يشعرون بالارتياح في الماضي.

الماضي هو العودة إلى خيمة أجدادنا المنقرضين.

«التقليدي» هو أرض الأموات.

المستقبل هو الهول والإثم.

التجديد «*بِدْعَة*» إجراميّة!».

نهضت شامة وقد احتدّت بفعل كلماتها، ثمّ أعلنت للجمهور الصامت أنّها ستصرّح بأمرٍ هامٍّ، ورفعت بيد «*قميصها*» المصنوع من الدانتيلّا البيضاء، وانحنت تبجيلاً للحاضرين، ثمّ توجّهت بانحناءةٍ أخرى إلى أمّي، ونزعت قبّعتها القيينيّة، ورفعتها أمامها وكأنّها عَلَمٌ مجهول الهويّة، ثم شرعت تلقي قصيدةً موزونةً على إحدى أفاعيل الشعر الجاهلي:

«بَنُو العُرْبِ في أذهانِهِمْ ما المراهَقَةْ؟

بربِّ العُلى حبًّاً أما مِنْ مُخَبِّرٍ؟

أَمَأْثَمَةٌ أم.. ما تكونُ المراهقةْ؟

فهل منكمُ مَنْ يعرفُ الردَّ صادقا؟

مُرادي أعيشُ الحاضرَ الحقَّ خالِقَةْ.

أهذي جريمةٌ؟

مُرادي على جلدي أحسُّ بِمَلْمَسٍ.. لذيذٍ، وفي كلِّ اللُّحَيْظَاتِ مارِقَةْ..

أهذي خطيئةٌ؟

وهل منكمُ مَنْ يشرحُ الآنَ لي: علامَ يزهو مُقَامٌ من أعاصِرَ سابقةْ؟

لماذا يَقلُّ الحاضرُ الآنَ شأنُهُ..

يقلُّ عَنِ الماضي؟

وهل منكمُ مَنْ يشرحُ الآنَ لي: علام يخبو مقامٌ من أعاصِرَ لاحِقةْ؟

لماذا «*ليالي الأنس*» ليست سوى هناك... في «ڤيينّا»؟

لماذا «*ليالي الأنس*» ليست هنا ـ وفي... «مدينة فاس»؟».

في تلك اللحظة تهدّج صوت شامة بانخفاضٍ، وتحوّل إلى تمتمةٍ تخنقها العبرةُ؛ فقفزت أمّي التي تعرف نزعةَ شامة الطبيعيّة في الانتقال من الضحك إلى البكاء، وقامت بانحناءة احترام للجمهور، ثمّ ساعدت شامة لتجلس فوق الصُفَّةِ. وبحركاتٍ مَلَكيّةٍ مبالغٍ فيها، رفعت أمّي بدورها قبّعتها الڤيينّيّة، وحيّت الجمهور المتنبّه والمُنظّم في جاهزيّةٍ للوصلة التالية، وكأنّ كلّ شيءٍ كان متوقّعاً:

«سيّداتي وسادتي الغائبين،

«ليالي الأنس» في ڤيينّا!.

وما علينا سوى استئجار حميرٍ فِحالٍ للذهاب إلى الشمال؟.

والسؤال الأساسي الذي يطرح نفسه هو التالي:

كيف يمكن أن نجهّز جَواز سفرٍ لحمارنا الريفيّ الصغير الفاسيّ؟.

وكيف سَنُلبس حيواننا الدبلوماسي؟.

وفق الطراز المحليّ أم الأجنبيّ؟.

«*تقليدي*» أم «*عصري*»؟.

فكّروا جيّداً!.

وسواء أأجبتم أم لم تجيبوا،

فإنّ جوابكم لايهمّنا البتّة!».

21

بَشَرَةٌ ناعمةٌ

نشأت القطيعة بيني وبين سميرٍ قُبيل بلوغي سنّ التاسعة، عندما أعلنت شامة رسميّاً أنّني ناضجةٌ. وفي ذلك الوقت أدركت أنّه غير مستعدٌّ للانغماس في مسائل العناية بالبشرة على نحوٍ جدّيٍّ كما هو الحال بالنسبة إليّ، وقد حاول إقناعي بأنّ أساليب التجميل ذات أهمّيّةٍ ثانويّةٍ، فيما حاولت من جهتي إقناعه بأنّ الخيرَ لايمكن ترقّبُه من شخصٍ يهمل بشرته؛ إذ إنّ الجلد هو الغلاف الخارجي الذي نشعر عبره بالعالم الخارجيّ، وعن طريق رأيي هذا كنت أعرض نظريّة العمّة حبيبة التي أصبحتُ من أتباعها الورعين. والحقّ إنّ الأمور قد بدأت تفسد بيني وبين سميرٍ قبل وقتٍ سبق، وكان ينعتني بـ «*عَسَيْلَة*»(*) (أي تصغير كلمة عسل) وقتَ يباغتني وأنا أدندن أغنية «*انتصار الشباب*» (وهي إحدى الأوبريهات الرومانسيّة لأسمهان) بصوتٍ مرتجفٍ عن سابق قصدٍ. و«*عسيلة*» شتيمةٌ كانت تُطلق في شوارع «المدينة»، ومعناها: لزج - دبق - هلامي - عديم النشاط، ويطلق هذا اللقب على من هو رخوٌ وكسولٌ، ولمّا كان يُؤخذ عليّ شرودي وبطئي؛ فقد رجوته بأن يتوقّف عن إطلاق هذا النعت المريع، ووعدته بالمقابل أن أنجّيه من رجفاتي الصوتيّة. رغم كلّ

(*) في الأصل Assila .

شيءٍ ساءت الأمور أكثر فأكثر بيننا. لقد كان يسخر من اهتمامي بكتب السحر ووصفات الإغواء وبالرقيات الفلكيّة، وتركني وحيدةً دون حمايةٍ، أواجه الجانّ الخطرين الذين يتهدّدونني مع قلب كلّ صفحةٍ من صفحات كتب شامة. وأخيراً وصل ـ في أحد الأيام ـ النزاع بيننا إلى مرحلةٍ حرجةٍ، واستدعاني سميرٌ إلى اجتماعٍ طارئٍ على السطح المحرّم، وأبلغني التالي: إن تابعت الاختفاء كي أشارك بمعالجات العناية بالبشرة النسائية، ثم أرجع بعدئذ لألاقيه على السطح بوجهٍ وشعرٍ مغطّيان بأقنعةٍ دهنيّةٍ لها رائحةٌ كريهةٌ؛ فسوف يبحث عن رفاقٍ آخرين للّعب معهم، فالأمور لايمكن أن تستمرّ على هذا النحو.

كان عليّ الاختيار بين اللعب والجمال، وقد حاولت أن أجعله يتعقّل، فأعدت على مسامعه نظريّات العمّة حبيبة التي يحفظها عن ظهر قلبٍ. لقد كانت العمّة حبيبة على قناعةٍ بأنّ الرجال إن وضعوا الأقنعة التجميليّة بدل أقنعة الحرب، فإنّ العالم سيكون أفضل بكثير؛ لكنّ سميراً رفض هذه النظريّة ناعتاً إيّاها بالحمق، وكرّر إنذاره الأخير: «عليك أن تختاري فوراً، فأنا لا أريد أن أجد نفسي ـ وعلى مدى يومين متواصلين ـ وحيداً دون رفيقٍ ألعب معه». ولمّا رأى مدى اضطرابي خفّف من حدّته بعض الشيء، وأضاف بأنّني أستطيع أن أفكّر قليلاً، فأجبته: لا داعي لذلك فقد اتّخذت قراري. «قدر المرأة أن تكون جميلةً، وأنا أنوي أن أشعّ كالقمر». ومع ذلك فقد اجتاحني شعورٌ غامضٌ بتأنيب الضمير وبالخوف، وابتهلت ودعوت إلى الله أن يجعل سميراً يرجوني أن أغيّر رأيي، حتّى أحافظ على ماء وجهي، ويا للعجب! ذلك ماحدث فعلاً. «لكن فاطمة! اللّه وحده المسؤول عن الجمال، وليس بطلاء نفسك بالحنّاء أو بـ *«الغسول»* (•) ـ تلك الطينة المبتذلة ـ أو لا أدري بأيّة مادّةٍ مستخلصةٍ مُقزّزةٍ سوف تتحوّلين إلى قمرٍ. فوق ذلك، فقد حرّم الله على المرء تغيير شكله

(•) في الأصل Ghassoul .

الخارجي، وأنت ـ والحال هذه ـ تعرّضين نفسك للذهاب إلى النار». ثم كرّر سميرٌ: إنّني إن اخترت الجمال، فسيكون مجبراً على إيجاد شخصٍ آخر يلعب معه. كان الخيار مؤلماً، لكن عليّ أن أعترف بأنّ شعوراً غريباً بالنصر والفخر لم أشهده من قبل انتابني حتّى أعماق أعماق نفسي، وهو شعورٌ لم أدرك معناه إلّا بعد مضيّ زمنٍ طويلٍ.

لقد كان ذلك الشعور ناجماً عن إدراكي لما يحمله سميرٌ لي من شأنٍ واعتبارٍ في قرارة نفسه. إنّه لايستطيع أن يحيا على هذا السطح دوني. وهذاك كان شعوراً استثنائيّاً، حتّى أنّني لم أستطع أن أكبح جماح رغبتي في أن أمضي بالمزيّة التي أتمتّع بها إلى أبعد من ذلك؛ فثبّتُّ نظري على نقطةٍ محدّدةٍ من الأفق، وعلى بُعد بضعة سنتمترات عن أذن سميرٍ، همست بصوتٍ يكاد لايُسمع، وبنبرة المرأة المُغْوِيَة ـ نبرة أسمهان ـ أو على الأقلّ هذا ما كنت آمله:

«سميرا.. أعرف أنّك لاتستطيع أن تعيش دوني، لكن أعتقد أنّ الوقت قد حان لتدرك أنّني أصبحت امرأةً». ثم أضفت بعد فترة توقّفٍ محسوبةٍ بدقّةٍ: «على طريقينا أن يفترقا». وبغية تقليد أسمهان؛ كان عليّ ألّا أنظر إلى سميرٍ، رغم رغبتي في التحقّق من الأثر المدمّر لكلماتي، فقاومت هذا الشعور، وبذلت جهداً في التركيز على النقطة التي اخترتها من الأفق، لكنّ سميراً فاجأني: «لا أعتقد أنّك أصبحت امرأةً، أوّلاً أنت لم تبلغي التاسعة من عمرك بعد، ثمّ ليس لك نهدان، بينما كلّ النساء لهنّ نهودٌ». لم أكن أتوقّع إهانةً كهذه؛ وهذا ما جعلني أستشيط غضباً، وقرّرت أن أكون شرّيرةً بدوري: «سميرا. بنهدين أو دونهما، فقد قرّرت من الآن وصاعداً أن أسلك سلوك امرأةٍ، وأمضي الوقت اللازم للاعتناء بجمالي. ولبشرتي وشعري الأولّيّة على اللعب. *«وداعاً»*(*) سمير. بإمكانك أن تبحث عن رفيقٍ آخر للّعب». وبناءً على هذه الكلمات التي كانت تنذر بتغييرٍ كبيرٍ في حياتي، بادرت إلى النزول من السطح بوساطة وتديّ حبل

(*) في الأصل Wada' .

الغسيل المهتزّين، وقد ثبّتهما سميرٌ دون نقاشٍ، وعندما وصلت إلى الأرض أمسكتهما بدوري كي يتمكّن من النزول، فانزلق إلى الأسفل دون أن يتفوّه بكلمةٍ؛ وتسمّرنا متقابلين لبضع ثوانٍ، وشدّ كلٌّ منا على يد الآخر بحفاوةٍ كبيرةٍ، مثلما يفعل والدي وعمّي في المسجد بعد صلاة الأعياد، ثمّ غادرنا المكان في هدوءٍ مؤثّرٍ.

نزلت نحو الفناء، حيث شُرع بالمعالجات التجميليّة، وبقي سمير حَرِداً على شرفة السطح المعهودة. كان الفناء يغلي بالنشاطات التي كان أهمّها يجري حول البحرة، وهي المنفَذ السهل لغسل الأيدي، وشطف الأواني والأمشاط. ووُضعت المُكوّنات الأساسيّة ـ كالحنّاء والبيض والعسل والحليب والطين والزيوت بأنواعها ـ في جرارٍ زجاجيّة حول البحرة. بالطبع، كان زيت الزيتون وافراً جداً، وقد جيء بأفضل أنواعه من الشمال على مسافةٍ تقلّ عن مئة كيلو مترٍ من فاس، أما الزيوت الأثمن، كزيت اللوز أو زيت لوز البربر، فكانت كميّاتها أقلّ، وهي تُحضّر من شجراتٍ تحتاج إلى الكثير من أشعة الشمس جيء بها من خارج فاس، ولاتنمو إلّا في مناطق أغادير ومرّاكش. للتوّ، غدا النصف من نساء الحريم في مظهرٍ قبيحٍ، وقد طلينْ وجوههن وشعورهن بطبقة من المواد الدبقة. كانت رئيسات الفرق يجلسن في أمكنة الشرف على كراسٍ خفيضةٍ مريحةٍ، ويقمن بأعمالهن في هدوءٍ قدسيٍّ؛ لأنّ أقلّ خطأ في طريقة المعالجة التجميليّة قد تنجم عنه عواقب خطيرةٌ، فالخطأ في العيارات أو الخلطات أو تحديد الكميّات أو المدّة الزمنيّة اللازمة لبقاء المستحضرات على الجزء المُعَالَج، قد يتسبّب في حدوث حساسيّةٍ أو حكّةٍ، أو بما هو أسوأ من ذلك، أي تحويل لون الشعر من الأحمر إلى الأسود الفاحم مثلاً، أو إعطاء الشعر ذي اللون البنّي الفاتح تدرّجاتٍ بنفسجيّةً خليقةً بمصّاصي الدماء الذين كانوا يظهرون في جزائر الواق واق مذ كانت العمّة حبيبة تجعلنا نرسو على شواطئها. كانت هناك ثلاث فرقٍ في العادة: الفرقة الأولى متخصّصةٌ بأقنعة الشَّعْر التجميليّة، والفرقة الثانية بمستخلصات الحنّاء، أمّا الفرقة

الثالثة فكانت مختصّةً بأقنعة الوجه التجميليّة وبالعطور. كان لكلٍّ فرقةٍ «*خانونها*» الخاصّ، وطاولةٌ خفيضةٌ مغطّاةٌ بعدّةٍ معقّدةٍ من المساحيق والمُلوّنات الطبيعيّة، كقشور الرمان المجفّفة، وصباغ الجوز (الذي يؤخذ من عصير قشرة الجوز)، والزعفران، وجميع أنواع الأعشاب والأزهار ذات الرائحة الزكيّة، بما فيها الآس والورود المجفّفة و«*الزَهَرْ*» (زهر البرتقال). كانت هذه المواد ـ في معظمها ـ ماتزال مغلّفةً بالورق الأزرق المستخدم أصلاً لتعبئة السكر، والذي يعيد الباعة استعماله لتغليف هذه المواد الثمينة[1].
وكانت هناك عطورٌ مستوردةٌ ـ كالمسك والعنبر ـ محفوظةٌ في قواقع جميلةٍ، وموضوعةٌ في قوارير كريستاليّةٍ لتأمين حمايةٍ إضافيّةٍ لها؛ كما كانت هناك رُزَمٌ من الأواني الفخّارية الممتلئة بأخلاط غريبةٍ تنتظر تحويلها إلى مساحيق عجائبيّةٍ. وأكثر تلك الأخلاط سحراً، هي تلك التي تعتمد في تكوينها الأساسي على الحنّاء، وكان على خبيرات الحنّاء تحضير أربعة أنواعٍ منها لإرضاء أذواق نسوة الفناء جميعهن. لأولئك اللائي يرغبن بتدرّجاتٍ لونيّةٍ حمراء، كان يُضاف إلى الحنّاء نقيعٌ مغليٌّ من بعض قشور الرمّان، مع ذُرارةٍ من صباغٍ قرمزيّ؛ وللراغبات بدرجاتٍ لونيّةٍ أكثر قتامةً، كانت تُمزج الحنّاء مع عصارةٍ فاترةٍ من صباغ الجوز؛ أمّا اللواتي يُرِدْن تقوية شعورهن وحسب، فقد كانت الحنّاء الممزوجة مع التبغ تؤدّي إلى نتائج باهرةٍ؛ ومن أجل الآملات بعلاجٍ مُطَرٍّ، كانت تُحضّر الحنّاء بهيئة مزيجٍ مخفّف التركيز، ثمّ تُجبل بزيت الزيتون مع جوز البربر أو اللوز، قبلَ أن تُدلك بها جلدة الرأس. كانت علاجات التجميل الشيء الوحيد الذي تتّفق عليه النسوة جميعهن، والتجديد في هذا المجال لم يكن وارداً قطّ؛ فهنّ جميعاً ـ بمن فيهنّ شامة وأمي ـ يلتزمن بالتقاليد، ولايقدمن على أيّ خطوةٍ قبل مشورة لالا ماني ولالا راضية.

كانت النسوة الكبيرات مقزّزاتٍ فعلاً وهنّ مغطّياتٌ بكلّ تلك الأقنعة من الفواكه والخضار والبيض، ومرتدياتٌ أعتق «*قمصانهن*».

وبلا عمراتهن المعقّدة المعتادة ومناديلهن المبتكرة، كانت ـ على حين غرّةٍ ـ تبدو رؤوسهن أكثر صغراً، وعيونهن أكثر غوراً، فيما أقنيةٌ من السوائل القاتمة تجري على أذقانهن ووجناتهن. وعلى ما يبدو، كان من الضروري جدّاً أن تُبشّع الواحدة منهن نفسها قدر الإمكان وقتَ تستعدّ للحمّام؛ بحجّة أنّ المرأة كلّما قبحت قُبيل دخولها إلى الحمّام، حظيت بفرصٍ أكثر للظهور جميلةً بُعيد خروجها منه. وأولاء اللواتي ينجحن في الظهور بالمظهر الأكثر ترويعاً، كان يُصفَّق لهن، وتوضع لهن «مرآة رعب» الحمّام، وهي مرأةٌ عجيبةٌ كانت طبقتها القصديريّة جدّ مهترئةٍ، وكانت لها قدرةٌ مخيفةٌ على تشويه ملامح الأشخاص، مُحوِّلةً العينين إلى نقطتين شيطانيّتين بالغتيّ الصغر. لم أكن أقرب من هذه المرآة التي كانت تسبّب لي فزعاً ما بعده فزعٌ.

كان طقسنا الحمّاميّ يتضمّن ثلاث مراحل: المرحلة الأولى تتمّ في الباحة المركزيّة حيث نتبَشَّع مستمتعين، ونحن نطلي شعورنا ووجوهنا. أما المرحلة الثانية فتتمّ في الحمّام بحصر المعنى، وهو ليس بعيداً عن المنزل. وهناك كنّا نتعرّى لندخل إلى مجموعةٍ من الغرف المليئة بالبخار الساخن والناعمة كالحرير. كانت النسوة بعضهن يخلعن ملابسهن كلَّها، فيما تلفّ أخرياتٌ مناشف حول أوراكهن، أما غريبات الأطوار فكنّ يبقين مرتدياتٍ سراويلهن، وهذاك ما يجعلهنّ يبدون كالمخلوقات الفضائيّة وقت تغدو سراويلهنّ مبلّلة تماماً، وكنّ يتعرّضن لجميع ضروب المُزاح والملاحظات الساخرة مثل: «لماذا لاترتدين حجاباً أيضاً وأنت في الحمّام؟». أما المرحلة الأخيرة، فهي الخروج من أركان الحمّام الضبابيّة للولوج إلى قاعةٍ واسعةٍ، حيث يمكننا أخذ قسطٍ من الراحة لبعض الوقت، ونحن ملتّفاتٌ في مناشف فقط، قبل أن نرتدي ثياباً نظيفةً. كانت قاعة الحمّام الرئيسة مزوّدةً بصُفّاتٍ مريحةٍ على امتداد جُدرانها، موضوعةٍ فوق سُمُطٍ خشبيّةٍ لتجنّب الأرض المبتلّة، ونظراً لأنّ عدد الصُفّات لايكفي الجميع، فقد كان مفروضاً بنا أن نشغل

أصغر مساحةٍ ممكنةٍ منها، وأن نجلس لأقلّ زمنٍ ممكنٍ عليها. لقد كنت أُسَرُّ كثيراً بتلك الصُفّات هناك؛ فقد كان يدهمني شعورٌ بنعاسٍ شديدٍ إثر الخروج من الحمّام. في الواقع، كانت المرحلة الثالثة ـ من الطقس الحمّاميّ ـ المرحلة المفضّلة لديّ، ليس لشعوري بالتجدّد التامّ وحسب، بل لأنّ الطاقم العامل في المنشأة كان يقدّم لنا ـ حسب تعليمات العمّة حبيبة المسؤولة عن التموين ـ عصير البرتقال واللوز، وأحياناً التمر والجوز؛ لإعانتنا على استعادة بعض الطاقة. وكانت تلك إحدى اللحظات النادرة التي لاتُضطرّ الكبيرات خلالها، لأن يطلبن من أطفالهن أن يبقوا هادئين؛ فقد كنّا جميعاً نسترخي شبه نائمين على مناشف الحمّام وثياب أمّهاتنا، وكانت أيادٍ غريبةٌ تدفعنا ـ من وقتٍ لآخر ـ رافعةً سيقاننا أو رؤوسنا أو أذرعتنا، وكنّا نسمع دمدمةً لأصواتٍ تقول: إنّهم عاجزون حتّى عن رفع خناصرهم. ما ألذّه النوم آنذاك!.

كان يُقدّم في الحمّام أحياناً شرابٌ رائعٌ بروعة الأحلام، يُسمّى *«زرِيْعَة»*(*) (بالفصحى: بذور)، وكان يتمّ ذلك تحت المراقبة الشديدة للعمّة حبيبة التي كانت تتحقّق من التوزيع العادل للشراب. وكان شراب *«الزريعة»* يُعدّ من بذور البطيخ الأصفر التي تُغسل وتُجفف وتُحفظ في جرارٍ زجاجيّة تُستعمل خصّيصاً لحاجيات الحمّام (ولسببٍ لا أجد له تفسيراً حتّى الآن، لم يكن هذا الشراب السامي يُقدَّم خارج الحمّام مطلقاً). وكان على بذور البطّيخ الأصفر أن تُستهلك بسرعةٍ كبيرةٍ قبل أن تفسد، وهذا يعني أنّه لم يكن بالإمكان تذوّق *«الزريعة»* إلاّ في موسم البطّيخ الأصفر، أي لمدّةٍ لاتزيد على بضعة أسابيع في العام. كانت تُسحَق البذور وتُمزَج مع الحليب كامل الدسم وبعض قطرات ماء الزهر وذُرارةٍ من القِرفة، ثمّ يخضع المزيج إلى عمليّة ترويقٍ فيُهدّأ مع الثُّفْل، ويجب الحذر من تحريكه كثيراً كي يترسّب الثفل في القاع. وإذا كنّا لانستطيع كبح رغبتنا في النوم بعد

(*) في الأصل Zeri'a .

الحمّام، وحالفنا الحظّ بأمّهاتٍ لدينا هنّ في غاية اللطف؛ فسنحظى بمحاولاتهنّ الدائمة في أن يسكبن بضع قطراتٍ من ذلك الشراب في أفواهنا حتّى لاتفوتنا تلك المتعة الفريدة. أما الأطفال الذين كانت أمّهاتهم أقلّ فطنةً، فكانوا يطلقون صيحات إحباطٍ حين يستيقظون من النوم ويرون الجرار فارغةً.

آنَ تغادر النسوة قاعة الحمّام الرئيسة وهنّ على أتمّ حشمةٍ من اللباس والحجاب، كان عليهنّ القيام بطقسٍ تجميليٍّ آخر، هو طقس التعطّر. ففي مساء اليوم ذاته، أو في صبيحة اليوم التالي، تجلس النسوة في ركنٍ هادئٍ من قاعتهنّ ـ وقد ارتدين قفاطينهن المفضّلة ـ ويتطيّبن بالمسك والعنبر أو بأطيابٍ أُخَرَ يقمن بإحراقها على مِجْمَرَةٍ صغيرةٍ، ليتغلغل الدخان في ثيابهنّ وشعورهنّ الطويلة المسدلة؛ بعدئذٍ يجدلن شعورهن ويضعن الكحل وحمرة الشفاه. كان الأطفال يعشقون تلك الأيّام؛ حيث أمّهاتهم منهمكاتٌ غاية الانهماك بجمالهن إلى حدٍّ ينسين معه أن يصدرن إليهم الأوامر. لم يكن سحر الطقس الحمّامي ناجماً عن شعورنا بأنّنا نولد من جديدٍ وحسب، بل عن شعورنا بأنّ لنا دوراً نلعبه في هذه الولادة. صبيحة اليوم التالي في حجرتها، كانت العمّة حبيبة تقول وقد بدت عليها سيماء ملكيَّةٌ: «الجمال كامنٌ في الداخل، وحسبنا السعي لإخراجه»، ولم تكن تتزيّن إلّا لنفسها بمنديلها الحريري الذي لُفَّ حول رأسها كعمامةٍ، وببعضٍ من المجوهرات المُنْقذة من طلاقها والمتلألئة حول معصميها وجِيْدها. «لكن أين في الداخل؟ في القلب، في الرأس، أين بالضبط؟». لدى سماعها هذه الكلمات، كانت العمّة حبيبة تبتسم إزاء بحثي الدؤوب مطلق العنان عن التفسيرات الدقيقة. «لكن يا طفلتي المسكينة، لست بحاجةٍ إلى تعقيد حياتك!. الجمال كامنٌ في البشرة!. أحيطيها بالعناية وطرّيها ورطّبيها ونظّفيها وافركيها وعطّريها، ثمّ ارتدي أجمل ثيابك، حتّى إذا لم تكن لديك مناسبةٌ خاصّةٌ، وحينها سوف تشعرين كأنّك مَلِكةٌ. إن كان المجتمع قاسياً

عليك، فلتردّي عليه عن طريق عنايتك ببشرتك. إنّ الجلد قضيةٌ سياسيةٌ «*أَجْلِيْدَةْ سِيَاسَةْ*»(*)، وإلّا فلم يأمرنا الأئمة بتغطيته؟».

تبعاً للعمّة حبيبة يبدأ تحرير المرأة بتدليك البشرة والعناية بها، وكانت تقول: «إن أهملت المرأة بشرتها، فذلك إليها بمنزلة باب مفتوح المصراعين لضروب الخنوع جميعها». لم أكن واثقةً تماماً من أنّني فهمت معنى جملتها الأخيرة، غير أنّ كلماتها دفعتني لأن أبذل قصارى جهدي في سبيل معرفة فنّ الأقنعة الشّعريّة والوجهيّة؛ وسرعان ما أصبحت خبيرة جداً، حتّى أنّ أمّي صارت ترسلني لأتجسّس على لالا ماني أو لالا راضية، بهدف اكتشاف ماتضعانه في أخلاطهما. فقد كانتا ـ كسائر النسوة ـ تعتقدان أنّ معالجاتهنّ التجميليّة إن غدت معروفةً، فقدت فعاليّتها؛ وقد تعلّمت أشياء كثيرةً في أثناء ممارستي لتلك المهمّة، حتّى أنّني تشوّفت النجاح مستقبلاً في مهنة التجميل والسحر والأمل، وقتَ تبدو مهنة الحكواتيّة ـ كالعمّة حبيبة ـ شاقّة عليّ جدّاً في يومٍ ما. أحد الأقنعة الوجهيّة المفضّلة لديّ كان القناع الذي تستخدمه شامة لتخفيف النمش والبثور وغيرها من الإفرازات، ووصفة شامة التي لاتصحّ إلا لصاحبات البشرة الدهنيّة هي كما يلي: في البداية يجب التزوّد ببيضةٍ طازجةٍ ـ ولابأس إذا لم تكن طازجةً على قدرٍ كافٍ ـ لفصل آحها؛ بعدئذٍ اغسلن أيديكن بصابونٍ طبيعيٍّ، ومتى أصبحت نظيفةً اكسرن البيضة بعنايةٍ، وتخلّصن من المحّ، ثمّ ضعن الآح في طبقٍ خزفيٍّ، فالمعدن لايصحّ أبداً، وتناولن قطعة لابأس بها من «*الشّبّة*»(**) البيضاء والنظيفة، وأحكمن القبضة عليها، ثمّ امزجنها بقوّةٍ مع آح البيضة حتّى يتّخذ قواماً كثيفاً. بعد ذلك اطلين وجوهكن بطبقةٍ كثيفةٍ من هذا المزيج الأبيض والحُبيبيّ. وانتظرن مدّة عشر

(*) في الأصل A - jlida siyasa

(**) في الأصل Shebba. أي «الشّبّ» وهو ملحٌ معدنيٌّ قابضٌ أبيض اللون، ومنه ماهو أزرق اللون.

دقائق إلى أن يجفّ القناع تماماً، ثمّ اغسلن وجوهكن بقماشٍ قطنيٍّ أبيض (شاش) خيوطه طبيعيّة قدر الإمكان ومُبلَّلٍ سلفاً بماءٍ فاترٍ. بذلك ستصبح بَشرُكن ناعمةً وملساء. كانت العمّة حبيبة ذات البشرة الجافّة جدّاً بحاجةٍ إلى وصفةٍ أخرى مختلفة كثيراً، تتطلّب - وإن لم تكن مكلفةً - تحضيراً خاصّاً ومراعاةً للمواسم؛ ففي موسم البطّيخ الأصفر كانت تختار بطِّيخةً ناضجةً وغضّةً، وتنشئ فيها ثقباً، ثمّ تحشوها بثلاث حُفَنٍ من الحمّص النديّ، بعد ذلك تضع البطيخة المحشوّة على السطح وتتركها هناك لمدّة أسبوعين تقريباً، حتّى تغدو صغيرةً ومجعّدة لشدّة جفافها، فتضعها في جرنٍ كبيرٍ، وتدقّها حتى تصير مسحوقاً، ثمّ تحفظ هذا المسحوق في ورقةٍ مطويّةٍ داخل علبةٍ معدنيّةٍ، وفي ركنٍ بعيدٍ عن أشعّة الشمس وبمنأىً عن الرطوبة. وكلّ أسبوعٍ تُخرج قليلاً من المسحوق وتخلطه بماءٍ معدنيٍّ، ثمّ تضعه على وجهها ساعةً من الزمن، وحين تشطف وجهها وتزيل القناع بقماشٍ قطنيٍّ رطبٍ، كانت تطلق زفرة فرحٍ: «بشرتي تحبني». لكنّ قناعيّ شامة والعمّة حبيبة كانا ينظّفان البشرة فقط دون تغذيتها حقّاً. لذلك كانت الاثنتان تستخدمان الأقنعة المنظّفة أسبوعاً، والأقنعة المغذّية في الأسبوع التالي. كان أفضل هذه الأقنعة قناع الخشخاش المنثور الخاصّ بياسمينة، ووصفة التمر الخاصّة بلالا ماني. لكنّ مشكلتهما الوحيدة تكمن في أنّهما لايُحفظان، ويجب استخدامهما على الفور، وفضلاً عن ذلك، فإنّ استخدام قناع الخشخاش المنثور كان يقتصر على المواسم.

كلّ عامٍ، كانت ياسمينة تنتظر قدوم الربيع بفارغ الصبر، ومذ يبلغ ارتفاع سنابل القمح مستوى الركبتين، تذهب برفقة طامو على صهوة الحصان، بحثاً عن نبتات الخشخاش المنثور الأولى، وكانتا تنطلقان عبر حقول القمح الخصبة والواقعة حول المزرعة، لكنّهما كانتا مضطرّتين في أغلب الأحيان للذهاب بعيداً إلى ما وراء الخطّ الحديديّ؛ لاختلاس الأزهار الأولى للموسم والتي تنمو في الحقول المجاورة وتتميّز بتشميسٍ أفضل. أما أزهار الخشخاش المنثور

الخاصّة بهما فلم تكن تزهر إلّا بعد بضعة أسابيع من ذلك الحين. بعد حصولهما على الأزهار كانتا ترجعان إلى المزرعة محمّلتين بباقاتٍ حمراء ضخمةٍ. ثم تمدّان بمساعدة الضرائر الأخريات ملاءةً بيضاء على طاولةٍ، ويفرزن جميعهن الأزهار بدقّةٍ فائقةٍ، ولايُبقين إلّا على تويجاتها ومِدَقّاتها، ثمّ تُوضع الأزهار في جرارٍ (مرطباناتٍ) كريستاليّةٍ، وتُرسِل طامو من يقطف بعضاً من ثمار الليمون الواقعة في أعلى الأشجار، والمتعرّضة إلى أشعّة الشمس حتّى الإشباع، والناضجة غاية النضج، ثمّ تعصرها وتضع عصير الليمون الناتج فوق الأزهار، وتترك الأزهار منقوعةً فيه لبضعة أيّام، إلى أن تتحوّل إلى عجينةٍ ليّنةٍ. وعندما يصبح المزيج جاهزاً، كانت تُدعى كلٌّ واحدةٍ منهن إلى المشاركة في العلاج التجميليّ؛ فتسرع الزوجات جميعهنّ إلى ذلك، وكلٌّ منهنّ تنتظر دورها، وخلال عدّة ساعاتٍ تغدو المزرعة غاصّةً بمخلوقاتٍ ذات وجوهٍ قرمزيّةٍ لايظهر منها سوى العينين. «حين تغسلين وجهك، سيكون لبشرتك البريق ذاته الذي يشعّ من أزهار الخشخاش المنثور». هذا ماكانت تقوله ياسمينة بلهجةٍ واثقةٍ متغطرسةٍ أشبه بلهجة السحرة.

في «مدينة» فاس، كانت أمّي تحلم بأزهار الخشخاش المنثور، لكن وفي معظم الأحيان كان لزاماً عليها أن ترتدّ إلى أقنعةٍ تجميليّةٍ سهلة المنال؛ وعلى رغم الصعوبة في إيجاد تمورٍ ذات نوعيّةٍ كتلك التي تستخدمها لالا ماني لأقنعتها - إذ كانت تُجلب من الجزائر - يبقى الحصول عليها أسهل من الحصول على أزهار الخشخاش المنثور الربيعيّة. ويجب أن يُعزا إليّ الفضل في اكتشاف أقنعة التمر؛ لأنّني لو لم أتجسّس على لالا ماني، لما اطّلعت أمّي على ذلك السرّ. كان لبشرة لالا ماني صفاءٌ مدهشاً، ولم يكن يُلاحظ العمر على محيّاها مطلقاً. كانت تضع هذا القناع مرّةً واحدةً في الأسبوع على مدى فترة بعد الظهيرة، ولم يتمكّن أحدٌ من اكتشاف تركيبة هذا القناع، حتّى اكتشفتُ أنّه مكوّنٌ من التمر والحليب؛ وقد اضطربت لالا ماني اضطراباً شديداً لدى معرفتها بافتضاح سرّ قناعها،

وصارت منذ ذلك الحين تطرد الأطفال خارج قاعتها، كلّما شرعت بإعداد مُستخلصاتها التجميليّة. كانت لالا ماني تُعدّ قناعها بوضع تمرتين أو ثلاث تمراتٍ غضّاتٍ وكبيرات الحجم في كأس حليبٍ كامل الدسم، وتغطّيه وتتركه لبضعة أيّامٍ بالقرب من نافذةٍ معرّضةٍ لأشعّة الشمس، بعد ذلك تسحق الخليط بملعقةٍ خشبيّةٍ، وتدهن وجهها به، وتتجنّب التعرض لأشعّة الشمس. ويجب ترك القناع ليجفّ ببطءٍ، وهذا الجزء من العمليّة لم أستطع التقاطه عن طريق المراقبة، وقد اكتشفته أمّي بنفسها، عبر صبرها الشديد وبفضل جَلَدِها. «يجب أن تبقي جالسةً أمام نافذةٍ مفتوحةٍ، بل الأفضل أن تجلسي تحت مظلّةٍ على شرفةٍ لها إطلالةٌ جميلةٌ».

22

رجُلٌ في حمّام النساء

كان أبي يمقت رائحة الحنّاء، وينفر من الروائح الكريهة للمعالجات بزيت الزيتون وجوز البربر التي تستخدمها أمي لتقوية شعرها، وكان يبدو دائماً كَدِرِ المزاج صباح يوم الخميس، وقت تلبس أمّي *«قميصها»* المُزْمَدَّ المريع الذي كان أخضر اللون أصلاً (وهو هديّةٌ قديمةٌ قدّمتها لها لالا ماني، حيث جاءت به من مكّة وقت ذهبت لأداء مناسك الحج، وذلك قبل ولادتي). وتبدأ بالرواح والمجيء بشعرها الدبق المخضّب بالحنّاء، ووجهها المطلي بقناع الحمّص والبطيخ الأصفر ابتداءً من أذنها اليمنى وانتهاء باليسرى؛ وكان شعرها الذي ينسدل حتى وركيها في العادة مُشبعاً بخليط الحنّاء ومضفوراً ومربوطاً إلى أعلى رأسها؛ ممّا جعلها تبدو كأنّها تعتمر خوذةً.

كانت أمّي من عداد النساء المقتنعات تماماً بأنّه كلّما ازداد قبحهن قبل الدخول إلى الحمّام، بدين أكثر جمالاً لدى الخروج منه؛ لذا فقد كانت تبذل جهداً خارقاً في مسخ نفسها، حتّى أن شقيقتي الصغرى لم تكن تستطيع التعرّف عليها في الكثير من الأحيان، وتبدأ بالصراخ مذ تقترب منها. بدءاً من عصر يوم الأربعاء، كانت أمارات الجَهَامَةِ تظهر على وجه أبي، ويقول لها: «دوجا. أنا أحبّك طبيعيّةً كما خلقك الله. لست مضطرّةً إلى تحمل كلّ هذا الشقاء كي تسعديني.

أنا سعيدٌ معك كما أنت، رغم طبعك الرديء. أقسم، والله على ما أقول شهيد: لإنّني رجلٌ سعيدٌ. إذاً أرجوك تخلّي عن حنّاء الغد؟». لكنّ أمي كانت تجيبه الإجابة ذاتها على الدوام: «سيّدي!. إنّ المرأة التي تحبّها ليست طبيعيّةً البتّة!. إنّني أستخدم الحنّاء منذ سنّ الثالثة، ولا أستطيع أن أستغني عن هذه العمليّة لأسباب نفسيّةٍ. إنّها تجعلني أشعر بأنّني أولد من جديد. أضف إلى ذلك إنّ ملمس شعري وجلدي يغدو كملمس الحرير. وليس في مقدورك أن تنكر ذلك!».

لذلك كان والدي يتدبّر أموره يوم الخميس، ويخرج من البيت في أبكر ساعةٍ ممكنةٍ. وإذا اضطرّ إلى العودة مصادفةً، فرّ جهاراً من كلّ مكانٍ تظهر أمّي فيه. وكانت تلك لعبةً محبّذةً في الفناء (فالمناسبات التي يُصاب خلالها الرجال بالرعب من النساء كانت عمليّاً نادرة الحدوث). وكانت أمي تلحق بأبي بين الأعمدة، فينفجر الجميع بالضحك، إلى أن تخرج لالا ماني بعمرتها المهيبة إلى عتبة جناحها الخاص؛ فيتوقّف كلّ شيءٍ على الفور، حيث تقذف لالا ماني عبارتها مشدّدةً على اسم الشهرة الخاص بأمّي: «اعلمي جيّداً يا سيّدة تازي»؛ لتذكّرها بأنّها لاتنتسب إلى العائلة[1]. وتتابع: «إنّ المرأة في بيتٍ محترم لاتروّع زوجها. ربّما تجري الأمور على هذا النحو في مزرعة أبيكِ، أمّا هنا وسط هذه المدينة الدينيّة المقدّسة وعلى بعد بضعة أمتار فقط عن مسجد القرويّين أحد أرفع المراكز الإسلاميّة؛ فإن النساء يحترمن «*الشريعة*»، ويتقيّدن بما ورد في كتاب الله حرفيّاً، ويبدين الطاعة والاحترام. إنّ وضعاً مخزياً من النمط الذي لأمّك ياسمينة لايلائم إلّا لَهْوَ أولئك الفلاحين». لدى سماعها لهذه الكلمات، كانت أمي تلقي نظرةً غاضبةً على والدي، وتغادر المكان مباشرةً. لقد كانت تكره لا حميميّة الحريم، وتَدخُّل حماتها المستمرّ. «إنّ موقفها لايُحتمل، ومبتذلٌ أيضاً!. ولاسيّما صدوره عن شخصٍ يمضي وقته في وَعْظكم لاتّباع العادات الحسنة وضرورة الاحترام المتبادل!».

لقد حاول والدي في الفترة الأولى من زواجه بأمي أن يثنيها عن استخدام مستحضرات التجميل التقليدية، وأن يجعلها تجرّب استخدام مستحضرات التجميل الفرنسية التي لايتطلّب تحضيرها أدنى وقتٍ مما يتطلّبه تحضير تلك التقليدية، والتي أيضاً تعطي نتائج فوريّةً. كانت مستحضرات التجميل المجال الوحيد الذي يُؤثر فيه والدي العصريّ على التقليدي!. وبعد أحاديث سرّيةٍ مطوّلةٍ مع ابن العم زين الذي ترجم له الإعلانات المنشورة في المجلات والصحف الفرنسية، وضع قائمةً طويلةً بالمواد التي يريد شراءها، ثم ذهب ليتبضّعها من المدينة الجديدة؛ ورجع بعدئذٍ إلى البيت محمّلاً بكيسٍ ضخمٍ مليءٍ بعلبٍ جميلةٍ مغلّفةٍ بورق السيلوفان، ومعقودةٍ بأربطةٍ متعدّدة الألوان. وقد طلب والدي من زين أن يبقى في قاعتنا إلى أن تفتح أمّي العلب؛ وذلك في حال احتاجت إلى مساعدته لفهم التعليمات المدوّنة بالفرنسية. وراح ينظر إليها باهتمام وهي تفكّ غلاف كلّ منتجٍ. لابدّ أن هذه المشتريات قد كلّفته مبلغاً طائلاً من المال. وكانت مكوّنة من أصبغةٍ للوجه ومنظّفاتٍ للشعر وثلاثة أنواعٍ من المراهم التجميليّة للوجه والشعر، هذا بالإضافة إلى قوارير العطر؛ فقد كان أبي يكره بصورةٍ خاصّةٍ رائحة المسك الذي كانت أمي تحرص على تعطير شعرها به. وهَمّ يساعدها بعجلةٍ على فتح زجاجة عطر شانيل رقم 5 ، وهو يُقسم أمامها: «إنّها تحوي على كلّ الزهور التي تفضّلينها». تفحّصت أمّي كلّ المنتجات بفضولٍ كبيرٍ، وطرحت بعض الأسئلة عن تركيبها، وسألت زيناً أن يترجم لها طريقة الاستخدام ثمّ التفتت إلى والدي وطرحت عليه سؤالاً لم يكن يتوقّعه مطلقاً: «مَنْ أعدّ كلّ هذه المنتجات؟». فارتكب آنذاك خطأً قاتلاً؛ إذ قال لها: إنّ علماء قد أعدّوها في المختبرات. ولدى سماعها ذلك، تناولت العطر وأبعدت المنتجات الأخرى كافّةً. «إن جرّدني الرجال من المجال الوحيد الذي ما أزال أسيطر عليه حتّى الآن، وهو مجال مستحضرات التجميل، فسوف يمتلكون القدرة قريباً على التحكّم بسحنتي كاملةً. لن أسمح بحدوث شيءٍ كهذا. أنا أخلق سحري الخاصّ، ولن أتخلّى

أبداً عن حنّائي». وحُسمت المسألة بصورةٍ قاطعةٍ، واستسلم والدي وسائر رجال المنزل إلى منغّصات العلاجات التجميلية التقليديّة.

عشيّة الذهاب إلى الحمّام كانت أمي تضع الحنّاء على شعرها، بينما يهجر أبي قاعتنا، ويلجأ إلى قاعة والدته، لكنّه يرجع مذ ترجع أمي معطّرةً بعطر شانيل رقم 5 ، حيث تمرّ أوّل الأمر بجناح لالا ماني لتقبيل يدها، فوفقاً للعادة يجب أن تذهب الكنّة إلى حماتها بعد الحمام لتقبّل يدها. غير أن هذا الطقس ـ وبفضل الثورة الوطنية وجميع الخطابات التي تدعو إلى تحرير المرأة ـ قد أضحى طيّ النسيان في أرجاء البلاد كلّها تقريباً، باستثناء أيّام الأعياد. ولكن بما أنّ لالا راضية كانت تحافظ على هذه العادة، اضطرّت أمّي إلى فعل الشيء ذاته، بيد أنّها كانت تستفيد من هذا التقبيل لتمزح قليلاً: «هل تعتقدين يا حماتي العزيزة أن ابنك مستعدٌّ الآن لمواجهة زوجته، أم يودّ البقاء لمزيدٍ من الوقت لدى الماما؟». كانت تقول ذلك وعلى شفتيها ابتسامةٌ، بينما تقطّب لالا ماني رافعةً ذقنها؛ فقد كانت تعتبر الدعابة بشكل عام قلّةَ احترام، وإن صدرت عن أمي فهي هجوم مباشرٌ؛ لذلك تردّ عليها دوماً: «لاتنسي يا عزيزتي أنّك محظوظةٌ جدّاً بزواجك من رجل صبورٍ كابني؛ فأيّ رجلٍ آخر كان طلّق امرأةً عاقّةً تواصل وضع الحنّاء على شعرها، فيما يرجوها هو أن تتوقّف عن ذلك. لاتنسي أنّ الله قد أحلّ للرجل الزواج بأربع نساء، وإن أراد ابني استخدام هذا الحقّ المقدّس يوماً، يستطيع أن يمضي إلى سرير زوجته الثانية، وقتَ تطردينه من سريرك بحنّائك ذات الرائحة الكريهة». كانت أمي تصغي إلى جدتي بهدوءٍ وسكينةٍ تامّين حتى نهاية عِظَتِها، ثمّ تقبّل يدها دون أن تتفوّه بكلمةٍ، وتذهب إلى جناحها الخاصّ مخلّفةً وراءها غمامةً من الأريج الشانيلي.

الحمّام الذي كنّا نذهب للاستحمام وإزالة الآثار العلاجية فيه، كان مكسوّاً بالرخام الأبيض، ومزوّداً بمرايا عدّةٍ وسقفٍ مزجّجٍ يسمح بنفاذ النور خلاله. هذا الضوء العاجي، وذاك البخار الحمّاميّ لضبابيّ، وأولاء النساء والأطفال الذين يجرون في كلّ اتجاهٍ، كانوا

جميعاً يجعلون من الحمّام جزيرةً بخاريّة غرائبيّةً لاندري كيف وصلت إلى «مدينة» فاس الصارمة والمنضبطة. ولو لم تكن الحجرة الثالثة في الحمّام، لكان ممكناً أن يبقى الحمّام جنّةً.

كان هناك بخارٌ في الحجرة الأولى، لكنّ كميّته لم تكن كثيفةً، وكنّا نمرّ عبرها مروراً سريعاً لنعتاد على الحرارة الرطبة. أمّا الغرفة الثانية فكانت لذيذةً جدّاً ببخارها الكثيف الذي يكفي لأن يغطّي العالم الخارجي بهالةٍ سحريّةٍ خلّابةٍ، لكنّه لم يكن كثيفاً إلى الحدّ الذي يحول دون التنفس. وفي الحجرة الثانية كانت النسوة يشرعن بعمليّة تنظيفٍ محمومةٍ، ويتخلصن من طبقة الجلد الميتة بقطعة فلّينٍ مغلّفةٍ بالصوف المُحَاك يدويّاً بالصُنّارة، تُسمّى «مَحَكّة»(*). وكان شطف الحنّاء والزيوت المختلفة يتم باستخدام «الغَسُولْ» وهو منظّفٌ للشعر قوامه طينٌ يمنح الشعر والجلد نعومةً فائقة. كانت العمّة حبيبة تقول: «يجعل *«الغسول»* بَشَرَكنّ كالحرير، كما يجعلكن - وقتَ تخرجن من الحمّام - تشعرن كأنّكن آلهةٌ قديمةٌ». يتم تصنيع *«الغسول»* على مدار فصولٍ عدّةٍ، ويتطلّب يومين أو ثلاثةً من العمل الشاقّ، وهو مكوّنٌ من مسحوق الطين الأسمر المجفّف ذي الرائحة الزكيّة، وحين يصبح جاهزاً للاستعمال، يكفي أن يُذاب مقدار قبضةٍ منه في ماء الورد للحصول على محلولٍ سحريٍّ.

كان تصنيع *«الغسول»* يبدأ في فصل الربيع، وجميع من في الفناء كان يشارك في عمليّة التصنيع. فبادئ بدءٍ كان سيدي علّال يحضر كميّاتٍ كبيرةً من براعم الورد والريحان وغيرهما من الأزهار الريفيّة زكيّة الرائحة؛ فتسرع النسوة لنقلها إلى الطابق الأوّل، وينشرنها على ملاءاتٍ نظيفةٍ بمنأىً عن أشعّة الشمس، وبعد أن تجفّ الزهور، تُوضع جانباً في انتظار حلول اليوم الكبير الذي يُصنع فيه *«الغسول»* في منتصف فصل الصيف، حيث تُخلط الزهور عندئذٍ بالطين، وتُجفّف على شكل قشرةٍ رقيقةٍ تحت أشعّة الشمس

(*) في الأصل Mhecca.

المباشرة هذه المرّة. لم يكن الأطفال ليفوّتوا يوماً كهذا بأيّ شكلٍ من الأشكال، ليس لأنّ الكبار كانوا بحاجةٍ إلى مساعدتهم وحسب، بل لأنّه كان مخوّلاً لهم جَبْل الطين وتلويث أنفسهم كما يحلو لهم دون أيّ زجْرٍ كان. وكانت رائحة الطين المعطّر زكيّةً جدّاً، إلى حدٍّ يثير الرغبة في أكله؛ وقد حاولت وسميرٌ يوماً أن نقوم بذلك؛ فأُصبنا بآلام معديّةٍ حرصنا على كتمها؛ كي لايُفتضح أمرنا. كانت عمليّة إعداد *«الغسّول»* تتمّ حول البحرة كسائر المعالجات التجميلية، وكانت النسوة يحضرن مواقدهن الفحميّة ومقاعدهن، ويجلسن قريباتٍ من الماء؛ ليتمكنّ من غسل أيديهن وشطف الأواني والصحون بسهولةٍ. كانت كميّاتٌ كبرى من الورود والرياحين المجفّفة توضع بادئ الأمر في أوعيةٍ ضخمةٍ حيث تُطهى على نارٍ هادئةٍ؛ ثمّ تُزاح عن النار وتُترك لتبرد. كانت النسوة اللائي يحببن عطراً خاصّاً من عطور الزهور ـ كأمّي التي كانت تعشق الخُزامى ـ يفرزن هذه الزهور ويضعنها في أوعيةٍ صغيرةٍ؛ وعلى هذا الصعيد كانت النسوة يتصوّرن أيضاً أن الأثر السحريّ *«للغسول»* سوف يتلاشى إن أُفشيت الوصفة الخاصّة به، إلى حدّ اختفائهن في أقصى أغوار الطابق الأخير، وقد أرتجن وراءهن الأبواب؛ ليحضّرن في سرّيّةٍ مطلقةٍ أخلاط زهورهن ونباتاتهن الغامضة، وكانت هناك نسوةٌ منهنّ ـ كالعمّة حبيبة ـ يجفّفن ورودهن تحت ضوء القمر، وأخرياتٌ كنّ متخصّصاتٍ في لونٍ معينٍ من الأزهار. وأيضاً كانت هناك نسوةٌ يرتّلن الرقيات وهن يحضّرن أخلاطهن ليزدن من قوة تأثيرها. ثم كانت تبدأ عملية الجَبْل، فتعطي العمّة حبيبة إشارة البدء بوضع بضع حفناتٍ من الطين الجاف في وعاءٍ فخاريٍّ كبيرٍ (سلطانيّة) كالطُشتِ(*) الذي يستخدم للعجين، ثمّ تصبّ مقدار طاسٍ من ماء الورد أو ماء الريحان فوق الطين، وتترك للماء أن يتغلغل

(*) الطُشت والطَشت: إناءٌ يستعمل لغسل الأيدي، والكلمة فارسية دخلت على العربيّة، وتستخدم لدى العامّة بمعنى كلّ إناءٍ كبيرٍ مخصّص للأعمال المنزلية كالعجن والغسل وغير ذلك. والسلطانية إناءٌ خاصٌّ لتحضير السلطة.

في الطين قبل أن تعجنهما، إلى أن يتحوّلا إلى عجينةٍ ليّنةٍ. بعد ذلك تضع العجينة على لوحٍ خشبيٍّ، وتنادي علينا لنحمله إلى السطح؛ كي يُترك هناك حتّى تجفّ العجينة. كنّا نحن الأطفال مولعين بهذه المرحلة من العمليّة، وكان واحدنا ينسى لشدّة ابتهاجه أنّ الطين مايزال رخواً، ويشرع يجري بأقصى سرعةٍ؛ فيندلق المزيج فوق رأسه، ويغطّي الطين عينيه، ويضطرّ بذلك إلى تلمّس طريقه بحواسّه الأخرى ليعرف أيّ درب سيسلك. لم يجر معي مثل تلك الحادثة قطّ؛ بسبب بطئي المعتاد الذي لايتوافق ويوم تحضير *«الغسول»* ذلك اليوم الذي كان من المناسبات النادرة التي لاتحبّذ فيها مزيّةٌ كتلك المزيّة المتمثّلة ببطئي. حين كان الأطفال يتدفّقون على السطح لاهثين وعرقهم يتصبّب منهم؛ ليعطوا لأنفسهم أكبر قدرٍ ممكنٍ من الأهميّة، كانت مينا تستلم عنهم المهمّة؛ إذ يتمثّل دورها بمراقبة الألواح والسيطرة على عمليّة التجفيف؛ وساعة حلول الليل كانت تأمرنا بإدخال الألواح إلى المنزل كي لاتتعرّض العجينة للرطوبة، وفي ظهيرة اليوم التالي، وقتَ تصبح الشمس في كبد السماء، كانت تطلب منّا إخراج الألواح إلى السطح من جديد، وخلال خمسة أيّامٍ يكون الطين قد جفّ تماماً، وتحوّل إلى قشرةٍ رقيقةٍ متشقّقةٍ. عندئذٍ، كانت مينا تُجمّعه على ملاءةٍ كبيرةٍ نظيفةٍ لتوزيعه على النسوة جميعهن، وأولاء اللواتي كان لديهن أطفالٌ، يحقّ لهن كميّة أكبر؛ فقد كان *«الغسول»* يُستخدم في الحجرة الثانية من الحمّام كمنظفٍ للشعر، وفي الحجرة الثالثة الأكثر حرارةً ـ حيث كانت تتمّ عمليّات التنظيف النظاميّة ـ كمنظّفٍ ومُنعّمٍ للجسم.

كنت وسمير نكره الحجرة الثالثة تلك، وكنّا نطلق عليها اسم حجرة التعذيب؛ لأنّها الحجرة التي كانت الكبيرات يلححن فيها على الاعتناء بنا «اعتناءً جدّياً». ففي الحجرتين الأوليين كانت الأمهات ينسين ذُرّيّاتهن؛ لشدّة انشغالهن بمعالجاتهن الخاصّة، لكن قبل أن يشرعن بالوضوء، كنّ يشعرن بالذنب جرّاء إهمالهن لنا، فيمسكن

بنا صانعاتٍ من اللحظات الأخيرة للحمّام كابوساً بالنسبة إلينا؛ حيث كنّ يملأن ـ من الصنابير مباشرةً ـ طاساتٍ من الماء البارد أو الساخن، ويدلقنها على رؤوسنا، دون أن يكلّفن خاطرهن عبء التحقّق من درجة حرارتها، وبالطبع كانت المياه إمّا ساخنةً إلى درجة الغليان، أو باردةً إلى درجة التجمّد، ولم يكن يحقّ لنا الصراخ؛ لأنّ النسوة يتوضّأن حولنا تأهّباً لصلاة ما بعد الحمّام التي كنّ يؤدّينها عقب خروجهن، وكان لزاماً على الكبيرات أن يستعملن ماءً طاهراً قدر الإمكان، والطريقة الوحيدة للتأكّد من هذه الطهارة، هو أن يكنّ أقرب ما يمكن إلى منبع الماء (أي المناهل في هذه الحالة)، وذلك يعني أنّ الحجرة الثالثة كانت مزدحمةً باستمرار، وأنّ المستحمّات كنّ مضطرّاتٍ إلى أن تنتظر الواحدة دورها لتملأ جردلها (الحجرة الثالثة من الحمّام هي على الأرجح المكان الوحيد الذي رأيت فيه المغربيّين يقفون بانتظامٍ كل في دوره خلال حياتي كلّها).

كانت طقوس الوضوء تتميّز عن عمليّة التنظيف الاعتياديّة بالتركيز السكونيّ الذي يرافقها، وبالنظام الدقيق لغسل كلّ جزءٍ من أجزاء الجسم: بدءاً باليدين فالفمّ فالأنف فالوجه فالذراعين فالرأس فالأذنين وانتهاءً بالقدمين. وكان يُحظّر الجري أمام امرأةٍ تتوضّأ؛ لأنّها ستضطرّ آنئذٍ إلى إعادة وضوئها من جديد، وكان هناك أطفال ينجحون في الإفلات من قبضات أمّهاتهم لفترةٍ وجيزةٍ، لكن بما أنّ الأرض الرخاميّة كانت زَلِقَةً والحجرة مكتظّةً؛ فقد كان من الصعب عليهم أن يذهبوا بعيداً. وكان هناك أطفالٌ آخرون يحاولون باستمرار التهرّب من الدخول إلى الحجرة الثالثة، وفي هذه الحال ـ وذلك ماكان يحدث معي ـ كانوا يُنتشَلون ببساطة من الأرض ويُدفعون نحو الأمام رغم صرخاتهم الحادّة.

كانت تلك الدقائق المؤلمة توشك أن تمحو الأثر اللذيذ الذي خلّفته الأوقات الرائعة التي اتّبعتُ خلالها نوعاً من المراوغة مع

العمّة حبيبة، عندما أخفيت عنها مشطها الثمين المصنوع من العاج السنغالي، ثمّ أرجعته لها بعد أن فتّشت عنه بقلقٍ في كلّ مكانٍ؛ وكذلك عندما سرقتُ برتقالةً من برتقالات شامة القليلات والمحفوظات في جردل من الماء البارد؛ أو حين راقبت النسوة البدينات ذوات النهود الضخمة، والنحيفات أولات المؤخّرات الناتئة، أو الأمهّات صغيرات الحجم اللواتي يصحبن بناتهن الضخمات؛ وبوجهٍ خاصٍّ وقتَ واسيت أولاء اللواتي زلّت أقدامهن فوق الأرض المغطّاة بالطين والحنّاء.

لقد اكتشفت طريقةً لتسريع المرور في حجرة التعذيب، ولإجبار أمي على إخراجي من هناك بسرعةٍ، وهي أن أتظاهر بالإغماء، وتلك موهبةٌ سبق لي أن استخدمتها لأمنع الأشخاص عن مضايقتي. فقد كنت أتظاهر بالإغماء وقتَ كان الأولاد يقلّدون الجانّ على الأدراج ليلاً ليخيفوني، ممّا يضطرّ الولد الذي أفزعني إلى حملي نحو الفناء، أو إلى إخطار أمّي على الأقلّ، الأمر الذي كان يثير غضبها، فتذهب إلى أمّ الولد المشاغب تشكو تصرّفه. أما افتعال إغماء في الحمام حينما أُجَرّ بالقوّة إلى الحجرة الثالثة، فقد كان أكثر إرضاءً لي؛ بسبب تحلّق المتفرّجين حولي. كنت أمسك بيد أمي لأضمن انتباهها، ثمّ أغلقّ عينيّ، وأحبس أنفاسي، وأنفلتُ منزلقةً على الأرض الرخاميّة المبلّلة، فتطلب أمّي العون قائلة: «حبّاً بالله، ساعدوني على إخراجها من هنا. هذه الطفلة تعاني ضعفاً في قلبها!». قمت بالبوح لسميرٍ عن حيلتي هذه، وحاول أن يمارسها بدوره، لكنّه فشل في كبت ابتسامته وهو يسمع أمّه تصوّت صارخةً وقد جنّ جنونها؛ وعندما انحنت فوق وجهه مرتعدة الفرائص، والقلق يملأ قلبها، لمحت بالطبع ابتسامته؛ فأخبرت العمّ عليّ بهذه الواقعة، ووُبّخ سميرٌ على الملأ في يوم الجمعة التالي قبل الصلاة مباشرةً؛ لأنّه حاول أن يخدع أمّه «المخلوقة الأكثر قداسةً بين المخلوقات التي تمشي على قدمين فوق أرض الله الواسعة». وأُجبر

سميرٌ على طلب الصفح عنه، وعلى تقبيل يد أمّه لالا راضية راجياً إيّاها أن تدعو له، فلدخول الجنة يجب على المسلم الصالح «أن يمرّ تحت قدميّ أمّه» *«الجنة تحت أقدام الأمّهات»*(*). كان مستقبل سمير في العالم الآخر يتجلّى سيّئاً خلال تلك اللحظات.

ثمّ أتى اليوم الذي طُرد فيه سميرٌ من الحمّام لأنّه نظر «نظرة رجلٍ»، وقد جعلتني تلك الحادثة أدرك أنّنا ننتقل كلانا إلى دنيا أخرى هي دنيا الكبار، رغم ظهورنا بمظهر طفلين صغيرين ورقيقين. فقد انطلقت امرأةٌ بالصراخ وهي تشير بسبّابتها نحو سميرٍ: «لمن هذا الصبيّ؟ إنّه ليس طفلاً. أؤكّد لكنّ ذلك»، فأسرعت شامةٌ وقال لها إنّ سميراً لم يتجاوز أعوامه التسعة بعد، لكنّ المرأة بدت متشبّثةً برأيها: «وربما لم يتجاوز أعوامه الأربعة، لكنّني أقول لك إنه نظر إلى نهديّ كما ينظر إليهما زوجي تماماً». عندئذٍ وفي حالةٍ من الترقّب، توقّفت النسوة الجالسات في الجوار جميعهن عن شطف الحنّاء ليصغين إلى تلك المرأة؛ وحين قالت إنّ لسميرٍ «نظرةً شهوانيّةً» انفجرن مقهقهاتٍ، ففقدت شامة صبرها وقالت لها: «ربّما ينظر إليك هكذا لأنّ نهديك غريبا الشكل، أو ربّما يُثيرك أن ينظر إليك ولد. وفي هذه الحال لاسبيل لك إلّا أن تتوقّعي خيبة الأمل»، ولدى سماع هذه الكلمات انفجر الجميع بالضحك، وانتصب سمير وسط أولئك السيّدات العاريات، وقد أدرك أنّه يمتلك دون شكٍّ قوّةً غير اعتياديّةٍ، ودقّ على صدره، وأطلق بكلّ ثقةٍ العبارة التي أضحت منذئذٍ تاريخيّةً، وغدت مَضْرَبَ مَثَلٍ فكاهيٍّ في عائلة المرنيسي: «أنت لست من النوع الذي أفضّله من النساء. أنا أحبّ النساء الطويلات». لم تستطع شامة أن تواصل دفاعها عن هذا الأخ، فضلاً عن أنها لم تقدر على ضبط نفسها من الانفجار ضاحكةً مع الأخريات. لقد دوّت قهقهاتهنّ وملأت أصداؤها أرجاء الحجرة قاطبةً. بيد أنّ هذه الحادثة دلّت ـ من حيث لا أدري وسمير ـ على نهاية طفولتنا، وشيئاً

(*) في الأصل Al - janatu tahta aqdamı l - ummahat .

فشيئاً لم يعد متساهلاً في أمر مجيء سميرٍ إلى الحمّام؛ فقد صارت «نظرته الشهوانيّة» تزعج أكثر من امرأة. وفي كلّ مرةٍ يُصطحب فيها سميرٌ إلى البيت كذكرٍ منتصرٍ، كانت تُطلق التعليقات بخصوص رجولته، ويُمزح بشأنها لعدّة أيامٍ في الفناء. وأخيراً بلغ الحادث مسامع عمّي عليّ الذي قرّر أنّ على ابنه التوقّف عن الذهاب إلى حمّام النساء، ويجب عليه أن يذهب معه إلى حمّام الرجال.

لقد كنتُ تعسةً للغاية لاضطراري أن أذهب إلى الحمّام دون سميرٍ؛ فلم يعد بإمكاننا اللعب كما كنا نفعل طيلة الساعات الثلاث التي نقضيها هناك، وقد روى لي سمير قصصاً بائسة عن تجربته في حمّام الرجال: «أتعلمين؟. الرجال هناك لايأكلون لوزاً، ولايشربون عصيراً، ولايروون أحاديث أو نكاتاً. إنّهم يغتسلون فقط، وهذا كلُّ شيءٍ». فقلت له: إذا استطاع فقط أن يتجنّب النظر إلى النساء، فقد يتمكّن من إقناع أمّه بأن تسمح له بالذهاب معنا من جديدٍ، فأجابني إجابةً أثارت دهشتي: إنّ ذلك لم يعد ممكناً، وعلينا التفكير بمستقبلنا. «أنا رجلٌ، أتفهمين؟. رغم عدم ظهور ذلك عليّ. ويجب ألاّ يرى الرجال والنساء أجساد بعضهم البعض. لابدّ من الفصل بينهما». لقد انبهرت، لكنّني لم أقتنع بهذا الكلام. وقد ذكر لي سميرٌ لاحقاً أنّ الحنّاء والأقنعة الوجهيّة لاتستخدم في حمّام الرجال، وقد استنتج من ذلك أنّ: «الرجال لايحتاجون إلى عنايةٍ تجميليّةٍ». لقد ذكّرتني تلك الملاحظة بحوارنا القديم الذي خضناه على السطح، فشعرت كأنّها هجومٌ شخصيٌّ ضدّي. لقد كنت أوّل من عرّض صداقتنا للخطر، عندما أصررت على ضرورة الاهتمام بتحضيرات التجميل ومعالجاته. كنت على وشك الدفاع عن موقفي حين قاطعني قائلاً: «أعتقد أنّ للرجال بشرةً مختلفةً»؛ فتفرّست في وجهه وحسب.

لم يعد لديّ شيءٌ أقوله؛ لأنّني أدركت للمرّة الأولى في ألعاب طفولتنا أن كلّ ما قاله سميرٌ - خلال ألعابنا الطفليّة - صحيحٌ، وأنّ كل ما سأقوله لن يغيّر شيئاً. وفجأةً بدا لي كلُّ شيءٍ غريباً ومعقّداً

وبعيداً عن الإدراك. كنت أشعر أنّني أجتاز حدوداً، عتبةً، لكنني كنت عاجزةً عن تصوّر الفراغ الجديد الذي سأضع فيه قدميّ. لقد شعرت بالتعاسة دون أن أدري سبباً لذلك، وصعدت لأقابل مينا على السطح. جلست بمحاذاتها، وراحت تداعب شعري وقالت: «أنت صامتةٌ اليوم؟»؛ فحدّثتها عن حواري مع سميرٍ وعمّا حدث في الحمّام. أصغت إليّ وهي تسند ظهرها إلى الجدار الغربي، وعمرتها الزعفرانية تبدو أكثر إشعاعاً من العادة، وحين فرغت من كلامي قالت لي: إنّ الحياة ستصبح من الآن وصاعداً أكثر صعوبةً بالنسبة إليّ وبالنسبة إلى سميرٍ.

«وقتَ لاتكون للفوارق أهميّةٌ، تكون الطفولة. وبدءاً من اللحظة الراهنة لن يعود بإمكانكما أن تتحاشيا هذه الفوارق. أنتما محكومان بها، وسوف يصبح العالم قَسِيّاً».

فسألتها: «لماذا؟ لم لانستطيع أن نفلت من قانون الاختلاف؟ لماذا لايستطيع الرجال والنساء أن يستمرّوا في اللعب معاً وقت يصبحون كباراً؟ لِمَ هذا الفصل؟» أجابتني مينا: إنّ الرجال كالنساء مقدّرٌ عليهم العيش في تعسٍ بسبب هذا الفصل، وهذا الفصل يخلق هوّةً سحيقةً بينهما. «الرجال لايفهمون النساء، والنساء لايفهمن الرجال. كلُّ شيءٍ يبدأ لحظةَ تُفصل البنات الصغيرات عن الصبيان الصغار في الحمّام. هناك حدودٌ حقيقيّةٌ تقسم العالم إلى نصفين، والحدود تعينّ حدّ السلطة؛ لأنّه حيثما تكن هناك حدودٌ، يكن فوق أرض الله نوعان من المخلوقات: الأقوياء في طرفٍ، والضعفاء في الطرف الآخر». آنَها، سألت مينا: كيف السبيل لأعرف إلى أيٍّ من الطرفين أنتمي؛ وكانت إجابتها فوريّةً ومختزلةً وجدّ واضحةٍ:

«إذا لم تستطيعي الانفلات للخروج من المكان الذي تقبعين فيه؛ فأنت تنتمين حتماً إلى فريق الضعفاء».

الحواشي

الفصل 1

1 ـ تطلق النسوة الزغاريد للاحتفال بالمناسبات السعيدة كالولادة أو الزواج، أو لمجرّد انتهاء عمل بشكل متقن، كالانتهاء من حياكة سجّادة أو من طرازة قطعةٍ ما.

الفصل 2

1 ـ الفصل الافتتاحي لكتاب *«ألف ليلة وليلة»*. لقد ترجمتُ هذا الشاهد عن النسخة العربيّة الجديدة والممتازة *«لألف ليلة وليلة»* ـ ص 22 ، والتي أعدّها الأستاذ العراقي في جامعة هارفرد محسن مهدي، والصادرة عن دار بريل لايدي عام 1984 . والأستاذ مهدي الذي أمضى عقوداً في إعادة تكوين نصٍّ حكاياتيٍّ خصبٍ ـ بالاعتماد على المخطوطات العراقيّة ـ يتطابق مع اللغة العربيّة المحكيّة *«لقصّاصي»* ذلك العصر، قد نجح في وضع نسخةٍ رائعةٍ من *« ألف ليلة وليلة»* بين أيدينا. وللأسف بينما تُرجمت هذه النسخة إلى اللغة الإنكليزية (*Arabian Nights* ـ ترجمة حسين حدّاوي ـ دار نورتون ـ نيويورك 1990)، فإنّها لم تُترجم بعد ـ على حدّ علمي ـ إلى اللغة الفرنسيّة. أمّا بالنسبة إلى الشواهد الأخرى التي أوردها من *«ألف ليلة وليلة»*، فقد اعتمدت على ترجمة برتون Burton، وهي المرجع الذي نعود إليه، وذلك لأنني قمت بكتابة النصّ الأصليّ باللغة الإنكليزيّة.

2 ـ لايفصل بين المغرب وإسبانيا سوى ستّة عشر كيلو متراً، لكنّني عندما اجتزت إقليم غيبرالتار للمرّة الأولى، دُهشت إثر اكتشافي أنّ شهرزاد يُنظر إليها ـ في الجهة المقابلة للمغرب ـ على أنّها جليسة أمراءٍ فاتنةٌ وساذجةٌ بعض الشيء، وتروي قصصاً مسليةً، وترتدي ثياباً رائعةً. أما في بلادنا، فيُنظر إليها كبطلةٍ شجاعةٍ، وتمثّل واحدةً من الصور النادرة للنساء اللائي أوتيت لهنّ القدرة على تغيير الكائنات والعالم، وهي مخطّطة حكيمة، وتتمتّع بذكاء نافذ، وقد تمكّنت بفضل معرفتها بطبيعة النفس البشرية من قلب موازين القوى، وهي كصلاح الدين وسندباد تجعلنا ـ معشر النساء ـ أكثر جرأةً، وأكثر ثقةً بنفوسنا وقدرتنا على تحليل المواقف الحرجة وإعداد استراتيجيات تضاعف فرص سعادتنا. على أيّ حال، هكذا صوّرتها لنا أمّهاتنا وعمّاتنا.

الفصل 3

1 ـ *«حْدَادْ»* هو اللفظ المغربي لكلمة *«حدّ»* باللغة العربية الفصحى وجمعها *«حدود»*. وللمغاربة نزعة تصغيريّة فيما يتعلّق باللغة، وهم يعشقون ابتلاع الحروف الصوتيّة، ويبدو أنّهم لايستخدمون اللغة الفصحى إلّا «لِمَغْرَبَتِها»، أي تخليصها من جدّتها، وهذا ما يخيب آمال عرب الشرق الأوسط حين يأتون لزيارة بلادنا. وعندما تكون

الحروف الصوتيّة ـ لسوء حظّها ـ في أوائل الكلمات، فإنّها تُبتر برشاقة. وهكذا فإنّ خمِد اسم البّواب هو اللفظ المغربي لاسم أحمد، وتطبّق عملية «النحت» قليلة الاحترام ذاتها على الكلمات الفرنسيّة والإسبانيّة والإنكليزية التي تخضع لعملية «تطهير» فوريّة، ممّا يثير دهشة الزوّار الغربيين، إذ يجدون أنفسهم بعد بضعة أيام من وصولهم إلى مرّاكش أو الدار البيضاء «يفهمون اللغة العربية»، ويتمكّنون من مجاراة الأحاديث، ملتقطين كلماتٍ مثل : منرفز ـ *تلفنتلو* (أي اتصلت به هاتفياً) ـ *فاكسيتلو* (أي أرسلت فاكساً) ـ *تكلاتت* (أي انفجرت).

2 ـ هذه الرواية للأحداث المتعلّقة بطلب الاستقلال والعلاقات بين الوطنيين والملك والمندوب السامي الفرنسي، ليست موثّقةً تاريخياً، بل مشكوك فيها. إنّها رواية أمّي، وهي شخصيّة متخيّلة كسائر الشخصيّات التي تتحدث عنها الطفلة التي يفترض بها أن تكون أنا. ولو حاولت أن أروي لكم قصّة طفولتي لما أنهيتم المقطعين الأوّلين من الكتاب؛ لأن طفولتي كانت تافهةً ومملّةً إلى حدٍّ بعيدٍ. وبما أن هذا الكتاب ليس بسيرةٍ ذاتيّة، وإنّما قصة خياليّة تأخذ صيغة حكايات ترويها طفلة في السابعة من عمرها، فإنّ رواية الأحداث الخاصة بكانون الثاني من عام 1944 المذكورة هنا، هي تلك العالقة بذاكرتي، ممّا كانت النسوة الأمّيّات يروينه في الفناء وعلى السطوح.

وبهدف تعقيد الأشياء تجدر بي الإشارة إلى أنّ الرواية التي أوردتها أقرب لأن تكون نوعاً من التزيين الأدبيّ الذي كنت بحاجة إليه لأجذب القارئ. فإن كنتم تريدون معرفة *«الرواية التاريخية»* للأحداث، يجب عليكم قراءة العمل الضخم الذي استعنت به لتحديد الفترة التي اخترت الحديث عنها، أي فترة الأربعينات في مدينة فاس. وهو كتاب عبد الكريم الغلّاب *«تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب»* وهو من منشورات الكاتب الخاصة ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة الرسالة ـ الرباط عام 1987 .

الفصل 4

1 ـ خلال حقبة الأربعينات، كان الرجال والنساء في المغرب يرتدون وفق الطراز المتّبع عينه في المدن الكبرى، فكان الرجال ـ مهما بلغت درجة رجولتهم ـ يرتدون كالنساء زيّاً مؤلّفاً من ثلاث قطع: *(قميص وقفطان وفرجيّة)*. وكان الفرق الوحيد الذي يميّز بين لباسيّ الجنسين هو الألوان، فملابس الرجال كانت تقتصر على تدرّجات لونيّة محدّدة كالأبيض والرمادي والبيج، أما النساء فكان بإمكانهن أن يلبسن ثياباً لها ألوان أكثر غرابة. القطعة الأولى أي *«القميص»* هي قميصٌ طويل وخفيف جداً ويصنع من خيوط طبيعيّة كالقطن أو الحرير، أما القطعة الثانية فهي *«القفطان»* ويصنع من الصوف السميك، يقف المرء عن ارتدائه مع حلول فصل الربيع عندما تأخذ درجة الحرارة بالارتفاع. القطعة الثالثة *«الفرجيّة»* وهي جلباب خفيف، وغالباً ما تكون شفّافة. رقيقة جداً ولا غرض منها سوى التأنّق. لها شقّان واسعان على الجانبين، وتُلبس فوق القفطان. وعندما يخرج الرجال والنساء إلى الأمكنة العامة يرتدون فوق كلّ هذا جلباباً، وهو أشبه بمعطف طويل مغلق من الأمام.

غير أنّ طراز الألبسة المغربية قد شهد بعد الاستقلال ـ في الخمسينات ـ ثورةً عكست التحوّلات العميقة التي قلبت الذهنيّات؛ فقد بدأ الرجال والنساء يرتدون ثياباً أوروبيّة من وقتٍ لآخر، وخاصّة لدى تاديتهم وتردّدهم على أماكن العمل، وكان تجربة الغَرْبَنة كانت تُعاش كعمليّةٍ لمَكْننة الكائن البشري، واختزاله إلى حيوانٍ عامل. وبقي اللباس التقليدي حكراً على الأعياد، وكأنّه شاهد على العصر الذي يظهر فيه الرجل

والمرأة «كائنين مرفّهين». ثمّ تكيّفت الألبسة التقليدية مع المرحلة الحديثة، وبدأت حقبة الأزياء الشخصيّة والمبتكرة، وإن تنظروا اليوم إلى شارع مغربيّ، تلحظوا أنّ كلّ إنسانٍ يرتدي على طريقته الخاصة. لقد ترسّخت التعدّدية في المغرب، وظاهرة الخروج على المركزية في الشارع تشهد على ذلك. لقد استعار الرجال والنساء في لباسهم أنماطاً مختلفة من بعضهم البعض، كما اختار القسم الآخر منهم بعض العناصر اللباسيّة من الغرب ومن سائر أنحاء أفريقيا (بعض نماذج الغندورة ـ وهي صدرة بلا كمّين ـ مقتبس عن البوبو، وهو جلباب طويل يلبسه بعض سكان أفريقيا السوداء). وعلى سبيل المثال، أخذ الرجال الألوان الزاهية التي كانت خاصة بثياب النساء وفقاً للتقاليد الزِّيَويّة، مثلما أخذت النساء جلابيب البوبو المطرّزة التي تنتشر في السنغال وغيرها من البلدان الإسلامية في أفريقيا السوداء. أما أروع هذه الأزياء فهي الجلباب القصير المثير والمريح والذي لاسابق له؛ وهو يجمع بين الأقمشة الإيطالية وبين رهافة القفطان التقليدي، والنسوة اللائي يرتدين هذا الجلباب هنّ النسوة اللواتي يعملن وفي الوقت نفسه لايردن أن يفقدن أنوثتهن، ولا أن يتقمّطن في الطقوم الغربية غير المريحة إطلاقاً.

2 ـ استلمت شجرة الدر زمام السلطة عام 648 للهجرة الموافق 1250 للميلاد.

3 ـ الفكرة القائلة: (إنّ تحرير المرأة ليست فكرة مستوردة من باريس أو نيويورك، بل هي فكرة يرجع نشوؤها إلى الدينامية العربية والإسلامية، وتبلورت في قلب المراكز الكبرى للفكر الإسلامي: كجامعة الأزهر في مصر والزيتونة في تونس والقرويين في المغرب) هي فكرةٌ تبدو عبثيّة في يومنا الحاضر. ومع ذلك، فإنّ دعم المفتيّين الناشطين في الحركة الوطنية العربية بين عامي 1880 و 1940 ، كان واحداً من الأحداث التاريخية الثقافية التي غيّرت مجتمعاتنا بصورة جذريّة. وماكانت امرأة مثلي لتدخل الجامعة لو لم ينشىء زعماء الحركة الوطنية ـ وعلى رأسهم علماء جامع القرويّين في عام 1948 ـ قسماً خاصاً بالبنات في تلك الجامعة. وعلى ما في الأمر من غرابة، فإنّ الفرنسيّين الذين استعمرونا كانوا يعشقون التقاليد، وخاصّة فيما يتعلق بتعليم البنات، فقد كانت الإدارة الفرنسية تريد أن تقصر تعليم البنات على المرحلة الابتدائية، كما تبرهن لنا شهادة لالا مليكة الفاسيّة، إحدى نصائر المرأة المغربيّات الأوليات اللواتي أنقذن حياتنا، ولهنّ تدين نسوةٌ مثلي بالدخول إلى الجامعة.

ولكن قبل أن أدع الحديث للالا مليكة، أريد أن أوضح نقطة: من الجلّي أنّ المفتيّين لم يكونوا متّفقين حول ما يتعلّق بتحرير المرأة، وكان بعضهم يرفضها وكأنها ضرب من الكفر والزندقة، كالشيخ الشهير الذي قال للملك محمد الخامس إنّ تعليم بنت هو «كإسقاء السمّ لأفعى»: *«أفعى وتسقى سمّاً»*، فردّ الملك عليه على الفور. «البنت ليست بأفعى، وليس من المعقول أن نكون ـ أنا وأنت ـ وَلَدين لأفعيين». (الأستاذ عبد الهادي تازي ـ *جامع القرويين»* ـ دار الكتاب اللبناني 1972 ـ ص 784). لفهم حركة الوطنيين لتحرير المرأة لابدّ من التذكير بأنّ إشكاليتهم مع الغرب في بداية القرن كانت تتمثّل في «تأسيس مجتمع عربيّ قوي»؛ وهي الفكرة الأساسية لجماعة مولاي إبراهيم القطّاني المفتيّ الذي أنشأ المدرسة الوطنية ـ حيث نلت جزءاً من تعليمي الابتدائيّ ـ وسُجن عدّة مرّات في المعتقلات الفرنسيّة (*«ذكريات سجين مكافح»* ـ مطبعة دار المغرب للتأليف والترجمة ـ الرباط 1977).

وهذه هي شهادة مليكة الفاسيّة التي تكشف أنّ نظام الحماية (البروتكتورا) كان مناوئاً لتعليم البنات الثانوي: «لقد لاقى الملك محمد الخامس صعوبة في إقناع السلطات الاستعمارية، وقد قال لي حيث كنت على صلة مستمرّة به: «إذا كنتنّ مستعدّاتٍ، وعازماتٍ

على تمويل هذه المؤسسة، فاسرعن بإنشائها، وسوف تُضطّر (أي السلطات الاستعمارية) عندئذٍ إلى القبول بالأمر الواقع، أمّا إذا طلبتن التمويل من هذه السلطات فسوف تقول لكنّ: إنّ *«الحَبُوس»* ليست كاملة الجاهزيّة». وآباء البنات هم الذين ساعدونا على تمويل مشروعنا الأول... وبدأنا نحن النسوة بجمع المال، وطلبت من زوجي سي محمد الفاسي الذي كان عميد جامعة القرويين آنذاك، أن يتّصل بأساتذة الجامعة ليطلب منهم إعطاء الدروس للبنات، على أن تكون هذه الدروسُ نفسها التي تُلقّن للصبيان وفق النظام الجاري. وقد مُنحوا رواتب بالتاكيد، غير أنّها كانت ضئيلة القيمة. وفي عام 1955 تخرّجت الدفعة الأولى من النساء العالمات في جامعة القرويّين. بينهن: فاطمة القبّاجة - د. زُهور الزّرقة - حبيبة بو رقّادي - عائشة سقّاط - سعدية حمياني...» (مقابلة أجرتها في 8 آذار لطيفة جبابدي - شباط 1987 - انظر حمياني «التسلسل التاريخي للتعليم» - «قضايا التعليم في المغرب» لمحمّد سوالي ومكّي مرّوني - *«النشرة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب»* عدد ربُاعي من العدد 143 إلى العدد 146 - الرباط 1981/ وانظر أيضاً «محمد الخامس تحت ضوء القمر» في كتابي *«شهرزاد ليست مغربية»* - منشورات دار لوفنيك - الدار البيضاء 1987 - ص 66 ومايليها).

4 - قد يكون من المفيد في هذ الطور، أن نميّز بين نوعين من الأحاريم: الحريم الأمبراطوري والحريم المنزلي. ولتبسيط الأمور سوف نُسمّي النوع الأول من الأحاريم كحريم هارون الرشيد بما فيه مئات *«جواريه»*: الحريم الأمبراطوري. أما النوع الثاني كحريم ياسمينة فسنسمّيه: الحريم المنزلي. إنّ الحريم الذي يوقد مخيّلة الغرب ومستشرقيه ذوي الأفكار النمطيّة، وكما صُوّرَ في فن الرسم الغربي خلال القرن التاسع عشر مثلاً، هو ما سنطلق عليه اسم الحريم الأمبراطوري، وهو مستوحى بوجه خاصّ من السلاطين العثمانيين الباذخين. هذه الأحاريم الأمبراطورية والقصور الفخمة المكتظّة بمئات النساء المستلقيات دون اكترات، قد اجتاز القرون بجرأة، وفق تقلّباتٍ تزيد أو تنقص منذ القرن السابع (حيث بدأ مع الأسرة الأمويّة الأولى) وحتى عام 1909 حيث أطيح بآخر السلاطنة العثمانيّين وبأحاريمه المحظورة؛ لتحلّ محله دولة تركيّة عصريّة.

في الحريم الأمبراطوري، يملك الأشخاص المتنفّذون داخل البلاط مثل (الأمبراطور - الوزير - قادة الجيوش - جباة الضرائب... الخ) قدراً كبيراً من النفوذ والمال لغزو الأراضي الأجنبيّة، واسترقاق الشعوب المغلوبة، ثم المتاجرة بها في أسواق النخاسة التي كان يُتبادل فيها هذا النوع من «المنتجات». وكان شراء مئات بل آلاف النساء وحبسهن في قصور دليلاً على قوّة الغزو. وتبدو الأحاريم المنزليّة - وهي الفئة التي تنتمي إليها الأحاريم الموصوفة في هذا الكتاب - عاديّة ومألوفة بالمقارنة مع الأحاريم الأمبراطورية، بل ومملّة كثيراً؛ لأنّها تفتقر إلى البعد الشهواني الذي يطلق العنان لتخييلات الأوروبيّين المكرهين على الزواج الأحادي تبعاً لتعاليم كنيستهم المقدسة، وبالتالي فهم محكومون «بقانون المُواطَنَة». ويمكن تعريف الحريم المنزلي على أنّه عائلة يحيا فيها الرجل وأبناؤه مع زوجاتهم تحت سقف واحد، مشتركين جميعاً في مواردهم. ويُفرض على النساء في هذه العائلة أن يبقين في البيت مع اختزال اتّصالهن بالعالم الخارجي إلى الحدّ الأدنى. وفي هذه الأحاريم المنزلية، ليس بالضرورة أن يكون للرجال عدّة زوجات، فتعدّد الشريكات الجنسيّات لايحدّد الحريم في هذه الحال، بقدر ما يحدّده فصل الفراغ إلى «فراغ داخلي» و«فراغ خارجي» وحبس النساء في الفراغ الأول.

إنّ مفهوم الحريم هو مفهوم فراغي من حيث الجوهر، فهو عمارة خالية من الفراغ العام وفق المفهوم الغربي للكلمة، إذ ليس فيها سوى فراغ «داخلي» حيث يحقّ

للنساء أن يَكُنّ، وفراغ خارجي ذكوريّ تُقْصى عنه النساء. ولهذا السبب فإنّ المعركة الحالية لدَمَقْرَطة العالم الإسلامي تتركز وتبلغ حدّ الهوس حول الحجاب و«الحبس» الرمزيّ للنساء (في العالم العربي واحدٌ من أكثر الطبقات العاملة النسائية بؤساً في العالم). ولهذا السبب أيضاً تنتشر ظاهرة إطلاق النار على النساء غير المحجّبات، وذلك في المجتمعات التي تُعدّ فيها أزمة الدولة وإعادة تقويمها مسألة جذرية (راديكالية)، كما هو الحال في الجزائر. فخروج المرأة غير المحجّبة إلى الشارع، ودخولها إلى المدرسة والمكتب ومجلس الشعب، هو فعل سياسيّ وثوريّ إلى أقصى حدّ، وكأنه مطالبة مباشرة وغير محجّبة بالفراغ العام. فالمرأة المحجبة تخضع للقاعدة، وارتداء الحجاب يعني: «أن أجتاز بسرعةٍ وحشمةٍ هذا الفراغ الذي أقرّت ذكوريّته». وتلك التي تخلع الحجاب تطالب بحقّها كمواطنة، وتقلب البنية بأكملها، ليس البنية الجنسيّة وحسب، بل البنية السياسيّة أيضاً، خالقة بهذه الحركة الرمزيّة الصغيرة دولة إسلامية تقرّ الفراغ العام.

«كان الخلط في الأحاريم الأمبراطورية بين ما هو ملك للخليفة، وبين ماهو ملك للأمّة انعكاساً تقاليديّاً». (للإطلاع على هذا الموضوع تكفي قراءة كتب التاريخ التراثية. ككتب الطبري والمسعودي وابن الأثير وغيرهم). *«إنّ مفهوم الحريم بعيد كل البعد عن كونه نموذجاً هامشيّاً، وهو القاعدة التي ترتكز عليها بنية السلطة غير المتكافئة، سواء على مستوى العلاقة بين الجنسين، أو على مستوى العلاقات السياسية»*. ويمكننا تلخيص المعركة التي تدور في العالم الإسلامي في أيّامنا هذه حول الديموقراطية وحقوق الفرد، بأنّها معركة لخلق فراغ عام، وهو أمر غريبٌ كلّ الغرابة عن الثقافة السياسيّة الإسلامية. وفي هذا النموذج، الرجل أيضاً مُحجُّب «سياسيّاً»؛ لأنّ الفراغ العام يعتبر «أجنبيّاً» أي دخيلاً على طبيعة النظام.

5 ـ لم يتغيّر هذا القانون في الواقع، فما تزال النسوة المسلمات وبعد مرور حوالى نصف قرن، يواصلن النضال من أجل إلغاء تعدّد الزوجات. لكنّ التشريع ـ كما يقول الرجال السياسيّون السلطويّون ـ نابعٌ عن *«الشريعة»* (شريعة الله) التي لاتخضع للإرادة الإنسانية. والمعركة ضد تعدّد الزوجات عمليّاً ليست معركة للحدّ من عدد الشريكات الجنسيّات، بقدر ماهي معركة لإعادة النظر في مفهوم «القانون»؛ لأنّ النساء راغبات بتطويره كما تُظهر إحدى المبادرات الأخيرة لجمعيّة «مغرب مشترك ـ مساواة» بإدارة المغربية رابية نصيري ـ الأستاذة في جامعة محمد الخامس في الرباط ـ حيث قدّمت نساء المغرب العربي في مؤتمر بيجينغ (المنعقد في أيلول 1995) قانوناً للأسرة كما ترغب فيها النساء، وهذا يعني قانوناً للأسرة حيث تُحترم المساواة بين الجنسين احتراماً دقيقاً. من يضع القانون ولمن يُوضع.هل هو بمنزلة تحدٍّ جديدٍ للنساء في الدولة الإسلامية المعاصرة؟.

الفصل 5

1 ـ دام حكم الأسرة العبّاسيّة ـ وهي ثاني أسرة في الأمبراطورية الإسلامية بعد الأسرة الأمويّة ـ خمسة قرون من العام 132 إلى العام 656 للهجرة (750 ـ 1258 للميلاد)، وانتهى حين دمّر المغول بغداد وقتلوا الخليفة. والخليفة هارون الرشيد هو خامس خليفة في الأسرة العباسية. حكم من العام 786 إلى العام 809 للميلاد. كانت فتوحاته أسطورية، وتُعتبر فترة خلافته العصرَ الإسلاميَّ الذهبيّ. لقد ألهب مخيّلة معاصريه، ومايزال يخلب الألباب حتّى وقتنا الحاضر؛ فقد كان وسيماً ورياضيّاً ومنظّماً ويحب

الشعر والنساء بقدر ما يحب قيادة الجيوش. وعلى الصعيد السياسي كان الخليفة الذي أرسى أسس نظامٍ من أكثر النظم استبداديةً. غير أنّ هذا الأمر بحدّ ذاته ينمّي على ما يبدو الاستيهاماتِ ويوقد المخيّلات. الخليفة المتوكّل هو عاشر الخلفاء العباسيين (847 ـ861)م. والخليفة المقتدر هو الخليفة الثاني عشر (908 ـ 932)م.

الفصل 6

1 ـ تجري هذه الأحداث في الأربعينات. أمّا في عصرنا الحاضر فإنّ الموز ـ وغيره من الفواكه الاستوائية ـ يُزرع في سهل الغرب وفي أماكن أخرى باستخدام البيوت الزجاجية وبفضل التقنيات الحديثة.

الفصل 7

1 ـ المغرب Maghreb هو التسمية التي تطلق على المملكة المغربية Maroc في اللغة العربية، وتعني بلاد غروب الشمس. إلّا أنّ انبثاق فكرة منطقة اقتصاديّة في شمال أفريقيا، أدّى بالسياسيّين إلى اختيار هذه التسمية «المغرب» لإطلاقها على هذه المنطقة التي تضمّ بالإضافة إلى المغرب: الجزائر وموريتانيا وليبيا وتونس. ومن هنا نشأ الخلط، وخاصّة لدى الصحفيّين العرب الذين صاروا يبتدعون مصطلحات جديدة للتمييز بين «مغربي» نسبةً إلى المغرب وبين «مغربي» نسبةً إلى المنطقة الاقتصادية الجديدة، ومصطلح *«مغاربي»* هو واحدٌ من هذه الابتكارات. لكنّ ضروب الخلط هذه متعدّدة وغريبة على قدر ما تبدو فكرة السوق المشتركة في الجهة الخاصة بنا من المتوسّط بعيدةَ التحقّق بعد كوكب الزهرة عنّا.

2 ـ *«الحديث»* هو مجموعة الوقائع التاريخية لأقوال وأفعال النبي محمّد المُدوّنة بعد وفاته، ويعتبر *«الحديث»* ثاني المصادر التشريعيّة الأساسيّة في الإسلام بعد القرآن الكتاب الذي أوحى الله به إلى نبيّه مباشرةً.

3 ـ *«الكانون»* موقد فحميّ يحاكي الباربكيو Barbecue (مشواة الفحم)، لكنّه أكثر بدائيّة.

الفصل 8

1 ـ لو كانت ياسمينة تستطيع رؤية المغرب في الوقت الحاضر لسُرّت كثيراً، حيث تبيع النساء الأمّيّات البسطيلة بسعرٍ كاوٍ لدى «أصحاب المطاعم». وأحد التجديدات في المغرب خلال حقبة التسعينات هو غزوُ النساء للأماكن التجارية، وأولاء النساء يؤمّن لبلادهم مزيّة البقاء في دائرة المنافسة العالمية بفضل المنتجات الغذائية والنسيجية، وهما قطاعان تطغى عليهما اليد العاملة النسائية؛ إذ تشكّل النساء حوالى 60٪ من نسبة العاملين في القطاع الغذائي الزراعي، وحوالى 80٪ في قطاع الصناعة النسيجية. وهذان القطاعان هما اللذان «يهدّد» المغرب أوروبا بهما. وضمن الاتفاقات الأخيرة التي أبرمت بين المغرب والسوق الأوروبية المشتركة، تضاعف قوى الشمال الكبرى الحصّة النسبية (الكوتا)؛ كي تمنع طماطم وبرتقال اليوسفي وأسماك السردين الصغيرة ـ الخاصة بأولئك السيّدات المغربيات ـ من «إزعاج» المنتجين الإسبان والبرتغاليّين. آهٍ يا ياسمينة عساك تلقين نظرة على حفيداتك. إنهن يقمن *«بانتفاضتهن»* الصغيرة، برفق دون حجارة، بل باستخدام رشقات من الصبر والشجاعة والعمل المتقن.

2 ـ كلمة «تخمال» مشتقّة من كلمة «خمّال» التي تعني في اللهجة المحكية القيام بالأعمال المنزلية بصورة تامّة. و«التخمال» شريط قماشيّ طويل مطرّز، أو شريط مطّاطي تستخدمه النسوة لرفع الأكمام الطويلة والعريضة إلى ما فوق المرفقين. فكنّ يأخذن شريطاً يبلغ متراً من الطول، ويعقدنه عقدةً منزلقة، ويقاطعنه على شكل رقم 8 ، ثمّ يدخلن أذرعتهن فيه ـ وقد وضعن العقدة في الخلف ومرّرن الكمّ خلال الشريط ـ ويرفعنه إلى تحت آباطهن. وبهدف إخفاء المظهر الوظيفي «للتخمال»؛ كانت هناك نسوة يطرّزن الشريط القماشيّ أو المطاطيّ باللآلئ، كما كانت هناك نسوة من الثريّات يستخدمن عقوداً من اللآلئ، أو سلاسل ذهبيّة بدل الأشرطة.

3 ـ عاش ابن خلدون ـ وهو واحدٌ من المؤرخين وعلماء الاجتماع الأكثر تميّزاً في تاريخ الإسلام ـ في إسبانيا الإسلامية، وفي شمال أفريقيا، إبّان القرن الرابع عشر. وفي عمله الرائع «المقدمة» حاول أن يُخضع التاريخ إلى تحليل دقيق؛ بهدف اكتشاف المبادئ الرئيسة للعمليّة التاريخيّة، وبالتالي قام بتعريف المدينيّين على أنهم الأقطاب الإيجابيّة للحضارة الإسلامية، والريفيّين والبدو على أنهم الأقطاب السلبيّة والهدّامة. وهذه الرؤية إلى المراكز المدينيّة كمهدٍ للفكر والحضارة والغنى، وإلى السكّان الريفيين كجماهير متمرّدة وغير مُنتجة ولا منضبطة، قد أثّرت في رؤى التطوّر العربية بأسرها حتى عصرنا الحاضر، وأحد أسباب الهجرة الجماعية إلى المدن ـ والتي تخلق مشاكل عويصة وكثيرة في أيامنا هذه ـ هو الإهمال التام للبنية التحتيّة الخاصة بالمناطق الريفية، وبما أنّ الفلاحين ليسوا على هذا القدر من الغباء كما زَعَمَ ابن خلدون؛ فقد هاجروا بأعدادٍ كبيرةٍ؛ كي يتمكّنوا من الولوج إلى ما يمثّل لهم مِنّة السماء، ومفتاح الدخول إلى القرن الواحد والعشرين، ألا وهو المدرسة. ومن الأهميّة بمكان أن نذكر أنّ من المسبّبات الكامنة وراء فشل اليسار الماركسي في العالم العربي، استهانتُه بطبقة الفلّاحين وثقافتها التقليديّة. ولأولئك الراغبين في أن يعرفوا عن ابن خلدون أكثر ممّا تعرف ياسمينة، عليهم قراءة الترجمة الرائعة لسيرته الذاتيّة: «رحلة المغرب والمشرق» لعبد السلام شدّادي ـ دار سندباد ـ باريس 1980 .

الفصل 9

1 ـ أعتقد أنّ المجتمع الذي يُجبر الأطفال على الذهاب بشكل وحشيّ للانحباس في غرفهم، هو مجتمع قاسٍ، فضلاً عن كونه مجتمعاً منحرفاً، لا كما يزعم أنّه عبر هذه الطريقة يُلقّن القيم العلياً من (انضباط، وغيره...). عندما اكتشفتُ في المرّة الأولى التي ذهبت فيها لزيارة بلد أوروبي ـ كنت في العشرين من عمري حينها ـ أنّ الأطفال يُجبرون على الذهاب إلى النوم في الساعة السابعة أو الثامنة مساءً؛ شكرت السماء لأنني نشأت على الطرف المقابل من البحر المتوسط. ضمن محيطِ النوم فيه يعني الانطواء على الذات برزانة وسط حفل «الاستقبال» أو«العشاء»، في حين مايزال الآخرون يثرثرون. وذلك في رأيي إحدى أروع الملذّات الحسّيّة التي يمكن الاستمتاع بها على وجه الأرض. هذا النوع من النوم لايمكن مقارنته بأيّ نوم آخر؛ إذ يشعر المرء بالانفلات وهو مُحاطٌ ومغمورٌ بنعومة الأحاسيس الأخرى وحرارتها، والتي تتموّج من حوله بأقصى عنفوانها.

الفصل 10

1 ـ ابن سينا (980 ـ 1037)م. والخوارزمي (800 ـ 847)م. عالمان مرموقان ينتميان إلى جماعة علميّة إسلاميّة بدأت بالازدهار في عصر الأسرة العباسية بفضل الإعانات

المادّية التي قدّمتها الدولة. وكان الخليفة المأمون (813 ـ 833)م. المثال النموذجي لرجل الدولة الذي يجعل من تنمية العلوم أولويّة سياسيّة. وتذكر الكتابات العديدة لابن سينا جميع المعارف الطبيّة المعروفة في ذلك العصر. وكان الخوارزمي من أوائل الذين استخدموا الأرقام الهندية وتقنيّات الحساب في الرياضيات العربية. وقد أسهما مع غيرهما من العلماء العرب في الحفاظ على كمّ هائل من المعارف، وفي نقل المعارف المدوّنة باللغات الإغريقية والفارسية والسنسكريتيّة والسريانية إلى الغرب.

2 ـ إنّ كلاً من عمل الرجال وعمل النساء يكمّل الآخر خلال سيرورة عمليّة التصنيع؛ إذ تصمّم المرأة القفاطين الحريرية، فهي تختار القماش ونموذج القَصّة، ثمّ تقوم بطرازته، وبعدئذٍ تُوكله إلى حرفيّ يقوم بخياطته وإضافة الحبكات على أطراف القماش. والأمر نفسه ينطبق على تصنيع البوابيج الجلدية، فالرجال يقصّون القطع المختلفة، ثمّ يسلّمونها للنساء اللائي يطرزنها ويُعدنها إلى الرجال كي يخيطوها الخياطة التجميعيّة النهائية.

الفصل 11

1 ـ يعود تاريخ الأحداث الجارية في هذا الكتاب إلى عهدٍ سابقٍ على إقامة إسرائيل (أيّار 1948). وفي تلك الحقبة، كانت الرؤية التي تشير إلى رابطٍ ثقافيٍّ وتاريخيٍّ وثيق بين اليهود والمسلمين شائعةً جداً، وخاصة في المغرب حيث تحتفظ الجماعتان بذكريات مشتركة عن محاكم التفتيش الإسبانية التي أدّت إلى إخراج كلتا الجماعتين من إسبانيا عام 1492 . وقد كتب برنارد لويس فصلاً مثيراً للاهتمام عن تلك الرؤية الشائعة في ماقبل (1948)، ويفسّر خلاله أنّ الكثيرين من الأوروبيين كانوا يعتقدون في ذلك الحين أنّ اليهود والمسلمين قد تآمروا على المصالح المسيحيّة في القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين. (برنارد لويس ـ *«التحالف اليهودي الإسلامي: عودة الإسلام»* ـ منشورات غاليمار ـ 1985 ـ ص 315). وفي نهاية عقد الأربعينات، كانت الطائفة اليهودية هائلة العدد، وغدت تشكّل دعامةً من دعائم التراث التعدّدي شمال الأفريقي، بجذورها الممتدّة عميقاً في الحضارة البربريّة قبل الإسلام. وفي مدينةٍ كفاس، كانت العلاقة بين الجماعتين وثيقة جداً، إلى حدّ أنّه لم يكن أحد ليستغرب ظهور أسماء يهوديّة صرفة مثل كوهين وجاكوب وشاشون ـ على قدر ظهورها في حي الملّاح ـ داخل حرم مولاي إدريس في البيوت الأنوفة لأكثر العائلات «أرستقراطية» في «المدينة» الإسلامية. وكانت الأرستقراطيّة تُقاس تبعاً للتجذّر في الحضارة الأندلسيّة المشعّة. كان ذلك في عام 1947 . ومنذ ذلك الحين غادر من المغرب القسم الأعظم من اليهود إلى إسرائيل وفرنسا وكندا، وفي الوقت الحالي يقطن في حيّ الملّاح بأسره مسلمون، واليهود المتبقّون يُعدّون بالمئات فقط. ولهذا حاول الكثير من المثقّفين المغربيين (قسم التاريخ في كلية الآداب بالرباط تحديداً) أن يجمعوا ـ بأقصى سرعة ممكنة ـ الوثائق الثقافية المميّزة لتاريخ الطائفة اليهودية المغربية، وهي واحدة من أقدم الطوائف اليهودية في العالم، والتي تبخّرت خلال بضعة عقود. ولايمكننا فهم سبب قيام رؤساء دول أفريقيا الشمالية ـ ابتداءً من بورقيبة وانتهاءً بالحسن الثاني ـ بدورٍ هامٍّ جداً في مسيرة السلام في الشرق الأوسط، إن لم نتذكر أنّ اختفاء الطائفة اليهوديّة من مجتمعات شمال أفريقيا عموماً والمغرب خصوصاً، قد تمّ في ظروف سريعة جداً وهادئة بصورة مأساوية، وأنّه كان متداخلاً، إذ خضع لديناميّة دولية شرسة، ممّا ولّد شعوراً لا واعياً بأنّه خسارةٌ لاتُعوّض.

الفصل 13

1 ـ راجع الكتاب المسلّي جداً «*قيان بغداد في العصر العباسي*» لعبد الكريم العلاف (منشورات دار التضامن ـ بغداد 1969). ليس من أجل المعلومات المتعلّقة بالعصور القديمة ـ إذ يمكن الحصول على معلومات أفضل عنها بالاطّلاع على كتاب «*الأغاني*» ـ بل لأنّه يضمّ نُبذاً عن الحياة وصوراً لمغنّيات حقبتيّ العشرينات والثلاثينات اللائي كنّ معاصرات لأسمهان.

2 ـ كانت عائلة البرمكي تتمتّع بنفوذ كبير في ذلك العصر، وكان يحيى وزير هارون، لكنّه كان قبلئذٍ أستاذه ومرشده الناصح. توفي يحيى عام 190 للهجرة (القرن التاسع الميلادي).

3 ـ فيما راحت نساء الطبقتين العليا والوسطى ينبذن ارتداء الحجاب، أخذت الريفيات اللواتي قدمن إلى فاس بُعيد الاستقلال يلبسن الحجاب؛ ليطالبن بحقّهن كمدينيّات، وليظهرن أنهن ينتمين إلى المدينة، إثر مغادرتهن للريف حيث النسوة لايرتدين «*الحجاب*» إطلاقاً في أيّ من بلدان شمال أفريقيا. وفي الوقت الحاضر يرتبط «*الحجاب*» ـ أي العمرة الخاصّة بالنزعة الإسلامية المتطرّفة سياسيّاً ـ بقسم من الطبقة المغربية البورجوازية المدينيّة المتعلّمة. أمّا الفلاّحات ونساء الطبقة العاملة، فما يزلن يرتدين جلابيبهن التقليدية.

الفصل 14

1 ـ تتمتّع نصائر المرأة الأوليات بشهرة واسعة في العالم العربي، حيث جرت العادة على تتبّع قصص النساء الحياتيّة ومواهبهن وأعمالهن، وفق صيغة مجموعة من المختارات ضمن كتاب يُصنّف من كتب «*السير الذاتية*». وقد خلق افتتان المؤرّخين العرب بالنساء لوناً أدبيّاً حقيقيّاً يطلق عليه اسم «*النسائيات*»، وقد قام صلاح الدين المنجّد ـ وهو معجب كبير بالنساء الفريدات ـ بتجميع بضع مئاتٍ من الأعمال التي أُلِّفت عن النساء (في مقاله «*ما ألِّف عن النساء*» في «*مجلة مجمع اللغة العربية*» عام 1941 ـ المجلد 16 ـ ص 216). للأسف، إنّ نصائر المرأة العربيات اللائي يشكّلن الشخصيّات الأساسيّة لفهم تاريخ حقوق الإنسان في العالم الإسلامي المعاصر، غير معروفات كثيراً في الغرب، ويمكن أن نجد وصفاً ممتازاً لنصائر المرأة المسلمات الأساسيات في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، في المجلد الأول من كتاب «*الرائدات*» للكاتبة اللبنانية إميلي نصر الله، ولم يُترجم هذا الكتاب حتّى الآن من العربيّة إلى أيّة لغة أخرى، وسوف يكون مفيداً جداً للقراء الغربيّين إن تُرجم إلى اللغات الأجنبية.

2 ـ زينب فوّاز العميلي ـ «*الدرّ المنثور في طبقة ربّات الخضور*». وهي تذكر في مقدّمة كتابها أنّه «عملٌ مكرّس لقضيّة النساء اللواتي من جنسي».

3 ـ تتمتّع هدى شعراوي بشهرة كبيرة في العالم العربي، ويمكننا أن نجد مقتطفات من قصة حياتها الاستثنائية في بعض القطع المختارة ـ التي ترجمتها مارغو بدران ـ من مذكّراتها المعنونة: *سنوات الحريم: مذكّرات نصيرة نساء مصرية*» ـ فيراغو برس ـ لندن 1986 . وللاطلاع على أوصافٍ مرفقة بصور لرفيقات هدى شعراوي المناصرات للمرأة، يجب مراجعة كتاب: *نساء من الشرق الأوسط ـ وصفٌ بالصور*» ـ منشورات جامعة كولومبيا ـ نيويورك 1988)، ويحوي فصله الأخير «تجنيد النساء» صوراً للتظاهرة التي نظّمتها النساء عام 1919 .

4 ـ كلمة «قمر» كلمةٌ مذكّرة في اللغة العربية، وهذا ليس بمصادفةٍ؛ فالقمر كان واحداً من الآلهة الأساسية (مجمع الأرباب) في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، ومما يثير الاهتمام أنّ اسم قمر هو علم مؤنث في الوقت الحاضر، وهو كذلك على أقلّ تقدير في المغرب. [وكذلك في سوريا ولبنان ومصر(م)].

الفصل 15

1 ـ في النصّ الأول الذي بين يديّ *(بيروت المكتبة الشعبية ـ المجلّد الرابع)* تبدأ حكاية قمر الزمان في الليلة الثانية والستين بعد التسعمئة، أما في ترجمة برتون فهي تبدأ في الليلة السبعين.

2 ـ ليست الموضة بالأمر التافه، وهي تعكس الارتباط الكبير بالتراث الحرفي في المغرب، وهذا الارتباط يتناقض مع الاستهلاك الساذج للبضائع ذات الماركات الغربية الشهيرة في بلدان الخليج على سبيل المثال. وعلى رغم زوال الأحاريم منذ الخمسينات، والتحصيل العلمي لنساء الطبقتين العليا والوسطى، ودخولهن إلى مجال العمل المأجور، فإنّ رغبة النساء في أن يبقين ملمّاتٍ بالموضة ماتزال حيّة. وآلاف النسوة المغربيّات اللائي يمتهنّ أعمالاً حرّة في الوقت الحاضر (في المغرب تشكل النساء ثلث عدد الأطباء والمحامين وأساتذة الجامعات) لم يتخلّين عن التقليد الذي تقوم بموجبه النسوة بتصميم أزيائهن ومجوهراتهن بأنفسهن؛ فيشاركن بهذا في إحياء الحرف التقليدية. وإن كنّ يفضّلن ارتداء «التنورة والبلوزة» خلال النهار للذهاب إلى العمل؛ فإنّهن خلال الأعياد والسهرات لايستغنين عن ارتداء الجلابيب والقفاطين القصيرة أو المعدّلة وفق تنويعاتٍ كثيرةٍ؛ فقد قُصّرت الجلابيب والقفاطين التقليدية، وصارت تُصنّع بأنواع الأقمشة وألوانها كافّةً، وفق فنٍّ يفيض بالإبداع والابتكار. وكثيراً ما نصادف طبيبات أو محاميات أو قاضيات في أزقّة المدينة المظلمة، جالسات على المقاعد الخفيضة الخاصّة بالحرفيّين، وهن منهمكات في مناقشة اللون والقصّة والطرازة وكلّ ما يتعلّق بثيابهن، تماماً كما كانت تفعل جداتهن في مطلع القرن.

3 ـ تعود الشواهد المأخوذة من حكاية قمر الزمان في النسخة الأصلية من هذا الكتاب المنشور باللغة الإنكليزية إلى ترجمة برتون (المجلد الثالث ـ ص 278)؛ وبما أنّ ترجمة *«ألف ليلة وليلة»* إلى اللغة الفرنسية وخاصة ترجمة ماردروس لاتتوافق البتّة مع نصّ برتون، وأنّ كلا النصين يتباينان عن النصّ العربي الأصلي الذي أستخدمه وهو نصّ محسن مهدي (انظر الهامش الأول الفصل الثاني)؛ وذلك أمر طبيعي؛ لأنّ تدوين حكايات *«ألف ليلة وليلة»* التي كانت تُتناقل شفهياً تمّ في فترة متأخّرة جداً في جميع اللغات، وذلك بالاستناد إلى مخطوطاتٍ عربية وفارسية عدّة. لذلك سنكتفي بترجمة برتون المترجَمة إلى الفرنسية من قبل المترجِمة.

4 ـ برتون ـ المجلد الثالث ـ ص 278 .

5 ـ المرجع نفسه ـ ص 283 .

6 ـ المرجع نفسه ـ ص 289 .

7 ـ المرجع نفسه.

الفصل 16

1 ـ في المزارات الواقعة على شاطئ البحر (والله يعلم أنها كثيرة العدد) «مغاور» تقصدها النسوة لإتمام طقوس الخصوبة (لإنجاب طفل أو لإيجاد زوج)، ويطلق عليها

اسم «*لالا عائشة البحرية*»، مثل مغارة مولاي بوسلحام على بعد بضعة كيلومترات من القنيطرة. وبالطبع لن تجدوا أيّ لافتة تشير إلى هذه المغاور، لكن إذا سألتم عنها في الأماكن المحيطة بالمزارات ـ كما أفعل بانتظام حين أقوم ببحث أو حين أقضي إجازة ـ فسوف تلاقون دوماً مغاور باسم لالا عائشة البحرية.

2 ـ «*الخلي*» نوع من اللحم المقدّد المغربي. يُحضّر من لحم العجل المجفّف تحت أشعّة الشمس خلال شهريّ تموز وآب. يُطهى بزيت الزيتون وبالشّمنة، ويُطيّب بالكزبرة المجفّفة والكمّون. و«*الخلي*» كالزيتون، إن جُفّف وعولج وفق الأصول، يظل محفوظاً طيلة عام كامل، من غير حاجةٍ إلى أيّة مادّةٍ كيميائية اصطناعية حافظة.

3 ـ كان لعب «*الشطرنج*» من التسالي الشائعة في المزرعة بقدر ما هو لعب الورق، وكان الرجال والنساء يلعبون الشطرنج بصورة منفصلة في الأغلب، لكنهم كانوا يتشاورون فيما بينهم عندما تصادفهم حالات شائكة أو معقدة.

الفصل 17

1 ـ تشير مينا على الأغلب إلى التعميم الصادر عن الإدارة الفرنسية عام 1922 ، والذي لم يكتفِ باعتبار تجارة الرقّ لاشرعيّة فحسب (وذلك هو حال المغرب منذ عشرات السنين)، بل أعطى للضحايا ـ أي للعبيد أنفسهم ـ إمكانيّة التحرّر وملاحقة مختطفيهم وبائعيهم قضائيّاً. وبعد تطبيق هذا التعميم بفترة وجيزة زالت العبودية تماماً من المغرب، وهذا التطور متميّز جدّاً، وخصوصاً أنّه لعدّة عقود بعد إلغاء العبودية على المستوى الدولي، ظلّ الكثيرون من رؤساء الدول العربية وكبار الموظفين فيها يعارضون هذا الإلغاء ويصرّحون بأنّ: «إلغاء العبودية يناقض الدين الإسلامي تماماً، ولذلك لن تكون هذه الخطوة مستحبّة شعبيّاً». كما يشرح لنا الأستاذان محمد النّاجي وخالد بن صغير في عملهما الرائع: «*بريطانيا العظمى والعبودية في المغرب خلال القرن التاسع عشر*» (هسبيري تامودا ـ المجلد التاسع والعشرون ـ 1991 ـ الصفحات من 249 حتّى 281). «العبودية جزءٌ من تقاليدينا» بهذا كانت الطبقات العربية الحاكمة تبرّر موقفها إزاء الرأي العام الدولي الذي يطالب بإلغاء العبودية، وهذا تماماً مثلما كانت تؤكّد تلك الطبقات نفسها أنّ «حقوق الإنسان والديموقراطية» تتنافى مع قيمنا المقدّسة. وإن كان كلا الجنسين قد ابتليا ببلاء العبودية، فإنّ النساء كنّ الضحايا التي تعرضت لجروح يصعب التئامها، كما يبيّن لنا بصورة ممتازة الكتاب الأخير لمحمد النّاجي: «*جنديّات وخادمات ومحظيّات: العبوديّة في المغرب خلال القرن التاسع عشر*» (منشورات الضيف ـ الدار البيضاء 1994). وحالة العبودية تبرهن أنه حين يكون القانون في صف النساء، وتتوافر لديهم إمكانية ملاحقة من يعتدي عليهنّ، عندئذٍ فقط يمكن للتغييرات أن تحدث في المجتمعات التي يشكّل العنف فيها جزءاً من المشهد التقليدي.

في الواقع، إنّ كبار الموظفين في الدول الإسلاميّة من جهة، والنخّاسين من جهة أخرى، هم الذين عارضوا إلغاء العبوديّة، ناعتين هذا التعميم بأنه تدخّل «مهين» تقوم به قوى الاستعمار المتعالية، وبأنّه انتهاك لتقاليدينا المقدّسة. لقد كان موقف الإسلام تجاه العبودية واضحاً من البداية، إذ نظر إليها على أنّها ممارسة لعرب «*الجاهلية*» الجاهلين والعنيفين، ويجب أن تبذل الجهود القصوى للحدّ منها، والأكثر إدهاشاً في الإسلام أنّه تبنّى في القرن السابع سياسةً جريئةً تناهض العبوديّة كان بإمكانها أن تجعل من القادة الإسلاميّين روّاداً في مجال القضاء على العبوديّة في العالم. لقد شجّع النبيّ محمّد ـ قولاً وفعلاً ـ المؤمنين على تحرير عبيدهم، وبدأ بإعطاء المثل عن نفسه،

وبهدف توضيح القطيعة بين الإسلام وعرب «*الجاهلية*» ـ الأشراس في تشبثهم بارستقراطيتهم ـ فيما يتعلق بمسالة العبودية؛ أوكل لعبده الشهير بلال وابنه أسامة مناصب قيادية أساسيّة في إدارة المدينة والجيش.

وإن كان الإسلام معارضاً للعبودية عموماً؛ فإنّ موقفه كان أكثر جذريّة «*radicale*» فيما يتعلّق باستعباد النساء، لأنّ الاستغلال الجنسي في هذه الحالة يجعلهن ذليلات ذلاً لا يُطاق في دين تُعتبر فيه الكرامة والمساواة بمنزلة الرسالة الأساسية له، كما تشهد الآيات المتعلّقة باميمة ومُسيكة اللتين كانتا أَمَتَيْن للرجل المريع عبد الله بن أُبيّ زعيم «المنافقين» المعارضين للنبي، والذي كان يكسب قوته بإجبارهما على ممارسة البغاء. ولاتُشير الآية 33 من السورة الرابعة والعشرين ـ وهي سورة «*النور*» التي تتعرض لمسالة «*الزنا*» ـ إلى وجود بغاء مُنظّم في المدينة وحسب، بل إلى ارتباطه بالعبوديّة أيضاً: «... ولاتُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ على البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَوةِ الدُّنْيَا...» [الشاهد المذكور باللغة الفرنسية في الأصل من ترجمة ماسون ـ ص463 ـ (م)]. ويقدم لنا ابن حجر العسقلاني ـ صاحب كتاب «*الإصابة في تمييز الصحابة*» وهو مجموعة السير الذاتية «*للصحابة*» ـ تفاصيل عن حياة كلّ من أميمة ومُسيكة. اللتين جاءتا تشكوان أمرهما إلى رسول الله ـ كما يذكر لنا ابن حجر ـ ورداً على شكواهما أنزل الله الآية التالية: «... ولاتُكْرِهوا فَتَيَاتِكُمْ على البِغَاءِ...» («*الإصابة في تمييز الصحابة*» ـ المجلد السابع ص 517 لسيرة أميمة تحت رقم 10869 ـ ولسيرة مُسيكة المجلد الثامن ص 119 السيرة رقم 11756 وهي مصنّفة تحت اسمها الحقيقي: مُعادة). والمسالة التي يجب أن يعمل باحثونا ومؤرّخونا على توضيحها هي كيف ظلّ القادة الإسلاميّون متخلّفين عن ركب النضال من أجل حقوق الفرد في القرنين التاسع عشر والعشرين، رغم كلّ هذا الإرث التاريخي الذي يرفع شان المساواة منذ القرن السابع، ففي يومنا الحاضر يقوم الكثير من المسؤولين بالممارسة نفسها إزاء حقوق المرأة، ومقاومتهم لهذه الحقوق في منزلة التخلّي عن أجمل قيم التراث النبويّ، والتي لاتتنافى البتّة مع مبادئ الديموقراطية وحقوق الإنسان.

2 ـ كان النخّاسون المحليّون يسلّمون ضحاياهم إلى التجار العرب الذين يتابعون رحلة السفر. متّبعين مسارات محدّدة نحو الشمال. (راجع بطاقات إ. و. بوفيل في كتاب: «*تجارة المغاربة الذهبيّة*» ـ منشورات جامعة أوكسفورد 1970). وخاصّة في الفصل 25 «القافلة الأخيرة» من الصفحة 236 إلى الصفحة 239 .

3 ـ إحدى أكثر الحكايات شهرة قصّة اختطاف الأمير نزهة الزمان، وهي ترد في حكاية الملك عمر النعمان: «حكاية الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان» في «*ألف ليلة وليلة*» ـ بيروت ـ المكتبة الشعبية ـ التاريخ غير محدّد ـ المجلّد الأول ـ ص 203 . وتبدأ قصة اختطاف نزهة في الصفحة 141 ، وهي تشبه كثيراً قصّة مينا. أمّا في ترجمة برتون فهي تبدأ في المجلّد الثاني.

[في نسخة دار صادر ـ طبعة بولاق ـ تبدأ حكاية الملك عمر النعمان في الليلة 44 ـ الجزء الأول ـ ص139 ـ أما قصّة اختطاف نزهة الزمان فتبدأ في الليلة 55 ـ الجزء الأول ـ ص 166 ـ (م)].

الفصل 18

1 ـ «كتب *الحكمة*» هذه، هي مؤلّفات سحريّة مثل كتاب «*الرحمة في الطب والحكمة*» المنسوب إلى الإمام جلال الدين السُّيُوطي المتوفّى عام 911 للهجرة وفقاً لإشارة الناشر

(بيروت ـ المكتبة الثقافية). حيث نجد، وبعد بضعة مواضيع جدّيّة ـ مثل «وجع الرأس» و«وجع الأسنان» ـ فصلاً «في العشق والمحبة»، وفصلاً مخصّصاً لـ «تقوية الجماع»، ثم نصل حتماً إلى فصل «في ردّ الثّيّب بكراً» (أي إعادة العذريّة لامرأة مارست الجنس) إذ لابد من إصلاح الأضرار بعد ذلك. وكذلك كتاب *«تسهيل المنافع في الطب والحكمة»* للإمام أبي بكر الأزرق (المكتبة الشعبية ـ بيروت) حيث يمكننا أن نقرأ فصلاً عن «العشق» في الصفحة 177 ... الخ. وسوف نتطرّق في الفصل التالي لكتابي المفضّل في الوصفات السحرية *«الكتاب الأوفق»*، ويُنسب إلى الإمام الغزالي (المكتبة الشعبية ـ بيروت).

لقد ازدهر هذا الصنف الأدبي منذ العصر الوسيط وحتى القرن التاسع عشر. وفي نطاق الطبّ العربي نجد في كتب من هذا النوع فصولاً في العلوم الطبّيّة (وغالباً ما تكون في بداية الكتاب)، ثمّ تليها وصفات سحريّة مسلّية جدّاً، ووصفات للأقنعة التجميلة والمعالجة التجميليّة للجلد والشعر، وطرائق لمنع الحمل، ونجد بصورة خاصّة كمّاً هائلاً من العلاجات بمواد مستخلصة لتقوية الشهوة الجنسيّة، وعلاجات للعجز الجنسي، تستحقّ الدراسة والاختبار في المختبرات الحديثة. هذه الكتب شائعة جدّاً في هذه الأيّام؛ نظراً لأسعارها الزهيدة ولتوافرها الدائم في الشوارع وعند مداخل الجوامع. وقد شكّلت هذه الكتب التي يستخفّ بها السياسيّون والباحثون أساساً للثقافة الجنسيّة لملايين الشباب في الأوساط المحرومة، وذلك حتى حلول عهد التلفاز والقصص الرمزية.

2 ـ من المثير للاهتمام أن نشير إلى أنّ أفضل ما علّمه الأتراك ـ أسياد الأمبراطورية العثمانية التي سيطرت على ثلاث قارّات طيلة قرون ـ للعرب ليس كيف يزيدون من سلطة الزعيم؛ بل كيف يضعفونها، وذلك عبر الأفكار العلمانيّة للثورة الديموقراطية؛ فبرؤيته الحداثيّة الجريئة لعالَم إسلاميّ لايتطابق مع ماضٍ أسطوريّ، بل مع مستقبل سوف يختاره ويبنيه بعزم وثبات، سحر كمال أتاتورك الجماهير الشعبية في «المدينة»، وخاصّة النساء. فهو على رغم كونه عسكريّاً، قد أدرك العلاقة العضوية بين الحريم والاستبداد، وكان يمقت كلا الاثنين، وينادي بأنّ قوّة الأمم الإسلامية تكمن في إلغاء كلّ منهما. وكانت الانقلابات السياسية والثقافية (التي شهدتها تركيا مع إنشاء الجمهورية عام 1923 حيث رأس كمال أتاتورك أوّل حكومة لها) تتمثّل بالغاء العديد من الأنظمة العامّة التقليدية كالأحاريم وتعدّد الزوجات وارتداء الرجال للطربوش، وضمن نطاق أضيق ارتداء النساء للحجاب (إذ أضحى اختياريّاً). وتلاحقت الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية الجسورة ومُنحت النساء حقّ الانتخاب عام 1934 . توفّي كمال أتاتورك على رأس عمله عام 1938 . وقد كان بقراراته الثورية مثار أحاديث ونقاشات عدّة في البيوت العربية، وخاصة في مصر وتونس. وبفضل المذياع وحركات الوطنيّين اطّلع المغرب على أخباره، وغرقت النساء في أحلامهن.

الفصل 19

1 ـ مع أن *«الكتاب الأوفق»* يُنسب إلى الإمام الغزالي، لكن ممّا لايمكن تصوّره أن يكون الغزالي أحد أكبر علماء العصر الوسيط في الإسلام قد ألّف كتاباً كهذا ـ كما ذكرت في الفصل السابق ـ يضمّ وصفات طريفة تجمع بين السحر البدائي والمفاهيم المبسّطة لعلم الفلك. وهو كفيل على الأرجح بفتن الأطفال الذين يبلغون الثامنة من العمر، لكنه لايمكن بأيّ حال من الأحوال أن يخدع عالِماً؛ فقد كان نَسْب المؤلفات المشكوك بها إلى الفلاسفة أو الرياضيّين أو القضاة أو غيرهم من الأئمة اللامعين والمرموقين، عادة

غريبةً غير أنها شائعةٌ في تاريخ الأدب العربي وعبد الفتاح كيليطو في كتابه: (*«الكاتب وبدلائه: بحث في الثقافة الكلاسيكية»* ـ منشورات سوي ـ 1985) يقدّم سببين لهذه الممارسة؛ فالكتّاب الحقيقيون كانوا يتجنّبون النقد والرقابة وغضب الخليفة. هذا هو السبب الأول، أمّا الثاني فيكمن في أنّ هذه الممارسة لاتساعد على زيادة مبيعات الكتب التي كانت تُباع عند مداخل المساجد طوال قرون.

2 ـ المسعودي *«مروج الذهب»* ـ بيروت ـ دار المعرفة 1982 ـ المجلد الثاني ص 212 . (راجع الترجمة الفرنسية للكتاب لباربيه دو مينار، بافيه دو كورتيل ـ باريس منشورات CNRS 1995 ـ المجلد الثاني ص 505).

3 ـ المرجع نفسه.

4 ـ *«الكتاب الأوفق»* ـ ص 18 .

5 ـ *«الفقيه»* هو رجل دين متنفّذ إسلاميّ، وعالم متخصّص *«بالفقه»*. ومعرفته بعلوم الدين تضمن سلطته، ويستشيره الوزراء ورؤوساء الدول باستمرار. وفي الوقت الحاضر كلمة *«فقيه»* تعني عموماً الأستاذ الذي يدرّس ـ بصورة مستقلّة عن اختصاصه ـ الصفوف الابتدائية أو الثانوية أو الجامعية. إلّا أنّ النساء المُدرّسات الجامعيّات لايمكنهن حمل هذا اللقب، بل يطلق عليهن لقب *«أستاذة»* العصريّ، ممّا يحول دون أيّ تمدّد باتّجاه ميدان العلوم المقدّسة المقصور للرجال وحسب.

الفصل 20

1 ـ *«ألف ليلة وليلة»* الترجمة إلى الفرنسية عن نسخة برتون الإنكليزية ـ المجلد الثالث ص 116 .

2 ـ المرجع نفسه.

3 ـ المرجع نفسه.

الفصل 21

1 ـ كان ذلك بالطبع قبل بناء مصانع البلاستيك في الدار البيضاء. أمّا في أيّامنا هذه، فإنّ «مدينة» فاس المسكينة ترزح تحت السحب المتحركة من الأدخنة الناتجة عن احتراق البلاستيك. وحتّى إن ذهبتم لابتياع *«المسكة البلدية»* أو *«العود»* (خشب الصندل)؛ فسوف يقدّمونها لكم مُغلّفة بالأكياس البلاستيكية التي لامفرّ منها.

الفصل 22

1 ـ في عرف الزواج الإسلامي تحتفظ المرأة بعد زواجها باسم شهرتها.

الفهرس







«وُلدتُ سنةَ 1940 في أحد أحاريم مدينة فاس»... على هذا النحو تستهلّ فاطمة المرنيسي روايتها، باستحضار طفولةٍ قضتها في إحدى أكثر المدائن المغربيّة عراقةً.

عبر النظرة الفضوليّة والمتمرّدة لبنتٍ صغيرةٍ، تدعونا الكاتبة إلى الغوص والتغلغل في عالم النساء المغلَق، وتستعرض نماذجَ مختلفةً منهنّ: بدءاً من أكثرهنّ تشدّداً وحفاظاً على التقاليد، وانتهاءً بنصائر المرأة الداعيات إلى تحريرها، وتتبدّى بين ذينك النموذجين ـ وعبر مشهديّةٍ استثنائيّةٍ ـ الأَمَوَاتُ المُعْتَقَاتُ، أو أوَلاء اللواتي كُنّ يناضلن الفرنسيّين والإسبان، والحكواتيّات اللائي ينسجن قصصهنّ اقتباساً عن عوالم «ألف ليلة وليلة»، والعاشقاتُ الوالهاتُ للمطربين المصريّين والمطربات... على سطوح البيوت الفاسيّة وشرفاتها، كانت أولاء النسوة يتماهين في أحلامهنّ صوب عوالمَ تخلو من الحواجز والحدود.. عوالمَ تنأى عن الأسوار والجدران.. عوالمَ يغدو مكانها فضاءً، ويغدو فضاؤها مَدَىً.. عوالمَ، مكانها اللامكان، وزمانها زمانٌ سرمديّ.

إنّها روايةٌ ساحرةٌ تستعير شكل الحكاية، حيث تمازجيّة الواقع والخيال تخلق فانتازيا فريدةً تحمل في طواياها الملهاة والمأساة معاً؛ وتنسج في الآن ذاته حياةً يوميّةً لا تعدُو حدود الحريم، بل تنحصر داخلها.

كتاب «أحلام النساء الحريم» تجربةٌ أخرى تخوضها ـ بكلّ جسارةٍ ـ الجامعيّة المغربيّة فاطمة المرنيسي التي غدت من الأعلام اللامعة في الثقافة العربيّة «التنويريّة» المعاصرة، والتي تسعى بجهدها الدؤوب أن تنتقل بالمحليّة نحو العالميّة، وهذا الكتاب كغيره من مؤلَّفاتها يؤكّد سعيها الحثيث، حيث صدر في خمس عشرة دولةً، ولاقى نجاحاً كبيراً، خصوصاً في إسبانيا وإيطاليا. إنّه كتابٌ ممتعٌ ويستحقّ الوقوف عنده، فعساه يحقّق غايته، ويلاقي القبول عند قارئه.